د. أيمن العتوم

ذائِقَةُ المَوْتِ

رواية

الإهداء:

إلى زهراء . . .

مدى ما في القلب من أفق . . .

كلّما ضوَّأ الصّبح تدفّق في شِعاب الرّوح بحرًا

من الهوى .

وإلى زهراء . . .

مدى ما في الأعماق من وفاء . . .

كلّما سكنَ اللّيل تغلغلَ في جوارحِها السّاجِية

نهرًا من الرّضى .

أيمن . . .

عَدَسَة:

أيّها العاشقون . . .
إنّها قصّتي المذبوحة قبل رَقصة الموتِ الأخيرة . . .
كتبْتُها في شهور العِتق من رحلة العِشق . . .
تلك الرّحلة الّتي بدأتْ قبلَ قدومي إلى هذه الحياة . . .
واستمرّتْ حتى في اليوم الّذي صلّى عليّ فيه النّورانيّ الأعظم!!

واثق . . .

(٠)
فِي البَدْءِ كانَتِ الرُّؤيَا

على السّور الخارجي مشى بخفّة بهلوان ، كان الظّلام دامِسًا ، يقطعه خيطٌ رفيع مِمّا تبقّى مِن نور تسلّلَ عبر الأشجار العالية . كان القمر يرسم أيّامه الأخيرة على صفحةٍ كُحليّة . ظلّ يمشي على ذلك السّور الّذي لم يكن ليتّسع لأكثر من قدمٍ واحدة ينقلها بالتّناوب حين يحتاج إلى خطوةٍ أخرى . . . لم يدرِ إذا كانَ قد تدرّب على هذه المِشية من قبل أم لا . ولم يستطع أن يجيب نفسه عن سؤال مُحيّر : كيف استطاع أن يمشي على هذا الجِدار الرّفيع ، في قلب الظّلام ، مُغمَض العينين ، وحافي القدمين . . .؟! كلّ ما يعرفه أنّ خطواته ظلّت تُبصِر بدلاً منه ، وظلّ هو يُتابع السّير . . .

قرّر أن يفتح عينيه فجأة ، فعل ذلك دون أن يُفكّر ، حينَ انفتح المشهد أمامه ، فغر فاه وابتلع صرخةً كادت تمزّق سكون اللّيل ، لولا أنّه عاجلها بوضع يده على فمه ، وتدارَكَ جسده قبل أن يسقط من السّور على الصّخور والأشواك . . . توازن مرّة أخرى وتابع السّير . . . لم يرَ شيئًا واحِدًا يتحرّك ، حتّى القِطط والكلاب أوتْ إلى مناماتها ، واستسلمت لبعض الدّفء النّاجم عن تكوّرها حول نفسها . . . أمّا هو فأحسّ بطائر الطّمأنينة يدخل إلى قلبه على غير عادته ، ويبني عشّه هناك . . . ظلّ يمشي ، صارت خطواته أكثر تصميمًا ، وثقة . . . زالت

عنه بعض غلالات الرّعب الّتي سكنتْه حين فتح عينيه أوّل مرّة ، ثمّ ها هو يُحاول أن يحدّق في الفراغ ليلتقط بعض المَخيلات . . .

استمع إلى دقّات قلبه الّتي استعادت انتظامها ، وراح يتمتم بكلامٍ غير مفهوم . . . انبسطت أمامه السّاحة الممتدّة داخل السّور ، وهو يتأمّلهًا من مكانه العالي ، كانت القبور تتناثر على غير انتظام ، بدا بعضُها أكبر من الآخر ، تربّعت بعض الشّواهد عند رؤوس عدد منها ، وخلا منها عددٌ آخر . . . حدّق النّظر في الزّاوية البعيدة ، خُيّل إليه أنّ بعض الأسوار الحديديّة الصّدئة تُحيط بقبرٍ قد ارتفع عن وجه الأرض أكثر من مترين . . . دفعه الفضول أن يُسرع ليقترب منه أكثر ، فيدرك سِرّ تميّزه ، لم يكد يخطو بضع خطوات حتّى رأى قِطًّا أسود عرفه من التماع عينيه ، راح هذا القِطّ يتضخّم بشكلٍ مُتسارع حتّى صار بحجم القبر ، واتّقدت عيناه وهما تقذفان شرر الرّعب ، تأرجح قلبه بين ضلوعه كبندول ، ارتجفت قدماه ، أمّا جسده فراح يرتعش بشكلٍ هستيريّ ، زاد من رعبه افترار القطّ المُخيف عن شِدقين برزت داخلهما أنيابٌ صفراء تبرق على ما تبقّى من ضوء القمر الخجول ، ترنّح أمام هول المنظر ، ومال يمينًا وشِمالا وكاد يسقط في الهاوية ، أمسك ببعض الكلمات يردّدها في سِرّه حتى استعاد شيئًا من هدوئه ، ساعده على ذلك اختفاء القطّ خلف الأشجار القريبة من ذلك القبر ، أو هكذا خُيّل إليه . . . .

أينَ يمضي؟! طرق رأسَه بهذا السّؤال غير أنّ حروفه ذابت في الفراغ الواجم ، وغرقت في بحر السّواد . ما الّذي أخرجه من البيت في هذه السّاعة الجنونيّة؟! ما الّذي يفعله بالضّبط؟! لِمَ هو هنا؟! هل ما يراه ، يراه حقيقة أم أنّه جزءٌ من خيالاته الغادرة؟! تحرّكت قدماه إلى

الأمام تنقلان الخطو غير عابئتين بما دار في باله من أسئلة قبل قليل ، أدركَ أنّه مدفوعٌ بقوّة خفيّة إلى الحركة ، حاول أن يجمّد خطواته فأخفقَ . . . استسلم لأقداره ، وراح يمشي على ما تبقّى من السّور ، ترك الزّاوية الجنوبيّة ، وتابع سيره على حرف الجهة الشرقيّة ، صارت المقبرة بأكملها على يساره ، كانت ترتفع صعودًا حتّى تبلغ أعلى ارتفاع لها في الجهة الغربيّة ، وبدت القبور للحظة كأنّها مدرّج رومانيّ تتصاعد مقاعده ، وبدت الشّواهد كأنّها جمهورٌ ينتظر مسرحيّة من نوع ما . . . كان قد وصل منتصف الجهة الشّرقيّة ، حين تأكّد أنّه الآن في قلب المسرح ، وأنّه الممثّل الوحيد الّذي تجمّعت أمامه كلّ هذه الجماهير لتسمع وترى ما سيقوم به الآن . . . نهش وحشُ الخوف قلبه لمّا تملّكه هذا الإحساس ، أجاء لِيُلقي دورًا أمام مسرح الموتى ، وماذا عساه يقول وهو فقيرُ الكلمات ، شحيح المعرفة ، أمّا هم ؛ هؤلاء السّاكنون هنا ، فعندهم الخبر اليقين . . . ماذا لو عكس الأدوار ، فصار هو الجمهور ، وصار الموتى هم المُمثّلين . . . ماذا سيقولون حينها؟! لم يكدْ يفكّر بهذا الخاطر ، حتّى هبّ الأموات من قبورهم دفعةً واحدةً يرفعون أيديهم ، ويصيحون . . . طوّح جسده في الهواء مثل مئذنةٍ تتأرجح ، في اللّحظة الأخيرة وهو ينحني برأسه راكِعًا استطاع أن يُوازِن نفسه ويعتدل . . . أحسّ بدفءٍ في قدميه ، نظر إليهما ، كانت الدّماء تفور منهما . . . ظلّ ينزف وهو واقفٌ دون أيّ حراك ، أمّا أصوات الموتى فظلّت تتداخل فيما بينها ، لا يكاد يفقه مِمّا يقولون شيئًا . . . في اللّحظة الفارقة بين حياتين ، وعندما استنفد كلّ مخزونه من الدّماء ، وجد أنّ دماءه الّتي لمعتْ على ضوء القمر قد خطّتْ على الجِدار : إذا لم تستطع أن تموت كما تريد فعليك أن ترمي نفسك في حفرة العدم . . . أدرك أنّه سوف

يقع داخل المقبرة لا خارجها كما كان يتمنّى . . . دَفَعَتْهُ يدٌ خفيّةٌ من خلفه ، واستسلم لها ، سقط إلى الدّاخل . . . وعلتْ أيادي الموتى وهُتافاتهم مرحّبة . . .

(١)
(وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ)

في المشفى ، ظلّتْ عيناها مفتوحتَين دون أن تتحرّكا ، أو يَطرِف رمشهما . عشرات الأسلاك والمُوصِلات غزتْ أنحاء جسدها السّاكن تحت جِهازٍ يُصدِر زعيقًا بين فترةٍ وأخرى ، ويرسم خُطوطًا غير مفهومة . . . دخلتُ الغرفة خِلسةً ، هالَني تجمّع الأطبّاء حول الجسد المُسجّى ، سمعتُهم يتهامسون والكمّامات تُغطّي نصف وجوههم . . . والعيون تتلاقى في منتصف الطّريق . . . والرّؤوس تهتزّ اهتزازاتٍ خفيفة . . . والأيادي تتناقل بعض الأسلاك . . .

لم أتمالكْ نفسي ، سقط رأسي على صدري ، جررتُ خطواتي إلى الخارج ، وجلستُ شارِدًا على أقرب المقاعد . . .

ليس على الحقيقة أن تبين عن نفسها ، وحدها تقف في وجوه المنكرين دون الحاجة لأيّ دليل . شخوص الحقيقة أبلغ من كلّ الأقوال . والحُزنُ شجرةٌ سُقِيت بماء الوحدة وترعرعتْ بعيدًا عن الشّمس .

نادَتْني (حياة) : واثق . . . كنتُ مشغولاً حتّى عن نفسي ، اقتربتْ منّي وهزّت كتفيّ ، نظرتُ إليها بلامبالاة ، أخذَتْني من يدي ، وانتحت بي في غرفة جانبيّة :

– ماذا يقولون؟

- ليس لهم لسان .
- كيفَ هي جدّتنا؟!
- بين يدي الله!!
- وما أنتَ صانع؟!
- . . . . .!!
- ستبقى هنا؟!
- إلى أن أرى عينيها تتحدّثان .
- وإنْ بقيتْ على حالها؟!
- بقيتُ على حالي .

أصابني الإرهاق ، مددتُ جسدي على المقعد مُحاولاً أن أتخفّف من أعباء التّعب ، خِلْتُني غفوتُ قليلاً ، ورحتُ أحلم ، رأيتُها تقف قريبًا من السّلّم المؤدّي إلى غرفتها ، وأنا أقف إلى جانبها ، مالت بجذعها عليّ ، وابتسمتْ في وجهي ، بدا وجهها مليئًا بالنّقط الحمراء ، وسرى دمٌ زهريّ في عروق وجهها ، ورأيت وجنتَيها تنتفخان تورّدًا ، وهي تلبس ثوبها الأسود الّذي دأبتْ على ارتدائه طَوال حياتها . . .

لا أدري كم من الوقت مرّ ، لا بدّ أنّه قصيرٌ جِداً ، إذ إنّي صحوتُ فجأةً ، ورأيتُ المشهد تمامًا كعهدي به قبل غفوتي ، مجموعة من الأقارب تروح وتجيء ، آخرون ينتبذون زاويةً يتحدّثون ، بعضهم ابتعد قليلاً وراح ينفث دخان سجائره في غفلةٍ عن أعين الرّقباء ، والنّساء جلسْنَ في صفٍّ طويل متراصّات ، وقد عقدْنَ أيديهنّ أمامهنّ ، واكتفينَ بالصّمت الكئيب على غير عادتهنّ حينَ يجتمعنَ!!

اعتدلتُ في جلستي ، وفركتُ عينيّ ، وأصلحتُ من هِندامي قليلاً ، وناديتُ :

- حياة !!

- نعم ، واثق . (اقــتــربتْ منّي وجلستْ إلى جِــواري) . رحتُ أحدّثها كما لو كنتُ جائعًا إلى الحديث فحسب :

- امرأة عمّي كانت تُحبّني!

- . . . . . .!!

- ظللتُ طوال أيّام دِراستي الأولى أتردّد على بيتها .

- . . . . .!!

- غابتْ عنّي فجأة!!

- كيفَ؟!

- اختطفها الموت ؛ الموتُ لم يتركْ لي صديقًا أو حبيبًا .

- متى ماتت؟!

- عندما نسيتُ تمامًا أنّ الموت لا ينسى أحدًا!!

- ماذا تعني؟!!

- حينَ بدأتُ أشعر أنّها أمّي ، أراد الموت أن يعلّمني معنى الفَقْد . أراد أن يوقِظني من سُباتي .

- لماذا تقول هذا الكلام الآن؟!

- أقوله فحسب .

- . . . .

- كـانت ذات قلب طيّب . تخيّلي أنّـهـا رافـقـتْ طفـولتي ، وظلّت إلى جانب أمّي ترعى طفولةً لم أكبرْ منها بعد .

- وكيفَ ماتت؟!

- ماتت!! ألا تكفي كلمة الموت لتفسّر كيف ماتت . ما الفرق بين طريقةٍ للموت وأخرى . . . الموت لا يُفاجِئنا باختـرام أحبّتنا إلاّ حينَ

تكون الطّريق أوحشَ مـــا تكون . . . والغـــاية أبعــدَ مـــا تكون . . . واحسرتاه!!

- . . . . .!!

- لم أستطع أن أنزلَ في قبرها!!

- ألم تحضر دفنها؟!

- لا . . .

- لا . . .؟!

- كنتُ في الغربة!!

- وهل تقف الغربة بينك وبينَ من تحبّ؟!

- بلى . . . تقفُ حين تكون قسريّة ؛ الغربة شكلٌ آخر من أشكال الموت . . . كم تمنّيتُ أن أقبّل رأسَها قبل الرّحيل . . . آآآآه . . .

قـمتُ لأداري انسكاب دمعـتين حـارّتين طَفـرتا من عـينيّ على خَـدَّين تورّمـا حُـزنًا . وتجوّلت في الممـرّ قليـلاً لأطرد اسـتـحواذ أمـواج الذّكريات عليّ . . . في غرفةِ جدّتي بدا الباب الّذي يُغلَق عليها كأنّه جِدارٌ من الفـولاذ يحجز خلفه سـدفات من الظّلام لولا طاقـة طوليّـة سـمحتْ ببعض النّور أن ينفذ . . . اقتربْتُ من الغرفة ، وسألتُ طبيبًا مرابِطًا أمام الباب :

- كيفَ حالُها؟!

- إنّها لا تستجيبُ لشيء .

- أيّهما أقرب إلى حبل الوريد منها؟!

- . . . .!!

- الموت أم الحياة؟!

- . . . . .!!

– أريدُ أن أدخل .

– منع رئيس الأطبّاء من أن يدخل عليها أحد .

– وماذا تُسمّي الكمّ الهائل من الأطبّاء في غرفتها؟! أليسوا أحدًا أيضًا؟!

– أرجوك!!

– أنا الّذي أرجوك . . . دعْني أقفْ إلى جانِبها . أنا متأكّدٌ أنّها إذا شمّتْ رائحتي فستصحو . عقود الموت الغابرة لم تمنعها من أن تُحاول الحياةَ الهاربة!!

– لا بُدّ أنّك تهذي . اذهب واسترِحْ على أحد المقاعد . . .

– أرجوك أنا ابنها الوحيد ؛ وطَوال سنوات الغياب في الآبار المُظلِمة لم ترني . . لم تكنْ من وسيلةٍ واحدة لذلك!!!

– أففف . . . يبدو أنّك عنيد . . . ادخلْ ولكنْ بهدوء . ولا تُشعِرْ أحدًا!!

– شكرًا . . .

أزحتُ الباب بهدوء ، ودخلتُ الغرفة على أطراف أصابعي . . . في الفراغ الواقع بين طبيبَين يُحاوِلان إنعاشَها وجدتُ مكانًا لأسترق النّظر إلى وجهها . . . كان وجهها خالِيًا من الحياة الّتي أعرفها!! كان أنبوب التّنفّس الاصطناعيّ يستقرّ في فمها ، ويعبر شفتين بدتا يابِستَيْن ، وجِسْمها المُسجّى يبدو أنّه استسلم أخيرًا لشيءٍ ما . . . أخذتُ نفَسًا عميقًا لأحبس طوفان الدّموع ، وأجلتُ عينيّ فيما تبقّى من فراغ في الغرفة ، وتساءلتُ بلوعة : أين يقف الموت يا تُرى؟! في أيّ زاوية يقبع؟! خلف هذه الحلقة من الأطبّاء ، أم أمامهم؟! لا بُدّ أنّه قريبٌ منّا جميعًا . اليوم سيزور أحدَنا . أُدرك ذلك من الرائحة الّتي

تنبعث في أرجاء الغرفة!! هل للموت رائحة؟! هل أستطيع إذا أمعنتُ النّظر أن أراه؟! هل من سبيل إلى الحِوار معه؟! أينَ أنتَ أيّها الموت؟! هل تقف إلى جانبي ، أم إلى جانب جدّتي ، أم إلى جانب واحدٍ من هؤلاء الّذين يرتدون ثيابًا بيضاء؟! جرّبْتُكَ كثيرًا من قبلُ في الرّاحلين فإلى أيّ صفٍّ من الباقين ستنحاز اليوم؟! مَن الّذي اخترتَه فينا؟! هل أنتَ ملاك؟! إنْ كنتَ كذلك فَلِمَ تَغَصّ اللّهاةُ حينَ تراك؟! قد تكونُ ملاكَ رحمة أو ملاك عذاب!! إنْ كنتَ ملاكَ رحمةٍ فلم تَشخَص الأبصار كأنّ رُعبًا اختطفها من محاجرها!! ولِمَ تتبعك وأنتَ ترتقي إلى السّماء عبر سقف الغرفة ، كأنّها رُبطت بين يديك بخيوطٍ وسللْتَها خلفَكَ وأنتَ تعلو وتعدو . وإنْ كنتَ ملاكَ عذابٍ فَلِمَ ترتسمُ بسمةٌ ورديّةٌ على شِفاه مَنْ رأوك ، وتركوها دليلاً على وجودك الشّفيف قبل أن يلفِظوا آخر أنفاسهم!!

حيّرتَنا أيّها الموت ، فاجعلْ لنا إليكَ سبيلاً!!

حانتْ التفاتةٌ من أحد الأطبّاء إليّ ، فأشار بعينيه أن اخرُجْ ، فخرجتُ . تلقّفتْني (حياة) على الباب :

- ما الأخبار؟!
- الأمور في نهايتها!!
- ماذا تعني؟!
- جدّتي بأحسنِ حال . وستفيق بين لحظةٍ وأخرى . . .
- الحمدُ لله!!

خرج الطّبيب الّذي كُلّفَ بنقل الخبر إلينا . . . سمح لنا هذه المرّة جميعًا بالدّخول . . . كنتُ أوّل الدّاخلين ، وضعتُ يدي على جبهتها ، ودفنْتُ رأسي في صدري ورحتُ أنشجُ ؛ لقد انطفأت الشّعلة . . .!!

(٢)
مَنْ فاتَ عَرف

الطّريق بين المسجد والمقبرة ، هي ذاتها الطّريق بين الحياة والموت ، تقف الحياة على باب المسجد ، ويودّعها الموت على باب المقبرة . . . الموتُ والحياةُ طَرَفَا الدّائرة ؛ دائرة الكون ؛ الكون الّذي لا يكفّ عن الدَّوَران . ارتفع النّعش على الأكتاف ، حرصتُ أن أكون عند قدميها . . . سَنَوات من العشق المُعتَّق والصّحبة الأبديّة . أعرفُ تفاصيل قدميها جيّدًا ، كنتُ أهمّ بتقبيلهما منذُ طفولتي . . . تعلّمَ الأطفال في قريتنا تقبيل أكفّ الكِبار ، وزادتْ تربيتي على ذلك فكان تقبيل الأقدام تتويجًا لمشاعر الحبّ العميقة ، والرّضى عن النّفس . . . هممتُ أن أفعل ذلك اليوم ، ولكنْ خانني الموقف . . . ظلّ النّاس أمام النّعش وخلفه يتوافدون ، ثمّ يتقاطرون إلى المقبرة . . . كنتُ في وسط هذا المشهد كورقةٍ تتأرجح في لبّ طوفانٍ . . . كان قلبي كذلك . . . على جانبي الجنازة امتدّت سفوح الجبال ، وامتلأت الأراضي بأشجار الزّيتون ، وبعض الأشجار الأخرى . . . لا أدري إن كنتُ وحدي شعرتُ بذلك أم لا ؛ مشى الموت يشيّع الجنازة معنا ، وعلى غير المتوقّع ، لم يُرعبْني وجوده بيننا ؛ فأنا أعرفه جيّدًا ، بقدْر ما أشاع موجةً من الطّمأنينة في القلب ، ومع أنّ قلبي كان طائرًا مُنكِّسًا رأسه أمام الفجيعة ، إلاّ أنّني وجدتُني خفيف الخُطا . . . أكثر ما أحزنني أنّ

الآخرين – ربّما – لم يتهيّأ لهم ما تهيّأ لي ، ظلّوا يمشون كقطيع من الشّياه دون أن تحينَ منهم التِفاتةٌ إلى الّذي يسير بجانبي . . . كأنّهمً لا يسيرون بل يُسَيّرون . . . مشينا بين القبور إلى قبرٍ أُعدّ كمسكنٍ أخير يُمكن أن يريح فيه الإنسانُ جسده بعد عناءِ سفرٍ طويل . . .!! ولكنْ ما شكل الرّاحة الّتي يخلد إليها الإنسان في حفرةٍ كهذه؟! سمعتهم يتحدّثون عن شيءٍ يدعونه : الرّاحة الأبديّة!! ترى على أيّ جنبٍ سوف يختبر الميّت صِدق هذه المقولة؟!!!!!

كانت القبور تترامي في المساحة الممتدّة ، وقد غطّتْ أكثرَها ، بقيتْ بعض المساحات لم تزرْها أجسادُ الموتى بعد ، غير أنّها تضاءلتْ كثيرًا . . . مشينا بين القبور ، بعضُ الحجارة الّتي تُسيّج القبور مرّت عليها سنون طويلة فاسودّتْ ، وغرزَ الفناء أصابعه فيها فنحتها كما يشتهي ، بعضُها الآخر غاص في الأرض مع كرّ الشّهور ، ومرور العهود حتّى كاد يستوي مع سطحها ، ويُصبح جزءاً منها فلا يُدرَى بعد ذلك أكان هنا قبرٌ أم لم يكنْ؟!!!

في الممرّات الضّيّقة جداً الّتي تسمح للمُشيِّعين بالمرور عبرها ، صِرنا نتوزّع على كافّة هذه الزُّقاقات حتى لا نطأ القبور الأخرى . قلّةٌ حافظتْ على نسيجها المتلاحم مع النّعش ، وواحدٌ ظلّ لصيقًا بقدميها لا يفارقهما البتّة . . . على غير ترتيب ، ولا انتظام تناثرتْ القبور تناثر القُصاصات على طاولة ، بعثرتْها يدٌ عشوائيّة . . . هناك قبرٌ يستقرّ بزاويةٍ مائلة ، بجانبه قبرٌ يتوازى معه ، ويستقرّ على هيئة جاره تمامًا ، غير أنّ القبر الثّالث يمتدّ عموديّا ، والرّابع أفقيّا ، ومسافةٌ هنا أكبر من تلك الّتي هناك . . . وفسحةٌ بين هذا القبر وذاك لا تسمح بها الجادّة بين قبرين يبعُدان أمتارًا قليلة . . . وهذا قبرٌ شمخ بحجارته ، إلى

جانب قبرٍ انكسر إلى داخله ، وغار في نفسه على استحياء . . . حجارة هذا بيضاء كأنّما صُقلت أمسِ ، وحجارة ذلك بنّيّة كأنّما مرّت عليها قرون ، وحجارة الثّالث سوداء . وهذا اكتفى بشاهدٍ ، وذلك لم يقنعْ إلاّ بتعليةٍ حجريّة فاخرة ، . . . أهذه صورة القبور أم صورة البيوت؟!! أهذا هو الموتُ أم هذه هي الحياة . . .؟!!!

تابعْنا السّير حاملين النّعش ، كتفي ثَقُلَتْ حين علا النّعش من جهة رأسها ، أحسستُ كأنّما أرادت أن تنتفض حيّةً في جمعٍ من الموتى . . . هل الموتى نحن أم هم؟!

وفاقها مع جدّي في حياته ، جعل المسافة الفاصلة بين قبريهما بعيدةً . ما يحدث قبل هذا الحاجز ليس شرطًا أن يكون هو ذاته الّذي يحدثُ بعده!! يلتقي النّاس في قبورهم كما كانوا يلتقون في حياتهم ؛ لا أدري أينَ سمعتُ شيئًا من هذا الكلام ، أو قريبًا منه!! هل تسري قوانين الحياة على الموت؟! هل يستمرّ النّاموس إيّاه ، أم أنّ هناك بونًا شاسعًا بين الحالَين؟!

تَحلّق النّاس حول الحفرة الّتي أُعدّت لتكون المثوى . نزلتُ فيها ، وحرصتُ هذه المرّة أن أكون عند رأسِها ، صار رأسُها بين يديّ ، كِدتُ ألتزمه ، وأضمّه إلى صدري ، وأهوي عليه باللّثم . . . تماسكْتُ ، أنزلتُ الرّأس ، وأملتُها على يمينها ، واستقرّت في المستطيل الّذي أُعِدّ لهذه اللّحظة ، فَككْتُ الكفن عند رأسها وبان من خلال ثغرة بسيطةٍ لي رأسُها الّذي حفظْتُهُ طوالَ حياتي عن ظهر قلب . . . أمعقولٌ أنّه هانَ عليّ حتّى أنزلْتُهُ هذا المنزل . . .؟!! غامت الدّنيا في عينيّ لهول الفكرة ، وكدتُ أفقد وعيي لولا أنّني رجّعتُ . أهِيَ هِي ، أم أنّها غيرُها؟!! خاطبْتُ نفسي وأنا غيرُ مُصدِّق : كم لثمتُ هذا الرّأس وقبّلتُه

في حياتها ، أأُسلِمه اليوم للتراب ، وأضعه في البرد والطّين . . .!! لم أستطع أن أعي الموقف . صارت البلاطات تأتيني لكي أُتِمَّ وضعها فوق اللّبنات الّتي أحاطتْ بجوانب الحفرة ، هالني الموقف مرّة أخرى ، أيُعقَل أنْ أُغلق عليها القبر وحيدةً . . . كان كتفها الأيسر قد علا قليلاً ، وأنا أضع البلاطة عليه ، أحسستُ أنّ الأمر آذاها ، حاولتُ أن أجعله رقيقًا معها ما استطعت . . . في الشّقوق ما بين البلاطات ناولوني بعض الأحجار الصّغيرة لأغلق ما تشكّل من فتحات ، ثمّ أمسكوا بيدي وأصعدوني خارج الحفرة . . . تمنّيتُ لو لم يفعلوا . غير أنّه في الموت تثقل الأمنيات ، وتُصبح خارج نِطاق البَدء ، وحدها النّهايات تتصالح مع الموت ، وتمسك بيده كرفيق درب!! ألقيتُ نظرةً أخيرة على القبر ، وهم يهيلون التّراب عليه ، تراجعتُ خُطوتين إلى الوراء ، بسطتُ يدي ، وأفردتُ أصابعي ضاغطًا على جانِبَي وجهي ، ورحتُ أنتحب محاولاً أن أكتم صوتي ، راح جسدي يعلو ويهبط ، ويهتزّ في نشيجٍ متواصل ؛ لقد نزلتْ جدّتي في نهر الأبدية!!

في دقائق معدودات كان الجمع قد انفضّ ، وسارَ كلٌّ إلى طِيّته . . . كأنّ شيئًا لم يكن . . . أرعبني أنّنا نتعامل مع الموت بهذه الطّريقة ، هل الموت انتهى عند هذه الحفرة ، غادر كما سنغادر ، أم أنّه وجدَ سبيلاً إلى دمائنا ، فلم نعد نراه؟! نراه؟!! وهل نحن نراه ، أم وحده الّذي يرانا؟!! إذا كان موجودًا فينا فلم نتغافل حتّى عن الاعتراف بالإحساس به داخلَنا ؛ ننسى أنّه نحنُ في صورتنا أو حياتنا الأخرى . أتساءل وأنا في غمرة الذّهول : نتلقّى صفعة المصيبة على الوجه ، وحال ارتفاعها نعود إلى لهونا كما كنّا . حقًّا ؛ نحن وليمةٌ جاهزةٌ للموت . . . .!!!

جلسْتُ عند رأسها وقد شكّل التّراب فوقها تلّة صغيرة ، ورحتُ أتلو بعض الدّعاء ، أملتُ رأسي إلى اليمين قليلاً ، أرهفتُ السّمع ، خُيِّلَ إليّ أنّ جدّتي تُحدّثني ، وأنّها تريد أن تقول كلامًا . في الجوف ماذا ستقول : كيف ستعبُر الحروف ثنايا التّراب وتتغلّب على المسامات لكي تصافح أذنيّ . حفيف أوراق الأشجار الشّاهدة على الموتى ، والحادبة بأغصانها على رُفاتهم ربّما قالت هذا الكلام : (بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . .؟!) أمّا الرّفات نفسه فربّما قال هذا الكلام : بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ!!!!!

هل الموت حرّيّةٌ وفضاءٌ واسع؟ أم عبوديّةٌ وجحورٌ ضيّقة؟! الحرّيّة والعبوديّة للجسد ، والفضاء والجحور للرّوح . لماذا بكيتُ كلّ هذه الدّموع وأنا أودّعها؟! إذا كانت ستصير إلى الجنّة فلمَ كلّ هذا الحزن؟! ألم تمتْ على ما أرادت ، فلماذا هذه النّظرة الفجائعيّة إلى هذا المصير؟! ماذا يفعل الموتُ بنا؟! يوقِظنا أم نوقظه ليصطحبنا إلى مرابع الحقيقة؟! من أينَ لي أن أسمع ماذا تقول جدّتي الآن وقد عبرتْ بوّابة السّرمديّة ، حيثُ المجهول لا يعيش إلاّ في عقولنا نحن الّذين بقينا نتحسّر على ما ظلّ من حياتنا . أمّا مَنْ فات فقد عرف . هو في لُبّ الحقيقة الّتي أفنينا العمر نحاول أن نفهمها ، غير أنّها ظلّتْ عصيّة على الفهم . خلف هذه البوّابة في ساحة الفناء نقبع مثل كلابٍ هارّة ننتظر دورنا؟!

هل الموت داءٌ أم شِفاء؟! فإذا كانَ داءً لما اقترفتْه يدُ الإنسان ، فلندعُ الله أن يعجّل به حتّى ينقضي . وإذا كان شِفاءً من بؤس الحياة ونكدها ففيمَ التّباكي على حُلوله؟! أما كانَ من الأجدر بنا أن نفرح لقدومه ، ألا يكون - بهذا - شكلاً من أشكال الخلاص؟!! أكانَ بُكاؤنا على فقد الحياة الدّنيا جهلاً بوجود حياةٍ غيبيّة أفضل؟! أم إنكارًا

في لحظة الفجيعة لعالَم نسينا أنّه في الملكوت الأعلى قاراً دون شكّ؟!

هل الحياة موت؟! أم أنّ الموت حياة؟! مَنْ سبق الآخر ، وأيّهما الباب؟؟ وأيّهما السّرداب؟! وأيّهما يُفضي إلى الآخر . حينَ جئنا إلى الحياة جِئنا من الموت أم من الحياة؟! وحينَ تركناها خلفنا عُدنا إلى الموت أم إلى الحياة الّتي جئنا منها؟!!!

هل الموت عدالة أم جناية ، إذا كان عدالةً فلم يختار أحبَّ النّاس إلى قلوبنا؟! وإذا كان جِنايةً فلِمَ يتساوى فيه الفقير مع الغنيّ ، والكبير مع الصّغير ، والملك مع العبد؟! وهل هو نهاية الحياة أم بدايتها؟! إذا كان نهايةَ الحياة فما معنى الكبد الّذي عاشتْه جدّتي ، ونعيشه نحن ، حينَ نحاول أن نجد قُوتَنا ، ثُمَّ يُلقَى بنا في النّهاية داخل حُفرةٍ؟! وإذا كان بدايةَ الحياة فَلِمَ كلّ هذا البكاء؟! أليسَ من الأَوْلى أن نفرح بدل أن نحزن؟! وإذا كانوا موتى ، فلماذا قال : ﴿بَلْ هُمْ أَحْياءٌ﴾ ، وإذا كانوا أحياءً فلماذا قال : ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحياء وما يَشْعُرُونَ﴾؟!

عند رأسها أمسكتُ بحفنةٍ من التّراب ، رفعتُ يدي عاليًا ورحتُ أنثرها ، وأراقبُ تساقطَ ذرّاتها . . . كم ذرّة من هذه الذّرات اختلطتْ بعظام ميّت دُفِنَ هنا من القرون الأولى؟! وهل التّراب إلاّ عِظامنا بعد أن تبلَى؟! ألم نُخلق من التّراب لكي نعودَ إليه؟! فلمَ انتابني شعورٌ بالحزن الدّفين وهم يهيلون التّراب على حفرتها؟!

نثرتُ حفنةً أخرى من هذا التّراب ، ورحتُ أتأمّله وهو يهوي من بين أصابعي إلى مُستقرّه ؛ كم نسبة الذّرّات الّتي اختلط فيها رفاتُ السّيّد بالعبد ، والطّفل بالشّيخ ، واللّصّ بالتّقيّ؟! همستُ : في قانون التّراب تتلاشى الفروق ، وتتجلّى العدالة المُطلقة!! وعندما يقوم التّراب ، يتمايز الجَمْع ، وتتبدّى المقامات!!

الآن تبـدأ جـدّتي رحلتـهـا . . . الآن تنام جـدّتي بلا أحـلام!!!!
جدّتي لم تفعل شيئًا غير دخولها الباب الّذي فُتِحَ لها ؛ نحن لم ندخل وراءها لأنّه أُغلق في وجهنا ، ولم يُفتَح لنا بعـد!! قـد نلتـقي دون أن نخطّط للّقاء أو نتوقّعه ؛ سندخل الباب نفسه ، ولكنْ إلى أيّ الدّروب يُفضي ذلك الباب ، وإلى أيّ الحجرات يُوصِل؟! هل تضمّنا الجدران نفسها ذات يوم؟!! كم سيُفجَع المرء حينَ يكتشف أنّه قد قال : ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ ومن المُمكِن أنّه قال : ﴿يا لَيْتَنِي كُنْتُ﴾!!!!

(٣)
﴿قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾

كانت الشّمس تطبع أولى قُبُلاتها على الجهة الغربيّة من القرية ، تعوّدتُ أنْ أَعبُرَ الحقل الواسع في الصّباحات الباكرة ، لأتبع خُطا جدّتي . لم أكنْ أدرك لماذا تنبتُ الأزهار من تحت قدميها كلّما سارت في الحقول الفسيحة المفتوحة على الفضاء المُطلَق؟! لا أدري لماذا أتبعُها ، وأشمّ خلفها آثار أقدامها كَجَرْو ، وهي تسير أمامي وقد انتطقتْ حِزامًا حول خَصرها ، ولفّتْ رأسَها بعصابة بُنّيّة شدّتْها بإحكام . . .

لم تكن الأيّام كلّها سواء ، أجملها حينَ كنتُ أُولّي وجهي شطر الجهة الغربيّة ، حيثُ أنسحب كقطٍّ خلف جدّتي ، وكان ذلك شتاءً . أمّا في الصّيف فكان عمّي يتوجّه بنا شمالاً حيثُ سنابل القمح لا تُطامن من شموخها إلاّ حين ترانا قادِمين إليها نحمل المناجل في أيدينا . . .

قبل ثلاث ليالٍ ظلّ المطر يتساقط في بكائيّة جنائزيّة لم تشهد القرية مثلها من قبل ؛ كانت السّماء تبكي بغزارة . . . وحدها الشّبابيك استطاعت أن تنقل إلينا مشهد النّحيب حين كان البرق يلمع خلف الزّجاج فيرسم حبّات من المطر تتهاوى كأنّها تُقبّل الأرض بشهوانيّة بالغة ، وعلى سطوح الزّجاج نفسه كان المطر يرسم خطوطًا متعرّجة ، تسيل كَمُستغيثٍ ألصق يديه وانبجس الدّم منهما وهو يخرّ

على الأرض صريعًا . . . ظلّتْ أمّي تحثّني على النّوم باكرًا ، كي تمتصّ بالنّوم مخاوفي الّتي كانت تتعاظم كلّما لمع البرق وتبعه هدير الرّعد المُرعب . . . لم يكن الرّعد وحده الّذي رسم لوحة الرّعب هذه وعلّقها على جِدار قلبي ، بل كانت هناك أصوات قَرْقعة التّنكات الفارغة الّتي لعبتْ بها الرّيح وطوّحتْها من مكانٍ لآخر ، وكانت هناك أصوات المزاريب وهي تشخب بالماء المتدفّق من أسطح المنازل ، وزاد عليها صوت الشّجر الّذي يكاد تنكسر قامته أمام سياط الرّيح الشّديدة . أمّا الرّيح نفسها فلم تجدْ سيمفونيّة تعزفها إلاّ تلك الّتي تنخلع لها أوتار القلب . كانت الرّيح تصفر بألحانٍ متعدّدة وكأنّها نائحة بائسة خرجتْ من القبر للتّوّ كي ترويَ للموتى أمثالنا ما يجري في العالَم السّفليّ من أهوال!!

تدثّرْتُ بالأغطية الّتي وضعتْها أمّي فوقي ، وغطّيْتُ بها رأسي كأنّني أهرب من شيءٍ ما ، وعبثًا حاولتُ النّوم . حانت منّي التفاتة خاطفة إلى أختي سُميّة ، كانت تغطّ في نوم عميق ، حسدتُها على ذلك ، وتمنّيتُ لو أستطيع أن أسرق منها ملاك النّوم ، ولا مُبالاتها القاتلة ؛ أختي أكبر مِنّي بعام ، وأشجع منّي بقرنٍ . . .!!

مرّتْ ثلاثة أيّام والسّماء لا تكفّ عن البكاء ، امتلأت شِعاب القرية بالسّيول ، وجرفتْ هذه السّيول في طريقها كلّ شيء ، حملتْ حتّى بعض الماعز الّتي انفلتَتْ في غفلة من أصحابها بعد أن فتحت الرّيح أبوابَ (الصِّيَر) ، فجرفتْها السّيولُ الّتي لم تُبقِ على شيء . . . جدّي كان حريصًا على مِعازه ، أحكمَ إغلاق باب (الصّيرة) الّتي تتجمّع الأغنام فيها ، وتأكّد من عددها مع أوّل قطرةِ ماء سالت ، عرفَ مسبقًا أنّ أمطارًا كهذه ستستمرّ على الأرجح ثلاث ليالٍ ، وراح هو

وعمّي يحفران بعض الخنادق الصّغيرة حول (الصّيرة) لكي تنسحب المياه إلى خارجها ، ولا يبتلع الطّوفان المِعاز ، حيث الثّروة الكبرى بالنّسبة لجدّي ، ولآخرين أيضًا في القرية . . .

في السّيول الجارفة الّتي مرّت في الشّعاب ، كانت المياه تسيل مع التّعرّجات كأنّها أفاع وثعابين ، تتهادى عَجلى في سيرها ، ولا تكاد تغيب عن ناظريك إلاّ إذا اختفتْ خلف بعض الأزقّة والحواري . حملت هذه الأفاعي على ظهرها الشّياه ، والدّيكة ، وأوراق الأشجار ، وبعض الجذوع ، وصفائح من الزّينكو ، ومدارس القمح ، وجرفت من الأرض والتّراب ما جرفت . . .

ثمّ في لحظةٍ فارقة انقطعتْ مجاري الدّمع من وجنتَي السّحاب ، وأمر الله الرّيح فهدأتْ ، والسّحب فانقشعتْ ، والبدر فأطلّ . . . ظلّ البدر يكبر ويصعد رويدًا من خلف البيوت حتّى انتصف السّماء ، بدا وهو يفعل ذلك مَلِكًا يحاول أن يتجلّى على رعاياه ، وحوله راحت بعض كِسَر السّحب تمرّ مُسرعةً كأنّما تهرب منه ، لتترك له صفحة السّماء زرقاء داكنةً يبسط سلطانه عليها كيف يشاء . بيتُنا يقع وسط القرية ، غير أنّه يُطلّ على البيوت المنتصبة جهةَ الغرب ، كانت البيوت على امتداد مسافات واسعة تحجب جزءًا من القمر ، ويمسح القمر بيدين من نور على ظلمتها الدّاكنة فتتوهّج ، بدا كأنّ خيالات البيوت الأبعد والأعلى ترتمي على أسطح البيوت الأقرب ، وشمختْ بعض النّوافذ البلهاء ، وتطاولتْ أسرّة الرّوح لتنعمَ بلحظة صفاء لا تتكرّر . . .!!

الجهة الغربيّة من القرية يقابلها جبلٌ يرتفع حتّى يصل السّماء الأولى ، وتتمسّح به في اللّيالي الهادئة ثلّةٌ من النّجوم كان – ولا يزال – يُخيّل إليّ أنّها تحطّ رِحالها على قِمّته أحيانًا لتستريح من رحلتها

المتعبة ، وتأخذ نَفَسًا عميقًا قبل أن تتابع دورتها الأزليّة الّتي لا تكفّ عن المسير . . . إلى أين تمضي النّجوم؟! هل تموتُ مثلنا؟! هل تُولَد من جديد مثلنا؟! هل تشيخ أو تمرض مثلنا؟! سألتُ نفسي هذه الأسئلة غيرَ مرّةٍ؟

بدا الجبل – والقمر يرسل أشعّته الفضّيّة عليه – مسرحًا مُلائمًا كي ترفع فوقه السّعادة خِباءَها ، ومن بعيد كنتُ أرى أشجار الزّيتون والتّين والصّنوبر واللّوز والصّفصاف والسّرو تُحرّك هاماتها يمينًا وشِمالا كأنّما تتحمّم بنور القمر الدّافئ!!

كانت ليلةً لها ما بعدها ؛ فلقد جاءتْ بعد بكاء السّماء ثلاث ليال ؛ تُرَى مَن فقدت السّماء حتّى تبكي عليه كلّ هذا البكاء ، وهل كفّتْ في هذه اللّيلة عن ذلك لأنّ عيونها لم تعد تحمل المزيد من الدّموع؟! أم لأنّها أخرجت أثقال الحزن الكامنة في أحشائها وأسالَتْها مع هذه الدّموع؟! أم لأنّها نَسِيَت؟! رجَّحْتُ على الفور أنّها نَسِيَتْ!!

يعصر الموت عيوننا حُزنًا على مَنْ فقدْنا بإحدى يديه ، ثمّ يمدّ يده الأخرى بمنديل النّسيان لنمسح تلك الدّموع ، ونتابع لُهاثنا خلف الحياة ، مُتعلّلين بِمن لم نفقدْه بعد!! بعد ستّين عامًا من بكاء آدم على ابنه هابيل مسحت الملائكة دموعه ، لتقول له : لا يوجد حزنٌ يستمرّ إلى الأبد ، على الحزن أن يتوقّف من أجل أن تعبر عجلة الحياة ما تبقّى من الطّرقات!!! أضحكَ الله سِنّكَ يا آدم!!!

صحوتُ في الصّباح وقد أشرقتِ الأرض بنور ربّها ، أيقظني صِياح الدِّيَكة ، كان في حارتنا أكثر من خمسين ديكًا ، وكانت إذا طلع الفجر تصيح بالتّناوب ، فإذا صاح الدّيك الأوّل ولم ينقرْ غفلتك ، بادرك الثّاني بالمهمّة فأدّاها على أكمل وجه ، وهكذا تتتابع الدّيكة ، ويتعالى

صياحها حتّى يكون المفرّ من اليقظة ضربًا من المستحيل . . . جدّتي لا تحتاج إلى الدّيكة لكي تصحو ؛ إنّها تصحو قبلها . تتلمّس الأشياء – على عادتها – وطشت الماء من أجل الوضوء يستقرّ في الزّاوية البعيدة للغرفة الطّينيّة العالية ، المسقوفة بجذوع الأشجار الغليظة ، تتوضأ في البرد الّذي يحدث أن يُجمّد حتّى ماء الوضوء النّازل من الإبريق ، ثمّ تهمس بالآيات وهي تقوم بين يدي الله . . . كانت صباحاتها هي وجدّي وعمّي وامرأة عمّي متشابهة على هذا النّحو تقريبًا . . .

بدت الطّرقات الّتي ذرعْتُها خلفها وهي متّجهة إلى مزارع الزّيتون مجروفةً بفعل السّيول ، ومع أنّ الشّمس بدأتْ تُرسِل خيوطها ، وتفرد أجنحتها في كلّ مكان إلاّ أنّ الطّين والوحل كان يغطّي أيضًا كلّ شيءٍ . كنتُ أعرف قريتنا من خطوات جدّتي ، قبل خطواتها كانت الدّروب بالنّسبة لي مُبهمة ، خلف هذه الخطوات تهجّأتُ حروف التّراب ، وحفظتُ كلمات الطّين . . . مشتْ هذه السّيّدة العظيمة الّتي علّمتْني نصف الحياة وانسحبْتُ خلفها مُنصاعًا في البداية ، ثمّ ما لبثتُ أن صرتُ أقفز من مكانٍ لآخر ، وأسبقها مرّة وأتأخّر عنها مرّات . . . هبطتْ واديًا ، ثمّ صعدتْ فأشرفتْ في السّفح على مساحة واسعة ممتدّة ، التفتُّ خلفي فرأيت لوحة الخلق أبدع ما يكون ، كان هدير المياه المُتجمّعة في الوادي يشقّ السّكون ، ويخلّف صدىً مَهولاً ، هبطتِ السّيول من قمم الجبال شلالاتٍ لتتجمّع في الوادي الّذي عَظُم فيه الماء فصار يشكّل جدولاً يفيض على الجوانب ، يسيل صاخِبًا فإذا ما وافقَ صخرةً عالية التفّ حولها ، وأحاطها بذراعيه ، وطبع قبلةً خاطفةً على ساقها ، أو نثر رذاذًا متطايرًا على بطنها ، ثمّ تابع سيره . على جانبي الجدول المتعاظم انتصبتْ أشجار الحور ، قهرتْ بارتفاعها

البـاذخ هوّة الوادي ، حتّى وصلتْ إلى قـمّـتـه وزادتْ عليـه . . . تابعتْ جدّتي مسيرها ، وهي تُشير إليّ أن أتجنّب الطّين ما استطعت ، وأن ألتزم الجادّة الرّمليّة القاسية ، أو ما تناثر من الصّخور الغائرة في بطن الأرض حتّى لا أغوص في الوحل . كـانت كفّ الأرض الّتي تلتْ هوّة الوادي مبسوطة بالكامل ، وعلى مساحةٍ خاليةٍ تمامًا إلاّ من شجرة بلّوط كبيرة عمرها ألف عام بقيتْ سيّدة المكان إلى اليوم!! سمعتُهم يقولون : إنّ سيدي الرّفاعي كان يتعبّد في ظلّها . هل يمكن أن تُشكّل ظلالها معبدًا يُقيم فيه الرّاهب صلواته ، والنّاسِكُ أدعيته؟! نعم ؛ فقد كانت ظلالها تغطّي كلّ المساحة الشّاسعة الّتي لا يقطعها فارسٌ على حِصانه ، ولو ركض فيها لمدّة سبعة أيّام متواصلةٍ بلياليها!! لم يمرّ يومًا من تحتها أحدٌ إلاّ شعر بالسّكينة تتنزّل على فؤاده الّذي أثقله طول العمل في الحقول والصّياح وراء الخِراف والمِعاز!! حرصتُ أنْ أقف تحتها بعضًا من الوقت ، غير أنّ جدّتي صاحتْ بي من بعيد :

– واثق . . . واثق . . .

– نعم جِدّة . . .

– هِمْ يا جِدّتي . . . هِمّ . . .

– حاضر جِدّة . . . هاي الشّجرة قدّيش عمرها . . .؟!

– قَدْ عُمْر الشّيخ عليّ . . . يلّه . . .

– مين الشّيخ عليّ . . .؟!

– أوّلْ شيخ أجا على هالقِرية . .

– يعني قدّك يا جِدّة ولا أكبر . . .؟!

– أكبر . . . أكبر يا جِدّة . . .

– ليش حطّوها هون بالنّصّ؟!

– شو بدّك فيها يا جِدّة . . . لا تأخّرني . . . هِمّ . . . هِمّ . . .
– حاضرْ . . . حاضر يا جِدّة . . .

وأركض باتّجاهها وأنا أقفز على الصّخور، وأختار الأماكن الجافّة، وأشعر بخيطٍ من السّرّ ينسلّ من قلبي، ويظلّ مُعلّقًا بهذه الشّجرة . . . عدد الأسئلةً الّتي سألتُها لنفسي وأنا ألحق بجدّتي كانت أكثر من السّنوات الّتي ضربتْ فيها هذه الشّجرة المقدّسة جذورها في هذه الأرض المُبارَكة . . .!!

وصلْنا بعد ساعتين من المشي إلى مزارع الزّيتون، عشرات الدّونمات تمتدّ لا تكاد ترى لها نهاية، تشابُك أغصان الزّيتون، وقربها من بعضها، وقِصرُها بالإضافة إلى قِصري جعل من المتعذّر عليّ أن أرى امتداداتها إلى أطرافها، غير أنّا قبل أن ندخل هذه المزارع أشرفْنا عليها من تلّة تربض مثل أبي الهول أمامها، خُيّل إليّ حينها أنّ هذه المزارع تبدأ عند قدمي أبي الهول ولا تنتهي . . . لم يكنْ للمزارع سِياج أو سورٌ يلفّها من جوانبها، كانت تفتح ذراعيها لكلّ قادم، وتبسط جسدها الأخضر الرّماديّ لكلّ داخل . . . مشتْ جدّتي أمامي – كعادتها – وخلفها مشيت . لم أستطع أن أتجنّب الغوص في الطّين، فراح صندلي يمتلئ بالوحل ويفيض به عن جوانبه، وكلّما حانت لي فرصة أن أتخلّص منه أو من بعضه على حافّة صخرةٍ أو حجرٍ فعلت .

وحدها مَدّتْ بساطًا واسِعًا من أكياس النّايلونً، كانت قد شقّتها وضمّتْ بعضها إلى بعض، وخاطتْها بخيوط من المصّيص حتى شكّلت منها مفرشًا خاصًا لهذا الغرض، وراحتْ تمدّ يديها إلى حبّات الزّيتون وتفرطه بعناية فائقة، كانتْ أحنّ على أوراق الزّيتون من الأمّ على فطيمها!!

كانت مهمّتي تقتصر أن أحضر لها أكياس (الخيش) من غرفةٍ على طرف المزرعة تبعد بضعة دونمات لكي تضع الزّيتون المفروط بداخلها، في كلّ مرّة كنتُ أُحضِر (خمسة أكياس)؛ هكذا قالت لي: لا تُحضِر خمسةً أخرى حتّى أطلب منك ذلك!! أنظر بعينَي عاشقٍ إلى جدّتي. (الشّرشة) السّوداء الّتي تلبسها، لا تلبسها إلاّ حين تخرج إلى هذه المزارع، تلفّ في وسطها حزامًا لكي يشدّ من أزرها، ويرفع من هِمّتها، يداها وهما تمتدّان إلى أغصان الزّيتون أراهما يدي نبيّ أو ملاك... مُباركتان هاتان اليدان، فيهما من مراتب الجمال ما ليس في سواهما... يحدث أن تطلّ علينا الشّمس من بين الغيوم مرّة بعد مرّة، حين تفعل ذلك تمتدّ الأشعّة فتنفذ في الفراغ من بين ذراعيها الممدودتين، وتسقط على صفحة وجهي فأحسّ بدفءٍ مُضاعَف... لجدّتي سِحْرٌ في قلبي يُعادِل سحر الشّمس حينَ يلمس أكمام زهرةٍ تهمّ بالتّفتّح!!

حينَ يُهاجِم التّعب قدمَي جدّتي تجلس على الأرض، وتبدأ بملء ما تناثر على المِفرش من حبّات الزّيتون وتُعبِّئها في كيس الخيش، كانت تفعل ذلك بعد أن تملأ دلوًا صغيرًا من البلاستيك بهذه الحبّات ثمّ تلقي بها في بطن الكيس... التّعب في قاموس الفلاّحين غير موجود. عليها أن تبقى طوال النّهار تعمل دون أن تندّ عنها آهة تذمّرٍ واحدة، لكنّ التّعب قدرٌ إلهيّ، حتّى لو ألغاه الفلاّحون من قواميسهم، إلا أنّهم لا يستطيعون إلغاءه من إنسانيّتهم!! فماذا يفعلون إذًا؟! يحتالون عليه. كيف؟! بالغِناء...

طاب الدّور تع لِمّهْ
ريّحوني مِنْ همُّهْ

واحِــــدْ قَـــيَّـلْ بالـفَـــيَّـــــةْ
واحِــدْ قَـــرْصَــتُـــهْ حَـــيِّـــةْ
قَـــرْصَــتُـــهْ حَـــيِّـــةْ وْمَـــاتْ
وابْـكِـنْ عَـلـيْـــــــهْ يـا بَـنـاتْ
وابْحَـــشِنْ لُهْ وْغَـــمْـــقِن لُهْ
بَعْـــدِ عْـــيُـــونُهْ مْـــبَـــحْلِقـــاتْ

صوت جدّتي كان رخيمًا ، قادِمًا من الغيب!! أتابِعها بيديها اللّتين علاهما الغُبار ، وعَصفُ الأوراق ، وما تجمّع إليهما من شروخ السّنين ، فأرى أنّها بذلك تغرز في صخرة الحياة أصابعها!!

يُصيبني بعض الملل ، فأطلب من جدّتي :

– أريد أن أذهب إلى الحمّام .

– تريدُ أن تلعبَ قليلاً . . . زَهِقت؟!

– . . . .!! (كيف عرفتْ جدّتي ذلك . جدّتي تملأ جيوبها بالأسرار ، حينَ تحتاج إلى كشف أحدها ، ما عليها إلاّ أن تمدّ يديها إلى إحدى جيوبها الّتي تملأ شُرشتها ، وتبسط كفّها أمام ناظِريها وتتظاهر بأنّها تقرأ . . . جدّتي كانت أمّيّة . . . غير أنها كانت تقرأ كفّها بشكلٍ جيّد ومتقن) .

– لا بأس . . . ولكنْ لا تبتعدْ كثيرًا!!

(أكاد أطير من الفرحة ، فجدّتي رغم معرفة ما أضمرتُه في عقلي ، سمحتْ لي بالتّجوال) ، أصيح كمن أهدي لُعبةً تمنّاها زمنًا :

– لا . . . لا . . . لن أبتعد أبدًا . . .

– ولكنْ . . . واثق . . . واثق . . .

- نعم جدّتي!!
- أحضر لي خمسة أكياس أخرى قبل أن تذهب . . .
- حاضر . . . حاضر جِدّة . . .

وأسير . . . وأسير . . . مثل مُهرٍ أُفلِت من لجِامه ، ووجد أمامه السّهول تُصافح الأفق . ما الّذي كان يستهويني يومَها ، لستُ أدري . . . كنتُ مفتونًا فقط بمساحة الحرّيّة الّتي منحتْها جدّتي لي للتّوّ لأسير كما أهوى . . . فكّرت بعد عشرات الأمتار أن أتبع السّلاسل الحجريّة . . . هنا بعض الحجارة السّكنيّة تتجمّع في غير انتظام على طول خطٍّ يمتدّ إلى مسافات بعيدة . . . مشيتُ مع هذه الأحجار ، اًرتفعتْ بين شقوقها بعض النّباتات الّتي استطاعت أن تتنفّس عبر الفتحات الضّيّقة المحشورة جرّاء التّلاقِيات . . صعدتُ كومةً منها ورحتُ أقفز فوق سلاسلها المتّصلة . . . لون الحجارة هذه غريب ، ليس بالأبيض ولا الأسود ولا البُنّي . . . كان رماديًّا كما لو أنّ هذه الحجارة بدأت عمرها الّذي لا يعلمه إلاّ الله بيضاءَ ناصعة ، ثمّ في فترةِ غضبٍ إلهيٍّ ما أُوقِدت تحتها النّار ثُمّ تُركت لتبردَ فجأة . . . بعض الهوامّ وجدتْ فيها مساكنها أو جحورها ، كانت تلفت انتباهي بين لحظةٍ وأخرى (سحليّة) مشتْ مسرعةٍ تزحف ببطنها على سطح الحجارة كأنّهاً ورقةٌ يحرّكها ماء يجري في سيلٍ ، أو (حرذونٌ) انتصب جذعه على قمّة حجرٍ من هذه الحِجارة وراح ينقر الأرض بنقراته المعتادة كما لو كان يُصلّي!!

وجدْتني أمشي فَرِحًا دون أن أشعر بطول المسافة أو تقادم الوقت . . . كانت الشّمس قد بلغتْ قبّة السّماء ، وقد انزاحتْ عنها بعض الغيوم ، وتفرّدتْ هي ببسط أشعّتها دون أيّ عائق . . . نزلتُ عن الأحجار إلى بعض المسارب الصّلبة الّتي اختلط فيها الحصى والرّمل

بالتّراب ، فساعدَ ذلك في المشي فوقها بسهولة . . .

بعض الخُضرة أرادت أن تصل مبكّرة ، وتحجز لها مكانًا فوق بساط التّراب ففعلتْ ، وبعض الأزهار استبقتْ موعد الرّبيع فبسقتْ ، وبين مفاتن الطّبيعة رحتُ أغذّ الخُطا هنا وهناك ، وأقفز من (سِنْسِلَة) إلى أخرى . أنحني أحيانًا لألتقط حصاةً ثمّ أُرجع جذعي إلى الخلف ، وأملأ صدري شهيقًا ، وأرميها بعزم إلى أبعد مدىً ، قد تُنبّه هذه الحصاة طيرًا من غفلته فوق شجرة مُستسلِمًا لسلطان النّوم ، فيطير تاركًا خلفه مثوىً دافِئًا ، وقد تضطرّ - وهي ترتطم بالأرض - حرباء إلى أن تسرع إلى جحرها الّذي غادرتْه من أجل أن تصيد حشرةً أو هامّة . . . نسيتُ في غمرة استمتاعي بهذه الملهاة الفائقة ما طلبتْه منّي جدّتي!!

ربّما مرّ على لَهْوي هذا أكثر من ساعة ، وأنا أسير بلا اتّجاه . لاح لي من بعيد خيال رجلٍ جالسٍ على كومة أحجار ، وقد وضع يديه على عصا ، واتّكأ عليها ، مُسنِدًا جبهته فوق ظاهر يديه ، ظلّ هادئًا كأنّه لم يرَ أحدًا ولم يُحسّ بوجودي ، وعلى خلاف عادتي لم أشعر بالخوف منه ، بل اقتربْتُ منه أكثر ، تبدّد الوهم لتحلّ محلّه الحقيقة . . . كان يلبسُ غطاءً للرّأس أبيض وقد تهدّل على كتفيه ، وأطرق في الأرض كأنّه لا يستطيع أن يرفع نظره عنها ، سمرة يديه شابهتْ لون العصا . . . ظللتُ أمشي نحوه حتّى صرتُ أمامه تمامًا ، بدت عروق يديه نافرةً كأنّها تكتب تاريخ القرية كلّها ، ولحيته البيضاء تختلط بلون ثيابه ، فلا يكاد يفصل بينهما أيّ حدٍّ!! عندما صرتُ قُبالته تمامًا وعلى بعد خطوة واحدة منه ، نظر في وجهي ، فَلاحَ لي شيخٌ طاعنٌ في السّنّ ، أكل الدّهرُ من عمره وشَرِبَ حتّى صار هو الدّهر ، أمّا غضون وجهه ، فكانت تحمل ذاكرة السّنين الّتي حفر بها

الإنسان على الأرض وجوده . . . ابتسم ابتسامةً دافئة ، ومدّ يده بهدوءٍ إليّ ، وأجلسني إلى جانبه ، سألني :

- ما اسمك يا بنيّ؟!

- واثق!!

- جميل ، جميل . ومن أين أنتَ؟!

- من هذه القرية الّتي خلف الوادي .

- إمم . . . إمم

- ما اسمك يا عمّ .

- رَسول .

- هل أنتَ أيضًا من قريتنا!!

- نعم . . . لا . . . لا . لا .

- ماذا تقصد؟! لا ، أم نعم؟!

- كنتُ فيها وخرجتُ منها .

- لم أركَ هنا في هذه المزارع من قبل!!

- ولن تراني بعد اليوم .

- لماذا؟!

- الظّلم والعدل لا يلتقيان .

- . . . .!!

- هل مررتَ بالشّجرة . . .؟!

- تقصد شجرة الشّيخ عليّ؟

- ليست شجرة الشّيخ عليّ . . . إنّها شجرتي أنا (قال ذلك بغضب . وسمعتُ زفيرًا حادًّا يخرج من رئتيه . شعرتُ أنّه تغيّر في الحال . . . غير أنّه نفث ما تبقّى لديه من غضب وعاد من جديد إلى

حديث الشّجرة . . .)

- يا بنيّ . . . أهل القرية جهلة .

- . . . .!!

- لا تُصدّق كلّ ما يُقال لك . . .

- . . . .!!!

- هذه الشّجرة ملعونة . . .

- ملعونة؟! ماذا تعني؟!

- لقد حلّ عليها غضب الرّبّ .

- لم أفهم!!

- كانوا يذبحون تحتها الخِراف ، ويعقدون على جذوعها العُقد ، ويوقِدون عندها النّار ، ثمّ يدورون حولها ، ويبدؤون الغِناء ، ويتوسّلون . . .

يا عاليَ المَقام ... يا واسِعَ الأبوابِ
بَدِّدْ عُرَى الظّلامَ ... وآتِني ثَوابِي
كَيْمَا هُنا أَرَاكْ

- هل كنتَ تغنّي معهم؟!

- نعم ، في البداية ، ثمّ غيّرتُ بعض الكلمات في أغنياتهم ، فلحقوني بالحِجارة . . .

- اسمع يا عمّ . . . أنا لا أفهم شيئًا من هذا الكلام!!

- يا بنيّ . . . حينَ تكبر ستحفظ كلماتي . إنّ الشّجرة ملعونة ، لا تُثمر إلاّ زَقُّومًا ، وكلّ من اقترب منها أصابتْه اللّعنة . . .

(بدأ الخوف يدبّ في أعماقي . . . وشعرتُ بأنّ قدميّ ترتفعان عن الأرض ، وأنّني أصبحت مثل عمودٍ من خشبٍ أجوف فقد توازنه ،

وراح يتأرجح ، ثمّ مال وكاد يهوي ساقِطًا . . .) وتابع الشّيخ :

– في ليلة كلّ جمعة ، وبعد انتصاف اللّيل تخرج من جذع هذه الشّجرة دابّة ، رأسُها كرؤوس الشّياطين ، تطوف في أرجاء القرية ، وهي تفحص الأرض بقدميها ، كلّما وضعتْ رجلها في مكانٍ أحرقتْه ، (شعرتُ برجفةٍ في أطرافي) ، وكلّما مرّت بحيٍّ أكلتْه (شعرتُ بذعرٍ سافر ، وكدتُ أفعلها في ثيابي) ، فلا تجد في طريقها خروفًا أو كلبًا أو حِمارًا أو قِطًّا أو طفلاً إلاّ ابتلعتْه في لمح البصر (أحسستُ أنّها ابتلعتْني فيمن ابتلعتْه) ، وتظلّ هائجةً تزفر كزفير النّار الموقدة (طنّتْ أذناي طنينًا كأنّ خليّة نحلٍ تعشّشُ فيهما) ، وتروح تعيث في الأرض فسادًا حتّى يُنادي منادِي الفجر من السّماء . . . فعند ذاك تهدأ ثورتُها ، ويصغر حجمها المنتفخ ، وتضعف حركتُها ، ويقلّ هَيَجانها ، ومع آخر كلمةٍ في النّداء ، تذوب مثلما يذوب الملح في الماء . . .

كان الشّيخ يقول ذلك ، وأنا أرتعد من الخوف ، واصطكّت قدماي اصطكاك أسناني ، وشعرتُ بدوارٍ يلفّ بي الأرض ، وغامت الأشياء في عينيّ ، وزاغت نظراتي وأحسستُ أنّ رأسي قد انقلب ، وأنّني صرتُ أنظر إلى الشّيخ بالمقلوب ، وبقيت الدّنيا تدور في عينيّ ، ولا أرى من الشّيخ إلاّ صورته الّتي تتحرّك في كلّ اتّجاه ، وشفتَيه اللّتَين صارتا تهتزّان بشدّة دون أن أسمع ما يقول . . . ثمّ سقطتُ على الأرض وذهبتُ في غيبوبةٍ بعيدةٍ . . .

لا أدري كم من الوقت قد مرّ قبل أن أستيقظ على صوت جدّتي وهي تنادي عليّ ، أين ذهبْتَ يا واثق ، أتفعل بي ذلك وأنا أقول إنّك عاقل وتسمع كلامي ، أأطلب منكَ أن تأتيني بالأكياس الخمسة ، ثمّ تأتي إلى هذا المكان وتنام هنا كأنّك في نزهة . . . لقد أقلقْتني يا بنيّ !!!

استيقظتُ مرعوبًا ، نظرتُ في اتّجاه المكان الّذي كان يجلس فيه الشّيخ لم أره ، صحتُ بجدّتي صيحة المستغيث :

– أنا آسف . . . أنا آسف . . . ولكنْ . . . لقد كان هنا!!

– من هو الّذي كان هنا . . . لم يكن هنا سواك تنام وتُبرطع على هذه الحجارة . . .!!

– لقد كان هنا ، وشعرتُ بـ . . .

– بدأتَ تحتال عليّ يا واثق . . . قم والحْقْ بي . . . أمّك ستأتي بعد قليل . . .

وخزني ألمٌ شديدٌ في رأسي ، قمتُ من ضَجعتي وتحسَّسْتُ رأسي ، كان بعض الدّم قد ثعب منه ، غير أنّه قد جمد ؛ يبدو أنّه مرّ عليه وقت طويل . . . هُرِعتُ لألحق بجدّتي فقد رأيتُ فيها نجاتي من الرّعب الّذي تملّكني من حديث الشّيخ!! مشيتُ خلفها ورحتُ أفركُ رأسي وأسأل نفسي :

– أينَ ذهب الشّيخ؟! هل كان موجودًا حقًّا؟! جدّتي لم تصدّقْني . . . ظنّتْ أنّني أحتال عليها!! هل يكون الّذي رأيُته خيالاً؟! هل تهيّأ لي جرّاء قصص أمّي الّتي تقصّها عليّ قبل النّوم؟! ربّما . . . ولكن . . . لا أدري . . . قفزتُ بخفّة ونشاط خلف جدّتي فقد أخرجتْني للتّو من دائرة الموت وأعادتْني إلى الحياة . . .

حين مالت الشّمس عن عرش السّماء قليلاً ، بدا طيف أمّي يتهادى من بعيد ، وهي تحمل طبقًا على رأسها ، عرفتُ أنّه وقتُ الغَداء . . . تعوّدتْ أمّي أن تلحق بجدّتي بعد أن تكون قد فرغتْ من أعمال البيت في القرية ، وصنعتْ طعام الغداء ، لكي تُعينَ جدّتي على ما تبقّى من نصف النّهار الثّاني . . . تصل الشّابّةُ الرّشيقة ، وهي

تلبس ثوبًا قرمزيًا ، وتلفّ غطاءً فاتِحًا فوق رأسِها ، تقبّل يد جدّتي ، وتبدؤها :

– الله يعطيك العافية يَمّه . .

– الله يعافيك . . .

– شو كم شوال عبّيتي اليوم . . .

– ستّة . . . الحمد لله . . .

– كويّس . . . شو أخبار ها الصّبيّ معك . . .

– كويّس . . . بس . . . (تصمت ، وتلتفت جدّتي إليّ ، فأعاجِلها بنظرة استِعطاف ألاّ تُخبِرَ أمّي بما حصل اليوم . . . فلا تخيّب جدّتي لي هذا الرّجاء . . .)

– بس إيش . . .؟! شكله غلّبك وشيّبك . . .

– لا . . . لا . . . واثق ولد مؤدّب . . . ساعدني في ملء الأكياس . . .

تبسط أمّي طبقَها أمامنا ، كانت صينيّة البندورة تفوح برائحة الدّجاج المطبوخِ معها ، وبُخارها يتصاعد فتتصاعد معها شهيّتنا للطّعام بعد يوم شاقّ . . . أمّا الخبز فله رائحةٌ مميّزة ، ظلّتْ تعبق في أنفي إلى اليوم ، وإلى جانب هذه الصّينيّة تزيّن الطّبق ببعض اللّبن الرّائب ، وحبّات صغيرةٍ من البصل . . .

يأكل الإنسان ليُبعِدَ شبح الجوع ، يغرز الجوع أنيابه في عنق الرّغبة ، ويدعو الموت معه ليكون رفيقًا ، لا يمكن أن تدفع هذه الأنياب إلاّ بما يُلقَى في الجوف من اللّقيمات . . . هل يستطيع الإنسان أن يحتال على الجوع؟! ما الّذي يلزمه لينسى أنّه ليس بحاجة إلى الرّضوخ لنداء الرّغبة؟! ما الّذي يحتاجه لكي يسدّ أذنيه أمام صرخات الشّهوة؟!

(٤)
(الشَّجَرَةَ الملْعُونَةَ)

في طريق عودتنا ، كان لا بدّ أن نمرّ بالشّجرة!! ما من أحد سلك طريقًا في القرية إلى أيّ غاية ، إلاّ ومرّ بهذه الشّجرة ، كانت ظِلالُها تمتدّ حتى تغطّي القرية بأكملها ، بسهولها وجِبالها ووديانها . . . لم تكن الشّجرة هي الّتي تعترض طريق السّائرين ، كانوا هم الّذين يقصدونها بوعي أو دون وعي . . . وكان (سيدي علاّم) – كما قالت جدّتي – قد أمرهمً ألاّ يأكلوا من ثمرها ، ذلك أنّ هذا الثّمر مُقدّس ، ويجب أن يبقى منذورًا لوجهه الكريم . . .

عندما صِرتُ قريبًا من جذعها ، حانت منّي التِفاتة إلى وسط الجذع ، بدتْ فيه فجوة كما حدّثني الشّيخ ، تملّكني الرّعب فجأة ، وصارت دقّات قلبي مسموعة لشدّتها وسرعتها ، رحتُ أدير وجهي عنها مُتّقيًا النّظر إليها ، وحاثًّا الخُطا خلف أمّي وجدّتي اللّتين كانتا تتقدّمانني . . .

وصلْنا القرية قبل أن تودّعها الشّمس ، أمسكتْ جدّتي بيدي ، وقالتْ لأمّي :

– سينام واثق عندي اللّيلة .

– أخاف أن يُتعبك . . .

– لا . . . لا تخافي . . .

سلكتْ جـدّتي الزّاروبة المؤدّية إلى غـرفـتـهـا ، وعـبـرت الحـوش الواسع ، ومشيتُ إلى جانبها ، تركتْ يدي لتفتَح الباب . كان الباب عاليًا جدًّا وثقيلاً ، ويحتلّ جزءه الأعلى قوسٌ حجريّ . بعد أن دخلْنا رأينا جدّي قد وصل قبلنا ، وراح يُلقم (الدّاخون) بعض الحطب ليزداد لهب النّار ، من ردهة البـاب ظهـرتْ النّار وهي تلمع على وجه جـدّي وتُحيله إلى راهبٍ يتبـتّل في المحراب . . . كـان سـقف الغـرفـة يرتفع حوالي خمسة أمتار ، وبُني على هيئة الأقواس المُتعاقدة ، وسُقِف بالطّين المدعوم بجذوع غليظةٍ من الخشب . . . وللغرفة شُبّاك واحد ، يغوص الشّباك في صدر الغرفة لأكثر من متر ، ويطلّ على الجبل الّذي يعانق السّماء الأولى . . .

لم يكنْ من نورٍ ليـضيء ظلام الغـرفـة إلاّ اشـتـعـال النّار في الدّاخون ، لم يطل المَقام حتّى أضاءت جدّتي السّراج المُعلّق على يمين الباب ، كان سراجًا يُغَذّى بالزّيت ، عندما تفرك جدّتي حجر القدّاحة أمام فتيلته يظلّ الدّخان الأسود ينبعث من أعلى الفتيلة المُضيئة ، وتنتشر الرّائحة الخانقة لوقتٍ ما قبل أن تتخلّص الفتيلة من هذا الدّخان ، وتبقى الشّعلة الصّفراء المائلة إلى اللّون الأحمر سيّدةَ المكان . . . تُعيد جدّتي السّراج إلى مكانه عند الباب . أنظر إليه وأسرح في شعلته الّتي تتمايل يمينًا ويسيرًا ، تخفُتُ حينًا وتشتدّ حينًا آخر ، ومع تراقص أضوائه تتراقص الخيالات في ذهني ، عاودني حديث الشّيخ ، وبدأ يسمح لغول الذّعر أن يتسلّل إلى صدري ، أوقفه نِداء جدّي لجدّتي :

– من الصّباح لم آكل شيئًا!!

– اصبر شوي . . .

– لا بدّ أن الولد جائع!!
– لا تتحدّث أنتَ باسمه ، دعه يتحدّث هو . . .
– الطّريق من مزارع الزّيتون إلى هنا طويلة . . .
– . . . . .!!!!!

في الجانب الأيسر من الباب كانت تستقرّ خِزانة زرقاء اجتهدتْ جدّتي أن تُخبّئ (المونة) فيها ، وبجانبها قامت على رِجلين قصيرتين (كوارة) الطّحين . . . تُعدّ الخِزانة والكوارة كنزَ الفلاّحين القوميّ . من لا يمتلك كوارة للطّحين فهو جائع ، ومن لا يمتلك خزانة للمُونة فهو فقير . . . جدّي كان ميسور الحال بعض الشّيء . . .

مدّت جدّتي يديها إلى خزانة المونة ، وراحت تُعِدّ لنا طعام العشاء ، بعد دقائق معدودة كنّا نجتمع حول المائدة أنا وجدّي وجدّتي ، كانت المائدة تحوي اللّبنة المدحبرة ، والسّمنة البلديّة ، والدّبس ، والشّاي الّذي يقطر سُكّرًا ، والخبز الّذي اتّفق أن مدّتْ جدّتي يديها إلى (لقن) لفّته بقطعة قماش مليئة بالرُّقع ، وتناولتْ منه بضعة أرغفة ، أخذ جدّي بعضها ، وهيّأ لها مكانًا في الدّاخون وألقى بها فوق بعض الجمرات . . . وإلى ذلك بسطَتْ جدّتي على حافّة المائدة شيئًا من (الخَبيصة) لتكون حَلْوانا بعد الأكل . . .

رفعتُ لقمةً من اللّبنة السّائحة في بركة الزّيت إلى فمي ، ونظرتُ إلى جدّتي ، وسألتُها :
– ظِلّ الشّجرة كبيرٌ جدًا يا جدّتي . . . .
– ألم تتعبْ من الحديث عن الشّجرة . . .
– أكاد أشعر بظلالها تلفّنا هنا في هذه الغرفة . . .
– أكملْ طعامك يا بنيّ . . . يجب أن تنام مُبكّرًا . . .

- ما علاقة الشّيخ عليّ بالشّجرة يا جِدّة؟!

(تأفّفتْ جدّتي من كثرة أسئلتي ، غير أنّ جدّي قطع تذمّرها وشارك في الحديث) :

- هذه الشّجرة مُبارَكة يا بنيّ .

وبين وصف الشّيخ لها بالملعونة ووصف جدّي لها بالمُبارَكة رحتُ أسقط في بئر الشّكّ ، وراح الفضول يأكل من رأسي . . . أتابِعُ مع جدّي بشغف :

- ماذا صنعتْ حتّى أصبحتْ كذلك .

- كانت تَهبُ الخير للناس كلّهم .

- كيفَ؟

تنظر جدّتي إلى جدّي ناهرةً إيّاه عن الاستمرار في الحديث ، ثمّ ترفع الطّعام عن المائدة ، وتنادي عليّ قائلةً :

- واثق . . . تعال إلى هنا . . .

- حاضر يا جدّتي . . .

- تعال . . . سأُعدّ لك منامك . . .

أدخل من تحت الغطاء وأرمق جدّتي بنظرة استجداء فاضحة ، وأعرف أنّ جدّتي لن تترك الأمور تمرّ هكذا :

- ماذا تريد بعد كلّ هذا يا واثق . . .

- الشّجرة يا جدّتي . . .

- ما بها؟! ألم تشبع من حديث جدّك عنها؟!

- صرتُ أحسّ بالخوف منها .

وكأنّ جدّتي شعرتْ أنّني أعرف أشياء ، وأنّ الخوف قد يسرق منّي النّوم هذه اللّيلة فسارعتْ إلى القول :

– وماذا تريد أن تعرف عنها؟!

– كلّ شيء . . . كلّ شيءٍ يا جدّتي!!

اعتدلتْ جدّتي في جلستها ، وراحت تقصّ الحكاية ، كأنّها تستمتع بها أكثر منّي . . .

– سمعتُ يا بنيّ جدّتي تقول لي إنّ الأجداد قد توارثوا هذه الحِكاية عنها : لم يكنْ في هذه المنطقة أحد حينَ هبط ملاكٌ من السّماء ، وغرسَها في قلب هذه القرية . . . كانت هذه القرية موحِشة ، مُقفرة ، تخلو من أيّ مظهر من مظاهر الحياة ، لا نباتات ولا أشجار ولا مِياه ، ثمّ هوتْ أفئدة النّاس إلى هذا المكان ، وبدأت الحياة تدبّ في هذا الجسد ، ظلّت الشّجرة قلبَ المكان ، ومن حولها نشأت البيوت ، وقامت الدّور ، وتكاثر النّاس ، وامتدّت المزارع ، وانفجرت المياه ، وتناسلتْ الخِراف والشّياه والخيول . . . وعاش النّاس في رغدٍ من أمورهم ، يأكلون طعامًا هنيئًا ، ويشربون ماءً عذبًا ، وتجد حيواناتهم مثل ما يجدون وأحسن . . . إلى أن جاء واحدٌ من خارج القرية ، وأعلن في النّاس أنّه سيقطع هذه الشّجرة ، وأنّها إن بقيت فستكون سببًا في الجحيم الّذي سيصيب كلّ مَنْ يمرّ بها . . . بالطّبع قام النّاس في وجهه ، وثاروا على هذا الغريب الّذي سيقتلع جذور البركة من قريتهم ، وحاولوا منعه ، إلاّ أنّه كان جبّارًا وبطّاشًا ، ولم يجدِ النّاس إلى ثنيه عن عزيمته وسيلةً ، فتوجّه إلى الشّجرة ، ولمّا صار قريبًا منها ظهر طائران أسودان كبيران في السّماء ، برزا من جهة الجبل الّذي يعانق السّماء الأولى ، ذُهِلَ النّاس لمنظرهما ، ولم يكونوا قد رأوهما أو رأوا مثلهما من قبل ، ظلّ هذان الطّائران يقتربان من الرّجل ، كان جناحاهما يغطّيان الشّجرة ومن حولها ، وعندما صار أحدهما فوق رأس الرّجل ألقى عليه

حَصاةً ملتهبةً فأصابت وجهه فاحترق من لحظته ، وسقط على الأرض ميّتًا ، ثمّ جاء الطّائر الثّاني واختطفه من الأرض ، وطار به بعيدًا بعيدًا جهة الجنوب حتّى اختفى من القرية كلّها . . . نزل النّاس من بيوتهم مشدوهين لِما رأوا وراحوا يُصلّون شكرًا لله تحت ظلّ الشّجرة ، وأقاموا الاحتفالات والمآكل مُبتهجين . ثمّ عادوا إلى بيوتهم ، وهم يتحدّثون غير مُصدّقين لِما رأوا . كان ذلك مساء يوم الخميس ، في ليلة الجمعة قال أحد الصّالحين في القرية إنّه رأى شيخًا يبدو عليه الوقار والمهابة يخرج من جذع الشّجرة ، ويسلك شِعاب القرية ، واصِلاً إلى بيوتها . . . كان هذا الشّيخ – كما أكّد كثيرٌ من أهل القرية الّذين رأوه أو التقوه – يزور المرضى حامِلاً في يديه الدّواء لهم ، ويمسح بيديه على رؤوسهم فتزول عنهم آلامهم وشكاتهم ، وكان يقوم على العناية بأمور المُسّنين والعَجَزة ، كان أهل القرية يدعونه (ذا النّون) . . . (سكتت جدّتي وتنهّدت تنهيدة طويلة . . .)

– ماذا يا جدّتي . . .

– النّاس . . . النّاس . . .

– ماذا . . .؟! ما بال النّاس؟!

– صار النّاس يا جدّتي في القرية كلّما أصابهم مكروه استغاثوا به ، وتوسّلوا إليه ، ونادوا باسمه : يا ذا النّون . . . يا ذا النّون . . . كانوا يستغيثون به إذا أصاب المرض صغيرًا أو كبيرًا ، أو طرحت الحمّى أحدهم في الفِراش ، وصاروا يدعونه إذا فقأ البكاء حنجرة طفلٍ فلم يهدأ صراخه ، حتّى النّساء اللّواتي يَلِدْن نادين باسمه وهنّ يُقاسين آلام المخاض . . .!!

– وهل هو قويّ وحاضرٌ دائمًا؟!

- يا جدّتي . . . النّاس تمضغ الأوهام!!

- هل كان يستجيب لدعوات المرضى والموجوعين؟!

- النّاس غرقى في بحر الحرمان ، يتعلّقون بقشّة . . . ولكنْ ها أنذا حدّثتُك حديث الشّجرة ، آن لك أن تنام . وفي الغد إذا خرجتَ معي إلى المزارع ، وكانت صحوًا ، فسنجلس أنا وأنتَ تحتها قليلاً . . . ما رأيك؟!

- حقًّا يا جدّتي!!

- ألم تعدْ خائفًا؟!

- لا . . . سيدي ذو النّون يحمينا!!

- الحامي من لا يردّ دعوةَ محروم!!

غابتْ جدّتي في دهاليز الظّلام ، بعد أن أطفأت السّراج ، وظلّ جمر الدّاخون متّقدًا بعض الشّيء ، لم يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد ، رحتُ أُحِدّ النّظر فيه ، بدا الدّاخون غابةً متشابكة الأشجار ، تلفّه الظّلمة من كلّ اتّجاه ، وتنغرس في أجماته طوائف من الحيوانات المُفترسة ، ذئاب وضِباع وفهود ونمور وأسود ، لم يظهر منها إلاّ عيونها الّتي اتّقدتْ كواكبَ من جمرٍ . . . لم تتغلّب مخاوف خيالاتي بوجود الحيوانات المفترسات على طمأنينتي الّتي أشاعها الدّفء النّاضح في المكان ، ووجود جدّي وجدّتي في أقصى الغرفة . . . ظلّتْ عيناي معلّقتين بالجمر ، ولا أدري من انطفأ منهما قبل الآخر ، هما أم هو!!!

(٥)
وفي قِمّة الجبل كان (العُقاب)

تعلّمتْ من أمّي كلّ شيء ، وكبرتْ قبل أوانها ، وظلّتْ تفتح الطّريق أمامي ، وتسير قبلي ، وتُفكّر عنّي ، وتكونُ حكَمًا على ما أفعل ؛ لأنّها تحمل فؤاد فارس ، وشجاعة مُحارِب . . . تلكم أختي سُميّة . كانت نجمةً في فَلَك العائلة الممتدّة الّتي تعيش كلّها في حوش واحد . كانت سفينة نجاة لأعمال الفلاّحين الّتي لا تنتهي . . . تعرفُ كلّ شيءٍ ، وتقوم بكلّ شيء . وكنتُ أحسّ أنّني تلميذٌ بين يديها بالرّغم من أنّها لا تكبرني إلاّ بعام . . . لكنّه عامٌ صقلها قطعةً من الماس عصيّة على الكسر ، وإلى صلابتها تُقاس كلّ الأعمال . . . أمّا أنا فبدوتُ رقيقًا ، أطيش في شبر من الماء ، تأخذني الحكايات وتلعب بي ، تستهويني نجوم السّماء في اللّيالي الباردة ، وأسرح في موقد جَمْر ، وتطوّحني الظّنون في كلّ اتجاه ، وأخاف لمجرّد رفّة جفن ، وأبكي متى رأيت خروفًا تعثّر من على السّياج وكاد يهوي على الأرض . . . أمّا هي فبدتْ الصّخرة الّتي تتحطّم عندها كلّ الأمواج . تعمل بكبسة زرٍّ واحدة ، كانت أمّي تقول عنها : (لَهْلُوبِة) وتقول عنّي (نايِطْ) . . . تعلّق كلّ آمالها عليها ، وتيأس حينَ تفكّر بي ، وتتساءل متعجّبة : (كيف رَحْ يفتح بيتْ هَالوَلَد؟!)

قسوة الحياة لم تترك مجالاً للعواطف في بيتنا ، كانت أمّي صارمةً

مع سميّة ومعي ، غير أنّ صرامتها كانت تؤتي ثمارها مع أختي ، وتصبح عجفاء معي ، كم تورّمت أذناي لطول ما شدّتهما أمّي وهي تؤنّبني على فعلٍ ما ، وكانت تهوى أن تضربني بقعر شُبشُبِها المليء بالأتربة والحصى على قفاي ، وتحزن لأنّ قفاي لم تكنْ مليئة كما تشتهي لكي تجد ضربتها لها صدى ، كانت تضحك وهي تقول لامرأة عمّي : شوفي شوفي قفاه . . . قدّ اللّيمونة . . . وتبادلها امرأة عمّي ضحكة أوسع . . . أمّا أنا فأنزوي خجلاً في أحد أركان الحوش ، هاربًا منهما ، ومُتذرّعًا بالتقاطي أحد الأحجار عن الأرض . . .

سميّة طفلةٌ من طرازٍ فريد ، تنتقل بخفّة غزال ، وتعمل بديناميكيّة آلة ، عيناها العسليّتان كانتا (كاميرا) تلتقط كلّ شيء ، كثيرًا ما رأيتُها تُحدّهما حين تنظر في الأشياء كأنّها تريد أن تقول من خلالهما كلامًا . كانت نحيلة الجسم غير أنّها لم تكن ليّنة لطفلةٍ في عمرها ، بل كان عودُها صلبًا قويًا ، صقله الشّقاء الّذي لم يكنْ يترك لها مجالاً لكي ترتاح . شَعرُها كان أسود فاحِمًا ، كنتُ أشاهدها في الصّباح وهي تُرجّله وحدها وتعتني به دون أمّي ، ثمّ تربطه على جانِبَي رأسها عنقودين من ليل . أمّا أنفها فكان دقيقًا مرسومًا بعنايةٍ فوق وجهها ، وأمّا بشرتها فكانت حنطيّة ، صافيةً ، تشكّلتْ فيها تقاسيم الوجه بسلاسةً فغدتْ كأجمل ما يكون . ولولا أنّها كانت قليلة الضّحك ، لقلتُ إنّها كاملة الأوصاف .

أيّ فتاةٍ كانت أختي ، وقد جمعتْ بين البراءة والشّقاء ، وبين الطّفولة والمسؤوليّة ، وبين اللّهو والجِدّيّة ، مَنْ كانت حينَ أنظر إليها ، أهي أختي الّتي تمنّيتُ أن أجدَها رفيقًا لي من أجل أن نلعب قليلاً ، وأن نستمتع بطفولتنا قبل أن تُهاجمنا سِهامُ الزّمان؟! أم صاحبة

البيت ، وساعِدُ أمّي الأيمن وهي تتقاسم الأدوار معها؟!

لقد عبرتْ صِراطَ الطّفولة مسرعة ، لم تأخذ منها سوى اسمها ، طبيعة العيش القاسية جعلتْ منها فتاةً قويّة ، صلبة المِراس رغم سنيّها السّبع ، لم يرها أحدٌ إلاّ لفتتْ انتباهه بشدّة حرصها على الأشياء ، ومراقبتها لكلّ أمر ، وجاهزيّتها لكلّ طارئ . . . كانت تحفظ ممتلكات العائلة حتّى ولو كان قطعة قماش بالية ، ونصّبتْ نفسها دون أن تدري مسؤولةً عن هذه الممتلَكات ، والويل لمن يُحرّك شيئًا من مكانه في غياب رقابتها ، أو يستعيره دون أن يستأذنها . . . كانت محطّ أنظار الجميع ، على العكس منّي كنتُ مُهمَلاً إلى الحدّ السّاحق . بيدَ أنّ جدّتي كانت حضنًا دافِئًا يحميني من الإهمال ، ويسقيني زُلالاً من ماء الاهتِمام ، وبين يديها وجدتُ مهربًا من الحياة القاسية الصّارمة الّتي وجدناها مفروضةً علينا . . . ولا أدّعي إن قلتُ : إنّني كنتُ محبوبَها الأوّل وربّما الوحيد . . . استأثرتُ بالذّهاب معها إلى الحقول والمزارع ، ولم تكن تأخذني لكي أعمل ، كانت تأخذني فقط لكي أتسلّى . واستأثرتُ بالمبيت عندها دون القِيام بأيّ مجهود ، أجد النّار موقَدَةً والطّعام جاهِزًا والفِراش دافئًا . . .

لم أكن أعرف هل أحسد أختي أم أحزن عليها . . .؟! غيرَ أنّ حزني لم يكنْ له أيّ معنى وأنا أراها تقفز من مكانٍ إلى مكان ، وتضجّ بالحيويّة ، وتمتلئ بالنّشاط والحركة . كانت حركتها في البيت تجعل من البيت كِيانًا قائمًا على رِجْلٍ واحدةٍ ، ولها قدرةٌ على بثّ الحياة فيه حتّى أكثر من أمّي . . .

أمّا الحسد والغيرة ، فكانا ذئبين يُهاجِمان باحة شعوري ، ولكنّهما سرعان ما يُولِّيان هارِبَين حينَ أجد جدّتي تضع كفّها بحُنُوٍّ في يدي ،

وتُجلِسني في حِـجـرها وهي تُلاعـبني : (هاي الخَـبّـازِة . . . هاي العجّانة . . . هاي . . .)!!

ماذا كانت تصنع أختي؟! كلّ أعمال البيت؟! ولماذا وهي ما زالت طفلة؟! لا لشيء ؛ كلّ مَنْ هو على شاكلتـها ربّمـا يُعاني مـا تُعاني!! ولكنْ هل كـانت أختي بالفـعل تُعـاني؟! أم أنّ فِكرة المعـاناة لم تكنْ تخطر لهـا على بال ، وهي منهـمكة في أداء الواجِبـات . . .؟! لستُ أدري . ولكنّ أختي ظلّت قـمرًا يدلّ على أنّ كلّ مـا حـولهـا ظلام ، ووحــدها اســتطاعت أن تهب الآخــرين بعض الأمل ، وتُضيء لهم الطّريق ، وكنتُ أحدَ هؤلاء!!

في الصّـباح تُهيّئ لجـدّي حِصـانه ، وتنثر الحَبّ أمام الدّجاج ، وتتأكّد من أنّ الحوش نظيفٌ وجاهِزٌ لاستقبال يومٍ عائليٍّ جديد . كانت تفعل ذلك قبل أن تذهب إلى المدرسة . . . وعندمًا تعود كانت تُساعِدُ أمّي في إعداد الطّعام الّذي غالبًا ما كانت تذهب به أمّي جهة الشّمال حيثُ جدّي ، أو جهة الغرب حيثُ جدّتي ، ولا تُبقي أمّي لنا منه إلاّ ما يسدّ الرّمق . وفي المساء كانت تنتظر الخِراف والمِعاز من أجل أن تقوم بِحَلبِها ، وتتأكّد من أنّ التّبن المخلوط ببعض الشّعير قد جُهّز في معلف الدّوابّ ، ووضع ماؤها قريبًا منه . وما بين الصّباح والمساء يحدث أن تفتح كتابها المدرسيّ ، وتترنّم ببعض الأناشيد كأنّها لم تقم بشيء ، وكأنّ التّعب لا يعرف إلى جوارِحها طريقًا . وكثيرًا ما كانت تجلس في بعض الأماسيّ إلى جـانب جـدّتي تخضّ مـعـهـا اللّبن لتُـصنع منه الزّبدة!!

في المدرسة ، وجدتْ فيها المعلّمة (أزهار) ضالّتها ، كانت أختي تقوم مقامَها . حين ترتاح (أزهار) في غرفة المعلّمات ، كانت أختي

تشمخ بجسدها النّحيل ، تقف مكانها في الصّفّ ريثما تعود ، فلا تكاد تسمع للصّفّ رِكزًا . شخصيّة أختي كانت طاغية ، فنظرةٌ واحدة من عينيها الحادّتين كفيلةٌ بأن تجعل بنات الصّفّ كأنّهنّ راهباتٍ في حضرة القِدّيسة ، أو عابِدات في محراب التّبتُّل ؛ هدوءٌ يلفّ أرجاء الصّفّ يُلقِي بظلاله أطول مِمّا لو كانت المعلّمة موجودة ، وقائمةً فوق الرّؤوس!! لِمَ كانت أختي تُقحِم نفسها في هذا المضمار؟! لماذا كانت تعذّبني بالخوف منها أو بالخوف عليها؟! لا أدري!! كنتُ أشعر أنّها عالَمٌ آخر يكادُ يحلّق بعيدًا عنّي ، ويصعب عليَّ اللّحاق به . . . كانت تطير فوق الغيوم بينما تعوجّ رقبتي ، ويبعجها الألم وأنا أُطيل النّظر إلى مَقامها المحمود . . .

في الصّفّ لا تجرؤ طالبةٌ على أن تلفّ رأسها يمينًا أو شمالاً ما دامت تقف أختي قبالَتها . كانت تحفظ أسماء البنات غيبًا ، ولم يكن يُعوزها أن تدير ظهرها للصّفّ لتكتب اسم من تحرّكتْ من مكانها لمجرّد الحركة . . . ذلك أنّ حركة إحداهنّ كانت شبه مستحيلة ، ونادرةً تمامًا ، ولا حاجة للكتابة ما دامت الأسماء والأشكال والحركات مرصودة في (كاميرا) العين ، ومحفوظة في الذاكرة . . .!!

قدرة أختي سميّة على الحِفظ كانت مُذهِلة ، تحفظ عدد الخطوات الّتي تمشيها من باب الحوش إلى باب المدرسة ، وتحفظ عدد الدّرجات المُفضِية إلى غرفة الإدارة ، وتحفظ كلّ ما تقرؤه في الكتاب من نصوص ، حفظتِ الآيات القرآنيّة ، والأحاديث الشّريفة ، والقصائد الشّعريّة ، والخُطب القصيرة . وفي المدرسة كانت تحفظ أسماء الطالبات والمعلّمات جميعهنّ ، وكانت تتسلّى في الفرصة بعدّ الأسماء المتشابهة ، فتبدأ مع زميلاتها هذه اللّعبة : تعالَوا لنعرف كم واحدة في

المدرسة اسمها (رحمة) ، وتقف صاحباتها أمامها في استمتاع طاغٍ ، وذهولٍ تامّ ، وهي تعدّد :

- رَحْمة قاسم . . .
- رحمة سليمان . . .
- رحمة مُفلِح . . .

هؤلاء الثّلاث في الصّفّ الأوّل في الشّعبتين ، أمّا في الثّاني فهناك سبعة ، هنّ :

- رحمة فيّاض . . .
- رحمة سعيد . . .
- . . . .

وتبقى هكذا تُعدّد الأسماء بمقاطعها الثّلاثة ، دون أن تُخطِئ أو تتلكّأ ، وتنتقل بأسلوب تفصيلي تقسيميّ إلى بقيّة الأسماء المُتشابهة . . .!! ويحدث أحيانًا أن تصنّف الأسماء حسب العشائر والعائلات . . .!!! هل أضافتْ أختي إلى مواهبها المتعدّدة علمَ الأنساب؟!!!

هل لأختي مُستقبل؟! كانت الأولى على صفّها دون مُنازِع ، ماذا يمكن أن تفعل في الامتحان طفلةٌ تحفظ الكتاب من الجِلدة إلى الجِلدة بالإضافة إلى أسماء المؤلّفين ، وعدد الصّفحات ، وعدد الرّسومات في الكتاب . . .؟! كانت هواية أختي في التّصنيف لا يُمكن أن يفكّر بها كائنٌ عاقل ، في كتاب اللغة العربيّة والتّربية الدّينيّة والاجتماعيّات والمِهنيّ ، كانت تحفظ أسماء الحيوانات الّتي وردت في هذه الكتب كلّها ، وتستطيع أن تقول لك كم مرّة وردتْ صورة الأسد مثلاً أو الأرنب أو الثّعلب أو غيرها ، بل أبعد من ذلك ؛ تُخبِرك كم مرّة ورد

الاسم كتابةً وكم مرّة ورد صورةً!!! وكان جدّي مُولَعًا بها ، وأحيانًا يمازِحها أو يُحاوِل خداعها ، فيصمت كأنّما يريد أن يوقِعها في الخطأ :

– امممم . . . تُرى كم مرّة ورد ذِكْر الفِيل في كتاب العربي يا سُميّة؟!

فتُجِيبه فورًا كأنّ أحدًا ضغط على آلة التّسجيل :

– ولا مرّة يا جدّي!!

– آآآآآآه . . . لا يُمكن التّغلّب عليك . . . أنت فتاةٌ شقيّة!!

ماذا كان يفعل القَدَر بطفلة مثلها؟! يقف لها فاتحًا أمامها كلّ الدّروب ، ومادًّا لها كلّ الأيادي ، ومُشخِصًا نحوها كلّ الأبصار!! وماذا أفعل أنا أمام جلالها : أقف مراقِبًا كلّ خطوة ، ومُتابِعًا كلّ حركة . ينقر الحسد قلبي أحيانًا ، ويشرب الأسى أحيانًا من ماء أعماقي ، ولكنّني – كغيري – لم أكن أستطيع أن أُخفي إعجابي بها!!

لماذا أحسدُ أختي؟! هل هناك من عاقلٍ يفعل ذلك؟! ومن قال إنّني كنتُ عاقلاً؟! كنتُ طفلاً أختصر الكونَ فيما أراه ، وأشكّله بناءً على مستويات شعوري ، وأصنّفه استِنادًا إلى ما أفهمه منه ، وأتعامل معه في حدود ما يسمح به خيالي الخادع في أغلب الأحيان . كنتُ . . . كنتُ متروكًا على قارعة النّسيان ، ومرميًا في قعر الإهمال ، ولولا جدّتي لكنتُ أبلهَ أتبعُ أذناب الشّياه ، وأمتطي ظهور المِعاز ، وأشرب مع الكلاب في نفس الإناء ، وأدورُ حول نفسي دون معنى في السّاحات والطّرقات . . .

كانت (سميّة) قانون العائلة ، إذا عزفتْ أرحْنا هاماتنا على صدورنا ، ووضعنا أكفّنا المُطبقَة على وجوهنا ، ورُحنا ننصتُ بخشوع تامّ . . . هل كانت السّاحرةَ الّتي خلبتْ عقول كلّ مَنْ ضمّهم هذا

الحوش؟! ما الّذي ركزه الله فيها حتّى تكون قائد الأوكسترا الوحيد القادر على انتزاع الإنصات مِنّا جميعًا ، لكأنّه كان يُخيّل إليّ أنّ الخِراف في الصِّيَر ، والدّجاج في الأقنان كان يعتريها الخشوع انبِهارًا بما تفعله هذه العازفة على آلة العشق الخالِدة!!!!!

لم نكنْ نلتقي في لهونا كثيرًا ، استأثرتْ هي باهتمام الجميع ، وبالأخصّ جدّي ، وبُؤت أنا بإهمال الجميع لولا جدّتي ، قليلةٌ هي المرّات الّتي خرجْنا فيها معًا إلى المزارع ، أو التقينا فيها أمام سنابل القمح ، أو تحت أشجار الخوخ والمشمش في طلْعاتنا مع العائلة أيّام الحصاد أو القِطاف . . .

عنّ ببالِ جدّي مرّة أن يأخذنا معًا ، لم أكن المقصود بالطّبع في هذه الرّحلة الثّنائيّة المُشتركة ، ولكن كما يقولون : (بحجّة الوَرْد بِشْرب الصّفصاف) . . . كان ذلك صيفَ العام الفائت .

يطلع الصّبح مبكّرًا ، ومع ذلك فالفلاّحون يستيقظون قبل الشّمس ، هم الّذين يوقِظونها بدلاً من أن تفعل هي ذلك!! أخرج جدّي الحِصان من الإسطبل ، كان الإسطبل عبارة عن غرفةٍ تساوي في حجمها الغرفة الّتي ينام فيها جدّي ، تقع على يسار الدّاخل إلى الحوش ، وكانت تضمّ بالإضافة إلى الحِصانين ، أكياس التّبن المُتراكمة فوق بعضها في عمق الغرفة ، كان حجم كلّ كيس من هذه الأكياس بحجم الحِصان نفسه . وقد جمعها جدّي بعد موسم حصاد القمح الفائت ، عندما ذرّى التّبن في البيدر ، وحشاه في هذه الأكياس الّتي زاد عددها عن العشرين ، احتفظ جدّي ببعض هذه الأكياس ليُطعِمَ دوابّه ، وخصّص القسم الآخر منها ليبيعه لِمَنْ لا تِبْنَ له . كان التّبن للدّواب في بعض الأحيان يساوي الخبز للإنسان!! وكان جدّي يحرص

على ما يملكه من الخِراف والخيول والدّجاج ربّما حرصه على العائلة الممتدّة ، على أبناء الحوش الواحد . وليس من السّرّ أن يُقال إنّ الحرص على ضمان حِصّة الدوابّ من الطّعام أكبر من الحرص على حصّة البشر من الطّعام ، فالدّواب لا يمكنها أن تدبّر أمر نفسها - هذا ما كان يقوله جدّي - ولا بُدّ من أحدٍ لكي يُدلّلها . أمّا غرفة الإسطبل ، فكانت نسخة عن غرفة نوم جدّي ، وربّما تتوقّف فيها الشّمس ، لتغرقها بالدّفء أكثر ممّا تتوقّف في الأخرى . . .

قاد جدّي الحِصان من رَسَنه إلى الحوش ، مشى جدّي أمامه فارسًا حقيقيًّا ، وتَبِعه الحِصان جُنديًّا طائعًا ، جدّي يحدب على الحِصان ويعطِف عليه كأحد أبنائه . كان السّرج مُعلّقا على الجِدار الخارجي للغرفتين المُقابِل للحوش . تناوله أيضًا جدّي من الجِدار مثل شاعرٍ يتناول كِتابًا من رفّ المكتبة ، ثمّ نظر إليه نظرةَ حبٍّ مثل راهبٍ ينظر إلى كتابٍ مُقدّس ، ووضعه بلطف على ظهر الحِصان ، وقفزتْ في الحال أختي إلى الجانب الآخر من الحصان بطريقةٍ مدروسة ، كأنّها كانت تنتظر هذه اللّحظة ، ومدّت بالحبل إلى جدّي ، تناوله جدّي في الطّرف الآخر ، وراح يشدّه ببطء وعنايةٍ على بطن الحِصان لكي يثبّت السّرج . ثمّ خرجْنا جميعًا أنا وأختي وجدّي والحِصان .

عَبَرْنا الحوش ، راجلين ، ومشينا في الطّريق الّتي تهوي نزولاً عبر البيوت نحو الوادي . كانت الشّمس تقع في عيوننا فتنتفض الحياة في أجسادنا ، أيّ سرٍّ في الشّمس يجعلها في الصّباح لطيفةً ، ويجعلها في الظّهيرة قاسِية؟! أيّ سرٍّ فيها يجعلها في الشّتاء مرغوبةً كأنّها اليد الّتي تمتدّ من الغرق لتنقذنا ، ثمّ يجعلها في الصّيف مرهوبة ، كأنّها السّوط الّذي يلسع رِقابنا؟! ترتقي الشّمس عبر قبّة السّماء رويدًا في البداية ،

وكأنّها تسلّم علينا ، وها نحن نأخذ من دِفئها ما نحمله معنا وقودًا مُعينًا على المسير في صباح مُبكّرٍ كهذا خلتْ فيه الطّرقات إلاّ منّا ، نحن القافلة الصّغيرة الّتي تشقّ طريقها نحو الجبل الّذي يُعانِقُ السّماء الأولى .

بدت البيوت علبًا من الكبريت تتناثر بشكلٍ عشوائيّ ، خِلْتُ أنّ الموت جثم على صدرها ، فلم يخرج منها ناج ، ولولا صياح بعض الدّيكة القادم من صِيَرها وأحواشها لقُلتُ إنّ العذاب قد حلّ بالقرية .

ظللْنا راجلين نهبط على مهلٍ ، جدّي عند رأسِ الحصان ، وأختي عند بطنه ، وأنا عند ذيله ، حتّى وصلْنا إلى صخرةٍ كان جدّي يُحدّد عندها لحظة الرّكوب . صعد جدّي فوقها ، وأوقف الحِصان ، قفزتْ أختي عنده في لمح البصر ، ومدّ هو يده إليّ لِيُساعدني . وقفْنا ثلاثتُنا على الصّخرة . شدّ جدّي الرَّسَن ناحيتَيه قليلاً في إشارة يفهمها الحصان ، وصاح :

– هوس . . . هوووس . . . هوس .

ثمّ أشار لسميّة ، فامتطت الحِصان بحركةٍ رشيقة كأنّها تدرّبتْ عليها مئات المرّات من قبل . صاح جدّي :

– يا سلام عليكي . . . بطلة . . . والله بطلة . . .!!

(وأنا؟! قلتُ ذلك في نفسي . ماذا كنتُ؟! دابّة مثلاً؟! أم خِرقة قماشٍ بالية مرميّة في الزّواريب؟! أم غصنَ شجرةٍ يابس كلّما مُدّت إليه يدٌ تقصّف؟! إذا كانت هي بطلة ، فماذا أكون أنا؟! فاشلاً يتسكّع في الطّرقات؟! لماذا تنهض المُقارنة بيني وبين أختى مثل رمحٍ يفقأ عينيّ الاثنتين في غَبَش الظّلام؟!!)

ثمّ أشار لي ، فَهَمَمْتُ غير أنّي رجعت ، ورحتُ أتحرّك أمامًا وخلفًا

والخوف من السقوط أسفل الصّخرة وبين قدمي الحِصان يُسيطر عليّ .
نهرني جدّي :
- يلاّ . . . يلاّ يا ولد . . .!!

زادَ ذلك من خوفي وارتِجافي بدل أن يُشجّعني . وراح قلبي يقفز كذيل سمكة ، ثمّ تأفّف جدّي قبل أن يحملني ويضعني خلف أختي . وهكذا فازتْ أختي بالثّناء الّذي تستحقّه ، وبؤتُ أنا بالتّأفّف الّذي أستحقّه!!

رحْنا نهبط في الطّرق المتعرّجة الّتي حُفّت بالأشجار والبيوت ، حتى وصلْنا الوادي . في الوادي مِياهُ عذبة ، قدّم جدّي الحِصان ليشرب ، ثمّ انحنى هو وملأ من الماء وعاءً بلاستيكيّا وأعطاه لنا لنشرب ، وراح يغسل وجهه بالماء ويُنشّفه بطرف ثوبه وهو ينظر إلى الوادي نظرةَ عاشق . . . أخذْنا معنا من الماء ما يُعيننا على إكمال الطّريق ، وشدّ جدّي الحِزام الّذي ينتطقه على وسطه جيّدًا ، ولفّ (الشّورة) على رأسه بقوةٍّ ، واستعدّ للمرحلة الأصعب ، حيثُ صعود الجبل الّذي يُعانق السّماء الأولى!!

في الصّعود إلى الجبل المهيب ، ظلّ جدّي يسير أمامنا ، ونحن على ظهر الحِصان نتبعه . العلاقة الوطيدة بين جدّي والحِصان جعلتْ الرّحلة الشّاقّة الّتي نقطعها على ظهره تتخلّى عن بعض شقائها لصالح مساحةٍ من المتعة واللّهو . مررنا في الطّريق بكثيرٍ من الحقول والمزارع والضِّياعٍ ، كلّما مرّ جدّي بفلاّح يعرفه ، صاح جدّي من بعيد :
- قُوّة!!
- قويت!!
- شو أخبار الموسم؟!

- خير . . . خير إن شاء الله !!!
- هالسّنة زرعت قمح ولاّ شعير؟!!
- لا قمح ولا شعير؟!
- شو لعاد؟!
- كَرْسَنِّة!!
- آه . . . يلّه . . . كرسنّة . . . مليح؟!!!!

ثمّ نتابع السّير صُعودًا ، يتعب أحيانًا جدّي في هذه الطّريق الطّويلة ، فيستريح على ظهر سِنْسلة امتدّت على جانب الطّريق ، ويحدث أن يُسرع نحوه صديقٌ قديم فيُعانقه ويبدأ معه حديثًا من نوعٍ ما!!

لاحظتُ أنّ الطّيور في أسفل الجبل كانت قليلة ، وصغيرة الحجم ؛ لم تعدُ أن تكون بعض (العصافير) و(الحساسين) الّتي انتشرت حول منابع الماء ، حينما وصلنا السّفح صرنا نرى (الزّريقيّ) و(الحجل) و(الحَمام) و(الحُمّر) ، وفي قمّة الجبل ، كان (العُقاب) سيّد الطّيور يُحلّق على ارتفاع شاهق في عدد من بني جِنسه . . .

الطّيور صغيرةً كانت أم كبيرةً اتّخذت من السّماء موطنًا لها ، وإذا أرادت مسكنًا فعلى أعالي الأشجار ، لماذا نتّخذ نحن مساكننا في الطّين ، وفي الجحور وبين الزّواريب ، ويحلو لبعضنا أن يدفن نفسه تحت الأرض!!!!

(٦)
المائدةُ عشاءُ أفراحنا الأخيرة

كانت البيوت ترافقنا حينًا ونحن نصعد الجبل من مستقرّه وتتخلّى عن مرافقتنا أحيانًا ، حدث هذا في أوّل الجبل حتّى وصلْنا إلى منتصفه ، ولكنّها بعد منتصفه تخلّت عن مرافقتنا تمامًا . وحدها الأشجار ظلّت أمينة لصداقتنا فكانت معنا طوال الطّريق . . . للأشجار عاداتٌ لا تُغيّرها ؛ اكتشفتُ أنّها تبقى ثابتةً مكانها لا يُمكن أن تزحزحها أيّة قوّة ، واكتشفت أنّها تبقى واقفة لا يُمكن لأحدٍ أن يُرغِمها على الرّكوع . ماذا لو أرادت الأشجارُ أن تنام فماذا كانت ستصنع؟! هل تضطجع على جنبها مثل البشر؟! أم أنّها تظلّ شامخة باسقةً ناظرةً نحو السّماء ؟!!! راقبْتُ الأشجار كلّها ولم أجد شجرة واحدةً منها قد مدّت جسدها الغضّ على قارعة الطّريق!!! تُرى ألا تنام الأشجار مثلنا؟!! ألا تموت الأشجار مثلنا؟! وإذا كان بعض هذه الأشجار قد نام أو مات ، فهل تنام الأشجار أو تموت واقفة؟!!!

تخيّلْتُ فيما لو أراد أحدنا أن يهوي على جذع الشّجرة بفأسه ، ماذا كان يُمكن أن تفعل؟! لو كانت تملك قلب إنسانٍ لاتّقت ذلك بالهرب في أحسن الأحوال ، ولكنّها تملك قلب شجرة ، وشتّانٌ بين القلبين ، شجاعتها في المواجهة تحملها على ألاّ تغيّر مكانها حتّى تقبّل الأرض مُسبلةً هامتها لها وهي ضاربةٌ جذورها في الأرض غير متخلّية عن موطنها!!!

في الجزء الأخير من الجبل جلسنا جميعًا على ظهر صخرةٍ مُشرفةٍ نلتقط أنفاسنا ، ها نحن وقد صرنا قريبين من قمّة الجبل الّذي يُعانق السّماء الأولى . حانت منّي التِفاتةٌ جهة القرية الوادعة الّتي يحتضنها سفح الجبل المُقابِل لنا . بدت القرية حوريّة تستحمّ بماء السّماء ، مدّت جسدها السّخيّ على التّراب ، وراحت تتمطّى بأمانٍ . قريتي في الصّيف مثل سنبلة من القمح فيها مئة حبّة ، وفي الشّتاء مثل غمامة من النّدى فيها مئة قطرة ؛ ماذا يُمكن أن تكون قريةٌ تأكل من ذهب القمح ، وتَستحمّ بِقَطْر النّدى؟!!

أكثر ما شدّني في هذا المنظر السّاحر للقرية ؛ المسجد العثمانيّ القديم الّذي ظلّتْ مئذنته شاهدةً على عصرها . فوقها كان يصعد المؤذّن (قاسم) عند كلّ صلاة ، ويبدأ نداءه الخالد ، كلّ البيوت في القرية كانت طينيّة ، وحده المسجد بُنِيَ من الحجر . وشاركَ في بنائه أهل القرية كلّهم ، حدث ذلك منذ زمنٍ قديم ، وكان هذا المسجد أوّل مسجدٍ بُنِيَ في القرية ، عَمِل على بنائه الرّجال والنّساء والصّغار والكِبار والأطفال والشّيوخ ، كانوا يفعلون ذلك لتحلّ البركة في كلّ دارٍ من دور القرية . كانت حجارة المئذنة حمراء غامقة ، وكانت ملساء مصقولة الجوانب ، وفي الجزء الأخير منها حيثُ الهِلال ومكان المُنادِي توشّحتْ المئذنة باللّون الأخضر . من هنا بدت المئذنة جذع شجرة عملاقة تحاول أن تقصّ على بقيّة الأشجار حكاية القرية . فهي الأكبر والأعرق إلى جانب شجرة الشّيخ عليّ الّتي تقع في الجهة الغربيّة . غير أنّ شجرة الشّيخ عليّ كانت تحترف الصّمت ، لم تتكلّم يومًا ، ظلالُها نابتْ عنها في كلّ شيء ، تحت ظلالها تجد أوراق الحروف ، وأغصان الكلمات ، وفي برد الظّلّ تجد فيضًا غريبًا من المشاعر والعواطف ، فما من عاطفةٍ

أحسستَ بها إلاّ كان الظّلّ مصدرها ، وما من شعورٍ خالجَ أعماقك إلاّ كان الظّلّ سببًا فيه .

الشّجرتان ؛ شجرة الشّيخ عليّ في الجهة الغربيّة ، وشجرة المئذنة في وسط القرية اختصرتا الحِكاية كلّها . ولكنْ أينَ الشّجرة الّتي يجب أن تكون في الجهة الشّرقيّة؟!! فكّرت يُمكِن أن تُصبح (سميّة) هذه الشّجرة يومًا ما!!

في مساءات الخميس ، ليالي الجمعة ، كان (قاسم) يصعد المئذنة ، ومن هناك يبدأ تراتيله وأنغامه ، وتخشع القرية كلّها تُصغي إلى وقع صوته الجميل ، وهو يتلو آياتٍ من القرآن الكريم ، ويشدو بأبياتٍ من الشّعر الصّوفيّ . صوته العذب كانَ يصل إلى قلوب أهل القرية جميعًا ، ينفذ جُدُر البيوت الطّينيّة ، ويستقرّ في الأفئدة المتعطّشةِ إلى التّرانيم الدّينيّة حتّى ولو لم تكنْ تفهم منها شيئًا . حينَ يبدأ (قاسم) معزوفته ، تتوقّف دورة الحياة في البيوت ، يجلس الجميع مُنصتين ، وتأمر الجدّات والأمّهات الصّغارَ بالسّكوت ، وتربض الخِراف والمِعاز في (صيرها) ، وتهوي الخيول والدّوابّ برؤوسها على كلاكلها ، وتُقعي الكلاب على أقفيتها لافّة ذيولها على بطونها ، وتدفن الدّجاجات والدّيكة رؤوسها في الرّيش ، وتخلو الآذان من استقبال صوتٍ عدا صوت المؤذّن (قاسم) . . . تعلّم الكِبار في القرية قبل الصّغار أنّ كلّ ما يقوله (قاسم) مُقدّس ، وأنّ الإنصات له من أوجب الواجب ، وإذا حدث أن خرج عن هذه القاعدة أحدٌ ؛ فتحدّث أو أتى بحركةٍ ، فإنّهم يبقون شهرًا كاملاً متوجّسين من أن ينزل بهم غضب الرّبّ . . .

كانت الدّموع تسيل على الخدود ، وخاصّة من النّساء والعجائز ، وكانت الأكفّ تلفّ الرّؤوس ، وكانت الأجساد تنتفض في المجالس

خوفًا أو بُكاءً . . . خوفًا مِمّ؟! وبُكاءً علامَ؟! لم أكنْ أدري؟! وهل كان أهل القرية يَعُون ما يقوله (قاسم)؟! وهل (قاسم) غير الشّيخ الّذي يخرج من جذع شجرة الظّلّ في اللّيلة نفسها كما قالت جدّتي ، أمّ أنّ شيخ شجرة الظّلّ يُعير قاسم صوتَه ، فيبدو على هذه الشّاكلة الجنائزيّة؟! إنّه صوتٌ قادمٌ من الأعماق!! أعماق الحزن البشريّ السّرمديّ الّذي لا يعرف أحدٌ كُنهه؟! إنّه الصّوت الّذي يُرهِف السّمع له أصحاب القبور الدّارسة!! لكأنّما كان يُخيّل إليّ أن سّكان القبور في تلك اللّيلة كانوا يخرجون من قبورهم ولا يُحرّكون مثلنا ساكِنًا وهم يُصغون إلى هذه التّرانيم ، حتّى إذا رفع (قاسم) صوته الشّجيّ بقوله : (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ) مدّ الموتى أعناقهم حتّى طامنت السّور كأنّما يتشفَّون بمَن بقي من البشر خارجه ، وكأنّ لسان حالهم يقول : قريبًا سنكون في نهر الأبديّة سواء!!!!

لم أصحُ من خيالاتي إلاّ على يد جدّي وهي تهزّ كتفي ، ويُمدّ يده الأخرى بالماء :

- اشربْ . . . مش عطشان؟!!
- نعم . . . نعم . . .
- كنتَ سارِحًا يا ولد . . .

تُزعجني كلمة (ولد) لا لشيء ، إلاّ لأنّي أسمع جدّي يقولها بشيءٍ من الاستخفاف ، أو هكذا ُخيّل إليّ .

- . . . . . .!!!
- بيْش كنت سارح . . . شايف إشي مِشْ شايفينهْ إِحْنا . . .؟!
- لا يا جدّي . . . العطش في فمي . . .
- . . . . .!!!

– وفي قلبي . . .

– . . . .!!!!!!!

– ولا ترويني مياه القرية كلّها!!

– وما الّذي يرويك يا فالِحْ . . .؟!!

– الحقيقة . . . الحقيقة يا جدّي . . .

– أنا حكيت إنّي بلاش آخذك معي . . . مِشوار واحد وصرت تخبّص . . .

(لم أدر لحظتها هل أنا الّذي صغتُ هذه الحروف أم غيري ، وجدتُ لساني يومها يهذي بها دون أن أتأكّد أنّ الّذي قالها هو أنا) .

نهضنا من فوق الصّخرة ، وأدرْنا ظهورنا للقرية ، صار العالَم الصّامت كلّه خلفنا ، والعالَم الثّرثار كلّه أمامنا . . . . الفضاء الرّحب ، السّماء الأولى ، الهواء الطَّلق ، السّاحات الممتدّة ، القمّة الشّامخة . . . . كلّ ذلك كان أمامنا حينَ وصلنا إلى ذروة الجبل . في حقل جدّي كانت سنابل القمح تمتدّ بلونها الذّهبي على مساحةٍ واسعة ، وكان الهواء لطيفًا وعذبا هناك ، وعلى إيقاع النّسمات العليلة راحت السّنابل تتراقص يمينًا وتتمايل شمالاً ، والهواء الّذي يمرّ عبرها يُصدِر معزوفةً هادئة ، جعلتْ من المنظر كلّه لوحةً فنّيّة لا يقدر عليها إلاّ الخالق . في آخر حقل القمح تعانقت شجرتان من التّين . تحتهما تعوّد كلبٌ عتيقٌ أن يتّخذ له وِجارًا دائمًا . كانت تجتمع عنده بعض الكِلاب في اللّيالي المُقمِرة . لا أدري كيف كان يجمعها؟!!

عبرنا حقل القمح من أوّله إلى آخره ، بدت سنابل القمح أعلى منّي ، وأنا أسير بينها ، بالطّبع كانت أختي تتقدّمني ، خِلتُها بعد أن مشينا مسافةً ما أنّها إحدى سنابل القمح ، غير أنّها قادرة على الحركة

أكثر منها ، وقادرة على التّماهي معها إلى الحدّ الّذي يُشعِرك أنهما نَبَتا من التّربة نفسها . أمّا الحِصان فكان يبدو إنسانًا مغرورًا . لم أدر كيفَ توصّلتُ إلى هذه النّتيجة ، ربّما ذيله الّذي راح يحرّكه في حركةٍ نصف دائريّة ، وهو يضرب به رؤوس سنابل القمح عن متعةٍ غيرِ خافية ، وتبختره في مِشيته وهو ينقل خطواته المُدلّلة ، ربّما جعلني أشعر أنّه اغترّ بنفسه ، أضفْ أنّه كان ينظر إلينا من الأعلى ، في حين أنّني وأختي كنّا نلحظه من الأسفل!!

ربط جدّي الحِصان إلى أحد جذعَي شجرتَي التّين ، ورمق الكلب المستقرّ تحتهما بنظرةٍ ذات معنى ، فنبح كأنّه يرحّب بزائرٍ طال انتظاره . في الجهة المقابلة لشجرتَي التّين ، وفي القسم الأعلى منه رأيتُ مساحة خالية يحتلّ الجزءَ الأكبر منها صفاةٌ من الصّخور مُسطّحة ، عرفتُ أنّ جدّي اتّخذها بيدرًا يُذرّي فيه القمح فينفصل عندها الحَبَّ عن التِّبن .

تناول جدّي من سرج الحِصان المناجل ، وتقدّمنا إلى بداية الحقل . كانت الشّمس لمّا تشتدّ ، ولم ترسل سِياطها اللاّهِبة بعدُ ، أعطى لأختي مِنجلاً ، وتردّد قبل أن يُعطِيني منجلاً آخر ، واحتفظ لنفسه بالثّالث . قال : عندما ينتهي عمّكم من لَقْط المشمش ، سيلحق بنا هو وامرأة عمّكم ، أمّا نحن فسنبدأ الآن . راح يجزّ سيقان القمح ، ويهوي عليها بالمنجل ، فتسقط بين يديه مثل فتاةٍ هوتْ مغشيًّا عليها بعد قبلةٍ طويلةٍ من عاشقٍ أثيم . . . راحت السّنابل تترامى على الأرض أمامَ قبلاتِ منجل جدّي ، واتّخذت (سميّة) لها سِربًا آخر من القمح ، وقلّدتْ جدّي تمامًا ، وخُيّل إليّ أنّها تُتقن العمل أكثر منه ، وكانت أرقّ منه وأحدب على سيقان القمح ، واتّخذتُ أنا سِربًا ثالثًا ، غير أنّي لم أكدْ أجزُّ رزمةً واحدة حتّى سرحتُ في عالَمٍ آخر ، وفي

غمرة تخيّلاتي الّتي لا تنتهي ، كنتُ أسمع أصوات جدّي وأختي وهما يتحدّثان وقد أصبحا بعيدَين عنّي . . . وخزتْني شوكةٌ في غمرة خيالاتي فأيقظتْني من التّحليق ، هويتُ كطائرٍ مذبوح ، ورحتُ أنظر إلى حيثُ قطع الاثنان شوطًا بعيدًا عنّي . . .

تركتُهما دون أن أستأذن ، وارتقيتُ حيثُ صفاة البيدر ، عندما وصلتُ إليه خِلتُ أنّني في قمّة الجبل الّذي يُعانِق السّماء الأولى ، ولولا أنّنا في رابعة النّهار ما شككتُ لحظةً أنْ ألتقط بعض النّجوم الّتي تحطّ رِحالَها على كتف هذا الجبل . نسماتُ الهواء الّتي راحتْ تلعب بشعري الطّويل كانت تصنع جوًّا آخر بعيدًا كلّ البعد عن الجوّ الخانق القابع بين سنابل القمح في ذلك الحقل . . . رحتُ أتأمّل بقايا من التِّبن ، وبعض الأكياس الحمراء ، وبعض الأجران المحفورة في الصّخور . . . تمتلئ الصّفاة بأكثر من جُرنٍ ، كان الجرن عبارة عن حفرةٍ أشبه بدلوٍ صغيرٍ محفورٍ في الصّخر ، يملؤه الفلاّحون بالماء ليشربوا منه أو يسقوا دوابّهم ، وفي الشّتاء يملؤه مطر السّماء فيكون الشّرب منه لذّةً مُضاعفة!!

من بعيدٍ رحتُ ألمح جدّي وأختي الغائصَين في قلب السّنابل . رأيتهما ينحنيان ، وتحدودب ظهورهما ، وهما يركعان من أجل احتضان جُرَز السّنابل المُتهاوية أمام المناجل . لم يسألا عنّي!! جدّي حتّى هذه اللّحظة لم يشعر بوجودي من عدمه ، أحسستُ بالألم قليلاً ، غير أنّه أراحني هذا التّفكير أيضًا ، فهو يُتيح لي أن ألهو وأتأمّل ، وأصنع عالَمي الخاصّ بعيدًا عنهما .

على بيدر القمح فكّرتُ لأوّل مرّة بما يُسمّى الشّعر . هناك أحسستُ أنّ الشّاعر يُمكن أن يولَد في الأعالي ، في القمم الّتي لا

يفصلها عن السّماء شيء ، وفي المساحات الّتي تتمتّع بالحرّيّة المُطلَقة ولا يحُدّها حَدّ . . . هناك ، وهناك فقط ، يمكن أن يتنزّل وحي الشّعر ، ويُمكن أن يختار هذا الوحي رسوله ، فهل كنتُ أنا ذلك الرّسول الّذي هبط عليه وحي الشّعر في تلكم القمّة؟!!!

قريبًا من الظّهر ، حيثُ توسّطت الشّمسُ كبدَ السّماء وبدأت تحرق كلّ مَنْ تُصادفِه في طريقها ، ناداني جدّي أن أهبطَ من عليائي وألحقَ بهما تحت شجرتَي التّين ، في طريق الهبوط ، مررتُ عبر حقول القمح وقد أتي الحصاد على بعضها ، وصرتُ أزيحُ السّنابل بيديّ ، رافعًا قدميّ قبل أن أهوي بهما على الأرض مُتجاوِزًا بعض الجُرَز ، في غمرة حركاتي البهلوانيّة لاحظتُ شيئًا يزحف خلال الهشيم ، ظننتُ أنّه إحدى السّحالي أو الحراذين ، فلم أُعِرْه أيّ اهتمام ، غير أنّه لم يكنْ كذلك أبدًا ، كانت أفعى صغيرة ، بطول ذراع ، تزحف ملتويةً على التّراب ، هبط قلبي فجأة حتى شعرتُ به يتدحرج أمامي ، وتراجعتُ إلى الخلف ، وسمعت قلبي يدقّ كطبل . قفزتُ إلى الجهة الأخرى ، وأسرعتُ هارِبًا باتّجاه شجرتَي التّين والرّعب يُلهِبُ ظهري بسياطه فأمعن في الهرب ، والقفز من فوق السّنابل . . . ظلّ صوت حفيف الأفعى يلاحقني ، ولم أشكّ لحظةً بأنّها تُطاردني ، وتهمّ بالانقضاض عليّ ، والتهامي في طرفةِ عين . . . شاهدني جدّي وأنا أركض بشكل غير اعتياديّ ، فهبّ واقفًا ، وهو يصيح :

– مالَك . . . ؟! مالَكْ . . . .؟!

ولّما وصلْتُه تلقّاني بتأنيب ، وسألني مرّة أخرى ، التقطتُ أنفاسي المتسارعة قبل أن أجيب :

– لا شيء . . . لا شيء . . .!!!

كان الخوف من أن يهزءا بي قد منعني من قول الحقيقة . وتبقى الحقيقة عدوّة الخوف ، فَمَنْ أراد للحقيقة أن تظهر فعليه أن يكون شجاعًا!!

انتهى الأمر عند هذا الحدّ ، وكان الخوف الّذي جعل لون وجهي شاحبًا قد شفع لي عند جدّي ، فلم يسألني لماذا غبتُ عنهما كلّ هذا الوقت ، ولماذا لم أساعِدْهما في العمل . غير أنّه في المقابل أشعل نار الغيرة في صدري حينما راح جدّي يمتدح أختي أمامي ، وينعتها بأجمل النّعوت ؛ فهي الأميرة الّتي غيّرتْ حياته من الشّقاء إلى الرّخاء ، وهي الوردة الّتي تفتّحتْ في تربةٍ مليئة بالزّبل . (وتساءلت : ماذا يعني جدّي بالزّبل؟! هل يعني أنّني أناً الزّبل؟!)

جمع جدّي بعض عيدان الحطب ، وكوّمها بين الحجارة الّتي أعدّت كموقد منذ أكثر من عشرين عامًا ، وخرج الكلب ليُشارِكنا الجِلسة . كنتُ – ولا أزال – أخاف من الكلاب . لون ذقنها الأسود تحت الفم وفوقه كان يُثير زوبعة من الخوف والغموض في عقلي . أختي لم تكنْ تخاف منها ، وربّما ربّتت على ظهرها في بعض الأحيان!! واحسرتاااه ألا يوجد شيءٌ واحدٌ تخاف منه أختي لأقول إنّها مثلي؟!!!!

أوقد جدّي النّار ، ووضع عليه إبريقًا كان مطليًا باللّون الأزرق فانقشر طلاؤه ، وصار اللّون الأسود الفاحم هو طلاءه الجديد . ومن الماء الّذي يحتفظ به جدّي في جرّة مُعلّقة إلى أحد أغصان التّين ملأ الإبريق حتّى فاض ، وألقمه كأسين من السّكّر . تناول جدّي السّكّر من جِرابٍ مخبوء في سرج الحِصان . فكّ عن فم الجِراب الرّباط ، وملأ الكأس وراح يُهيله ببطء في بطن الإبريق ، كما لو كان يستمتع بسقوط

الذّرّات من علوّها . وأمّا الشّاي فملأ كمشةً صغيرة منه في راحة يده ، قبضها ، ثمّ بسطها عندما صارت فوق الإبريق تمامًا .

كانت ألسنة النّار تتلوّى تحت الإبريق ، وتعلو فوقه ، ويتطاير منها في طقطقة أعواد الخشب اليابسة ما يُشبه الفراشات المُضيئة في عتمة اللّيل ، وجدّي يجلس القرفصاء أمام النّار ، ويعقد بين يديه ، ويستمتع بالمشهد كلّه الّذي كان يزيد لهيب الظّهيرة لهيبًا آخر . نظر جدّي إلى الشّمس ، ثمّ خفض بصره ورمقنا بعينين ودودتين ثمّ قال :

– عمّكم وامرأته سيصلان قريبًا .

– وهل تظنّ أنّهما أكملا لَقْط أشجار المشمش يا جدّي (قالت ذلك أختي)

– لا . . . لا أظنّ ذلك . ولكنْ جاءا ليساعِدانا ، القمح لا ينتظر كثيرًا!!

– والمشمش يا جدّي هل ينتظر؟!

– نعم . نعم . عليه أن يفعل ذلك ، حبّة القمح الواحدة تُساوي حقلاً كاملاً من المشمش . (هنا بدأ الحِوار يُعجبني)

– صحيح!!! لماذا يا جدّي؟!!! (سألتْه أختي وهي تزمّ شفتيها الصغيرتين متعجّبةً)

– لأنّ حبّة القمح حياة . . . (هنا بدأتُ أستمتع بالحِوار مرّة أخرى)

– وماذا تكون إذًا حبّة المشمش؟!

– آلاف الحبّات من المشمش لا يُمكن أن تهب الحياة الّتي تهبها حبّة واحدةٌ من القمح . . . القمح يا جدّي غوث الهالكين!!

– وكيف يُغيث الهالكين؟!

– مَنْ أراد أن يحيا فعليه أن يخزن قطرتين من الماء ، وحبّةً واحدةً من القمح!!

– الماء والقمح . . . . جميل يا جدّي أنت تقول حِكمًا . هل يُمكن أن أصبح حكيمةً مثلك يومًا ما . . .!!

– بلا شكّ يا جدّي . . . بلا شكّ ستصبحين . . .!!

(تساءلت في نفسي الّتي قد أهملها جدّي تمامًا في الحوار الدّائر بينه وبين أختي : وأنا ماذا سأُصبِح؟!!)

قطع الحديث الممتع بينهما ، تهادي شبحين مع بغلٍ في فم الطّريق البعيدة . كانت الطّريق تمتدّ من طرف الحقل ، أمام شجرتَي التّين ، وتظلّ نازلةَ عبر الحصى الصّغيرة والأتربة ، حتّى تصل إلى أوّل الوادي ، تحفّ الطّريق من الجانبين سناسل من الحجارة الّتي استُخدِمت كذخيرة تملأ فوهات المنجنيقات ، فقد قيل إنّ حربًا دارتْ عند هذا الوادي بين جماعة رشاد باشا ، وجماعة هادي باشا ، واستمرّت الحرب عنده ستّة أشهر ، حدث ذلك منذ ثلاثمئة سنة (هكذا قال جدّي) وقد دُفنت في بطنه آلاف الجثث من الطّرفين ، وأُلقيت فيه بعض الأجساد لمقاتلين كانوا لا يزالون على قيد الحياة ، وهناك أجهزت الوحوش والسِّباع على ما تبقّى لهم من نَفَسٍ ، فقضوا نحبهم ، وما زالت حتّى الآن تُسمع صياحاتهم ليلة كلّ جمعةٍ .

كان الشّبحان هما عمّي وامرأة عمّي ، وثالثهما البغل الأمين ، امرأة عمّي حنونة ، شاركتْ قليلاً في حماية روحي من الانهيار أمام طوفان الإهمال الّذي كان يُحيط بي من كافّة الجوانب . . . في (الخُرج) الّذي يحمله البغل فوقه كانت امرأة عمّي قد جهّزت لنا بعض الطّعام . . . ما إنْ وصلا حتّى صاح جدّي بعمّي :

- جِبت معَكْ أكل ؟؟!!
- اَه . . . آآه يابَهْ .
- هات تنشوف . . . أنا والولاد مُتْنا من الجوع!!
- شايفك مولّع نار يابه؟!!
- الشّاي جاهز . . . الشّاي جاهِز . . .

وتنبسط المائدة أمامنا ، وأشعر بأنّ فقرة الطّعام أحسن فقرةٍ يُمكن أن تمرّ في هذا اليوم الشّاقّ ، وأتساءل : (هل أجيدُ أنا شيئًا آخر غير التهام الطّعام . . .؟!!!)

كَانت المائدة عشاء أفراحنا الأخيرة ، نحن الطّفلَين اللذين قضينا معًا أجمل لحظات العمر ، ومن يدري ماذا يختبئ خلف ستار القدَر؟! ومَنْ يدري ماذا تصنع الأيّام بأختي ؛ أختي الّتي فتحت الطّريق أمامي وأغلقتْه في الآنِ نفسه . . . أختي الّتي كانت طيفًا هابطًا من السّماء ، ومجرّد طفلة تدبّ على وجه الأرض . أختي الّتي تعلّمت أن تقول : نعم لسيّد الحُوش ، في حين أنّه كان يجب أن تقول : لا . أختي الّتي ظلّتْ (شوكةً في القلب تُوجِعني وأحميها من الرّيح)!!

كانت المائدة قد مدّتْ جِدارًا فاصلاً بين أزمنة الطّفولة كلّها ، وسورًا قائمًا أمام تجارب الموت والحياة بالرّغم من أنّ وَعْينا كان بسيطًا . لم نكن منتبهين إلى الأخاديد الّتي ملأت دروبنا ونحن نسير آمنين . . . مَنْ كان ذا عينين ليرى أنّ الأزهار الجميلة الّتي تملأ بساط الأرض تُخفي تحتها حُفرًا عميقة ، يُمكن أن تهوي بالسّاهين إلى أسفل سافلين؟!! مَنْ كان ذا قلب ليُدرِك أنّ الظّلمة الّتي تحيطُ بالوادي صَنَعَتْها الشّمس المختبئة خلف ذلك الوادي؟! مَنْ كان ذا بصيرة لِيُدْرِك أنّني اشتريتُ الخبز لأطعم العصافير الّتي ظلّت تنقر أصابع غفلتي؟! مَنْ كان

يعرف أنّ الّذين رموا الخاطئ بحجر كانوا هم مَنْ زيّنوا له الخطيئة؟!!!

كانت المائدة قد مادت بي أنا وأختي الّتي لم أعرف سِواها في حياتي ، ولم أعشق مثلها في حياتي ، ولم أدرك معنى الحياة إلاّ معها في حياتي ، ولم أشعر برخاوة الزّمن في كفّي إلاّ لأنّها حملت الجزء الأقسى منه ، وتركتْ لي الجزء اللّيّن لأستمتع به في لهوي وصِباي ، ولتُرضي في الوقت نفسه متطلّبات جدّي وأمّي وأبي . . .!!!

كانت المائدة منارةً تُبرِق بضوء خافت ، يكاد يغيب الضّوء الّذي لم يبق منه إلاّ ذُبالته في ضباب البحر ، وفي بُعد المسافة ، وفي هياج الأمواج ، لم يبقَ من شعلة المنارة إلاّ ما يدلّ على أنّها كانت هنا ، ولكنّ الأمواج الّتي تكسّرتْ في السّابق تحت أقدام المنارة ، ستكون بعد اليوم أقوى منها ، مهما ضربتْ في الأرض ساقيها ، وثبتتْ أمام الأعاصير لسبعة قرون كاملة!! ألا تكفي قرون سبعةٌ لتتنازل المنارة عن كبريائها ، وتتخلّى عن شموخها ، وترضى بأن تغرق في اليمّ ، أو أن تستريح قليلاً؟!! ألا يكفيها هذه الملايين الّتي أضاءت لها الطّريق في ظلمات البحر؟!! ألا يكفيها هذا الشّعور بالرّضى عن النّفس وهي تنقذ أرواح الآلاف من الغرق في بحر الأبديّة؟! ألم يحن الوقت لتقول لكلّ من أنقذتهم : أنا أتهاوى الآن . . . ألا يوجد مَن يُنقذني؟! ألا يوجد مَن يُضيء لي الطّريق ، ويدلّني عليـــــهـــــا في الظّلمـــــات؟! واااااحسرتاااااااااه!!!

مدّت امرأة عمّي المائدة . . . كانت قد أعدّتْ لنا زهرةً مقليّة رُشَّ فوقها السُّمّاق ، يسيل سمنها فيسيل معه لُعابنا ، تصاعد منها بعض البُخار فما زالت تحتفظ بسخونتها ، يبدو أنّ امرأة عمّي قد طبختْها في حقول المشمش القريبة من هنا . وإلى جانب قلاّية الزّهرة ، كان هناك

بساطٌ من الأعشاب ، وعددٌ من حبّات البندورة سارعتْ أختي إلى تقطيعها ، وصفّها بجانب الصّينيّة بشكلٍ فنّيٍّ جميل ، وباللّون الأبيض حيثُ اللّبن الرّائب امتلأ وِعاءٌ من الألمنيوم ، واصطفّ إلى جانب البساط الأخضر من الأعشاب . . . وامتدّت الأيادي إلى الطّعام تأكل بنهم ولذّة . . . وأدار جدّي كؤوس الشّاي ، وملأها حتّى فاضت ، وشربْنا بعد الطّعام شايًا كان مثل الحلوى ؛ ظلّ طعمه يجلو زيت الزّهرة المقليّة ، ويملأ ما تبقّى من فراغٍ في المعدة . . . وشعر الجميع بسريان الطّاقة في الأجساد ، واستلقى جدّي على كومةٍ من القشّ ليُريح الجسد المُنهَك قبل أن يبدأ مشواره الثّاني في الحصاد . . .

(٧)
﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾

لم تمرّ أكثر من نصف ساعة ، حتّى هبّ جدّي واقِفًا والتمعتْ عيناه بالحيويّة ، وشعرتُ أنّه إذا طلب منّي أن أعمل هذه المرّة فستكون كارثة ، غير أنّ امرأة عمّي أنقذت الموقف برمّته ، طلبتْ من جدّي أن تتركنا أنا وأختي نلعب في الحقول على أن تُعينه هي وعمّي على الحصاد فيما تبقّى من عمر النّهار . . . وافق جدّي بسرعة ، وراقت لي الفِكرةُ تمامًا بينما بقيت أختي صامتةً!!

غاص الثلاثة في السّنابل ، وأخذتُ أنا بيد أختي وسألتُها أن نلعب قليلاً :

– ما رأيُك أن نكتشف ألوان الطّيور الموجودة حولنا؟!

– ألوان الطَّيور معروفة . . . وقد حفظتُها غيبًا . . . ألم نفعل ذلك من قبل؟!!

– إذاً ماذا تقترحين . . .؟!

– البئر .

– البئر؟!

– نعم . . . تعالَ ننظر فيها . . . نشرب من مائها!

– ولماذا؟!

– ماؤها الآن باردٌ جِداًّ ، ويروي العطش . . . ألستَ عطشان؟!

- صحيح . . . ولكنّها بعيدةٌ جِداً من هنا!!

- منذ الشّتاء الماضي ، لا ندري كم راح من مائها وكم بقي . . . تعالَ . . تعال . . . سوف تُعجِبك هوّة البئر . . . أنا متأكّدة!!

- . . . . . .!!!

مشتْ أمامي دون أن تنتظر رأيي ، كان علينا أن نقطع الطّريق الطّويلة الّتي قَدِم منها عمّي وامرأته ، ونتجاوز وادي الموتى ، لكي نصل إلى البئر في الطّرف الآخر ، وربّما يستغرق ذلك وقتًا طويلاً . . . لكنّ أختي كانت أعندَ من أن تتراجع في قرارٍ اتّخذتْه ، وأقوى من أن تنتظر من يثنيها عن عزيمتها . . .

مشتْ أمامي - كعادتها - تجرّب الدروب قبلي ، وتمهّدها لي . . . أحيانًا يتشوّش فكري وأنا أحاول أن أميّز بين دورها في الحياة ودور أمّي ، أحسّ أنّهما تتبادلان الأدوار أو تتقاسمانها . . . عَبَرْنا الطّريق الّتي توصل إلى وادي الموتى ، ووقفْنا عند أوّل هبوطٍ فيه ، سرتْ قشعريرةٌ سريعةٌ في جسدي ، كأنّ لسعة من الكهرباءً غَمَرَتْهُ بشكلٍ خاطف ، وتساءلتُ في سرّي : ما الّذي تنوي أختي أن تفعله؟! هل هي بالفعل شُجاعة إلى هذا الحدّ؟! وأنا جبانٌ إلى هذا الحدّ؟! هل تلهو معي؟! هل تحاول أن تختبر قدرتي على السّيطرة على مشاعري؟! أم تحاول أن تضخّم مساحة الخيالات الّتي تأتيني بين فترةٍ وأخرى عن الموت . . . وهل تُسمّي ما أشعر به خيالات؟!! كيف تفعل ذلك ونحن نقف بالفعل أمام وادي الموتى؟! تسمّرْتُ مكاني وأنا أرتجف ، وابتعدتْ عنّي قليلاً ولم تُعِرْني أيّ انتباه ، صارت المسافة تتّسع بيننا وهي ماضيةٌ لا يثنيها شيء ، وتغور الهوّة الّتي تفصلها عنّي ، لم أتمالك نفسي ، صرختُ بصوتٍ عالٍ :

– سميّة . . . سميّة . . .!!

زادَ من رُعـبي صـدى صـوتي الّذي تردّد عـبـر الوادي ، كـانت الشّـمس قـد هوت من أعلى قبّـة السّـمـاء ، وقـاربتْ الثّلث الأول من مساحة الأفق البعيد . . . التفتتْ نحوي بهدوء ، ونادت :

– واثق . . . تعال يا واثق . . . أعدك أنّنا لن نتأخّر . . .

– لن أتحرّك من مكاني . . .

– كما تشاء . . . ابقَ مكانَك حتّى أعود . . .

– لا . . . لا . . . سـوف تغـرب الشـمس قـريبًـا . . . وجـدّي ينتظرنا . .

– لا تخف لن يقول جدّي شيئًا . . . اتبعني بدل أن تُثرثِر . . .

ثمّ مـضتْ في طريقـهـا دون أن تلتـفت إلى الوراء ، نظرتُ خلفي حيثُ الطّريق الطّويلة ، فخفتُ أن أعود وحدي ، ونظرتُ أمامي فوجدتُ أنّ الهروب إلى الأمام أكثر أمانًا ، وكأنّ أختي كانت ملجئي من الرّعب الّذي بدأ ينقر بإصبعه على جِدار صدري ، فركضتُ باتّجاهها .

أمـسكتُ بيـدها كـأنّني أعـوذ بهـا من قـاتلٍ لاحقٍ بي ، أو وحشٍ هاجمٍ عليّ ، شـدّت بيـدها الأخـرى على يدي فـشـعـرتُ أن القـاتلَ والوحشَ قـد توقّـفـا ، وعـادا أدراجـهـمـا ، ثمّ أزاحتْ بلطفٍ يدي الّتي تشبّثتْ بيدها وأحدثتْ أثرًا فيها ، وسِرْنا معًا . . .

كـانت ظِلالُنا تسبقنا ، بدا ظِلُّ كلّ واحدٍ فينا ضعفَي طوله ، كـان الظّل نحـيلاً يتـهـادَى أمـامنا ، والشّـمس تُلقـيه على الأرض الملئيـة بالصّخور . كانت الصّخور مدفونةً في باطن الأرض ولا يظهر إلاّ جزؤها العلويّ ، بدت أشواك البُلاّن تنتشر أكثر من غيرها ، وباستثناء البُلاّن وبعض الأشـواك القصـيرة كـان الوادي أجردَ تمامًا ، لا حـياةَ فـيـهـا إلاّ

لِظِلَّيْن يتدحرجان أمام أقدام طِفلَينْ حالِمَين . . .!!!

في أسفل الوادي حيثُ الجوف ، وحيث تدحرجتْ رؤوس القتلى ، ودُفنت أشلاء المذبوحين ، نظرتُ إلى أعلى الوادي من الجهتين فأحسستُ أنّنا في فم الأسد ، وأنّنا بين فكّيه قبل أن يُطبِقَ بهما علينا ، غيرَ أنّها بدأت تصعد الجهة المقابلة من الوادي ، وأنا أتبعها كتلميذ بين يدي معلّمه ، أو كطفل بين يدي والدته . . . غير أنّ خيالاتي لا تترك لي مجالاً للهدوء . . . فكّرت : أين ذهبَ الموتى الّذين كانوا هنا؟! لا بدّ أنّ الأرض قد ابتلعتْهم ، ولكنّهم يعودون ، ولهم يومٌ ما يخرجون فيه من العالَم السّفليّ ليروا شمسنا ولو قليلاً!! ماذا لو كان يومُ خروجهم هو هذا اليوم الّذي قرّرتْ فيه أختي أن تزور البئر؟! صرختُ في أعماقي : لعنة الله على هذه البئر!! يبدو أنّها ستكون عنوان مصائبنا القادمة!!

لم تكدْ أختي تخطو أولى خطواتها صعودًا من بطن الوادي إلى القمّة ، حتّى سَمعتُ صوتًا أجشّ خلفي ، كأنّه خنفرة عجوز في التّسعين ، التفتَ الرّعب الكامن فيّ إلى الخلف فلم أرَ أحدًا ، أدرتُ رأسي إلى أختي ، فوجدتُها تُتابع صعودها إلى البئر الملعونة ، هززتُ رأسي يمينًا ويسارًا محاولاً أن أبعثرَ مصدر الصّوت ، وأزيح عن فؤادي غِشاء الذّعر ، ورحتُ ألحق بأختي وأنفاسي تكاد تتقطّع . . . غير أنّني لَم أخطُ بضعَ خطوات حتّى عادَ الصّوت الأجشّ ذو الخنفرة الّتي تُشبه زئير أسد مجروح إلى الظّهور مرّة أخرى . هتفتُ في أعماقي : ألا تسمع أختي هذا الصّوت الّذي أسمعه؟! أليس لديها أذنان مثلي؟! أم أنّها أعارتهما للبئر؟! ارتفع الصّوت أكثر وأحسستُ أنّه قريبٌ جداً منّا . أدرتُ كامل جسدي باتّجاه الجوف ، ورحتُ أصعد خلف أختي رجوعًا

بقدميّ ، حدّقتُ النّظر مرّة أخرى باتّجاه الجوف ، فبدا المشهد المرعب بكامله أمام عينيّ . . . لم أصدّق ما أرى . . . جمَدَ كلّ شيءٍ فيّ ، توقّفتُ تمامًا عن الحركة ، وأحسستُ كأنّ أحدًا ضغط على عروقي فتوقّف مسيل الدماء فيها ، وتابعتُ المشهد وآلاف السّكاكين من الذّهول والرّعب تطعنني في فمي . . . كانت الأرض في الجوف تنشقّ تِباعًا ، تبدأ ذلك من الجهة الجنوبيّة ، وكلّما انشقّت بطول متر ، خرج من الشّقّ كائنٌ لا أدري إنْ كان بشرًا أم حيوانًا؟! إنسانًا أم وحشًا؟! كانت الأجساد بلون التّراب غير أنّها كلّما خرجتْ من شقٍّ تناثر التّراب عنها ، وبدتْ أجسامها المنخورة أقرب إلى اللّون الرّماديّ ، أمّا المحاجر فلم تكن تحمل من العيون إلاّ التّجاويف ، كانوا يرفعون أيديهم ، ويتماثلون للوقوف بصعوبةٍ ، فيخرّون مرّة أخرى ، إلاّ أنّهم يتّكئون على إحدى ركبتي الرّجلين ، وتتدلّى جماجمهم . فَعَلَ ذلك الكائن الأوّل ، والثّاني ، والثّالث ، . . . حتّى وصلوا إلى منتصف الجوف . . . تنشقّ الأرض ، ويخرجون وهم يُزِيحونَ عن أجسادهم التّراب ، أشباه هياكل بشريّة ، تتهاوى ، ثمّ تحاول الرّكوع ، وتبقى راكعة بهيئةِ ذُلٍّ طاغية . . . لم تكد الأرض تصل في انشقاقها إلى منتصف الجوفٍ ، حتّى خُيّل إليّ أنّ أحدًا آخر قد ضغط على عروقي فتحرّكت فيها الدّماء من جديد ، وملأ فمي بصيحةٍ مثل صيحة الصُّور ، فأطلقتُ تلك الصّرخة التّي انفطر لها فؤاد الكون ، وانداحت تشقّ أثير الفضاء ، وتهزّ صفائح الصّخر ، وتمخر عُباب التّراب . . . غامت الدّنيا في عينيّ بعد الصّيحة ، وطوّح جسدي في الهواء ، وخلتُ نفسي قد سقطت . . . وقبل أن يرتطم جسدي الغضّ بالأرض ، كانت يدها تمتدّ لتمسك بي ، وهي تقول كأنّها ملاك ظهر فجأة لينقذني :

– واثق . . . واثق . . . لا تخفْ . . . لا تخفْ . . .

وكيف لا أخاف ، والخوف نفسه قد تمثّل كائناتٍ عجيبةٍ الآن أمامي . . .!!

وتابعتْ هي :

– لماذا صرختَ بهذه الطّريقة؟! هل هناك شيء؟!

– أنا خائف يا أختي . . . خائف جداًّ!!!!

– لماذا؟! هل هناك ما يُخيف؟!

– يااااااه . . . ألم تري ما رأيت؟!

– ماذا رأيت؟!

– الموتى وهم يخرجون من قبورهم في جوف الوادي!!!!!

– لا يوجد موتى ، ولا قبور هنا . أنتَ كثير التّخيّل . أرجوك مرّة واحدة ساعدني!!

– أنا أرجوك أن تفهمي ما أقول؟!

– يا خوي . . . يبدو أنّه تتهيأ لك أشياء ليست صحيحة!!

– ولماذا تتهيأ لي وحدي إذا كان ما تقولينه صحيحًا؟!

– لا أدري . . . ولكنْ انظر معي إلى الجوف لا يوجد شيء .

فكّرتُ ألف مرّة قبل أن أنظر إلى الجوف ، خشية أن يهجم الرّعب عليّ مرّة أخرى ، ولكنّ يد الحقيقة أزاحت سِتار الخوف ، فنظرتُ . . . فركتُ عينيّ . . . وصحتُ بشيءٍ من الفرح :

– صحيح . . . صحيح . . . لا يُوجد شيء ، ولكنْ . . . ما هذا الذي رأيته إذًا؟!

– لا شيء . . . لا شيء . . . قلتُ لك إنّك واسع الخيال . . . وأحيانًا . . . (صمتت متردّدة ، فبادرتُها) :

- وأحيانًا ماذا؟!
- بصراحة بتدلُّلْ . . .
- أنا؟!
- نعم . . . أنت ولدٌ مُدلّل . . . اتبعني واترك خيالاتك هنا . . . .
- . . . . .!!!
- علينا أن نصل البئر ، ونشرب من مائها ، ونعود قبل أن تغرب الشّمس .
- وهل نستطيع ذلك؟!
- نعم إذا خلّصْتنا من خيالاتك الكثيرة . . . وتبعتني دون ثرثرة . . . هيّا . . .
- هيّا . . .

عندما وصلْنا إلى البئر ، كانت البئر الّتي حفرها جدّي السّادس (هكذا قال جدّي في حقل القمح) ، قد تربّعت على قمّة الجبل بعد الوادي ، وبُنِيَتْ من حجارةٍ سوداء ، لا أدري إنْ كان هذا هو لونَها الأصليّ ، أمّ أنّها اسودّت مع الزّمن بفعل الخطايا الّتي ارتكبها البشر!! فوهة البئر مبنيّة من حجارة متراصّة بعضها فوق بعض ، وكانت ترتفع عن الأرض قريبًا من المتر ، ويعلوها قوسٌ آخر من الحجارة ، يتدلّى من منتصفه دلوٌ مربوطةٌ بحبلٍ غليظة ، وبعيدًا عن البئر بضعة أمتار ، في جهةٍ أعلى منها يوجد الحوض . كان جدّي السّادس قد صنع مسيلاً لمياه الأمطار ، عبارة عن طريق قصيرةٍ بعرض ما يقرب من نصف متر ، تتعرّج هبوطًا من عند الحوض ، وتنزل حتّى تصل حافّة الفوهة المفتوحة من الأسفل ، ليدخل عبرها ماء المطر إلى جوف البئر . أمّا ماء المطر فبعد أن يتجمّع في الحوض يبدأ بالسيل باتّجاه البئر ، ويبقى الماء

سائلاً فيها حتّى يمتلئ ، فإذا امتلأ ، فيسهل التّخلّص من الماء الزّائد ، عبر شقٍّ آخر في الطّريق المتعرّجة بجانب الفتحة الّتي في أسفل الفوهة ، ولكنْ من جهة التّراب .

قفزتْ أختي برشاقة غزال على أعلى فوهة البئر ، وصارت البئر وماؤها تحت سيطرتها ، مدّت يدها إليّ ، وساعدتْني لأكون بجانبها ، أرسلتُ نظرةٍ متوجّسة إلى الأسفل ، فبدت الهاوية إلى أسفل البئر عميقة ، حرّكتُ رأسي لأرى خيال صورتي على الماء ، فلاحظتُ أنّ البئر غائرة ، ولا يوجد سوى بعض الماء في العمق . لا شكّ أنّ الصّيف قد قام بدوره تمامًا هنا ، حدّقتُ النّظر مرّة أخرى في الماء ، فخُيّل إليّ أنّ عددًا كبيرًا من الأفاعي يسبح على سطحه ، ركض وحش الرّعب مرّة أخرى باتّجاهي ، إلاّ أنّه توقّف قبل أن يصلَ إليّ ، كانت أختي ملاكي الحارس ، أحسستُ إلى جانبها أنّ غيلان الذّعر تتوقّف عن عادتها الأثيمة في التّجوال داخل رأسي . بالفعل لفّتْني سحابةٌ من الطّمأنينة وأنا بجانب أختي . ثمّ نظرتُ مرّة أخرى إلى عمق البئر ، فلاحتْ لي الأفاعي نفسها تسبح هناك بكامل حرّيّتها ، كدتُ أحدّث أختي بذلك ، غير أنّي خشيتُ أن تتهمّني بأنّ الخيالات الكاذبة قد عاودتْني .

ألقتْ أختي الدّلو في البئر ، هوتْ الدّلو مثل شخصٍ يهوي تحت حبل المشنقة ، وارتطمت بسطح الماء ، وترنّح الحبل من الأعلى ، واهتزّ يمينًا ويسارًا ، حتّى استقرّ عندما بدأت الدّلو تمتلئ بالماء . حنتْ أختي جِذعها إلى الأمام وسحبتْ الحبل بعزم وهي تشدّه معتمدةً على قوّة يديها وثقل جِسمها بعد أن أرجعتْه إلًى الخلف ، ووقفتُ أنا أتفرّج ، حتّى صار الدّلو قُبالة وجوهنا ، أمالتْه باتّجاهنا وراحت تتفحّصه تفحّص الخبير . رأيتُها تُحِدّ نظراتها في الدّلو ، وتزمّ شفتيها تعبيرًا عن

عدم رِضاها عمّا ترى ، دفَعَني الفضول لأنظر ؛ كانت هناك بعض البلاعط تسبح فيه كأنّها أسماكٌ صغيرة ، شعرتُ بالقرف ، ورجعتُ برأسي إلى الوراء ، محرّكًا شفتيّ ، وهازًا رأسي :

- ييع . . .!!
- شو؟!!
- يييععع . . . ما رح أشرب من ها المي .
- ومين قلّك تشرب؟!
- جبتينا لهون مشان نشوف البلاعِط . . . كلّ بُلعُط قدّ السّمكة . . .
- إذا مش عاجبك . . . اسكتْ أحسن . . .
- جدّي شو رح يقول لمّا نصل لعنده متأخّرين . . .؟!
- ما رح يقول اشي . . . هوّه كان ييجي هون كثير بالصّيف . . .
- ييجي هون بالصّيف ؟!
- آه . . . ييجي ويقعد على هذيك الصّخرة . . .
- ليش . .؟!
- كان يحبّ يساوي قليّة . . . ومرّات هويسة . . . يولّع نار ويجيب القمح الأخضر ويشويه . . .
- كنتِ توكلي معه . . .
- كلّ مرّة . . .
- كلّ مرة؟!!
- اطّلعْ هناك محلّ النّار . . .

قفزتْ إلى الأرض ، وتناولتِ الدّلو بين كفّيها ، وشدّته حتّى وضعتْه على ظهر إحدى الصّخور القريبة ، وتبعتُها مثل أرنب ، وأقعيتُ

أحاول أن أفهم ما تريدُ فعْلَه . دارتْ حول البئر دورتين وهي تفحص الأرض بنظراتها ، مدّتْ أخيرًا يدها إلى الأرض ، والتقطتْ حجرًا من الصّوّان حادّ الأطراف ، ثمّ رأيتُها تتّجه نحوي مباشرة بهمّةٍ وبصمتٍ ، قالت لي بحزم :

- انهضْ!!

نهضتُ على الفور كأنّ أمرًا سماويًا قد جاءني . مدّت يدَها إلى طرف كَنْزتي القطنيّة فرفعتْها ، ثمّ شدّت (فانيلتي) نحوها ، وأعملتْ الحجر في جزئها الأسفل فتشكلتْ لديها قطعة مشرشبةٌ منها . كنتُ أقف صامتًا ، وأراقبها وهي تفعل ذلك دون أن أنبس بحرف واحد . عَدَتْ على الدّلو ، وأنزلتْ قطعة القماش فيه ، وبهدوء سحبتْها إلى الأعلى ، راحت البلاعِط تُبرطع على قطعة القِماش ، رمَتْها بعيدًا وأهوتْ بفمها على دلو الماء تريد أن تشرب منها بعد أن أصبحت صافية . . . تَطَرْطَشَ الماء على جسدها النّحيل وهي تُرجع رأسها إلى الأسفل ، وتُحني الدّلو أمام فمها وتشرب منه بتلذّذٍ واضح . ثمّ أنزلت الدّلو وأخذت نَفَسًا عميقًا ، ومدّت الدّلو إليّ ومسحتْ بظاهر كُمّها ما بقي من ماءٍ على فمها :

- اشربْ . . . اشربْ لا بدّ أنّك عطشان بعد هالمشي الطّويل . . .

(تناولتُ الدّلو وبشيءٍ من التّردّد ، هتفت) :

- ولكنْ . . .

- شو . . .

- ليس نظيفًا . . .!!

- اشرب بلا دلع . . .

- أنا مش عطشان . . .

- اشـرب . . . صـفّـيـتـه . . . إذا مـا بدّك تشـرب هسّـا برجّع المي عالبير . . .

- رَحْ أشرب . . . رح أشرب . . .

(رفعتُ الدّلو باتّجاه فمي ، وتردّدتُ في البداية ، ومع أول رشفة ، وجدتُ الماء باردًا ، وزُلالاً في هذا الصّيف الحارّ ، فأتبعتُ الرّشفةَ الأولى رَشَفات متقطّعة ، ولما اطمأنّ قلبي إلى الماء ، رحتُ أشرب دون وعي وأعبُّ دون توقّف حتّى امتلأت) . . .

أعادت أختي الدّلو إلى مكانه ، وربطتْه إلى القوس المهيمنة على فوهة البئر ، ونزلتْ إليّ :

- يجب أن نُسرع لنلحق بجدّي وعمّي وامرأته . . .

- أنتِ الّتي أصررتِ على المجيء إلى هنا . . .

- إذا تبــعْــتني دون ثرثرة ، ودون إبطاء فــسنكون في الوقت المناسب . . . هيّا . . .

- هيّا . . .

ما كِدنا نخطو خطوتين ، حتّى وقفتْ أمامنا فجأة ، ودون سابق إنذار أفـعى سـوداء طويلة ، لم نَدْرِ من أين خـرجتْ ؛ لكأنّ الأرض لفظتْها نحونا للتّوّ . . . تراجعتُ أنا وأختي إلى الوراء قليـلاً من هول المُفاجأة ، ثمّ هتفتُ في سرّي (هل هي إحدى الخيالات الّتي تُراوِدني كما تقول أختي دائمًا ، أم أنّها رأتْها معي؟! أجبْتُني : لا بدّ أنّها رأتْها وإلاّ ما كانت تراجعتْ مثلي إلى الوراء)!!

صرختُ بصوتٍ تكاد تتقطّع معه أنفاسي :

- حيّيييييية . . .!! (ودرتُ بجسدي نحو أختي ألتصق بها من هول ما أرى)

ضمّتْني قليلاً ، ثمّ أبعدتْني بهدوء وثقة ٍ، وقالت وهي تُخفي خوفها :

- لا تخفْ . . . لا تخفْ . . .!!

كانت أختي تتراجع إلى الوراء وأنا معها ، وتنظر بعينين حادّتين إلى الأفعى دون أن تندّ منها صيحةٌ واحدةً ، ربّما كتمتْ إحداهنّ في أعماقها وأجّلَتْها حتّى تستطيع المُجابهة . . . خمس خطوات إلى الوراء ، وقفتْ أختي مكانها وتسمّرتْ كأنّها تمثال حجريّ ، أمّا أنا فهربتُ باتّجاه الصّخرة القريبة من البئر حيث كان جدّي يصنع (القليّة) . . .

كانت الأفعى بِطولي وطول سميّة وطول حبل البئر ، سوداء ، ذات حراشف لامعة ، خُيّلَ إليّ أنّ في رأسها قَرنين مُدبَّبَيْن ، لفّت جسدها في دوائر متراكمة بعضها فوق بعض ، وانتصب نصف المتر الأخير من رأسها فوق هذه الدّوائر ، وراح لِسانها ذو الشّعبتين يخرج من فمها ويدخل بحركة ٍسريعة ، وكثيرًا ما يتراقص إذا أخرجتْه . رحتُ أشاهدُ الموقف برعب ٍ، ولكنْ بسكون ٍمُطبق ، لم أكنْ قادرًا أن أبرح مكاني ، بعد أن شعرتُ أنّه واحة الأمان الّتي أستظلّ بها!! فكّرت : كيف أترك أختي وحدها تواجه هذه الأفعى المُميتة؟! لم أجدْ جوابًا ، اندثرتُ في جُبني ، واكتفيتُ بالمراقبة من بعيد . حافظتْ أختي على مكانها وهدوئها لفترة ، ثمّ قفزتْ من مكانها حتّى ظننتُ أنّ الأفعى قد لسعتْها ، ركضتْ باتّجاه البئر ، وكذلك فعلت الأفعى ، دبّ الرّعب في صدري من جديد ، وأيقنتُ أنّ الأفعى ستنقضّ على أختي من الخلف . غير أنّ أختي أدارت وجهها في مواجهة الأفعى ، وصارت المسافة بينهما أقلّ من مترين . وقفت الأفعى مكانها ، وتبادلت

الاثنتان نظرات جارحة ، أحدّت أختي النّظر ، ورمقت الأفعى بعينين تتطايران شررًا وشجاعةً وتصميمًا ، صارت حافّة فوهة البئر على بعد خطوةٍ واحدة إلى الوراء من أختي . وعند الحافّة كان هناك حجرٌ يتّخذه الصّاعد إلى فوهة البئر مسندًا ، وبحركةٍ مدروسةٍ وسريعة ، تناولت الحجر وأهوت به على رأس الأفعى . لا أدري كيف استطاعت أختي أن ترفع هذا الحجر الثّقيل من مكانه . . . راحت الأفعى تتلوّى تحت وطأة الضّربة ، وانحبست أسفله ، غير أنّها استطاعت في النّهاية أن تنفلت منه ، وأصبحت من جديد حرّةً ، لكنّ جزءًا من جسدها اللّين قد تهتّك ، وصارت تتلوّى من الألم ، أمّا فحيحها فَعَلا كأنّ قبيلة من الأفاعي تشترك فيه ، وخُيّل إليّ أنّها تصرخ من الألم وتتوعّد أختي بالقضاء عليها . لم تكتفِ سميّة بهذا ، صارت تركض وتقفز كالمجنونة ، تناولت إحدى العصيّ اليابسة وضربت بها رأس الأفعى بكلّ ما أوتيت من قوّة . أثّرتْ الضّربة في الأفعى فثقلتْ حركتُها . ركضت أختي نحوي ، غير أنّها أهملتْني عندما صارت بجانبي ، وراحت تبحثُ في كومةٍ من التّراب أسفل الصّخرة عن شيءٍ ما ، حفرتْ أصابعها في التّراب الطريّ ، وأزاحت بكلتا يديها ما تراكم من أوراق ، كأنّما تبحث عن شيء . حتّى عثرتْ على ما تريد ، رفعت القدّاحة الّتي كان يستخدمها جدّي في شَيّ (القليّة) أمام عينيها ، وبرقت تلكما العينان ببريق الفرح . . . ركضت تحمل في يديها كومة من الأغصان اليابسة ، وبعض أوراق الأشجار الصّفراء ، ورمتها بالقرب من الأفعى ، رفعت العصا الغليظة عاليًا ، وأَرْدتْ بها الأفعى من جديد . قدحتْ حجر القدّاحة في الورق اليابس ، فاشتعل على الفور ، أضافتْ إليه كثيرًا من الأغصان المتكسّرة ، فازداد لهيبه ، أمسكت العصا مرّة أخرى ، وراحت

تقرّب بها الأفعى نحو وسط النّار ، تلوّت الأفعى ، وتحرّكت حركاتٍ هستيريّة ، ولكنّ النّار كانت قد أحاطتْ بها من كلّ جانب فلم تتركْ لها مهربًا ، راحت أختي تبحث بجنونٍ عن مزيدٍ من الأغصان والأوراق والعصف وترميه في النّار ، ولمّا تأكّدت أنّ النّار صارتْ بالحجم الّذي سيقضي على الأفعى . وقفت على مقربة وركزتْ يديها بشكل عموديّ على خصرها ، وصدرها يعلو ويهبط وهي تلهث ، وراحت تنظر بتشفٍّ نحو الأفعى . . . برقتْ عينا الأفعى كأنّهما جمرتان متّقدتان ، ورأيتُ عيني أختي كذلك ، ولم تتخلّ إحداهما عن الاستمرار في التّحديق . . . بدأت الأفعى تتهاوى ، وتفحّ كعجل ذبيح ، وتتلوّى كنمرٍ جريح . . . وسمعتُ طقطقات جسدها المضطرم بالنّار . . . ثمّ راح جسدها يذوب ، كأنّه كتلةٌ من الشّحم ، وأختي لا تغادر مكانها ، ولا تغيّر أنظارها عنها . . . سال جسد الأفعى كبقعة زيت ، وأتت النّار على كلّ شيءٍ منها ، وما ظلّ من المشهد كلّه إلاّ عيناها اللامعتان . . . أخذت أختي بعد أن ساح جسد الأفعى تُهيل فوقه التّراب كأنّها تدفنها ، أو تريد التّخلّص منها إلى الأبد . . . ثمّ انطفأت النّار .

قفزتْ أختي باتّجاهي ، وأخذت بيدي ، وصاحت : هيّا ، أسرعْ ، لا بدّ أنّهم بانتظارنا ، وفي ثوانٍ معدودةٍ أطلقْنا سيقاننا للرّيح ، ورحنا نهبط الوادي نحو الجوف كأنّنا صخرتان هاويتان . . .

قريبًا من الجوف ، قبل أن نبدأ الصّعود تخايل لي أنّ الأفعي لم تمت ، وأنّها ربّما تُخطّط للانتقام منّا . . . أمام رهبة ما حدث مع الأفعى نسيت أمر الموتى الّذي يخرجون من قبورهم ، ورحنا نصعد الطّرف الثّاني من الوادي . . .

عندما وصلْنا إلى حقل القمح ، كاد جدّي يبدأ لومه الشّديد لنا ،

لولا أنّه لاحظَ اللّهاث المتتابع يؤرجح أجسادنا ، ويكاد ينفلت بأنفاسنا :

- أين كنتم؟!

- عند البئر . (أجابت أختي سميّة ، وهي تحاول السّيطرة على لُهاثِها)

- عند البئر؟! أوصلْتم إلى هناك؟!

- نعم ، أنا وواثق . . .

- وماذا كنتم تنوون أن تفعلوا . . .

- كنّا نريد أن نشرب من مائه . . . وقد فعلْنا . . .

كِدْتُ أن أحدّث جدّي بحديث الحيّة ، وكأنّ أختي أحسّتْ أنّ تفكيرًا مثل هذا يراودني في هذه اللّحظة ، فرمقتْني بنظرةٍ قاسية ، عرفتُ منها أنّها لا تريد أن تخبر جدّي بما حصل . . .

- وهل رافقك هذا الولد إلى هناك . . . .

- نعم . . . واثق يُعتمدُ عليه . . . وشربْنا من الماء معًا!!

(كانت كلمة جدّي طعنةً في القلب سرعان ما شفيت منها حين ألقتْ سميّة بهذه الكلمات الورديّة فوقها)

- هيّا . . . لم يبقَ لغروب الشّمس شيءٍ . . .

هبطنا الجبل الّذي يُعانق السّماء الأولى باتّجاه القرية ، مشى جدّي راجِلاً في المقدّمة ، وتبعه الحِصان يحملني أنا وسميّة ، ومن ثمّ تبعنا البغل وفوقه امرأة عمّي ، وأخيرًا مشى عمّي راجِلاً كذلك . . .

غذذْنا السّير في طريق العودة ، كانت الشّمس على يميننا ، تأذن بالرّحيل ، وتودّع العالَم المنظور بالنّسبة لنا .

- كم عُمُر الشّمس؟! (خاطبتُ نفسي)

- بمجموع أعمار أهل الأرض جميعًا!! (أجبتُني)

- الّذين ماتوا أم الّذين بقوا أحياء؟!
- الّذين ماتوا والّذين بقوا أحياء معًا!!
- هل تموت الشّمس مثلنا؟!
- لا .
- ولِمَ لا؟!
- لأنّنا نراها كلّ يوم!!
- صحيح . نراها كلّ يوم ، ولكنْ حين لا نراها ، ويهبط الظّلام على القرية ، ألا تكون في هذه اللّحظة ميّتة؟!
- بلى . . .
- ولكنْ كيف تقوم من موتها ، فتشرق من جديد؟!
- كما يقوم الموتى من قبورهم؟!
- أيّ موتى تعني؟!
- أولئك الّذين شاهدتهم في جوف الوادي!!

نفضْتُ رأسي ، وطردتُ الأفكار الّتي تأتيني ، والخيالات الّتي تجعلني أهذي ، ورحتُ أتأمّل الطّريق وهي تهوي بنا إلى حيث الوطن!!

كان قاسم قد نادى لصلاة المغرب حين سلكْنا الطّريق الأخيرة المُفضية إلى زاروبة الحوش ، تلقّانا أبي ، وكأنّه قَلِقَ على تأخّرنا هذه المرّة ، غير أنّ سحابة القلق تبدّدت حين رمق أشباحنا ، وهي تلج الزّاروبة ، وتهمّ بأن تتوسّط الحوش . أدخل جدّي الحِصان والبغل إلى إسطبلهما ، وذهب كلٌّ إلى غرفته . . .

كانت غرفتنا تُشبه غرفة عمّي ، غير أنّها أصغر قليلاً ، وبابُها حديديّ ، بخلاف الغرف الثلاث الأخرى القارّة على مُحيط الحوش ، فقد كانت أبوابها خشبيّة ، اللهّم إلاّ الصّيرة الّتي تشكّل الحلقة الأخيرة

في هذه الدّائرة ، فقد كان بابها من حديد الشّيك المجدول والمربوط إلى عمودٍ خشبيّ قصير ، يشكّل طرف هذا الباب ، ثُبّتَ الباب مكانه بسبب ثقل العمود على الأرض ، وكان على مَنْ يريد أن يفتحه أن يرفع العمود قليلاً عن الأرض ، ويزحزحه عن مكانه ، ثمّ يدفع به إلى الدّاخل وهو يمشي معه ليظلّ مرفوعًا حتّى يصل إلى نهايته وهو مفتوح .

دخلتْ أختي عتبةَ بيتنا ، فتعثّرت وكادتْ تسقط ، تداركتْ نفسها قبل السّقوط واعتدلتْ من جديد ثم مضتْ ومضيتُ خلفها كالعادة . أحسستُ أنّ الأفعى تحجز المسافة الفاصلة بيننا ، تراءت لي بكامل طولها ، وبهيئتها المخيفة ركضت بالسّرعة لأصير بجانب أختي ولا أرى الأفعى ، فمالتْ أختي بجذعها عليّ وكادت تسقط . أسرعتْ أمّي إلى الإمساك بها ، وحضنتْها :

- لا بدّ أنّه الإرهاق!! (قالتْ أمّي)
- لا . . . لا . . . ليس إرهاقًا . أنا بخير (ردّتْ أختي)
- كان يومًا طويلاً وشاقًا .
- مرّ بسلام!!!
- كيفَ تحمّلتِ أنتِ وأخوك كلّ هذا التّعب؟!
- الحمد لله . . . الحمد لله . . .

في هذه اللّحظة كانت أختي ترشح عرقًا ، وجسمها ينتفض بين يدي أمّي ، استيقظ الخوف في أعماق أمّي ، ونهضتْ وهي تحتضن سميّة وسارت بها إلى حيث الزّاوية البعيدة ، كانت الغرفة مقسومة إلى قسمين ، في القسم البعيد تمدّدت بشكل متعامد فرشتان ، وضعتْ أمّي سميّة على إحدى الفرشتين وغطّتْها بغطاء ثقيل . لم تكدْ تمرّ لحظات حتّى غطّتْ أختي في نوم ٍعميق .

نمتُ أنا في الفرشة الأخرى ، وسمعتُ أمّي تُحدّث أبي :

- ما الّذي حصل لها؟!

- مَنْ؟!

- سميّة!! ألم ترها؟!

- ماذا؟!

- لقد ذهبت إلى الحقول في الصّباح نشيطةً ، ولمّا وصلتْ إلى هنا كان عَرَقها يتصبّب وجسدها ينتفض!!

- لا بدّ أنّه التّعب الطّويل . لا تنسَي أنّها طفلة!!

- ولكنْ . . . ليست هذه المرّة الأولى الّتي تخرج فيها إلى الجبل . . . لقد كان جدّها يفعل ذلك كثيرًا . . . وفي كلّ مرّة كانت تعود كما ذهبتْ . . . أمّا اليوم فلا أدري لماذا رأيتُها شاحبة بهذا الشّكل . . .؟!

- لا تخافي . . . ربّما مرضُ عارِض .

أنكون نسينا في غمرة نشاط سميّة أنّ المرض لا يزورها؟! لماذا تفاجأنا بارتجاف جسدها في حضرة المرض؟! أكنّا نعتقد أنّ أجسادنا وحدها الّتي ترتجف حين يلقي المرض بردائه عليها ، أمّا هي فمن غير المعقول أن تعترف بالمرض أصلاً؟!!!

غفوتُ بعد فترةٍ قصيرة ، وفي منتصف اللّيل استيقظتْ أختي وهي تسعل ، كان سُعالاً جافًا ، صحتْ أمّي من نومها وسارعتْ إلى إحضار كأسٍ من الماء لها ، واحتضنتْها طويلاً قبل أن تُعيدها إلى الفِراش .

(٨)
فَقَأتْ أمّي عينَيها ووضعتْ مكانهما جمرتَين؟!

نقرتِ الدّيوك بصياحها في الفجر غفلة النّائمين فاستيقظ كلّ مَنْ في القرية إلاّ أختي ، ظلّتْ نائمةً وجسدها يشتعل مع الشّهيق ، وينطفئ مع الزّفير . وعندما نادى عليها جدّي في الصّباح لتشرب معه - كعادتها - كوبًا طازجًا من الحليب لم تُجِبْه إلى ندائه ، وظلّتْ مُمدَّدةً فوق فراشها .

مرّ أسبوع بكامل أيامه ولياليه وأختي في الفراش ، لا تقوم منه إلاّ نادرًا ، ولا تصحو إلاّ نادرًا . وظلّتْ تسعل كأنّ السّعال صار بديلاً عن تنفَّسها .

دخلت العائلة الممتدّة في حيص بيص ، ولفّت الحيرة أهل الحوش كلّهم ، وانقلب روتين الحياة عندهم ، وتبدّلت الأطوار ، وتغيّرت الأحوال ، وانهدّ ما كان ، وانتقض الهدوء من أركانه . . . ما الّذي حدث لأختي؟! ماذا أصابها؟! من أين حلّتْ عليها هذه الحالة؟! كيفَ لحركتها الدّائبة أن تهمد هذا الهمود؟! مَنْ ربط إلى حوافّ الفِراش أطرافها فلا تكاد تقلب عن جنب؟! مَن استطاع أن يغرس في أحشائها قنبلة السّعال فلا يكاد يتوقّف؟! مَنْ زرع صوت الخشخشة في حلقومها فلا يفتر عن الحشرجة في كلّ حين؟! أيّ تعبٍ هذا الّذي اتّخذ من جفنيها سريرًا ، فلا يكادان يطرِفان؟! أيّ ابتلاءٍ هذا الّذي حاق بهذه

الطِّفلة الغَضَّة؟! أكانت قويّة إلى هذا الحدّ حتّى تفترسها المصيبة كلّ هذا الافتراس؟! أيّ نوع من المرض هذا الّذي يستطيع أن يُقعِدها كلّ هذه الفترة في الفِراش؟!

مئات الأسئلة غصّت بها حلوق أهل الحوش، وقذفتْهم في بحر الظّنون، ورمتْ بهم في عين العاصفة، وأحالتْ أفئدتهم هَواء.

لم تتوقّف أمّي عن البكاء كلّما نظرتْ إليها، كان منظر أختي – بالفعل – يُقطّع قلب الحجر، مَنْ رآها لم يُصدّق أنّ هذه الّتي في الفِراش هي سميّة؟! أين سميّة الّتي كانت القرية تضجّ بصراخها وحركتها وحيويّتها؟! أينَ سميّة الّتي كانت تأكل من خبز السّعادة، وتشرب من ماء الهناء، وتنام على سرير الرِّضى؟! ها هي اليوم ملقاة كأنّها خرقة ثوبٍ مهترئة، وها هي مُسجّاة كأنّها ورقة يابسة من عُودٍ، أو غُصنٌ مكسورٌ من شجرة!! وها هي ترتمي بلا حولٍ كأنّ شبح إنسانٍ في داخلها وليس إنسانًا!!

كانتْ عيناها مُغمضتين أكثر الأوقات، وجفناهما – حين تُهاجمها ذئابُ الحمّى – يرتجفان كأنّهما جناحا ذُبابة، فإنْ غادَرَتْها الحُمّى تركتْ جفنيها ثقيلَيْنِ تُحيط بهما طبقةٌ حمراء كأنّهما تنزفانِ دمًا. أمّا بشرتُها الحِنطيّة فقد انخطف رونقها، وصارت بعض عروقها تبدو عند جبينها، وكانت العروق شديدة الازرقاق، تكاد تنفر من جبهتها. أمّا فمها فكان مُطبَقًا تنتشر على حوافّه بعض التّشقّقات كأنّها عطشى ولم تشرب ماءً منذ مئات السّنين!!

لم يُقنع طبيبُ القرية الوحيد أبي حينَ سأله عن سبب مرضها، فركب الحافلة إلى المدينة، ونادى كلّ من استطاع من الأطبّاء، ولكنّ أحدًا لم يستطع أن يُخرجها من الحفرة الّتي سقطتْ فيها. لم يكتفِ

أبي بذلك ، حملها بين يديه وقد أصبحت كومةً من العِظام وركب إلى المدينة ، وزار بها كلّ الأطبّاء ، وسأل كلّ العارفين ، واشترى لها كلّ الأدوية الموصوفة ، ورجع كما عاد وقد ازداد لوعةً وحسرةً وهَمًّا .

أمّا أمّي المسكينة فلم تملك إلاّ الدّموع ، ظلّتْ دموعها تسيل كأنّها مقاصل من حديد على خدَّيْها حتّى تجرّحا ، ولم أرَ أمّي تكفّ عن البكاء لحظة ، وفي عينيها كنتُ أقرأ حزن الكون تختصره دمعةٌ واحدةٌ سخينة تسقط على الوجه البهيّ فتحرقه بدل من أن تسقيه . فكيف بآلاف الدّموع الّتي تجود بها عينا أمّي كلّ ليلة؟! لم يهدأ ورم العينين واحمرارهما طوال هذه المحنة ، فكنتُ أراها كأنّما فقأت أمّي عينيها ووضعتْ مكانهما جمرتين!!

وأمّا جدّي فأصابه الذّهول ، وكان يظلّ أكثر وقته واجِمًا ، تسأله فلا يكاد يجيبك ، وتجلس إليه فلا يكاد يُحسّ بك ، وتناوله شيئًا فلا يراه إلاّ إذا نبّهته إلى ذلك ، فيلتفت كالملدوغ ، ثمّ ينفث زفيره ويحوقل ويُطأطئ رأسه كأنّه علَمٌ مُنَكَّس!!

وأمّا أبي ، فلم يعد أبي . ظلّتْ تذبحه نظراتها البائسة كلّما استشرف وجهَها ، كانت عيناها تنطقان بكلّ شيءٍ ولا تقولان شيئًا ، كانتا تغوصان في لحم أبي فيشعر أنّه المسؤول عمّا آلت إليه فيمزّقه الأسى ، ويعذّبه ضميره كأنّه هو الّذي أوصلها إلى ما وصلتْ إليه . نعم هَرِمَ في عشرة أيّام عشر سنين ، وشحب لونه ، وغاض رونق وجهه ، وغاصت تباشير تقاسيمه ، وماتت ضحكاته ، وغارت مياه عطائه ، وانتهى كما لو أنّه عجوزٌ في السّبعين ، كان ينحني ليقبّل أختى ولا يكاد يقوم من انحناءة ظهره حتّى كأنّ شللاً أصاب ظهره فاعوجّ .

قرّبت أمّي فراش أختي من فراشها ، وظلّتْ ملازمةً لها ، ولم يعد

أحدٌ يدري كيف تسير الحياة في الحقول ، وكيف تنمو الزّروع فيها ومن يقوم على رعايتها؟! وكيفَ تنام الطّيور في أعشاشها؟!

كان الحوش بكافّة مَنْ فيه من الأحياء يحبّ أختي ، لقد كانت على علاقة طيّبةٍ مع الجميع ، لكأنّني شعرتُ أنّ الحصان كان يبكي فتسيل دموعه من عينيه اللّوزيّتين الواسعَتَين على وجهه حينما يهمّ جدّي بركوبه ولا يرى أختي إلى جانبه ، أختي الّتي لازمتْ جدّي هي والحصان . . . أمّا الخِراف فسكتتْ كأنّ أحدًا ألقمها حجرًا في أفواهها فانخرستْ ، ولم تعد تثغو إلاّ نادِرًا . . .

وهكذا ذبلت الوردة الّتي كانت تعبق بالطِّيب في الحوش ، فذبلَ معها الحوش بأكمله ، وصار رخوًا ، باهِتًا ، مهترئًا ، هامِدًا ، كأنّ يدًا خفيّة ذَرَّتِ الرّماد في كلّ أرجائه!!

أمّا أنا فماذا أفعل؟! وكيف يمكن أن أصفَ شعوري تُجاه أختي؟! هل كنتُ أكرهها بالفعل أم أحبّها؟! هل تحوّلت الغيرة عندما كانت صحيحةً إلى إشفاق اليوم وأنا أراها كأنّها كيسٌ من الجِلد يُخشخِش؟! هل شكّلت علاقتي بها طبيعة الحياة في الأرياف بين صغيرين ، يزيد أحدهما عن الآخر عامًا واحِدًا؟!! عامًا واحِدًا ولكنّه عامٌ باعدَ بين الاثنين ، وجعل من أحدهما قائدًا ومن الآخر جنديًّا مُهمَلاً!! عامٌ صنع من المفارقات ومن الاختلافات بين الاثنين ما لا يعلمه إلاّ الله ، عامٌ أشعل النّار في القلب ، وزرع مساحته بالورود في الوقت نفسه!! عامٌ كدَّس آلافًا من الأوراق اليابسة على رئتي اليُسرى ، ونثر آلافًا من الرّياحين والزّنابق على اليمنى!! عامٌ خثّر الكره وعتّق الحب ، عامٌ صنع عالمًا كان الآخرون عُميانًا عن رؤيته ، وكنتُ أنا أعيشه دون أن يشعروا بالعواصف الّتي تزمجر داخله!!!!!

اليوم أعترف - بعيدًا عن طفولة استثنائيّة عشناها معًا - أنّني كنتُ أحبّها من صميم قلبي، وأنّها لم تكنْ مجرّد أختٍ، لقد عبرتْ حياتي كما لم يعبرْها أحدٌ سِواها، ولن يأتي من بعدها أحدٌ ليصنع في أعماقي ما صنعتْ هي؛ لقد كانت عالَمي المستور حينَ تحتفظ بسرّه غمزةٌ واحدةٌ من عينيها اللامعتين اللّتين تُشعّان ذكاءً. لقد كانت الرّداء الدّافئ الّذي غطّاني حينَ كنتُ أرتجف في دوّامة الرّيح؛ ريح التّجربة الغضّة. ولم تُشعل لي في الظّلمات شمعةً لتنيرها لي، بل كانت هي الشّمعةَ ذاتها الّتي احترقتْ من أجل أن تنضج تجربتي. أيّ أختٍ هذه الّتي شكّلتْ كلّ معارفي، وألغتْ كلّ مخاوفي، وغضّت الطّرفَ عن كلّ تخيّلاتي، ومضتْ بي عبر الطّرق المتشابكة والأجمات الملتفّة لتكون السّارية والمنارة!!

في غمرة المصيبة الّتي حلّتْ بنا، داهمتْني الأحلام، وهجمتْ عليّ في المنامات. فكّرت: هل الأحلام مصائد الخائفين!!! صرتُ أرى في كلّ ليلة حلمًا فظيعًا. غير أنّه لم يكنْ هناك ما هو أفظع من الحالة الّتي وصلتْ أختي إليها. رأيتُ الموتى يخرجون من جوف الوادي على الهيئة الّتي رأيتُهم فيها عندما هبطناه أنا وأختي في ذلك اليوم المشهود، وكانوا يمشون زُرافاتٍ ووحدانا، ويصعدون الوادي باتّجاه حقولنا القمحيّة، ثمّ يأتون على القمح كلّه فيأكلونه كما لو كانوا جرادًا، وتبدو الحقول بعدهم (قاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أَمْتًا). ورأيتُ الأفعى تخرج من النّار وتلتفّ حول عنق أختي، وأختي تصيح من الفزع، وما رأيتُها فَزِعةً قبل هذه الأحلام، وكانت الأفعى تلتفّ حول عنقها تكاد تهشّمها لولا أنّ أختي عاجلتْها بفأسٍ صغيرةٍ كانت تحملها بين يديها، فوَقَعَتا مَغشيًّا عليهما. ورأيتُ امرأةً عمّي تمشي في اللّيل

إلى فوهة البئر ، وتصعد على حافّتها ، ثمّ تتأرجح يمينًا ويسارًا قبل أن تسقط في البئر وهي تستغيث بعمّي ليُنجِدها ، وعمّي واقفٌ كالأبله أمامها ولا يُحرّك ساكِنًا ، ثمّ تضيع صرخاتها كأنّها صدى عَبَرَ وادي الموتى ووصل إلى البيدر الّذي يُعانق السّماء الأولى . ورأيتُ الحِصان يهجم عليه الكلب الّذي كان ينام تحت شجرتَي التّين ، فيغرز أنيابه في رقبته ويسيل منها الدّم ، ويظلّ الحِصان ينزف حتّى تخرّ قواه ، ثمّ يجثو على الأرض ميّتًا ، وتأتي من بعد ذلك كلّ كلاب الجبل وتبدأ بأكل الحِصان ، والحِصان مُستسلِمٌ إلى قدره ، لا يحرّك إلاّ عينيه الّلتين تستجديان الرّحمة دونما فائدة . ورأيتُ جدّي يفتح باب الصّيرة في إحدى اللّيالي المُقمرة ، ويدعو الخِراف والمِعاز للخروج إلى الحوش حيثُ تجمّعتْ عشرات الذّئاب ، ظلّت الذّئاب مكانها جاثمةً وتقدّمت نحوها الخِراف طواعيةً دون أيّ خوفٍ أو مقاومة ، وانتهى الحال بها جميعها بين أنياب تلك الذّئاب تمزّقها أشلاءً وتُبعثرها على أرضيّة الحوش ، وجدّي ينظر بعينين بلهاويْن إلى الموقف ، ويتّكئ على العمود الخشبيّ لباب الصِّيرة . ورأيتُ جدّتي تُخرج ما في المُونة من مرطبانات السّمنة والعسل فتُريقها على الأرض ، حتّى إذا فرغتْ رفعتْ يديها بالوعاء الزّجاجي ، ورَمَتْهُ بقوّة على الأرض فتكسَّر إلى شظايا كثيرة ، وتطايرتِ الشّظايا من حولها حتّى دَخَلَتْ إلى كلّ غرفةٍ من غُرَف الحوش!!

لم أنجُ من الأحلام المُخيفة طوال تلك الفترة ، وظلّتْ تخترق جسدي النّحيل فتزيده نُحولاً ، ولم ينتبهْ إليّ أيٌّ من ربابنة الحُوش ، كانوا جميعًا مشغولين بما أصاب أختي . ولم أحدّث بأحلامي أحدًا لأنّه لا سبيل في تلك الأيّام إلى أن يصدّقني الجِنّ ، فكيفَ بمن اعتقدوا أنّني أخترع الأحلام ، أو أتخيّل ما ليس موجودًا؟! وحدها

أختي الّتي كنتُ أجدُ عندها بعض الرّغبة في أن أُشارِكَها أحلامي ، ولكنّها كانت ذاهلةً عن كلّ ما يدورُ حولَها!!!

بدت أمّي بعد أسبوعين من همود أختي في الفِراش كأنّها طيفُ داخل ثوبٍ يجول مُوهَنًا في أرجاء الغرفة ، وبدا كأنّ بكاءَها هو الأمر الطّبيعيّ أمام ندرة امتناعها عنه!! أيّ قلبٍ لأمّ يُمكن أن يتحمّل هيئة أختي ، وقد أصبحتْ شبحًا فيه أثرٌ من حياة ، وكومةً من العظام يكسوها لِباسٌ من جلدٍ!!

حملتْ أمّي أختي بين يديها ، وضمّتْها إلى صدرها وغاصت في بُكاءٍ فجائعيّ ، ومن ورائها وقف أبي ، شادًا بإصبعيه على عينيه وهو ينتحب ، ويهتزّ في مكانه من شدّة البكاء ، أمّا أنا فصرختُ بهما :

– إنّها الأفعى . . . إنّها الأفعى . . . أقول لكما : إنّها الأفعى . أعرف أنّكم لن تصدّقوني . . . ولكنْ . . . إنّها الأفعى . . . إنّها الأفعى . . . .!!!

اهتزّ جسد (سميّة) بين يديّ أمّي بعد أن سمعت كلمة (الأفعى) ، وارتجف كعصفورٍ ذبيح ، وواصلت ارتجافها المُفاجِئ بينما توقّف أبي عن البكاء ، ومسح دموعه بيديه ، فيما استمرّ عويل أمّي وهي ما زالت تحتفظ بسميّة بين ذراعيها وتدفن وجهها قريبًا من وجهها .

– ماذا تقول؟! (قال أبي)

– إنّها الأفعى يا أبي!!!

– ماذا تقصد بالأفعى يا واثق؟!

– لقد قتلتْ أختي أفعى سوداء كبيرة قبل أسبوعين في اليوم الّذي خرجْنا فيه مع جدّي!!

– قتلتْ أفعى؟!!
– لم تقتلها فحسب ، بل أحرقتْها بالنّار!!
– هل تخترع هذه الحِكاية كعادتك!!!!!!!!
– لا . . . لا . . .!!
– ولماذا لم تقل أختك لنا قصّة الأفعى إذاً؟!!
– لا أدري . . . لا أدري . . .
– جُنِنْتَ يا بُنيّ!!!
– رأيتُ في المنام أنّ هذه الأفعى قد التفّتْ حول عنق أختي تحاول أن تقتلها .
– . . . . . .

بدا أبي حائرًا بين أن يصدّق فرضيّتي في السّبب الّذي آلت إليه أختي في مرضها الغريب ، وبين أن يكذّبني ، ويضيف هذه الرّؤيا إلى مجموعة الأحلام الّتي لا تظهر لي في النّوم فحسب ، بل تظهر لي في اليقظة كذلك . . . ويبدو أنّه في تلك اللحظة مال إلى الحالة الثّانية ، وإن احتفظ بداخله بشيءٍ من الاقتناع بالحالة الأولى .

في اليوم التّاسع عشر لمرض أختي ، بدا العالَم الّذي ستشرق عليه الشّمس في هذا الصّباح مختلفًا ، كانت الشّمس كاسفةً كأنّ حجبًا من الغيوم تقف أمامها ، فوصل ضوؤها إلى القرية باهِتًا . . . وسقط سرج الحِصان من على جِدار غرفة جدّي . . . وتحجّر العمود الّذي تدور حوله الأبواب الخشبيّة فخرجت تلك الأبواب عن مساراتها . . . وانكسر مِصباح غرفة جدّي ، وساح منه الزّيت على الأرض . . . وخلا جوّ القرية من أيّ صوتٍ بشريّ ، وراحت تسابيح الطّيور وحدها تشقّ سكونَ الفضاء . . .

وقف أبي عند رأس أختي ، كانت أنفاسها تتقطّع ، وعيناها غائرتين تتطلّعان بشرود إلى وجه أبي ، وتدوران ببطء كأنّها تستغيث به أن يُنقذها ، ويداها مُسجّيتين إلى جانبها ، وشفتاها ذابلتين ، وأطرافهما مُشَقَّقتين ، ووجنتاها ضامِرتَين ، وجبهتها شاحبةٌ كأنّ نور الحياة قد سُلَّ منها ، وبعض قطرات الدّم تسيل من الآماق . وفدتْ أمّي لتشهد اللحظة الأخيرة في حياة العازفة السّاحرة ، وفدتْ لتقرأ آية الحبّ على روح العاشقة الخالِدة . . . جثتْ إلى جانب أبي ، وراحتْ تُلقي نظراتها الأخيرة على ابنتها الّتي لم تنجب مثلها ، ولم تنجب القرية كلّها مثلها . وبدا الخيط الفاصل بين الموت والحياة ينسحب لصالح الموت ، وبدتِ الرّوح المضمومة بين اليدين تفرّ من هاتين اليدين . . . حرّكتْ أختي رأسها إلى اليمين ، كأنّها تريد أن تفعل ذلك ، وفتحتْ ما تبقّى من عينيها كأنّها تريد أن تقول شيئًا ، فلمحتْ أبي وأمّي إلى جانبها ، وأنا من ورائهما . أشرقتْ عيناها ببصيصٍ من الحياة ، وافترّتْ شفتاها عن بسمةٍ خفيفة كافحتْ من أجل إظهارها كأنّما تودّعنا بذلك . ثمّ أسبلتْ عينيها وغرقت في بحر الأبديّة . وعلتْ من أمّي صرخةٌ مكتومةٌ شقّتْ جُدران الفضاء لتختم بذلك الفصل الأخير من حياة هذه الأيقونة المُذهِلة!!

أخذني أبي معه إلى المقبرة ، قالوا له : إنّ المقبرة الغربيّة قد امتلأت ، وعليك أن تدفنها في المقبرة الشرقيّة . فكّرت : إذا امتلأت كلّ الأرض بالقبور ، فأين سيدفنون الموتى الجُدُد؟!! سارتْ جموع المُشيّعين ، وتقدّمهم أبي وجدّي ، وفي حفرة تحتَ شجرةِ زيتونٍ قديمة دُفِنَتْ أختي . يومها قالوا لي : إنّ لكلّ واحد منّا مثل هذه الحفرة ، سنرتاح فيها حينَ يزورنا مثل الّذي زار أختي بعدَ أن شربتْ من ماء البئر!!

دُفِنَتْ أختي إلى جانب شجرة الزّيتون القديمة الّتي مرّ عليها أكثر من ألف عام ؛ وبموتها أصبحت القرية تحمل هذا الثّالوث المتناغم : شجرة الشّيخ عليّ في الغرب ، ومئذنة الجامع العثمانيّ القديمة في الوسط ، والشّجرة الّتي ترقد تحتها أختي بسلام في الشّرق!!

مَنْ صعد على ظهر الصّخرة الّتي تحتلّ الثّلث الأخير من الجبل الّذي يُعانق السّماء الأولى ، ونظر باتّجاه القرية ، فسوف يرى هذه الشّجرات الثّلاث بوضوح!!!

(٩)
الأحلام تختارُ ضحاياها

لا يمكن أن يُصبح الإنسان حالمًا بمجرّد أنّه التقى هذه الأحلام أو بعضها قَدَرًا في الطّريق . . . لا بُدّ أنّ هناكَ أسبابًا خفيّة ، لا يعرفها إلاّ المُريدون . هكذا قالتْ لي جدّتي حينَ كانت تُحدّثني عن الشّيخ عليّ . الأحلام تختار ضحاياها ، ويُعجِبها أن تتشكّل حياة هؤلاء الضّحايا على وفق ما تريد هي منهم .

تعوّد أبي أن يصعد الجِبال ، سالِكًا الطّرق الضّيقة ، بعد أن ينتصف اللّيل في القرية . كان صيّادًا مُحترِفًا . وعرفت القرية كلّها أنّها تعيش حالةً من الأمان ، لأنّ أبي وقاها شرّ الوحوش والهوامّ ، واستطاع - كما كانوا يقولون - أن يثقب عيون كثيرٍ من الذّئاب والضِّباع ، والغِربان والأفاعي ، ويجعلها تهيم على وجوهها لا تعرف الطّريق إلى بيوتها حتّى تموت في الجبال تاركةً القرية ومزارعها في أمانٍ واطمئنان .

كان أبي يرى في اللّيل أكثر مِمّا يرى في النّهار . هكذا قالت لي جدّتي . لم تكنْ جدّتي تحبّ طريقة عيش أبي هذه . ومع أنّه كان يعودُ إلى القرية قُبيل الفجر ومعه صيدٌ وفير لأهل الحوش كلّهم يكفيهم طعامًا لشهرٍ كامل ، إلاّ أنّها كانت لا ترتاح إلى طلعاته الخُفّاشيّة . وتفضّل أن ينام كما تنام الطّير . كلّ محاولات جدّتي في أن تثني أبي عن أسلوبه في الحياة ذهبتْ أدراج الرّياح ، وظلّ أبي صيّادًا عنيدًا

شكّل علامةً فارقةً في أسلوب الصّيد ، وفي نوعيّة الرّجال الّذين تتوزّعهم بيوت القرية الوادِعة!!

كان أبي عِملاقًا ، جسيمًا ، كلّما حدّقتُ النّظر فيه تمنّيتُ أن أكون مثله في المستقبل . كانت المقارنة بين الجسدين تشكّل مساحةً يوميّة للتّفكير في عقلي . وكان أبي محطّ تقدير نفسه ، لم يكنْ ينتظر تقديرًا من أحدٍ على ما يفعل . الطّعام الّذي كان يأتي به لأهل الحوش كان أحد مصادر رزق العائلة الممتدّة ، بمن فيهم نحن هذا الفرع المسلول من تلك الشّجرة الباسقة . وكان أبي يُعدّ متعلّمًا بالنّسبة لمستوى التّحصيل في القرية ، كان قد درس وهو طفل على يدي الشّيخ عليّ ، وكان الشّيخ عليّ يدرّس أطفال القرية القرآن والعربيّة والجبر والحِساب . قالت لي جدّتي : إنّ أبي كان الأوّل من بين طلاّب القرية كلّها ، ثمّ تتابع متحسّرة : كنتُ أودّ لو أكمل تعليمه ، وذهب إلى الخارج ، بدل من أن ينشغل بالصّيد . نحن مرزوقون والحمد لله ، ولا نحتاج طعام الصّيد الّذي يأتينا به ، فلو أنّه تخلّى عمّا في رأسه ، وذهب للدّراسة فإنّه سيعود بشهادة ويصير في مركز مهمّ ، ووظيفة محترمة ، ويعيّنونه في الحكومة!!! تقول ذلك وأنفاسها تكشف عن مدى الحسرة الّتي غشّتْ فؤادَها!!

كانت رِياح الخريف تمرّ ، وأمطار الشّتاء تتبعها ، وروائح الرّبيع تتلوها ، ونسائم الصّيف تحذو حذو أخواتها ، وأبي لا يملّ من هِوايته ، ولا يحيد عن بندقيّته الّتي كانت أكثر من رفيقةٍ له في حياة اختارها لنفسه دون تردّد . لم يكنْ أبي يفرّق بين برد الشّتاء ، وبين حرّ الصّيف في طلعاته اللّيليّة . كان يأخذ لكلّ حالةٍ احتياطاته ، وكان يرجع من كلّ حالةٍ بصيدٍ مُختلف .

صادَ أبي مِن الذّئابِ والنّمور والضّباع والثّعالب والغُزلان عددًا لا

يُمكن أن تتصوّره إلاّ إذا عرفتَ أنّ بيوت القرية كلّها تمتلئ بجلود هذه الحيوانات امتلاءً فائضًا . فلا بيت في القرية إلاّ وتتوزع جلود هذه الحيوانات عليه . ترى الأسرة الواحدة في البيت الواحد تعيش مستوىً من الدّفء صنعتْه هذه الجلود لِمَنْ يجلس عليها ، فتحتَ كلّ فردٍ نوعٌ من هذه الأنواع ؛ وقد بلغ التّرف في أهل القرية أنّهم لم يعودوا يستخدمونها للجوس عليها أو التغطّي بها أو تكويمها فوق بعضها لتصبح فراشًا وثيرًا ناعِمًا دافئًا ، بل تعدّى الأمر هذه الحالة إلى أن تُستخدَم هذه الجلود للزّينة ، فلم يخلُ صدر بيتٍ ولا جِدارُ حوشٍ منها . وكان يحدث أن تتخيّل نفسك قد دخلتَ إلى غابةٍ عُلّقت حيواناتها على الجدران لكثرة ما ترى من هذه الجلود هنا وهناك!!

من أين كانت تأتي كلُّ هذه الحيوانات لكي يصيدها أبي؟!! هل القرية الصّغيرة بالفعل تعجّ جِبالها بهذا العدد المَهول من الوحوش؟!! أم أنّ أبي كان يطوف بالقرى المحيطة كلّها في جولاته اللّيليّة لكي يصيد ما يريد؟!! أم أنّ الوحوش نفسها كانت تُلقي بنفسها بين يدي أبي؟!! لكأنّه خُيّل إليّ أنّها كانت تعشق أن تُصاد على يديه!!! وكانت تهوى أن تتلوّى أمامه وهي تجرّ أجسادها مذبوحة ، وتلفظ آخر أنفاسها تحت قدميه!!! تساءلت فيما بعد : أيُّ عشقٍ هذا الّذي نشأ بين القاتل والمقتول؟!! بل أيّ غرام هذا الّذي تشكّل بين الجلاّد والضّحيّة؟!! آه لو كنتُ أعرف نوع العلاقةَ وطبيعتها الّتي جمعتْ بين هذا العدد الكبير من الوحوش وبين أبي؟!!

كان أبي يشرّق إذا غرّب النّاس ، ويغرّب إذا شرّقوا . إذا ناموا استيقظ ، وإن استيقظوا نام . لكأنّه كان يعشق هذا التمايز عنهم ، أو لكأنّه عُجِنَ من طينةٍ مختلفةٍ!! ولهذا لم تكنْ علاقات أبي بأهل القرية

واسعة ، بل إنّ أكثرهم لا يعرفه أبدًا ، ولم يسمع به إلاّ عن طريق جلود الحيوانات الّتي تأتيه من قِبَلِه . هكذا كانت القرية تعرفه بـ (صيّاد الوحوش)!!

صيّاد الوحوش هذا كان محطّ اهتمام أهل القرية وتقديرهم ، حتّى إنّهم بدؤوا لشدّة إعجابهم بطريقة عيشه ، وأسلوبه في الحياة ، وشجاعته ، ينسجون حوله الحكايات ، ويصوغون الأساطير ؛ فهو قادرٌ على أن يواجه قطيعًا من الذّئاب ولو كان عددها مئة ذئب ، ويُرديها كلّها في أقل من ساعة دون أن يُصاب بأذى . وهو قادرٌ على أن يصيد غزالاً مذعورًا ولو كان الغزال يتحرّك بسرعة البرق ، وهو قادرٌ على أن يرى الضّباع في اللّيل أكثر من قدرتها هي على أن تراه . وكانوا يقولون : إنّه سريعٌ إلى الحدّ الّذي يستطيع معه أن يسبق نَمِرًا ولو كان النّمر يعدو أمامه بآلاف الأمتار . عدا عن أنّه يركض في السّهول كما يركض في الجبال والوديان ، فلا صخرة تقف عائقًا أمامه ، ولا شجرةَ ولا حفرة ، ولا دابّة ولا هامّة ولا لامّة!!!!

كانت جدّتي تحرص على أن تتولاّني بدلاً من أبي ، كانت تريد أن أحيا كما تهوى هي لي أن أحيا ، وترفض بشدّة محاولات أبي لاصطحابي معه . من أجل ذلك كنتُ أنام عندها في غرفتها أكثر مِمّا أنام في غرفتنا . غير أنّ عِناد أبي على أن يُعلّمني الصّيد ، وأن أكون مثله في المستقبل ظلّ قائمًا . وظلَّ أبي يتحيّن الفرصة من أجل استغلالها . وهذا ما حدث في إحدى اللّيالي المشهودة .

لم أكن قد بلغتُ الخامسة ، حينَ اطمأنّ أبي إلى أنّ جدّتي وجدّي قد غَرِقا في نومٍ عميق . فتسلّل إليّ ، وهزّني من كتفي ، وهو يُنادي لإيقاظي :

– واثق . . . واثق . . .!!

– نعم . . . نعم . . . . (قلتُ ذلك وأنا أتثاءب ، ولا أكاد أتبيّن وجه أبي في العتمة)

– قُمْ . . . قم ألا تُريد أن تخرج معي للصّيد .

(قفزتْ فكرة الصّيد في ذهني كطابّةٍ اصطدمت بجدارٍ أملس ثمّ عادتْ) :

– الصّيد؟!!

– نعم . . . نعم . . . ستستمتع كثيرًا . . .

– صحيح؟!

– بالتّأكيد . . . سترى من الحيوانات ما لم يمكن أن تتخيّله . . . أعداد كبيرة لم ترها في حياتك . . .

(همستُ في أذنيّ : وكم مرّ من حياتي حتّى أرى ما لم أره؟!!

نهضتُ متثاقِلاً ، وأبي يُشير إليّ بإصبعه واضِعًا إيّاه على فمه ، قائلاً بهمس) :

– بهدوء . . . بهدوء . . . حتّى لا تستيقظُ جدّتك . . . أخاف أن ترانا . . .!!

(سألْتُني دون أن أنطق : ولماذا يخاف أبي من جدّتي . . . إنّها مجرّد نزهةٍ . . . بالمناسبة : مَعَ مَنْ أخرجُ في منتصف اللّيل هذا؟! مع أبي . . . آآآآه لماذا يختلقون المشاكل . . . إنّه أبي . . . إنّه أبي . . .!!)

(قمتُ من فراشي ومشينا على رؤوس أصابعنا أنا وأبي نهمّ بالخروج من هذه الغرفة الّتي بدت أمام أبي قلعةً حصينةً تحتفظ فيها أمّه بابنه ، وتحرمه من أن يوطّد علاقاته معه ، ويبنيها كما يحلو له . . .)

(عندما صِرنا في فِناء الحوش خارج الغرفة ، كان يتناهى إلى

سَمْعنا شخير جدّي وجدّتي وهما يهويان في سابع نومة)!!

كانت غرفة الإسطبل تساوي غرفة جدّي ، ومؤثّثة بشكلٍ أفضل ، وتقع على يسار الدّاخل إلى الحوش ، في هذه الغرفة الأثيرة نَعِمَ بالثّواء فيها كُلٌّ من الحِصان والبغل وأكياس التّبن الّتي يدّخرها جدّي بعد موسمِ حصاد القمح في كلّ صيفٍ ، وفي إحدى زوايا الغرفة من جهة اليسارِ للدّاخل من الباب كان أبي يحتفظُ بأدوات الصّيد الخاصّة به ؛ قوسٌ صمّاء على شكل نصف دائرة ، طرفاها يمتدّان قليلاً باستقامة ، وجعبةُ سهامٍ تضمّ أكثر من مئة سهم ، كلّ سهم يبلغ طوله نصف مترٍ ، رأسه الحديديّة تثقب قلب الصّخر ، وطرفه الآخَر مُزيّن ببعض ريش الطّيور الّتي كان أبي يصيدها . وكان هنالك حربةٌ تستدفئ داخِل قِرابها ، طولها بطول السّهام ، غير أنّها مصقولة الجوانب ، مستقيمة العِماد ، خيّل إليّ أنّ أبي لو طعن بها وحشًا فسوف تدخل من جهةٍ وتنفذ من الجهة الأخرى . تناولها أبي بعناية ، ثمّ دلفْنا إلى غرفته ، هناك فوق سريره كانت البندقيّة تتمدّد على الحائط بدلال مُطلَق ، وبأنوثةٍ طاغية ، مدّ أبي كلتا يديه نحوها ، وقلّبها وهو يلفّها بنظراته العاشقة ، ونَصَبها كامرأة فاتنة أمام ناظريه للحظات ، ثمّ قرّبها منه نجيًّا ، وأهوى عليها بشفتيه وطبع عليها قبلة طويلة ، قبل أن يركنها على الحائط واقفةً لكي يرتدي سترة الصّيد ، كانت سترةً مفتوحة اليدين ، مليئة بالجيوب الجانبيّة والعلويّة ، قبل أن يلبسها ، انتطق بِحزامٍ من جلدٍ أسود ، ربّما من جلد أفعى صنعه جدّي له ، وبعد أن لفّه حول خصرهٍ بإحكام ، تناول (باغات) الطلّقات ، وثبّتها في جيوبها المُخصّصة على الحِزام ، وفي جانبه الأيمن وضع الخنجر في عروةٍ أُعدّت لهذا الغرض ، ثمّ ارتدى السّترة وملأ جيوبها من رصاصات البندقيّة الفائضة

عن سعة الباغات . ثمّ ركع أمام البندقيّة ليتناولها بحنوّ ، ويركزها على كتفه الأيمن ، ثمّ ركز على كتفه الأيسر جعبة السّهام ومعها القوس الصّمّاء . كان هذا المشهد يتنامَى أمام ناظِريّ وأنا أتابعه بشغف ، لم يكتمل المشهد حتّى وضع أبي طاقيّة على رأسه ، واستلّ طاقيّةً صغيرةً لي ثبّتها على رأسي ، وخرجنا من باب الغرفة بعد أن انتعلنا أحذية الصّيد الخاصّة . ألقيتُ نظرةً أخيرةً على الحوش برمّته ونحن في وسط الزّاروبة ؛ بدا ساكِنًا هامِدًا ينضح بالموت ، لولا صوت أقدامنا الخارجة من قلب هذا الموت إلى الحياة!! هل يكون للموتى خروجٌ من نوعٍ ما مثل هذا الّذي نمارسه أنا وأبي الآن؟!!

مَنِ المجنون الّذي يخرج في منتصف اللّيل ، حيثُ القرية بأكملها تمدّ جسدها الطّينيّ على فِراش الأرض ، وتغمض أجفانها لتنعم بنوم هادئٍ من أجل صباح يضجّ بالحياة؟!! هل كان أبي مجنونًا؟! ما الخطأ في الجنون إذا كان أبيٍ يستمتع بممارسته إلى حدّ الهَوَس؟!!!!

كانت اللّيلة ربيعيّة مُقمِرة ، تجلّى القمر في وسط السّماء وهو يُلقي من قرصه الفضّيّ سيلاً من الضّياء يغمر كلّ شبرٍ من القرية والجِبال المُحيطة بها . كانت عادة أبي أن يذهب إلى الصّيد راجِلاً ، نادرًا ما كان يركب الفرس الّتي اختصّها أبي دون غيرها بهذه المهمّة الخاصّة ، وكانت فرسًا مُدلّلة . لا حِصان جدّي ، ولا بغل عمّي حَظِيا بمثل ما حَظِيت به فَرَسُ أبي ، كان موقعها في الإسطبل محفوفًا بالعناية والاهتمام ، حيثُ أفرد لها أبي زاويةً في ذلك الإسطبل ، وأحاطَ الزّاوية بسياج من الخشب قُدّ من جذوع الأشجار ، وجعل له بابًا من الصّفيح ، وفي الدّاخل كان حوض الشُّرب للفرس وحدها ، ومجمع التّبن خاصًّا بها . في حين أنّ الحِصان والبغل كان يأكلان ويشربان من الحوض نفسه .

في رحلة الصّيد هذه قرّر أبي أن ترافقه الفرس إلى غايته ، وكانت الفرس تفهم ما يريدُ أبي بالصّوت والإشارة ، دخل عليها الإسطبل ، فهزّت رأسها كأنّها تحيّيه أو تتوقّع مجيئه ، أو كأنّها فرحت بهذا الصّديق العزيز . شدّ على ظهرها السّرج الخاصّ بها ، ومشى أمامها دون أن يقودها من رسنها الّذي كان يلتفّ بِسَعةٍ حول عنقها . مشتْ خلفه تتهادَى حتّى خرجنا من فم الزّاروبة الموصلة بين الحوش وحارات القرية . ما إنْ بدأنا نتهاوى في الطّريق النّازلة في أوّل الحارات ، حتّى رفعني أبي فوق الفرس ، وأمسك بلِجامها ، وسرنا ثلاثتنا على ضوء القمر النّاعم!!

كانت لسعةٌ من البرد تغلّف الأجواء ، غير أنّها لسعةٌ غير مؤذية ، فشهر نيسان في أوّله ، وكلّ شيءٍ في الأرض الطّيّبة يتفتّق عن الأكمام ، وينتشر في الأجواء عبقًا شذيًا . استسلمْتُ بدوري للفرس ولأبي ، أمّا هما فيعرفان أين يسيران . . . منظر أبي الّذي يسير أمامي انطبع في ذهني أسطورة من الأساطير ، كان القمر يلقي عليه أشعته ، فتنعكس صورته بجانب الفرس مائلةً عنها ، وتبدو في الظّلّ قمّة القوس ، وفوهة بندقيّة الصّيد ، كأنّهما ساقا شجرةِ الخلد ، ورأس أبي ثمرها!!

توجّه أبي نحو جبل (ابن جُبَير) يعرف هو والفرس معًا أنّ هذا الجبل مليء بالدّرر الّتي يقصد أبي أن يغترف منها ، كان سفحه يمتلئ بالثّعالب وبنات آوى والعُكّسات والغِزلان ، أمّا ثلثه الأعلى فيمتلئ بالضِّباع وبعض النّمور ، وأمّا قمّته فقد تربّعتْ عليها قطعانٌ من الذّئاب يصعب معرفة عددها ، ولا معرفة من أين تأتي ، ولا كيفَ تتناسَل . ومَنْ عدّ الذّئاب الّتي سقطتْ بين يدي أبي في تلك القمّة لم يشكّ

أنّه قضى عليها جميعًا ، غير أنّها تنبع من باطن الكهوف ، ومن تجاويف الصّخور ، كما ينبع الماء من بين الشّقوق!!

يحبّ أبي أن يستخدم السّهام في أكثر الأحيان ، وقد يلجأ إلى الاستعانة بالخنجر إذا هاجمه ضبعٌ من قريب ، وأمّا البندقيّة فلم يكن يقصد إلى استخدامها إلاّ عند الضّرورة .

مِن قعر الوادي الّذي يُصعَد منه إلى الجبلَين المشهورَين في القرية ، جبل ابن جبير ، والجبل العالي الّذي سمّيْتُهُ - فيما بعد - الجبلَ الّذي يُعانق السّماء الأولى . من ذلك القعر تنشعب طريقان ، يعرف مَنْ سلك الشّعب المائل إلى اليمين أنّه يقصد ابن جبير ، ومن سلك الشّعب المائل إلى اليسار أنّه يقصد السّماء الأولى . مال أبي إلى اليمين ، وصهلتْ فرسه بحنوّ ، وطوّحتْ رأسها في الهواء مرّتين ، ومضتْ . رفعتُ بصري أريد أن أشاهد جبل ابن جُبير بكامل هيئته ، فبدا تحت ضوء القمر شيخًا مَهيبًا ، شكّلت الصّخور والأشجار معالم وجهه الغامض . بدأنا نصعد في طرقٍ ضيّقة لا تكاد تتّسع لشخصٍ واحد ، غير أنّني لاحظتُ أنّ الفرس تسير فيها بهمّة ونشاط ، ولاً تُخطئ طريقها كأنّ علاقةً حميمةً نشأت بينها وبين هذه الطّريق . . . كانت تحين منّي التفاتةٌ خاطفةٌ على جانب الطّريق الضّيّق فأصعق للهوّة العميقة الّتي تحدّ الطَّريق من اليمين ، وكنتُ أصاب أحيانًا بالفزع ، وأنا أتخيّل نفسي أسقط في هذه الجرفات فتندقّ عنقي ، وتتحطّم ضلوعي ، غير أنّ تشبّثي بسرج الفرس ؛ بالخشبة الّتي تقع في أوّله خفّف من هلعي ، وزاد من مساحة اطمئناني . أضف إلى ذلك ترائي أبي أمامي بطوله الفارع ، ومشيته الواثقة الّتي كانت تشيع في داخلي شعورًا بالأمان .

كان أبي عجيبًا في طريقة صيده ، تراه يتوقّف فجأة دون سابق إنذار ، ويصمتُ كأنّه قبر ، وتسكنُ كلُّ حركة فيه كأنّه جُثّة ، وتهدأ كلّ جارحة فيه كأنّه حجر ، وتفعلُ الفَرَسُ فِعْله ؛ يستمرّ هذا الأمر لبضع ثوانٍ ، ثمّ فجأة يمدّ يده اليمنى بحركة آليّة إلى كتفه الأيسر ، ويتناول القوسَ وسهمًا من الجُعبة ، ويرمي به في جنح الظّلام شيئًا ما لم أكن لأتبيّنه ، غير أنّ رنّة القوس ، وصوتَ الطّريدة لا يُمكن لأذني أن تنساهما . تقع الطّريدة تتخبّط في دمائها ، ويحفظ أبي موقعها ، ولا يأخذها معه . يقول : (يا بنيّ . . . حين نعود سنعلّقها إلى جانب أخواتها . . . أمّا الآن فلندعها تموتُ على راحتها) . . . وكنتُ أهمس في أذني : (وهل تقطع الحيوانات دربَ الموت على راحتها؟! هل تفعل ذلك من خلال طقوس ، تتأنّى في إقامتها حتّى تتخلّص من أجسادِها ، فترتقي أرواحها تاركةً القشرة خلفها؟!!)

في السّفح الأعلى للجبل ، تراءتْ لي تحت ضوء القمر مجموعةٌ من الأحجار المقصوصة على هيئة مكعّبات ، وقد ارتفعت عن الأرض أقلّ من متر ، وبُنِيَت على أربع جهات . دفعني الفضول لأسأل أبي :

– ما هذه الأحجار يا أبي . . . ؟!

– تريدُ أن تعرف؟!

– نعم . . . كأنّها غرفةٌ كانت مبنيّة ثمّ صارت مُهدّمة !!

– لا يا بنيّ . هي غرفةٌ صحيح . . . ولكنّها دونَ سقف!!

– دونَ سقف . . . لماذا؟!

– لكي يتسنّى لمن يجلس داخلها أن يرى السماء والنّجوم؟!

– ولماذا يريد أن يرى السّماء والنّجوم من خلال غرفةٍ بلا

سـقف . . . إذا أراد أن يُشـاهدَ النّجـوم ، فليـخـرج خـارجـهـا ويفـعل ذلك . . .!!

- لا . . . لا ينفع . . .!!

- ولماذا لا ينفع؟!

- لأنّه هنا . . . انظر إلى هناك . . .

- نعم . . . ها أنذا أراه . . . ما باله يا أبي . . .

- ألا يبدو على هيئة قوس؟!

- بلى يا أبي . . .!!

- هذا ما يُسمّى بالمحراب . . .

- المحراب؟!

- نعم يا بنيّ . . . هنا مكان العِبـادة . . . كـان شـخصٌ زاهدٌ يقيم في هذا المكان يعبد الله طوال العام يُدعَى ابن جُبير . . .

- أليس اسم الجبل كذلك؟!

- نعـم . . . نعـم يا بنيّ . . . سُـمّي الجـبل على اسم هذا العـابد الجليل!!

- وأينَ هو الآن؟!

- ماذا تتوقّع؟!

- لا أدري . . .!!

- ذهبَ إلى الله . . .!!

- إلى الله . . .!!!!!

- نعم إلى الله . . . يا بنيّ الصّالحون ، لا ينزلون إلى الأرض ، بل يصعدون إلى السّماء . . هناك مكانهم الحقيقيّ . . .

- أتعرفُ يا أبي . . .؟!

- ماذا يا بُنيّ؟!

- أريد أن أصبح صالحًا . . .

في تلك الطّريق الطّويلَة أذكر أنّ أبي أطلق سبعةَ سِهامٍ قبل أن يصل إلى قمّة ابن جبير ، حيثُ الهواية الأصعب والأمتع عندَه . قبل أن نصل شعرتُ بأنّ القمر صار قريبًا منّا ، وأنّ قرصه الفضّيّ سينزل بكامل بهائه من عليائه وينضمّ إلينا في جلسةٍ صوفيّة شاعريّة . أمّا الهواء فصار بارِدًا . لم أكنْ بعدُ قد جرّبْتُ أقدار الجِبالٍ حتّى تلك اللّحظة . ولم أكن أعلم أنّ أبي سيفتح أمامي فضاء الخوف ، وسماء الأحلام ، وآفاق التّهيّؤات الّتي تشكّل منزلةً من منازل الجنون!!

(١٠)
مَنْ أراد أن يُمسكَ بالطّريدة فعليه أن يوقفَ دقّاتِ قلبِه

وصلْنا إلى القمّة . ليس بعد القمّة إلاّ الهاوية ، هل الحياة جبلٌ قمّته الموت؟! فكّرتُ وقفْنا ثلاثتُنا لبرهةٍ قبل أن يفكّر أبي وفرسه ماذا يصنعان ، وما هي خطّتهما القادمة!!!

وبخلاف قمّة الجبل الّتي تُعانق السّماء الأولى ، كانت هذه القمّة مليئةً بالأشجار الكثيفة . مال أبي بالفرس إلى جذع أحد هذه الأشجار ، وقبل أن يصلها أحدّ النّظر في أجمتها الكثيفة ، ثمّ اقترب منها بحذرٍ شديدٍ ، وراح يُمشّي خنجره على غصونها وأوراقها يمنة ويسرة ، صعودًا وهبوطًا ، ثمّ لّما تأكّد أنّه لا يُوجد فيها ما يستوجب الخوف ، لفَّ رسن الفرس حول الجذع وربطها هناك ، ومسح بكفّه الحانية على عنقها ، فخضعت بهذه العنق ، وهبطتْ بها قليلاً ، ثمّ رفعتْ إحدى قوائمها الأماميّة تريد أن تقول : شكرًا . . . ثمّ أنزلني أبي عنها . ومشينا تحت جذوع الأشجار وقد تركناها خلفنا .

على بعد ما يقرب من عشرين مترًا كمنَ أبي تحت جذع شجرةٍ كبيرةٍ ، وكمنتُ معه :

- هنا سوف نتربّص بفرائسنا . . .

- . . . . !!

- أترى تلك المجموعة الكبيرة من الأشجار؟!
- نعم!
- خلفها المنطقة المُحرّمة .
- المنطقة المُحرّمة؟!
- نعم . . . سُمّيتْ بذلك لأنّه لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها!!
- ولماذا لا يجرؤ أحد على فِعْل ذلك . . .؟!
- إنّها مسبعة!!
- ماذا تعني بمسبعة؟!
- المكان الّذي تتجمّع فيه السّباع ، من كلّ صنفٍ ولونٍ وحجمٍ .
- وماذا نفعل هنا إذًا؟!
- علينا أن ننتظر حتّى يشمّ أحد السّباع رائحتنا ، فيتّجه صوبنا ، فنكون قد استدرجناه إلى الفخّ؟!
- هذا يعني أنّك تجعل مِنّا طُعمًا يا أبي؟!
- نعم . . .
- نعم؟!
- وهل أنتَ خائفٌ؟!
- لا ، أبدًا . . . كيفَ أخاف وأنا إلى جانبك؟!
- ألستَ رجلاً؟!
- بلى يا أبي!
- إذًا أنتَ شُجاع . . . الرّجال لا يخافون!!

مرّتْ دقائق خِلْتُها ساعات ، ونحن جاثمون عند تلك الشّجرة لا نكادُ نأتي بحركة ، وأبي يتأمّل الفراغ المُظلم ، كأنّه يقرأ صفحةً في كتابٍ مُقدّس ، يُديمُ النَّظَر ويستمتع بما يقرأ ، أمّا أنا فدخلني الملل والبرد :

- إلامَ سنبقى هنا في أماكننا؟!

- يجب أن تصبر يا بنيّ . . . مَنْ أراد أن يظفر بالدّرّة فعليه أن يكتم أنفاسَه ، ومَنْ أراد أنْ يُمسِكَ بالطّريدة فعليه أن يوقف دقّاتِ قلبه!!

- ألم تشمّ السّباع رائحتنا ؟!

- بلى . . .

- فلماذا لم تأتِنا؟!

- ربّما تخاف منّا . . .!!

- الوحوش تخاف مِنّا نحن البشر؟!!!

- بعض البشر أضرى من الوحوش!!

- وأنتَ . . . ألستَ من هذا الصّنف؟!

- بلى يا بنيّ . . . ولكنّي أفعل ما أفعل لأحميَ القرية . . . ولأطعِمَ الجِياع!!

- وهل الجياع في قريتنا كثيرون؟!

- كثيرون جِداً . . . جِداً . . . كُلّ مَنْ في القرية جِياعٌ يا بُنيّ!!!

ثمّ نصمت ، وتمرّ دقائق أخرى ثقيلة من الوقت ، وأبي كامنٌ في مكانه كأنّه صخرةٌ مبنيّة ، كانت بعض الطّيور تُعلن عن نفسها ببعض الأصوات القادمة من أعماق الظّلام ؛ (تشيق . . . تشيق . . . تشق . . . تشق) . غير أنّها لم تحرّك شهيّة أبي لصيدها أو حتّى التّفكير بذلك ، بدا أنّ مَنْ هيّأ نفسه لصيدِ النّجوم لا يرضى بالشُّهب ولو ألقت بنفسها بين يديه ، وأنّ مَن اعتاد أن يسبح في المحيط الهادر يسهل عليه أن يخوضَ في المستنقعات .

مرّ وقتٌ طويلٌ جداً تعلّمتُ فيه من أبي الصّبر على الهيئة الّتي

نحن فيها ، إلى الحدّ الّذي خُيّل إليّ فيه أنّ أبي قد تحوّل إلى شجرةٍ مثل باقي الأشجار ، بل إنّ بعض أغصان الأشجار تحرّكت تحت تيّارات الهواء الباردة ، أمّا أبي فلم يتحرّك منه شيءٌ ؛ لكأنّه جذع شجرة مقطوعة أصلها ثابتٌ ولا فُروعَ لها!!

لفّتْ جسدي لفحة هواءٍ باردة ، سرتْ كأنّها الخدر في الأوصال ، تململتُ قليلاً ، وأردتُ أن أطردَ ما أنا فيه ببعض الحديث :

- هل تحبّ قريتنا يا أبي؟!

- بلى . . . بلى يا بنيّ!!

- ولماذا تقتل وحوشَها إذًا؟!

- لأحميك وأحمي القرية منها!!

- تحميني أنا؟!

- نعم ، نعم . . .!!

- وهل تنوي الوحوش أن تقتلني؟!

- هي تقتل كلّ مَنْ تجده أمامها؟!

انساح معنى الرّعب الّذي لم أعرفْهُ بعدُ في تلافيف روحي ، وكدتُ أُفصح عن مشاعري لولا أنّ أبي تابع :

- عليك أن تكون قويًا من أجل أن تعيش . الأمنيات حِبال المُغفّلين ، أمّا المُبصرون فسيّان عندهم ليلٌ أو نهار إذا استبصروا . وعلى وَقْع الإرادة يصنع الأقوياء أنفسهم ، ويحمونها من الغرق في الأوهام !!

- لا أفهم يا أبي كثيرًا . . .!!

- عندما تكبر ستفهم كثيرًا مِمّا أقول . . . أتعرف (يصمت مُتردّدًا) . . . أختك سميّة (يصمت مرّة أخرى) . . .

– نعم يا أبي . . . ماذا تريد أن تقول عن أختي سميّة !!

– عليك أن تكون قويًا من أجل أن تحميها ، ستكون هي سعيدةً بذلك ، هذا معنى الشّجاعة الّتي يتحلّى بها الرّجال ؛ أن يحموا مَنْ يُحبّون!!

كان جانب الجبل الّذي على يميننا ينحدر نزولاً بشكلٍ حادّ ، حانت منّي التفاتةٌ إليه ، فخيّل إليّ أنّ الأشجار تقف بانتظام في صفٍّ للصّلاة مثل ذلك الّذي وقفْتُهُ مع جدّي والمصلّين في صلواتً الفجر في المسجد العثمانيّ الّذي يبعد مسافة وردتين عن حوشنا . . . حدّقتُ النّظر أكثر لأرى ظلال الأشجار الّتي مالت مع ضوء القمر المنداح كشتلة ياسمين من قبّة السّماء . . . في عمق الشّعور الطّاغي بالجَمال يُمكن للخوفِ أن يمدّ براثنه ، وفي بحر الطّمأنينة والرّكون إلى حلو الحياة يُمكن للموت أن ينشب في ظهرك أظافره . . . تخيّلتُ أنّ الأشجار استحالت إلى وحوشٍ في طرفة عينٍ ، وانقطع سيل الضّياء القادم من الأعالي ، وأظلمت الدّنيا بأكملها ، ومدّت الأشجار الّتي في أسفل المنحدر غصونها وجذوعها فاغرةً أياديها وأفواهها إلى الأعلى ، حاسدةً إيّاها لأنّها أقرب إلى القمر ، استاء القمر من صِراع الأشجار ، وقرّر بأن يحرم الجميع من ضيائه ولو إلى حين . . . غير أنّ الأشجار لا يُمكن أن تعيش بعيدًا عن القمر ، فنكّستْ رؤوسها معتذرةً ، واصطلحت فيما بينها ، سُرّ القمر ، وعاد إلى ضيائه من جديد ، وعادت الأشجار إلى هيأتها الأولى .

الطّبيعة ساحرة ما لم يتدخّل الإنسان في العبث بها . إذا تحرّكتْ يد الإنسان لتصول في جوارحها رأيتَ القبح يسيطر على كلّ شيءٍ!! كم كان المنظر مهيبًا حين مسحتْ عليه عيناي وهما تتصوّران المشهد

كاملاً . كلّ شبرٍ في الجبل ينبضُ بالرّوعة . كدتُ أقوم من مكاني بعد أن ألفتُ الظّلامَ المخيّم على اللّوحة الكاملة لولا أنّ أبي أحسّ بذلك ، فأمسك كتفي بيده وشدّه إلى الأسفل ، وهمس :

- لا تتحرّك . . .

- . . . . .!!

- تكادُ الذّئاب تخرج من المسبعة!!

- وكيفَ عرفتَ ذلك؟!

- أسمع وقع أقدامها . . . تعوّدتُ أنْ أصغي إلى إيقاع الحياة الخفيّة هنا ، ودرّبتُ أذنيّ على سماع جميع الأصوات الغامِضة والتّمييز بينها .

- وهل الذّئاب قريبةٌ جداً . .

- أظنّ أنّ ذئبًا واحِدًا هو الّذي يتقدّم باتّجاهنا . . . اصمت . . . . اصمت . . .

(سكتْنا لحظات رهيبةً مرّتْ كأنّها دهورٌ طويلةٌ . . . سمعتُ بعدها الحِصان يُحرّك رأسه حينَ سرى صوتُ الرّسن عبر الأمتار الّتي تفصلنا عنه ، ثمّ صهل صهيلاً مبحوحًا ، وضرب الأرض بحافريه . . . قال أبي (بصوتٍ خفيض جدًّا) :

- هناك ذئبٌ يتقدّم باتّجاهنا!!

- أنا لا أرى شيئًا . . . هل تراه أنتَ . . .؟!

- الحِصانُ رآه عنّا!!

- وكيفَ عرفت؟!

- ألم تسمع . . .؟!

- أسمعُ ماذا؟!

- الحِصان . . . صهيلُه بهذه الطّريقة ، وتحريك رأسه ، وضرب

الأرض بقدميه . . . إشارةٌ أكيدةٌ على رؤيته للسّباع . . . هو يحسّ بها ويراها بطريقة أفضل مِنّا!!

صمتَ أبي بعدها ، وأشار لي بأنْ أصمت . . . شاهدتُه يتحفّز كأنّه أحسّ بدنوّ الوحش . . . فجأة ظهرتْ جمرتان متّقدتان في الظّلام تحت شجرة لا تبعد كثيرًا عنّا . بهدوء مدّ أبي يده إلى جعبة السّهام ، تناول سهمًا ، وأخذ القوس باليُمنى ، وركّبَ السّهم فيها ، أرجع السّهم إلى آخر نقطةٍ في انبعاج الوتر إلى الخارج ، ثمّ صوّب بدقّة ، ورمى الذّئب . . . سقط الذّئب في أوّل الأمر ثمّ قام من سقطته يترنّح وهو يعوي عُواء المذبوح ، نظرتُ إلى أبي فرأيت عينيه تلمعان ببريق الغِبطة ، ولكنّه لم يتحرّك من مكانه وظلّ يراقب الذّئب في رقصته الأخيرة ، كان السّهم قد أصاب إحدى عيني الذّئب ؛ صَدَق أهلُ القرية إذًا ؛ أبي يتلذّذ بأن يُطفِئ شعلة النّور في أجساد ضحاياه . . ظلّ الذّئب يعوي ، ويرفع رجليه الأماميّتين إلى الأعلى ، والسّهم قد انغرز نصفه في عينه ، وبرز نصفه الآخر إلى الخارج ، ثمّ راح الذّئب يتقدّم إلينا وهو يتخبّط في مِشيته ، مدّ أبي مرّة أخرى يده إلى سهم آخر ، وصوّب هذه المرّة وهو يبتسم وأطلق الموتَ المستتر في شيءٍ يُسمّى السّهم ، سمعتُ للسّهم إرنانةً شعرتُ أنّ قلب أبي رقصَ على إيقاعها ، غير أنّ هذه الإرنانة قابلتْها إرنانةٌ أخرى من الذّئب الجريح الّذي استقرّ السّهم في عينه الأخرى . . . كان عُواؤه الشّديد يصل إلى القمر ، والقمر ينسحب إلى جهة المنطقة المُحرّمة خجلاً ممّا يرى ، أو خوفًا . . . لا أدري . أمّا الذّئب فخرّ على الأرض صريعًا على ركبتيه يغرق في دمائه ، وأسبل رأسه عليهما . لم يكتفِ أبي بهذا المنظر المُروّع للموت ، بل تناول سهمًا ثالثًا ، وفي اللحظة الأخيرة الّتي رفع فيها الذّئب رأسه

كأنّه يطلق لروحه العنان في الانفلات من الجسد ، كان أبي يصوّب نحو عنقه بشدّة ، فاخترق السّهم كامل عنقه ، وربّما خرج من الجهة الأخرى . حينها بدأ الرّعب يعرف طريقه المُعتّقة إليّ ، ويومها بدا أبي وحشاً من هذه الوحوش ، وذئبًا من تلك الذّئاب . ولم يعدْ أبي هنا هو ذلك الّذي أعرفه هنالك في القرية . . . هل يضطرّ النّاس إلى العيش بأكثر من وجه؟! هل اختلاف منابع الحياة تُعطي للنّاس أشكالاً تتبدّى بحسب طبيعة الماء الذي شربه من هذا النّبع ، أو ذاك؟!

- أشعر بالخوف يا أبي . . . (قلتُ ذلك وأنا أرتجف)
- لا تخف يا بنيّ . . . ما دمتَ معي!!
- وهل ستبقى دائمًا معي يا أبي؟!
- بالطّبع . . . بالطّبع . . .
- ولكنْ . . .!!
- علينا أن نتقدّم قليلاً . . .

كان الذّئب قد لفظ آخر أنفاسه ، حينَ تقدّمنا باتّجاهه ، جرّه أبي إلى أقرب جذع شجرةٍ ، وانسحب خلفه رتلٌ من الأتربة والأشواك والحِجارة الصّغيرة ، والدّماء المُعفّرة . ركنه أبي تحتها ، وآثار الدّماء على كفّيه ، مسحها بجذع الشّجرة . وسحبني من يدي ، ومشينا بخطواتٍ آثمة نحو الأمام :

- إلى أين يا أبي؟!
- إلى المنطقة المحرّمة .
- ولماذا؟! (كان الخوف هو الّذي ينطق بالكلمات نِيابةً عنّي)
- هذا الذّئب أوّلُ الغيث!!
- ماذا تعني؟!

– الآن ستتداعَى عشرات الذّئاب على عُواء أخيهم الّذي عَلّق الجَرس!!

– وماذا سنفعل؟!

– سنكمن عند أقرب مكانٍ إلى المنطقة المحرّمة ، ونراقب تجمّع الذّئاب المُدهش!!

لم يكنْ لي من خيار فيما يبدو ، مشيتُ بجانبِ أبي ، وأنفاسي تكاد تتقطّع ، حتى وصلْنا إلى مكانٍ مفتوح على السّماء ، واسع ممتدّ ، تحفّه الأشجار من كلّ صوبٍ . عند آخر شجرةٍ قبل هذا المكان كَمَنّا . . . غير أنّ أبي أحسّ برجفةٍ في جسدي ، وهو لا يدري مستوى الرّعب الّذي اجتاحني . . . قال أبي :

– أترى تلك الشّجرة؟!

– نعم . .؟!

– ما رأيك أن أُصعِدك عليها فتكون في مأمنٍ وأنتَ تُشاهدُ حدثًا لن تراه في حياتك كثيرًا . . . إنّها فرصةٌ ربّما لن تتكرّر!!

– نعم . . . نعم أريد أن أكون في مأمن يا أبي .

كانت الشّجرة الّتي استقرّ جسدي الضّئيل على أعلى جذعها ، تفيضُ بالدّفء والأمان اللّذين كنتُ بحاجةٍ إليهما . ما إن استقررتُ هناك حتّى مدّ أبي يده إلى إحدى جيوب سترته ، ناولني خبزًا وجبنة :

– كُلْ يا بنيّ . . . عليكَ أن تأكل لتصبح قويًا وشُجاعًا .

– شكرًا يا أبي . . . أنا بالفعل جائع!!

على بعد خطواتٍ قليلةٍ منّي أسند أبي كتفه الأيمن إلى الشّجرة الّتي تطلّ على المنطقة المحرّمة ، وراح يلتهم هو الآخر طعامه ، وينتظر اللّحظة الحاسِمة . . .

مرّت نسمات الهواء كسيحةً ، و مسحت بأصابعها على صفحات وجوهنا كأنّما تُداعِبنا . وظللنا في المكان ذاته ، أمّا أنا فغُصت داخل جذوع الشّجرة أتّقي لسعة البرد ، وأحمي نفسي من السّقوط ، وأمّا أبي فاعتدل في وقفته أوّلاً ، نظر إليّ كي يطمئنّ ، وأشار بإصبعه أن أكتم أنفاسي ، حين تقع الصّاخّة :

- المشهد الأجمل لم يبدأ بعدُ . . .!!

- المشهد الأجمل!!! (قلتُ ذلك مستغربًا وأنا أشعر بأنّ قلبي يصّعّد نحو عنقي ، وأنّ مدية السّكّين تُعمِل نصلها في مَعِدتي)

- نعم . . . عمّا قليل . . . حافظْ على مكانك لا تُغادِره في أيّ حال من الأحوال!

- وإذا هجمتْ عليكَ الذّئاب يا أبي . . .

- ابقَ مكانك . . . مهما يحصل . . .

- مهما يحصل !!!

- نعم . . . مهما يحصُل .

هبط أبي الأرضَ على ركبتيه ، وكمن تحت الشّجرة ، حتّى إذا مرّتْ لحظات كأنّها خارج إطار الزّمن . . . بدأت العاصفة تهبّ من كلّ جهة . أمّا أنا فلم يدع لي الذّهول أن آتي بأيّة حركة ، بقيت مشدوهًا كأنّني تِمثال رُكِزَ بين تلك الجذوع . . .

صرتُ في مواجهة القمر الّذي مال نحو الأفق المُقابلِ لمركزي فوق الشّجرة ، وأمّا السّاحة الفسيحة الدّائريّة المُزنّرة بالأشجار والّتي سمّاها أبي المنطقة المحرّمة ، فكانت واسِطَة العِقد بيني وبين القمر . فجأةً في السّكون القاتل المخيّم على كلّ شيءٍ حتّى على القمر نفسه الّذي تخلّى عن حركته قليلاً ليرى معي ما سوف يحصل ، لمعتْ في الظّلام

المشوب بالفِضّة عينا ذئب يتقدّم ناحيتنا بهدوء طاغ ، تركه أبي يمشي مِشيته الواثِقة حتّى صار في منتصف المنطقة المحرّمة ، أطلق على عينه اليُمنى سهمًا فأرداها تسيل على وجنتي الذّئب ، عوى الذّئب كمن يستغيث ، واتّجه راكِضًا نحو مصدر السّهام ، وقف أبي كأنّه جِنّي ، وركض على محيط المنطقة المحرّمة كأنّه شِهابٌ لامعٌ يجوب أفق السّماء ، وحين شاهده الذّئب بنصف عينيه ، والسّهم مركوزٌ في إحداهما ركض باتّجاهه ، ركع أبي على إحدى رُكبيته ، وبحركةٍ مدروسة صَكّه السّهم الآخر في عينه الأخرى ، توحّش الذّئب ، وصار يعوي بشكلٍ هستيريّ ، ثمّ أخذ يركض عاميًا نحو أبي ، ولم ينتظره أبي حتّى يصلَ إليه بل عاجَلَه بسهمٍ ثالث دخَلَ هذه المرّة في فمه . . . كان المشهد الّذي يتحرّك أمامي يبدو كفيلمٍ أو كمسرح تتحرّك عليه هذه الصّور في الخيال لا في الواقع . . . لكنّ طريقة أبي في صيد الذّئاب لا بدّ أنّها تفوق حتّى الخيال!! حين استقرّ السّهم الثّالث في فم الذّئب ، خار الذّئب هذه المرّة كأنّه عِجل ، وانكفأ على ظهره ، وراح يتدحرج رافعًا قدميه ورجليه إلى الأعلى ، وهو يُعاني سَكَرات الموت . . . لم يرحمه أبي حتّى هذه اللّحظة ، بل ركض نحوه وجمع بين رجليه ، ورفع الذّئب بهما ، ثمّ طوّحه في الهواء ، وهو ما زال يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودار به ثلاث دورات في الفراغ ، ثمّ قذفه على مدى يديه نحو جذع الشّجرة الّتي أكمن فوقها ، ارتطم الذّئب بالجذع ، وانزلق إلى الأسفل ، مرّت ثوانٍ قليلةٌ جداً قبل أن يزعق الذّئب زعقة الموت الأخيرة ، وينقطع نَفَسُهُ إلى الأبد ، بعد أن رمى صوتَهُ الذّبيح في هوّة الفناء . لقد استقرّ الذّئب جثّةً هامدةً تحت الشّجرة ، غير أنّها ثوانٍ امتدّت لشهورٍ بل لسنوات من الرّعب عِشْتُها وأنا أرى جسدَ الذّئبِ

يشقّ الفراغ باتّجاهي ، خُيّل إليّ للحظةٍ أنّه فاغرٌ فاه وأنّني سأستقرّ في لحظاتٍ معدودةٍ داخل جوفه!!

عجيبٌ ما يفعل أبي . . . . لم يكتفِ بذلك ، ركضَ باتّجاهنا أنا والذّئب الجاثي أسفلَ الشّجرة ، ثمّ مدّ يده إلى خنجره ، ورفعه أمام وجهه برهةً من الزّمن ، برقَ خلالها نصل الخنجر على ضوء القمر ، نَحَرَ الذّئب في تُرقوته ، ثمّ فصَلَ رأسَه عن جسده ، وأنا لا أكاد أصدّق ما أرى . . . شعرتُ في تلك اللّحظة بالخوف من أبي ، ولم يكن الخوف من منظر الذّئب المنحور أمامي لِيُقاسَ مقابل الخوف من أبي الّذي تحوّل إلى قطيع من الذّئاب في هيئة إنسان . . . أهذا حقًّا هو أبي . . . أهو هو الّذي يخافُ من جدّتي ، ولا يخاف من كلّ وحوش القرية؟! لم أستطعْ أن أُدرِكَ أنّ الاثنين شخصٌ واحدٌ ، غير أنّ كتلة الخوف الّتي جثمت على صدري كادت تخنقني ، فساءلتُ أبي ، وشفتاي تهتزّان كجناحَي عصفور مَبلول :

– لماذا فصلتَ رأس الذّئب عن جسده يا أبي؟!

– . . . .

ظلّ أبي صامتًا ، غير أنّ جوابه لم يطلْ كثيرًا ، فلقد أراد أن يجيب عن سؤالي بالفعل لا بالقول .

اقتلعَ من الشّجرة الّتي ألتجئ إليها جِذعًا قويّا ، ثمّ شدّ بقبضة يده على رأس الذّئب المقطوعة ، وركض باتّجاه المنطقة المحرّمة ، ركز الجذع كأنّه رمحٌ في وسط السّاحة ، وثبّتَ فوقه الرّأس . كان المشهد عجائبيًا لا يستطيع عقلٌ أن يتصوّره . قبل أن يثبّت أبي رأس الذّئب على الجِذع ، نزع من عينيه السّهمين ، وأبقى على السّهم المركوز في فمه . وحين استوى الرّأس على الجذع بهذه الهيئة بدا المشهد تحت ضوء

القمر مُستلاً من الأساطير . غير أنّ أبي كان هو نفسه صانع هذه الأسطورة . ظلّ المشهد يتتابع بصوره الفارقة أمامي . ماذا سيفعل أبي الآن؟! سألتُني في أعماقي . وكأنّ أبي سمع هذا السّؤال فأجاب عنه بالحال ؛ رجع خطوتين إلى الوراء وتأكّد من هيئة الرّأس القائمة على رمح الجِذع ، ونظر نظرةً أخيرة إليه كأنّه يُودّعه ، ثمّ ركض باتّجاهي ، وكمن تحت الشّجرة ، وقال بصوتٍ يفحّ كفحيح الأفعى :

- هل أنتَ جاهزٌ لتشاهد الأروع؟!

- الأروع؟!!!! ألم يكن الّذي شاهدتُه قبل قليلٍ هو الأروع؟!

- لا . . . لا . . . هذا الأجمل . . . أمّا الأروع فسيأتيك عن قريبٍ . . .

- وكيف تعرف . . .؟!!

- رأس الذّئب المنحور هو الّذي يعرف أكثر من كلينا . . .

- أتعني ما تقول؟!

- تمامًا . . . ولا تنسَ أنّني صرتُ صديقًا للذّئاب . . . وأستطيع أن أميّز ألوان المشاهد ومستوياتها . . .

- أنتَ صديقٌ للذّئاب . . . غريبٌ . . .!!

- وما الغريب؟!

- صديقُها وتقتُلها؟!

- يحدث ذلك يا بنيّ . . . أنا أخلّصها من الشّرّ الكامن فيها . أليسَ هذا نوعًا من الصّداقة؟!

- وكيفَ تخلّصها من الشّرّ؟!

- بقَتْلها .

- بِقَتْلِها!!!

- بلى . . . حين تموت تنتهي شرورها!!
- وأنتَ؟!
- ماذا؟!
- ألا تبدأ شروركَ أنتَ حين تنتهي شرورُها هي؟!
- ربّما .
- ربّما !!!!!
- ربّما . . . اصمتْ سيبدأ المشهد الأروع عن قريبٍ . . .

صمتُّ كأنّ عقربًا فوق رأسي ، وجمدتُ في مكاني من الخوف ، والبرد ، والرّهبة . . . دخل أبي كلاعبٍ أساسيّ في صناعة الخوف في قلبي . . . واستطاع منذ هذه الرّحلة الّتي ربّما لو لم تبدأ خيالاتي إلاّ بعدها ما شَكَكْتُ لحظةً بأنّها هي ذاتها من صنع خيالي . . . خيالي الّذي بدأ يصنع كلّ الأشياء ، ويعيد ترتيب كلّ المكوّنات ، ويلتجئ إلى عالَمه الخاصّ ، ويحتمي به منه . . .!!

في نقطة فاصلةٍ بين الحقيقة والوهم ، وفي منطقة غامضةٍ بين الرّؤية والرّؤيا ، برزتْ جمرتان من جديد ، هذه المرّة كانتا لذئبٍ أسود ، وقف على يسار المنطقة المحرّمة ، ونصب أذنيه ، وشكّل هو والقمر والشّجرة الّتي نكمنُ عندها مثلّثًا عجيبًا ، سأسمّيه مثلّث الموت ، كنّا نحن والقمر قاعدتَه ، وكان الذّئبُ رأسه . رفع الذّئب رقبته عاليًا باتّجاه القمر وراح يعوي عواءً عميقًا وبعيدًا : عووو . . . عوووو . . . عووووووو . . . بعد دقائق بدأت الذّئاب تتوافدُ إليه عن اليمين وعن الشّمال عِزين ، لمعتْ عيونها جميعًا في الظّلام كأنّها نجومٌ في سماءٍ دامِسة . . . حينَ صار عددها تسعةَ عشرَ ذئبًا ، وقف أبي وقفته الّتي أدركتُ أنّ الأهوال سوف تنثال من بعدها . . . ركض على محيط

المنطقة حتّى وصل منتصَفها ، صار أبي في مواجهة الذّئاب المتمركزة على النقّطة المقابلة له في محيط هذه السّاحة ، وأمّا رأس الذّئب فتقف في الوسط كـأنّهـا تُعلِن بداية الحـرب بين جـيش الذّئاب ، وبين أبي الّذي كان جيشًا آخر من الذّئاب . . . رحتُ أراقبُ المشهد وأنفاسي لا تكاد تخرج من أعـماقي ، ولم أعد أسـمع إلاّ صوتَ دقّاتِ قلبي . . . وقفَ أبي وركز يديه على جنبيه وباعد قليلاً بين رجليه واستعدّ لكلّ شيء ، أمّا الذّئاب فمدّتْ أعناقها نحو السّماء في حركةٍ مُوحّدة ، وفتحت فمها عن عواء واحدٍ تجمّع في تسعةَ عشرَ عواءً ناقمًا ، فبدتْ كأنّ السّماء ارتجّتْ لذلك العُواء ، وكأنّ الشّجرة الّتي ألتجئ إليها قد ارتجفت بسببٍ منه ، وكأنّ بعض السّحب الّتي تمرّ من أمام القمر قدا اضطربتْ تحت موسيقاه الرّهيبة ، فتناثرتْ ثمّ أسرعتْ في الهروب . . . دخل الموتُ في تلك اللّحظة من باب الغِياب ، ليلتقي بمن غاب عنه كلّ هذه الفترة ، وآن له أن يزوره بعد طول انقطاع . . . لِمَنْ كان الموت سيُولّي وجهه في تلك اللّحظات؟! لم أدرِ حتّى تلك السّاعة!! إنّه اللاّعب الثّالث على المسرح مع أبي والذّئاب . أمّا أنا والقمر والسّحب والأشجار وبقيّة الهوامّ فكنّا نجلس على كراسيّ المشاهدين ، تكاد قلوبنا تسقط تحتها من هول ما ترى ، وتكاد ألسنتنا تنعقد من فداحة الفاجِعة المُرتَقَبة!!

لم تكد الذّئاب تُكمِلَ عُواءَها حتّى صرخَ أبي صرخةً ثقبتْ قلب الفضاء ، ووصلتْ إلى السّماء الأولى فخلتُها انفطرتْ من جرّائها . . . ثمّ تناول أبي سهمه المُميت – كالعادة – وصوّبَ نحو الذّئب الأسود ، ورماه وهو يمشي . . . كأنّه يمشي إلى حتفه . . . أصاب السّهمُ قدمَ الذّئب ، وتابع أبي تجهيز السّهام ، ثمّ رمى الثّاني ، لم يكد السّهم الثّاني

يُصيب أحد الذّئاب حتّى هجمت الذّئاب كلّها باتّجاه أبي كأنّها السّيل الجارِف . . . تخلّى أبي في تلك اللّحظة عن مشيته الهادئة ، وركضَ باتّجاه الذّئاب وهو يُطلِقُ السّهام نحوها ، زادَ من سرعة رَكضه المُذهلة وبدا كأنّه الرّيح في هُبوبِها العاصِف ، صار يركض كالمجنون حينَ التقى الجمعان في الوسط ، وبرزتْ رأس الذّئب المنحورة تُحدّد الاتّجاه ، قفزَ فوق الذّئاب الهاجِمة ، وأصابه الذّئب الأسود الجريح في رأسه ، فجرحها . تحت وطأة ثِقلَ الذّئب ترنّح أبي قليلاً ، ولكنّه حافظَ على اتّزانه ، وسارع إلى خنجره وصار يطعن به يمينًا وشِمالاً ، وهو يركضُ باتّجاه التلّة البسيطة الّتي كانت الذّئاب ترتقيها قبل أن تهجم عليه . . . لا شكّ أنّ أبي كان أسرعَ من الذّئاب ، عندما صار على رأس التّلّة كانت الذّئاب قد تجمّعت في وسط السّاحة المحرّمة حول رأس أخيهم المذبوح . . . كان موقع أبي هو الأفضل لعلوّه ، ولإشرافه على وسط السّاحة ، وسيطرته النّافذة على المكان . . . كان أبي سريعًا في كلّ شيء ، لم يُمهل الذّئاب إلاّ بمقدار ما مدّ يده إلى جُعبة سِهامه ، ليتلقط منها الموت ، ويرمي به العاوِيات تحته ، رمى السّهم الأوّل والثّاني والثّالث والرّابع والخامس . . . قبلَ أن تفكّر الذّئاب في مُعاودة الهجوم باتّجاهه . . . ركض هذه المرّة على محيط السّاحة باتّجاه القمر . . . وترك خلفه عددًا من الذّئاب تتلوّى تحت ألم الموت الّذي أصبح أقربَ إليها من حبل الوريد . . . صعد هناك على إحدى الأشجار كأنّه أحد أحفاد الجنّ . . . وبدأ يصيح ويُطلِقُ السّهام باتّجاه كُتلة الذّئاب الّتي بدأت تتهاوى وتتساقط أمام وابل الحتوف القادمة من جُعبة أبي . . . استطعتُ أن أميّز لمعة الدّماء الّتي كانت تسيل على وجهه بعد الهجمة الأولى للذّئاب ، رأيتها تحكي قصّة الموت في أبهى تجلّياتها ، يومها

عـرفت أنّ الموت كـائنٌ قـادرٌ على التّـشكّل ، وأنّه ليس واحـدًا ، بل متعدّدًا ، وهو كـامنٌ في كلّ شيء ، على تناقض هذه الأشياء والبعد في المسافة بينها ، فقـد يستتـر الموت في نصل سهم ، أو في شِدق وحش ، أو في جوفِ بئـرٍ ، أو في لبّ كلمـةٍ ، أو في تجاويف فكرةٍ ، أو في حنوّ أبٍ ، أو في متعةٍ من نوع ما . . .

قفز أبي من فوق الشّجرة ، ولم ينتظر حتّى تباغته الذّئاب ، هيّأ بندقيّته الّتي لم يستعملها في كلّ هذا المعمعان إلاّ في هذه اللّحظة ، وصوّب نحو الذّئب الأسود ، دوّى صوت الرّصاصة وهي تحمل الموتَ في طريقها ، أصابتْه في رأسه فانفجر . . . علمتُ يومها ، أنّ الموت ينوب عن الجماعة في استئثاره بالواحد . سقط زعيم الذّئاب يتعفّر دمه بالتّراب ، ودارتْ حوله الذّئاب المتبقّية دورتين ، وغادرت المكان فَزِعةً من الجهة نفسها الّتي جاءت منها . بسقوط الزّعيم فرّ القطيع ، وقف أبي وقفة المنتصر ، وأرجع رأسه إلى الوراء ، وراح يعوي كأنّ روح الذّئاب قد حلّتْ فيه : أووووو . . . . أوووووو . . . أوووووووووووووو!!

أكان أبي بشرًا؟! ليتني يومها استطعتُ أن أميّز بينه وبين الذّئاب!! أكان الموت يخاف من أبي؟! أم كان يحبّه؟! لماذا ظلّ أبي بعد هذه المعركة الطّاحنة حيًّا ، في حين أنّ الموت كان قد اجتثّ روح كلّ المشتركين فيها ما عداه؟!

عدّ أبي ضحاياه ، وهو يجرّها خلفه باتّجاه الشّجرة الّتي أعتليها ، كانوا أربعة ذئاب مع الذّئب الخامس الّذي يستقرّ تحت جذع الشّجرة الّتي أعتليها ، بالإضافة إلى الذّئب السّادس الّذي قتله في البداية . . .

نزلتُ من على الشّجرة ، وأنا أتحسس رأسي ، وأتلمّس جسدي ، ولا أكاد أصدّق مِمّا رأيتُ شيئًا . . . خاطبني أبي وهو يبتسم :

- هل أعجبتْكَ المعركة؟!
- . . . . .!!!
- ألم تُشاهِدْها من مكانك؟!
- بلى . أبي؟
- نعم يا بنيّ .
- كيف يُمكن أن أكون شُجاعًا مثلك؟!
- لا تفكّر في الأشياء إذا أردتَ أن تُقدِم عليها!!
- ماذا تعني؟!
- افعل ما تريد بمجرّد أنّك أردت .
- لم أفهم كثيرًا!!
- لا بأسَ . . . كلّ مرّة تخرج فيها معي ، ستفهم شيئًا مِمّا أقول .
- ومتى سأفهم كلّ شيءٍ مِمّا تقول؟!
- حينَ تنتهي الذّئاب الّتي نلتقيها في السّاحة المُحرّمة!!
- وهل ستنتهي؟!
- يومًا ما . . . ربّما . . . ربّما . . . لا أدري . . .

عُدنا إلى شجرة الفَرَس ، من بعيد بدت كأنّها فرحتْ بعودة أبي ، طوّحتْ رأسَها في الهواء ، وصهلتْ صهيلها المبحوح ترحيبًا بصيّاد الوحوش ، ساقها أبي نحو الذّئاب المقتولة ، حمل عليها أربعة ذئاب ، وكنتُ أنا خامِسها ، وربط إليها ذئبين بعد أنْ لفَّهما بكيسين من الخَيْش لتجرّهما خلفها ، ومضينا قافِلين . . .

في طريق العودة لم يُخطِئ أبي أماكن صيده من الطّيور حين صعدنا هذا الجبل ، مرّ أبي على الأماكن السّبعة جميعًا ، وألقمَها سَرْجَ الفرس في موضعٍ مُهيَّأ لذلك على الجانبين . . . حانت منّي التِفاتةٌ

أخيرةٌ إلى القمر الذّي تركناه خلفنا ، رأيتُهُ يتوارى خلف الأشجار في الأفق البعيد ، ويُرسِل ضوءاً باهتًا لا يكاد يُبين . . .

شاهدنا أمامنا الفجر ينشقّ عن سدفات السّماء ، ويضرب قبّة من الحنوّ على القرية الّتي بدأتْ بيوتها تظهر من بعيد تحت غَبَش الظّلام الهارب . . .

(١١)
سَقطتْ ورقةُ العمر في بئر الزّمن!!

هَرِمَ أبي بعد موت أختي نصفَ قرنٍ ، وبدا كأنّ صيّاد الوحوش قد نهشتْ من جسده كلُّ الوحوش . . . لا أدري كيفَ تحوّل أبي في لحظة فارقة زارَ فيها الموتُ أختي من منارةٍ يستهدي بها التّائهون إلى تائه لا يجد منارةً تهديه . . . بدا كأنّ شبحَ الموت غشّى على عينيه ، فانخطفَ بريقهما ، وذبلتا كأنّهما تجويفا حَجرَين أبلهَين انصبّ فيهما العذاب انصبابًا!!

أينَ كان أبي . . . وأينَ صار . . .؟! كَرِه أبي بعد موتِ أختي الحُوشَ ، والقرية ، والفَرس الأثيرة لديه ، والبندقيّة ، وكلّ شيء . . . حتّى أمّي لم تعد تشكّل له أيّة قيمة . . . انقلبتْ حياة البيت رأسًا على عَقِب . . . هكذا فعلتْ أختي بنا ، في حياتها كانت تقلب البيت لكنْ على طريقتها ، كلّ شيءٍ كان يتحرّك تحت إيقاع حركتها ، وحينَ ماتت قلبتْ كلّ حركةٍ إلى همود الجِبال الجاثِية . . . . كنّا أسرى لجاذبيّتها في حياتها وفي موتها . . . أيّ أخت هذه الّتي هبطتْ على عالَم الحُوش كنجمة من السّماء ، وغادرتْه ككتلةٍ من الرّماد محروقًا لا أثر فيه لشيءٍ ينبض؟!!!

كنتُ أراه في اللّيالي الباردة ، حيثُ تزمجر العواصف خلف زجاج النّوافذ ، وتصفع حبّاتٌ متتابعة مِنَ البَرَدِ حوافّها بشدّة ، كنتُ أراه يقوم

من فِراشه ، ويلبسُ ثِيابه ، ويخرج دون أن يُحدِثّ أيّةَ ضجّة . . . لم أكنْ أعرف إلى أين يخرج ، كان شيءٌ من الخوف الممزوج بالذّهول يتملّكني وأنا أتساءل : كيفَ يخرج في مثل هذا الجوّ العاصِف ، وإلى أين؟!

لم يكنْ خروج أبي في اللّيالي الدّوامس عَرَضًا قريبًا ، ولا حَدَثًا عابِرًا ، كان يفعل ذلك باستمرار ، ولا أدري عدد اللّيالي الّتي غفلتُ فيها في نومي وخرج هو فيها كعادته ، ولا أدري كذلك كم مرّة حدث كلّ ذلك منذ موت أختي ، لكنّني فكّرتُ في أن أعدّ هذه المرّات ، فأحسستُ أنّني مثل حالم في ليلةٍ تمتلئ فيها السّماء بالنّجوم ، وهو يُحاول أن يعدّ تلك النّجوم ، وكلّما أنهى مئةً منها بدت له النّجوم على هيئاتٍ معيّنه فسرحَ فيها وشكّلها على حجم خيالاته ، فانفلتَ منه العدّ ، وضاعت منه الأرقام ، فراح يبدأ العدّ من جديد ، ولكنّه يتيه في الملكوت كذلك من جديد ، فتختلط عليه الأمور ، فيتشبّث بالأحلام مُستسلِمًا لها ، تاركًا الأرقامَ تغرق في سذاجاتها!!

كبرتُ أنا ، وصغرت المصيبة معي ، ولكنّها لم تصغر مع أبي . فكّرتُ في أن أُخبِر جدّي بما يفعله أبي ، غير أنّي أحجمتُ عن ذلك!! وبدوتُ كمن يُفشي سِرًا قد ائتمنتْه الأقدار عليه ، وشعرتُ أنّني أخونُ خصوصيّة أبي ، وأسراره!!

غير أنّه من الصّعب ألاّ أجد لهذا السّؤال الجارح : (أين يخرج أبي في اللّيل؟) جوابًا!! كان السّؤال جارِحًا بالفعل ، وذابِحًا ، وضاغطًا على القلب ، غير أنّه كان ممتعًا كذلك ، تخيّلتُ أنّني لو وجدتُ جوابًا لكنتُ فقدتُ كثيرًا من المتعة الّتي أشعر بها ، وأنا أطرحه على نفسي في الخيال!! وفي النّهاية اهتديتُ إلى أن أضع عددًا من الإجابات على هذا

السّؤال ، فتخفّ حِدّته الجارحة ، ولكنّه يظلّ ممسِكًا بِخطام المتعة الغامضة فلا تنتهي حينئذ . كم من الأسئلة فقدتْ بريقها حين وجدنا إجاباتٍ عنها!! لا أظنّ أنّ أحدًا يُماري في أنّ الأسئلة الّتي لا تحمل إجاباتٍ أطول عمرًا ، وأوسع أفقًا من تلك الّتي تجد لها جوابًا بمجرّد أن تنتهي من طَرْحِها!!

هل كان أبي يخرج للصّيد؟! كلّ ما أعرفه أنّه عاف الجبل وأشجاره وذِئابه . هل كان أبي يخرج إلى الشّجرات الثّلاث؟! إلى أيّ واحدةٍ منهنّ تُرَى كان يأوي؟! أإلى شجرة الشّيخ عليّ ، أم إلى مئذنة الجامعِ العثمانيّ ، أم إلى شجرة الزّيتون العتيقة؟! وعند هذه الشّجرة الثّالثة أكان يلفّ قبر أختي بذراعيه ، ويبكي عندها بكاءً مريرًا؟! أم أنّه كان يُناجِيها كما لو كانت حيّة؟! ويُسامرها كما لو كانت رفيقته في الظّلام العميق؟! ماذا كان يفعل أبي حين يُغلِق بعده باب غرفتنا كأنّه أغلق خلفه الإجابة ، ومنعها من أن تدخل!!!! لا أدري . . . لا أدري . . .!!!

ظلّ أبي لُغزًا غامِضًا لم أفهمه إلى اليوم!! وظلّ صندوقًا من الأسرار لم يهتدِ إلى مفتاح قُفله بشرٌ . . . هذا الّذي بدا لي وحشًا من الوحوش انهار كصخرةٍ سقطت من رأسِ جبلٍ أمام موت ابنته . وذاب أمام ذلك كأنّه صخرةٌ من الملح جرفها السّيل جرفًا!! هل الموت هنا مُختلِف؟! ألم يصنع أبي الموت لمئات الوحوش والسّباع والذّئاب والضّباع والطّيور والغزلان؟! ألم يكنْ قويًا بما يكفي ليواجه كلّ هذا الموت المتدفّق مع دماء ضحاياه فوق قمم ابن جبير؟! لماذا انهار أبي أمام نوعٍ واحدٍ من الموت؟! لماذا أصبح كأنّه هو اليتيم أمام خطفةٍ واحدةٍ من خطفات الموت الألف الّتي عاشَها من قبلُ؟! هل يكون موتُ كلّ تلك السّباع لا يُعادل موت فتاةٍ صغيرةٍ كأختي . . .!! لا أدري . . . لا

أدري . . . صنع أبي عالمًا ظلّ يتوالَد معي من آبار الرّعب العميقة إلى اليوم؟! تركني أغرق في محيطات الخيالات المُجنّحة ، وأشرق بماء الأحلام الضّائعة!! ماذا كان يفعل أبي بي؟! لماذا يكون موت أختي حدًا فاصلاً بين موتي وحياتي . . . أنا ذلك الإنسان الّذي سَمّوه (واثق) لأنّهم علموا أنّه بعد ليلة الذّئاب في المنطقة المحرّمة لن يعود واثِقًا حتّى من وجوده على سطح الأرض؟! أصبح يشكّ حتّى فيما يراه؟! هل يراه هو؟! أم يراه هو؟!! آه كيف تسير الحياة على حدّ السّكّين ؛ السّكّين الّتي هي إحدى لُعَبِ الموت الكامن في كلّ شيء!!

استغرقتْ دورةُ النّسيان زمنًا طويلاً حتّى تأخذ مداها قبل أن يلتفت قلبُ الحُوش إلى شيءٍ آخر غير المصيبة الّتي حاقت به جرّاء موت الأيقونة الرّاحلة!! كانت شِهابًا فانطفأ ، ولمعةَ برق فانخمد ، وهزيمَ رعد فانكتم ، وضوءَ حِكمة فانذوى . . . وظلّ منهاً أثرها الّذي لا يُمحَى ؛ دمعة الحِصان كلّما أعدّه جدّي فيما بعدُ وحيدًا ، وتنهيدة الجدّ نفسه وهو يشدّ عليه السّرج دون أن يجد يدًا صغيرة تمتدّ إليه من الجهة المُقابِلة . . . وغصّة شوقٍ في نَفَسِ الأب ، وطعنةَ حربةٍ نافذةٍ في قلب الأمّ . . . وذكرى شمعةٍ لعبتْ بها الرّيح في يوم عاصفٍ في قلبي أنا . . . قلبي الّذي تشكّل على عجينة المشاعر المرهَفة حدّ الجنون ، والمضمّخة بأحاسيس الوَجْد الّذي لا ينتهي حدَّ الهَذَيان . . . آآآآه يا سميّة . . . آآآآآه يا أختاااااه . . . آآآآه يا أختاااه . . . أكاد أتكوّر على نفسي أجهشُ بالبكاء المرّ بعيدًا عن الأعين كلّما خطرتْ صورتك الخالدة في بالي؟! لماذا تتأبّين على النّسيان؟! لماذا تنطبعين في الذّاكرة نقشًا لا تمحوه الأيّام ، ولا تبرأ من وهجه الدّهور؟! لماذا أجرّ فؤادي خلف خُطاك هنا في الحوش أو هناك في الجبل كأنّني ذئبٌ صريعٌ؟!! ومَنِ

القاتل والمَقتول؟! ومن بيده السّكّين الّتي ستنغرس في أحشاء أخيه؟! أنا أم أنتِ؟! لمعةُ عينيك المتوقّدتين أم بريق عينيّ الخائفتَين؟! أم أنّه الموت الّذي غرسها في أحشائنا معًا ، ولكنّه أراد أن يستأثر بك دوني ، فرحل بك وتركني من بعدك ضائعًا في طرقات الذّكرى ، وتائِهًا في ممرّات الحنين!!!!

ولكنّ الزّمن الّذي يخدم الموت يضمّد جراحنا فيعيدنا إلى طبائعنا ، من أجل أن تحين اللّحظة المُناسبة فنكون من جديدٍ لقمةً سائغةً للموتِ الّذي لا يشبع!!

مرّت الأيّام ، وتلتْها الشّهور ، وأعقبتْها السّنون ، ولبست الحياة ثوبًا آخر غير الثّوب الّذي كانت تلبسه أيّام أختي . . . نعم تبدّلت الأثواب ، وسارت الحياتان في مسارَين مُختلِفَين . . . وبدأ الحوش يركن الثّوب القديم على حائط التّاريخ . . . ويُذعِن لفكرة الموت نفسه الّتي نَقَشها حكيمٌ على جِدار كهفٍ قديم : (الحياة تستمرّ والموت أحدُ معالِمها . . .) نعم استمرّت الحياةُ ، ولكنّها بلَبوسها الجديد لم تكن سائغةً لأحدٍ في الحوش . غير أنّه نشأ جيلٌ جديدٌ من أبناء العمومة سدّ فراغًا كبيرًا من الّذي أحدثه موتُ أختي . . . وصِرنا بإرادتنا أو بدونها ، بفعل الزّمن أو بدونه ، بحبّنا أو بكرهنا ؛ نألف معيشتنا اللاهثة مع ساقية الأيّام وتحتها ماء الموت!!!!!!!

امتلأ الحوش عن بكرة أبيه بالصّغار ، ضجّتْ بهم السّاحة في لَعِبهم وصُراخهم . فجأة انثعبت كلّ زاويةٍ فيه بحركة دؤوب ، شكّل الأطفال القادِمون من رَحِم الموت أبرز مظاهرها . وظلّتْ الحركة الّتي نثرتْ كفًّا من رملٍ على ذكرى أختي تتساءل في عجبٍ صارخٍ : (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ حِيْنٌ)؟!

غيـر أنّ أبي الّذي شـاركَ في نَثر الصِّغـار ليمـتلئ بهم الحـوش ظلّ على هيـئـتـه بعـد الموت القـاصم لظهـره . لم يسـعـد بتـوالد الأجـيـال الجـديدة ، وكـأنّ الحـزن رسمَ غـلالةً سـوداء أمـام عـينيـه ، فغطّتْ هذه الغلالة على كلّ بهجة أو حبور يمكن أن يكونا إلى جانبِ إنسانٍ بسيطٍ في القرية . . . أمّا أنا الّذي شـاركتُ أبي حزنه الفظيع على أختي فقد مللتُ من الانتظار الطّويل في صفّ البـؤسـاء ، وتمنّيت أن يكون هناك صفٌّ آخـر بلونٍ آخـر غـيـر البـؤس لأنحـاز إليـه . ولكنّ أبي بعـينيـه الغـائريتن ، وظهـره الّذي احـدودب قليـلاً فـرّق كلّ تفـاؤلٍ في أن يظهـر مثلُ هذا الصّفّ . ومـاذا نفعل لنكسـر قـيـود الأسى الّتي أحـاطت بنا جميعًا؟! أما من فرجةٍ أو فسحةٍ للأمل؟!

سقطتْ ورقة العمر في بئرِ الزّمن . . . فكبرنا فجأة . . . كيفَ كبرنا ؟! كيفَ هرمنا بهذه السّرعة؟! لم يجد أبي جوابًا على سؤاله وهو يهذي بهـذه الكلمـات أمـام أمّي . أمّي هي الأخـرى كـانت تبكي في اللّيـالي السّـود دون أن تُشعِـرنا بذلك على فـقـدها للأيقـونة السّـاحـرة؟! سـألهـا الموتُ نفسه ذات مرّة : ألم يُغنِك ميـلاد الأطفال الجُدد عن موت طفلةٍ مرّت في القلب ذاتَ حلم؟! أجابته بدمعتَين حارّتَين سالتا على خدّيها كأنّهما لؤلؤتان قادمتان من بَحرٍ عميق!! نعم كادت أمّي لكثرة ما بكتْ على أختي أن تفقد بصرها . لم تقلْ لنا ما كانت تُعانيه من الآلام بعد كلّ حفلةِ بكاءٍ صامتة في ليلةٍ دامسة . عرفْنا ذلك حين بدأت تُضيّق عينيها عندما تنظر إلى الأشياءِ أمامها ، وعندما بدأت تتلمّس الجدران وهي تسير لكي لا تعثَّرَ بأحد الأشياء في الطّريق . . . حينها بدا الجبل الّذي تكوّر على ظهر أبي بسيطًا أمام انطفاء الضّوء من عينيّ أمّي .

وكـانت ليلةً فـارِقـة ؛ قـامت أمّي بعـد منتـصف ذلك اللّيل من

فِراشِها ، وقد عاوَدَتْها الذّكرى . خرجتْ من باب الغرفة إلى ساحة الحوش . سألها أبي الّذي أرعبه استيقاظها على هذه الهيئة الذّابحة في هذا الوقت القاتل :

- إلى أين؟!

- أريد أن أخرج إلى السّاحة؟!

- أيّة ساحة؟!

- الحوش . . . الحوش . . . لماذ تُكثِر من هذه الأسئلة؟!

- هل أنتِ مجنونة . . .؟! السّاعة الآن حوالي الثّانية بعد منتصف اللّيل!!

- لا يهمّ . . . شيءٌ يعذّبني في صدري أريد أن أتخلّص منه هناك!!

- تريدين البكاء على سميّة!! أليس كذلك؟!!

- نعم . . . وهل بكيتُ على غيرها منذ أن عرفتُ معنى البكاء؟!

- ألم ترحلْ إلى مَنْ هو خيرٌ مِنّا؟! فَلِمَ كلّ هذا العذاب . . . أتريدين أن تزيدي عذابي أيضًا؟!

- هل قصّرنا في حقّها؟! (قالتْ ذلك وهي تُكفكِفُ مجرىً لا ينقطع من الدّموع)

- لا . . . . (يصمت) لا . . . لا .

- بلى . . لقد قصّرنا في ذلك . . .!!

- . . . . .!!!

- كُنّا نطلب منها فوق طاقتها . . . كانت تعمل أعمالاً لا تقوم بها فتاةٌ ناضجة . . . كانت طفلة . . . يا حسرتي . . . كنّا نعذّبها بما نطلب منها . . . نحن الّذين نستحق أن يسحقنا الموت بدلاً منها!!

– توقّفي أرجوك . . . هذا الكلام ينحرني نحرًا (قال أبي ذلك وضمّها إلى صدره ، وهو يُحاول أن يُخفّف عنها)

– اتركني وشأني . . . دعني أُرِحْ ما في أعماقي (قالت أمّي ذلك ودفعتْ أبي عنها بعيدًا وقامت كأنّها شبح يتهادَى في الغرفة)

ظلّ أبي مكانه ينشج في صمت ، وهو يدفن رأسه بين كتفيه . . . أمّا أمّي ففتحت باب الغرفة ، وهمّتْ بالخروج . بدا جسدها النّحيل خيطًا من خيال ينسلّ في الظّلام . . . كانت تتلّمس حافّة الباب ، وهي تُحاوِل إغلاقه . لم يعد خافِيًا على الكثيرن أنّ أمّي في طريقها إلى أن تفقد بصرها كلّيّة . . .

بهدوءٍ تامّ أغلقتْ خلفها الباب ، ولم تمرّ سوى لحظات حتّى أطلقتْ صرخةً جارحة أيقظتْ كلّ خليّة في الحوش ، فهُرِعَ الجميع ليعرفوا ما حدث . كانت أمّي– وهي تعبر ساحة الحوش – قد تعثّرت بإحدى الأحجار الّتي لم ترها لضعف بصرها فلم تتمالك نفسها ، وهوت إلى الأرض ، وانكسرتْ قدمُها . . .

ظلّتْ أمّي طريحة الفِراش ثلاثة أشهرٍ بعد ذلك . . . لا تمشي إلاّ لِمامًا . زرعتْ أمّي بحالتها هذه شوكةً جديدةً في صحراء الكآبة الّتي لَفّت المُقيمين هنا . . . لم يحتمل أبي الأمر أكثر من ذلك . . . انتظر حتّى يُجبَر كسرُ أمّي . . . وقرّر أن يقضي على تاريخ الحوش وأهله ، وصمّم أن يمسح أيّامه الحزينة من حياته وذاكرته إلى الأبد ، ورحل بنا أنا وأمّي وإخواني دون أن يأخذ رأي أحد!!

(١٢)
كلُّ ما حولَ القِمّة يسقطُ عنها

لا تعرف الأيّام على مَنْ تدور . هل تعرف السّاقية أنّها تبعثر الماء وهي تدور؟! كانت أعمارنا ماء متناثرًا قد يصيب رذاذه الأرض فتخضرّ ، وقد يظلّ منكمشًا على نفسه فلا يتجدّد حتّى يأسن أو ينضب ، وقد يعلو حينًا حينَ تكون السّاقية في دورتها العالية ، وقد يهبط حينًا آخر حين تُكمل السّاقية دورتَها . نحن نعلو مع الماء ونهبط معه!!

الماء أصلُ الوجود ، عليه قامت كلّ الحَيَوات . لولا الماء ما كان هناك تاريخ ولا بشر ولا حياة ولا موت . نحن بالماء نستطيع أن نستشرف المُستقبل ، ونتوقّع طَرَفًا من الغيب ، ونستظهر جانبًا من المخفيّ . . . مِنْ أيّ ماء سُقينا حتّى صرنا إلى ما صرنا إليه؟! كان هذا السّؤال يشكّل في حدّ ذاته جوابًا ، حين نتذكّر معًا أنّ سميّة شربتْ من ماء البئر!!

كم ركضَ في ممرّات المدرسة ، كما لو كان يهرب من شيءٍ ما . مِمّ؟! من الماضي؟! من المستقبل؟! مِمّ يخاف هذا الطّفل الّذي امتدّ عمره إلى الغد أكثر مِمّا انبتّ منه أمسِ ؛ كانت المدرسة امتدادًا لعالَمه السّاحر ، فيه اختزنَ معرفته الخاصّة الّتي تتألّف من مزيج من الغموض والكَشفِ ، إنّها المعرفة الّتي بنى قاعدتها ابتداءً من ليلة الذّئاب!!!

معلّموه في الإعداديّة مرّوا على ذاكرته كالطّيف، وفي الثّانويّة مرّوا عليها كالوهم، لم يكن (واثِقًا) إلاّ من الأناشيد والأشعار الّتي ظلّت تتراقص على جدار مُخيّلته كلّما راح يردّدها مُتلذِّذًا بإيقاعها . . . كانت الكتب بالنّسبة له بابًا يفتح على المُتعة السّاجية، كلّما قرأ بالعربيّة نصًّا أحسّ أنّ لغة القرآن تتبدّى هنا، غير أنّ اللّغة الرّشيقة والإيقاع الموسيقيّ الطّاغي لم ينقُرا وترَ طربه الأخّاذ، وهذيانه الخلاّب إلاّ وهو يردّد: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَة﴾ فكان يرجف، فيُتابع: (تَتْبَعُها الرَّادِفَة) فيشتدّ ارتجافه حتّى يكون تمايُله مقدّمةً لسقوطه في الرّعب المادّيّ الّذي استقاه من ليلة الذّئاب، فإذا وصل إلى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ﴾ تشكّل الرّعب المعنويّ بأكثف حالاته في عالَمه الخاصّ، فبدا ماتعًا لذيذًا، ساحرًا أنيقًا، رغم ما يوحيه الرّعب من النّقيض في الشّعور إذا كان الإنسانُ سليمًا!! وهل كان هو إنسانًا سليمًا؟!!!

كلّ غلافٍ مرسوم على كتابٍ من كُتُبِ مدرسته، قرأه على غير ما يقرؤه الآخرون، رأى فيه ما لا تراه العين إذا أطلقت النّظرة الأولى، لم يكنْ يعترف بالنّظرات الأولى في القراءة، كانت له أدواته الخاصّة فيما يقرأ، أغلفة الكتب تبدّت له لوحاتٍ رسمها فان كوخ أو بيكاسو أو ليناردو دفينشي؛ كان يُحاكي كلّ غلافٍ كما لو كان بشرًا من أذنين، ويناجيه كما لو كان إنسًا من قلبٍ.

مشى يتهادَى في الممرّ بين الصّفوف، لم يكنْ يرى أحدًا سوى قلبه الّذي ضمّ عليه كتبه المدرسيّة، أصدقاؤه كثيرون، لكنّهم لم يكونوا بشرًا، كانوا ورقًا؟! ولأنّهم كذلك فقد رماه الآخرون بالانطوائيّة والانعزاليّة، وهل كان حقًّا كذلك؟! كانت المرجعيّاتُ مُختلفةً، هم يرون أنّ اللّهو واللعب والتّراشق بالألفاظ في السّاحات هي مؤشّر

الانفِتاح على الآخَرين والانسِراب في تيّارهم ، أمّا هو فكان يرى أنّ مُخاطبة النّاس والأفكار والمعاني عبر ما يقرؤه هو عين الاجتماعيّة ، وبسبب هذا التّمايز في التّفكير فقد نُبِذَ من أكثر طلاّب المدرسة ، حتّى أولئك الّذين ارتاحوا له ولهدوئه الذّابح ، ابتعدوا عنه في النّهاية ؛ لأنّه كان يتكلّم بغير لسانهم ، ويتحدّث إلى شيءٍ ما ، ولكنّهم لم يكونوه!!

في المدرسة لم يفهمه غير (جمال) ، كان صديقًا يقرأ روح صديقه كما كان (واثق) يؤمّل ، ولهذا نشأتْ بينهما علاقةٌ قويّة ، شُدّتْ بحبلٍ من ثقة وجمال!! عَلما أنّ الغايات بعيدة ، ولهذا أعدّا لها زادًا كثيرًا . وأدركا أنّ الحياة ليست الّتي نحياها وأنّها في مكانٍ آخر ، فاستوى عندهم عدمُ الوجود أو وجودُ العدم!!

كان (جمال) أسمر البشرة ، وجهه يفيض بالمِسْك سوادًا ، وأسنانه تشفّ عن اللّئالئ بياضًا ، وكان يُعرَف بابتسامته ، وإذا اتسّعتْ ابتسامته ضاقتْ إحدى عينَيه وارتفع حاجبُ العين الأخرى في هيئة غمزةٍ ساحرة ، أمّا صوتُ ضِحكته فخفيفةٌ ومُمتدّة كأنّها رنّة وترٍ هزّتْهُ أناملُ فنّان . كان مربوعًا لا يشتكي منه قِصرٌ ولا طولٌ ، ومشدود القامة كأنّه جذِع شجرة عتيقة . أمّا عيناه فكانتا صامتتَين ، غير أنّه إذا التقى صديقَه (واثق) نطقَتا بكلّ شيءٍ!!

على المقعد نفسه جلَسا ، في الرّكن الأيمن من وِقفة المعلّم الّذي كان يميل بوجهه نحوهما كأنّهما جذباه إليه بمغناطيس!! على الدُّرج الخشبيّ ذي الوجه المحفور صَنعا لغةً خاصّةً بهما ، وصمّما أن يكونا شيئًا مختلفًا . كان الدّرج ذو المقعدين المُتّصلَين قديمًا ، وظاهره خُدِّد لكثرة ما مرّ عليه من طلاّب ، وما درسَ فوقه من تلاميذ ، اختلطَتْ

فوقه بعض الرّسومات الّتي تداخلتْ فيما بينها فصارت مُبهَمة ، غير أنّهما تساءلا : كم من هؤلاء الّذين خربشوا هنا خطوطهم صدقتْ معهم حظوظهم!! في اللحظة الّتي كانا يحسّان أن أترابهما في الصّفّ تلعب بهم الأيّام على هواها كانا هما يُحسّان بأنّهما في الصّفّ نفسه يلعبان بالأيّام على هواهما . ها هما يرسمان غدهما كما لو كان الغد لوحةً يُمكن أن تُرسَم ، وصفحةً يمكن أن تُكتب ، وحكايةً يُمكن أن تُروى ، وقصيدة يمكن أن تُنظَم!! هل كان الغد حقًّا كذلك؟!!!!

كان يوم الخميس بالنّسبة لهما وسيلةً لقراءة الكون ، بعد أن كانت المدرسة وسيلة لقراءة القاطنين في هذا الكون ، كم تساءلا فيما تساءلا : مَنْ يُشكّل الآخر ؛ الكون أم النّاس؟! هل كان الكون قادرًا أن يشكّل النّاس فيتّبعونه اتّباع المخطوف للضّبع؟! أم كانوا هم قادرين على تشكيل الكون فيتّبعهم اتّباع الذّئب للرّائحة؟! كم كانت تعذّبهما أسئلةٌ من هذا النّوع ، غير أنّهما كانا يتلذّذان بهذا العذاب ، ويستسلمان له كما تستسلم الضّحيّة لقاتلها!! نعم شربتْ الأسئلة من دمائهما ، وارتوتْ من ذَوْب أفئدتهما!! وظلّا أمينَين لها ، يحكّان طرفها بحجر الفكرة فتتّقد النّار!!!

في يوم الخميس هذا ، كانا يخرجان إلى أطراف المدينة مشيًا على الأقدام ، يظلاّن سائرَين حتّى تأكل الأرض من أقدامهما ، يغُذّان الخُطا وهما يتحدّثان كأنّ قوّة خفيّة تلسع ظهرَيهما فتتّسع خُطاهما . سِراعًا إلى صخرة الملتقى ﴿كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ . وعند أطراف المدينة الّتي يبلغانها بعد مشي حثيثٍ لساعتين كاملتين ، يصلان إلى تلّة عالية مُشرفةٍ على وادٍ سحيق ، حين يصلان قمّة التّلّة تتراءى خلفهما بيوتُ المدينة كأنّها نمارقُ مَصفوفة ، أو زرابيُّ مَبثوثة ، ومن أمامهما

يتبدّى الوادي هبوطًا في ممرّات ترابيّة ضيّقة كأنّها الأفاعي الملتوية ، وحول هذه الأفاعي مارستِ الخُضرة تلوين ما حولها ، فبدت المنعرجات كأنّها صحراءُ آنية في خضراء وارفة!! هناك في القمّة يجلسان :

– ما أسهل أن تسقط في الوادي إذا تركتَ رِجلك تهوي!! (يقول واثق)

– ومنْ يترك رِجله تهوي؟! (يُجيب جمال)

– كثيرون . . .

– كثيرون . . .؟!!!

– كم تركوا من جنّاتٍ وعيون من أجل سلطةٍ واهية!!

– لم نجرّب شهوة السّلطة من أجل أن ننتقدهم ، هنا . . . (ينظر حوله آخذًا نَفَسًا عميقًا من الهواء) . . . هنا تكمُن السّلطة الحقيقيّة ، وحدَها القمّة تتّصف بالتّفرّد ، وكلّ ما حولها إمّا يسقط عنها ، أو يُحاول أن يكونَها فلا يستطيع ، لأنّه لا يُوجد غيرها . لكلّ هدفٍ قمّة!!

– نحن نبحث عن القمّة أم عن ذواتنا؟! هنا في القمم تتجلّى الذّات ، وتشعر بها!! ما أجمل أن تكون أهدافُنا أعلى من القمم الموجودة ؛ حينها سنخترع نحن قممَنا الخاصّة بنا!!

ثمّ يجلسان على حجرَين ، ويمتّعان نظرهما في الأفق الممتدّ ، وتغيم الرّؤية في الأفق البعيد حيثُ تتناثر الجبال في تلك الجهة ، زرقة السّماء تتّشح في البعيد بأفق أبيض ، والشّمس تعانق السّلسلة ، وتهمّ بأن تختبئ خلفها . كانت الجبال تتّخذ من بعضها سُلّمًا لتصعد نحو السّماء ؛ فكّرا : هكذا يفعل بعضُ البشر!! كان الهواء يصفر صفيرًا عاليًا ، ويعبث بثيابهما ، وهما يحاولان أن يرفعا الصّوت حين يتحدّثان لكي لا يسرق الهواء منهما الكلمات . وقف (جمال) وهو يُشير بإصبعه

راسِـمًـا في الهـواء نصف دائرة ، ومـادًّا يده الأخـرى تحـتـهـا بشكلٍ مستقيم :

– هنا بداية الحياة ، وهنا قمّتها ، وهنا نهايتها . كلّ واحد منّا تسير دورة حياته بهذه الطّريقة ، في النّهاية لا بدّ من النّهاية ؛ إلاّ الأَحلام!!

– الأحلام؟!

– نعم . الأحلام ، تبدأ من القمّة ، وتستمر بشكل أفقيّ كشعاع . من أين ينطلق الشّعاع يا واثق؟!

– من المصدر .

– وإلى أين ينتهي؟!

– لا ينتهي .

– صحيح ، وغير صحيح!!

– كيف؟!

– لا ينتـهي حـتّى لو تكسّـر عـبـر الـفـضـاء ، لأنّه يصنع خطوطًا مستقيمة في كلّ مرّة ، ولكنّه ينتهي في القلب ، حيثُ يتجدّد هناك في أعدادٍ لا نهائيّة من الأشعّة ، كلّ شعاع منه ينشطر إلى عدد من الأحلام يفوق عدد النّجوم!!

كـان (جـمـال) مُـغـرمًـا بالمعـادلات الفـيـزيائيّـة والاسـتنتـاجـات الرّياضيّة ، أمّا (واثق) فكان يصنع من اللّغة أفكاره الخاصّة .

– متى يموت الإنسان؟! (قال ذلك واثق)

– حينَ يتوقّف قلبه . (قال ذلك جمال)

– صحيح وغير صحيح . ولكنْ إذا قصدتَ توقّف القلب الحقيقيّ ، فليس صـحـيـحًـا ، كم من أناس يضخّ القلبُ الدّمَ في عـروقـهـم وهم موتى!!

– إذًا دعْني أستمعْ إلى فلسفتك في الموضوع . واتركْني أُعِدْ إليك السّؤال : متى يموت الإنسان؟!

– إنّها فرصتي إذًا (قال واثق ذلك وهو يضحك مُبتهجًا) .

– نعم . قُلْ .

– يموت الإنسان يا صديقي : إذا كان ينغرس في الهاوية وهو يظنّ أنّه يتربّع على القمّة . يموت : إذا استخدم قلبه مضخّة للدّم ولم يستخدمه محطّة للاعتِبار . يموت : إذا لم يرَ قطرة النّدى في الصّباح الباكر على ورقة الياسمين!! يموت : إذا انضمّ إلى القطيع اللاّهث خلفَ حفنةٍ من شعير!! يموت : إذا فقد الحِكمة!! يموت : إذا . . .

– توقّفْ يا صديقي . . . لقد اكتفيتُ . . . لا أريد أن يخيّم الموت علينا ونحن هنا ، ويلقي بظلاله حولَنا . . . أليس من فرصةٍ للهروب منه إلى الحياة!!

كانت أيّام الخميس فرصَتهما للخروج من دائرة الرّتابة الّتي عاشاها مع بقيّة الزملاء في المدرسة ، ظلاّ وفيَّيْن لمساءاتها ، وشَرِبا من جَمالها ما لم يعد بهما قدرةٌ على ترْكها . على تلك القمّة ألغى (جمال) المسافة الواصلة بين التّلال بإصبعه الّذي يختصر المسافات وهو يُطوّحه في الهواء مُعبِّرًا عن خيالاته ، وعلى القمّة نفسها أنشد له (واثق) أجمل القصائد وأعذبها . كان يحمل في كلّ مرّة معه ديوانًا أو روايةً أو قصيدةً . . . كم من القصائد نثر أبياتها في الأثير هناك فحلّقت في الفضاء كأنّها عصافيرُ من أمنياتٍ!! وكم من العبارات ذرّها بيديه في النّسمات فثَقُلتِ النّسماتُ بلطائفها ، فاعتلّ مَشيُها ، فصارت تتهادَى سكرى من النّشوة . مَنْ وقف على تلك القمّة اليوم سيجد أنّ ذرّات الهواء هناك تعجّ بملايين الأحلام الّتي تتشكّل على هيئة كلماتٍ سابحةٍ في المُطلَق!!!!

كان (جمال) أقدر على اكتِساب الأصدقاء من (واثق) ، كثروا أو قلّوا . عدّهم قليلين وعدّ (واثقًا) الكثير ؛ ففي صحبته إيّاه تتخاطب الأرواح قبل العقول ، وتتلاقى الأنفُس قبل الأجساد . وعلى الرّغم من هذه العلاقة الوطيدة فقد ظلّ بعض أصدقاء (جمال) يهمسون في أذنه : كيفَ تُصاحِب هذا المجنون؟! ألم تجد غريبَ أطوارٍ إلاّه لِتُصاحِبه؟! كيفَ تقضي وقتك معه ؟! يا رجل هذا إنسان عايش ومش عايش!! وكان (جمال) يردّهم بلطف أحيانًا ، ويلتزم الصّمت أحيانًا أخرى . أمّا (واثق) نفسه فظلّتْ كُتَل الطّلاّب المتراكمة في الصّفوف والسّاحات تتجنّبه ، وتعتبره كائِنًا فضائيًّا هبطَ على فِناء المدرسة فجأة . واسودّ كاللّيل في وجوههم بغتة . فأمّا هو فكان ينأى بنفسه طواعيةً عن كُتلهم ، لأنّه يرى نفسه أقدر على التّحليق والطَّيران منهم ، كان يحسّ أنّ أجسادهم جاثمةٌ على أرواحهم فلا يُغادِرون مواطئ أقدامهم ، أمّا هو فكان يحسّ أنّه ورقة تطوّحها رياح الأحلام في الفضاء في كلّ اتّجاه!! وأنّى للاثنين أن يلتقيا ؛ مَنْ قال إنّ القمّة تعترف بالقاع؟! ومنْ قال إنّ القاع يهوى أن يرى الكون من موقع القِمّة؟!!

ماذا كان يُمكن أن يفعل (واثق) لو لم يجد صديقًا مثل (جمال)؟! هل كان سيظلّ قابِعًا في زاوية نفسه ، أو يدور حولها؟! وهل كان يُمكن أن يكتفي بذلك؟! وهل الإنسان محتاجٌ في حياته إلى صديق؟! وهل صَدَقَ من قال : إنّ مَنْ لا أخًا له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح؟! لِماذا لا يكتفي النّاس بأنفسهم؟! لماذا يبحثون عن آخرين يلقون بثقل أفكارهم عليهم؟! أكانوا يفعلون ذلك من أجل أنفسهم لا من أجل الآخرين؟! من أجل أن يجدوا مساحةً من الودّ تعوّضهم عن الجفاء الّذي تنوء به الحياة؟! وهل كانت أعباء الحياة ثقيلة إلى الحدّ

الّذي لا يستطيع الإنسان بمفرده أن يحملها؟!

أرجح الظّنّ أنّ (واثق) كان من الممكن أن يعيش وحيدًا؟! وحيدًا من غير أناسيّ، ولكنّه مشحون بذاكرته وذكرياته، مشحونٌ ببئرٍ عميقةٍ يختزن فيها من ليالي القرية تجارب يُمكن أن تكون زاده على الطّريق، ورفيقه إذا عزّ الرّفيق!!

مضتْ أيّام الدّراسة صفًّا صفًّا، وجاءت السّنة الأخيرة في الثّانويّة العامّة، حيثُ يتبارَى الجَمْع، ويدخلون مِضمارًا جديدًا للسّباق!! لم يكفّ الاثنان عن الذّهاب في مساءات الخميس إلى التّلّة المشرفة في أطراف المدينة؛ كانت هذه التّلّة تهبهم قوّة كبيرةً خفيّة للاندفاع إلى الدّراسة، كانوا يشعرون بأنّها تعطيهم مددًا من الإيمان بأكبر الأهداف وأسماها شرفًا، كانوا يُلقُون إليها بجرعات عواطفهم الّتي تكدّستْ خلال أيّام الأسبوع في جوارحهم؛ إلى هناك كانوا يذهبون خِماصًا من الهمّة، ويعودون بِطانًا منها!!

ومضتْ الأيّام كسلى؛ حيثُ تبدّلت الأطوار، وانتحى كلّ ذي غايةٍ ناحيةً يُناجيها كي تبلّغه المُراد. وأُحضرت الأنفس إلى الامتحانات؛ عندها الصّراط، فمن عمل صالحًا فيما ترك نجا، ومن لم يعملْ تلقّفتْه أنياب النّدم، وطحنتْه عجلة الحسرة. ولو أنّ الإنسان يستدرك ما فاته لظلّت مساحة الخسران قابلةً للانحِسار!!

وجاء حَيْنُ الحصاد، وفغرت الكُتَل المتراكمة فاها وهي ترى أنّ هذا المجنون والانطوائيّ والقادم من كوكبٍ آخر كان الأوّلَ على المدرسة، وأنّه بذّ أقرانه أولئك الّذين ظلّوا يسخرونَ منه كأنّما كانوا بحاجةٍ إلى أحدٍ ليكون موضع سخريتهم. وحصّل المجنون مُعدّلاً لم يحصّلْهُ أيٌّ من أولئك الّذين تشدّقوا بالأستاذيّة. أمّا (جمال) فحصّل معدّلاً قريبًا من

صاحبه ، وإن ابتعد عنه قليلاً . ثمّ كانت أيّام المدرسة ذكرى جميلة ؛ لأنّ الغايات فيما بعد فرّقتْهما على غير مكانٍ ، ورمت بكلّ واحدٍ إلى طِيّة غير طِيّة صاحبه!!

دخل (واثق) جامعةً غير الجامعة الّتي دخلها (جمال) ، وصارت الأيّام تفرّق بينهما ، وتضع حاجِزًا ساتِرًا من التقائهما!! كان جمال جريئًا ، وجدَ في الجامعة ضالّته الّتي بحث عنها طويلاً قبل هذا ، ولم تمكّنه بيئةُ المدرسة من قبلُ منها!! صاحبَ الكثيرين ، ولها معهم ، ونسيَ لقاءات التلّة المُشرِفة ، وخاض مع الخائضين ، وغاص في بحر اللاّهين ، وإنْ ظلّ خيطُ مثابرته على دراسته ممدودًا من غير انقطاع!!

كان (واثق) يكبر في غفلةٍ من الزّمن ؛ الزّمن الّذي ظلّتْ ساقيته تعلو حتّى أينعت الثّمرة ؛ الثمرة التي كانت مزيجًا من الأحلام الّتي تكثّفتْ في قلبه حقلاً من الشّوك والورد ؛ الورد الّذي غرسه أيّامَ كان يمشي على تُراب القرية ؛ القرية الّتي غادَرها هو وعائلته من أجل النّسيان ؛ النّسيان الّذي يصيبه النّسيانُ نفسُهُ فيعود إلى الذّاكرة ؛ الذّاكرة الّتي تتشكّلُ إبرةً تخيط ما اهترأ في تلافيف الدّماغ مع تتابع الدّهور .

(١٣)
استحضِرْ قلبَكَ يا فتى

في المجتمع الجديد الّذي وسّع أمامه الهُوّة مع الماضي ، بدأت ملامح القرية تتلاشَى أمام هذا الطّوفان الصّاخب من الحركة واللّهاث والضّحكات . . . لم يكنْ للأيّام هنا طعمُ تلك الأيّام ؛ لكأنّ الطّعوم تتعدّد بتعدّد أجناسها!! شعرَ أنّ شيئًا ما في أعماقه يتحوّل ، وأنّ الحبل الّذي كان يربطه بأخته (سميّة) هو الآخر أوشك أن ينبتّ ، وأنّ الموت في عالَمه الجديد يستريح قليلاً من أجل أن يترك له فرصةً لالتقاط أنفاسه من سِياط الذّكرى اللاّهِبة . . . لم يُصدّق أنّ بعض صفحات الماضي يُمكن أن تُطوَى!! وأنّ حجارة الحزن المركوزة في القلب يُمكن أن تتزحزح!! نعم ؛ هناك دائمًا أفقٌ يتناسب مع الأرض الّتي تسكنها العقول . . .!! قرّر أن يُحرّر عقله ، وأن يجعل منه حكيمًا لا حَكَمًا على الأشياء ، وأن يتّخذه خليلاً ، ويبدأ حياته من جديد!!

في الطّريق الواصلة بين الباب الرّئيسيّ والكافتيريا هناك فسحةٌ من أجل أن يألف الإنسانُ حركة التّغيّر التي لا تتوقّف!! كان يمشي ذاهِلاً ، كأنّه أعمى يحفظ الطّريق ، ولكنّه لا يتلمّس إلاّ جانِبًا من أحلامه ؛ أحلامه الّتي شكّلتْ شخصيّته منذ أيّام البئر الأولى ، ومن ثَمَّ حين التقى صديقه (جمال) ، وهيّأ القدر لهما فرصةً للانسجام معًا . . . الورودُ المتناثرة في مساحاتٍ صغيرةٍ على جانبي الطّريق كانت

إحدى مجسّاته من أجل الشّعور بالرّضى عن النّفس ، قُلْ : إنّها كانت بوصلته الّتي تُشير إلى تلك الورود الّتي غابت اليوم بعد أن كانت حاضرةً في كلّ شيء ؛ في السّياج الحجريّ الّذي يلفّ قمّة ابن جبير ، وفي جانبي الدّرب الشّاقّة سبيلها عبر الوادي إلى مفترق الجبال في الأعالي!! هناك علاقةٌ استثنائيّة بين الحالمين وهذه الورود ؛ خُيّل إليه أنّ كلّ وردة مدّت عنقها إليه لتقبّله ، وكلّ ورقة رفعت رأسها لتُحيّيه ؛ لغة الورود ليستْ عصيّة على مثله ، فهو (واثق) من أنّ العلاقات يُمكن أن تكون قويّةً وفي الوقتِ نفسه صامتة!!

لفّه الخجل بثوبٍ ورديّ ، وأحاط به من كلّ جانبٍ . كانت أيّام الدّراسة من أجل دخول هذا العالَم الجديد دورانًا حول الذّات ، وانعِكافًا عليها ، لم يكنْ يسمح لنفسه أن ينظر إلى ما يقع تحت شبّاك غرفته ، كان همّه الأكبر أن يُصبِح كاتِبًا مشهورًا ، ومن أجل ذلك أكلَ الكتبَ وشَربها كما لو كانت مائدةً تحفل بأطعمة متنوّعة وأشربةٍ متعدّدة . أبناء جيله - كعادتهم - سخروا منه كثيرًا ؛ مَنْ هُو هذا المتخلّف الّذي يحلم أن يُصبح كاتِبًا؟!! أولئك الّذين سقطتْ رؤوسهم على كُتُب المدرسة لشدّة ما فحصوها بأنظارهم كانوا يحلمون بأن يُصبِحوا أطبّاء أو مهندسين ، وكانوا يشعرون بالشّفقة عليه لأنّه يحمل هذا التّفكير السّقيم ، أمّا هم الّذين بلورَهم الهدف السّليم فكانت طموحاتهم أرقى من أن يصل إلى مستواها شابٌّ مثله ؛ شابٌّ لفظتْه القرية خارج جبالها وألقت به بينهم كصخرة ثقيلةٍ تتكوّم فوقَ الصّدور!!

ها هو من جديد يُواجه تلك الموجة من الإهمال والانتقاد؟! هل كانت حياته قدَرًا منذورًا لسخرية الآخرين؟! هل كان يستوعب أنّ العوالم وإن اختلفتْ مظاهرها الخارجيّة إلاّ أنّها تنبع بالقَطِران نفسه؟!

هل كان قادرًا بعد كلّ هذه السّنين من أن يُمسِكَ بنظرات الآخرين ، ويدوسها تحت قدمَيه ، أو يركلها برجلَيه؟!

دخل الكافتيريا واصطفّ في الطّابور الطّويل ينتظر دوره في هذا الصّباح الباكر المضمّخ بالطّيور من كلّ جنس من أجل كأسٍ من النّسكافيه السّوداء ، تعوّد عليها كما لو كانتْ رفيقته المُخلِصة . . . تناول كأسه المُفضّلة ، وانسحب إلى إحدى الطّاولات يجلس عليها وحيدًا ، وضع الكأس عليها ، ونظر في ساعته ، ما زال هناك عشر دقائق لتبدأ محاضرته الأولى ، في هذه الدّقائق العشر المتبقّية يستطيع أن يقرأ شيئًا في الكتاب الّذي بين يديه قبل أن يدخل المُحاضرة ؛ هناك دائمًا فرصةٌ سانحةٌ لالتقاط الكنوز إنْ أردت؟! لا تكمن المشكلة في توافر الكنوز ، إنّها مطروحةٌ في الطّرقات!! لكنّ المشكلة تكمن فيمن يلتقطها أو حتّى فيمن يراها!! مَنْ أراد أن يظفر بالكنوز فعليه أن يُبصرها ثمّ ينحني من أجلها ، في ضَعَةِ الانحناء هذه تتبدّى الجائزة الّتي يعمى عنها الكثيرون!! قلّب صفحات الرّواية الّتي بين يديه ، قرأ في مُفتتحها : «مَنْ نظر إلى زجاج النّافذة رأى الآخرين ، ومن نظر إلى زُجاج المرآة رأى نفسه» ، أمسك قلمه وخطّ تحتها مُكمِلاً من عنده : «زجاج النّوافذ متحرّر من الطّلاء الّذي يحجب ما وراءه ، وزجاج المرآة عبدٌ لهذا الطّلاء ، فإذا أردتَ أن ترى الآخرين وتعرفهم فلا تُدمن النّظر في المرايا» . أنِفَ أن يتابع بعد ذلك ، وكأنّ هذه الجملة الّتي خَطّها أغنتْه عن أن يُكمِل ، فراح ينظر في الوجوه!!

كانت بوّابة الكافتيريا تفتح ذراعيها للدّاخلين ، بدتِ الكُتَل البشريّة الّتي تتدفّق إليها تبحث عن نفسها ، وهي تمدّ أبصارها بلا معنى في كلّ اتّجاه . . . كان مَدًا بشريًا لم يحرّك فيه إلاّ فكرة القطيع

الّتي قرأ عنها في أكثر من كتاب . . . تمنّى لو أنّ القطيع يعرف إلى أين يمشي ، وأحسّ بأنّه واحِدٌ من هذا القطيع السّادر في غيّه لا يلوي على شيء!! ما أسهل أن تُقاد (قال في نفسه) وما أصعبَ أن تَقُود (أكمل مُتمتمًا)!!!

ظلّ مُحدّقًا في الوجوه القادمة من تلك البوّابة وراح يعدّ اندفاعهم كاندفاع الماء من فم النّبع ، كان الماء ينفلت في كلّ اتّجاه ، ويستقرّ هنا وهناك . . . امتلأت الطّاولات حوله بالقادمين ، وراحت الأصوات تتعالَى من حوله ، لم يميّز بينها صوتًا واحِدًا ، قال وهو يقوم : (إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْناكُمْ فِي الجارِيَةِ) ، وخرج كهاربٍ من قضاء الله ما هربا!!

في المُحاضرة الّتي كانت تتحدّث عن تاريخ الفلسفة ، بدتْ تجمّعات الطّلاّب هنا كتجمّعاتهم هناك في الكافتيريا ، الفارق الوحيد أنّهم هنا يجلسون بانتظام وإلى كراسيّ لا إلى طاولاتٍ . تاريخ الفلسفة لم يعجبْه ، مرّ التّاريخ جامِدًا ، كانت تعجبه العبارات الفلسفيّة ، ولم يكنْ يرتاح لها جميعًا ، بعض العبارات لبعض الفلاسفة ظلّتْ مرشده في الطّوفان منذ أن غادر القرية ، وبعض الفلاسفة ظلّتْ صور تماثيلهم ماثلةً في ذهنه كأنّ القلب – دون أن يدري أو يلحظ – كان يطوف حولها!!

كانت المحاضرة تضمّ طلاّبًا من سنواتٍ مُختلفةٍ ، هو في السّنة الأولى وفي اليوم الأوّل من هذه السّنة ، لم يعتدْ أيَّ شيءٍ ممّا رآه هنا ، كان يحسّ بالغربة ، ولكنّه لم يأنف منها فقد كان هذا الإحساس هو الغالب على شعوره طوال ثماني سنواتٍ عاشها في المدرسة في قلب المدينة ، ولولا أنّ (جمال) شاركَ في انتشاله من صحراء الوحدة لظلّ

هذا الشّعور طاغِيًا ، وليس من سبيل حتّى إلى التّخفيف منه!! أمّا اليوم في هذه المحاضرة فقد راحت بعض السّكاكين تزيده عزلة وهي ترتفع في وجهه في عالَم لا يسأل فيه خليلٌ خليلاً!!

طلاّبٌ من السّنة الأولى والثّانية وغيرهما تجمّعوا في هذه المُحاضرة ، لمح اثنين ؛ شابًّا وشابّةً في الزّاوية اليُسرى من المُقدّمة يتهامسان ، وهو يميل بجذعه نحوها ، وهي تنفر إلى الخلف قليلاً بدلالٍ واضح ، وتُداري نشوتَها من همسهِ بضحكةٍ خفيفة ، أدار وجهه عنهما واستغرب كيف أنّ الدّكتور لم يُخرجهما خارج المُحاضرة ، أو حتّى لم يؤنّبهما على ذلك ببعض الكلمات!!

أنهى الدّكتور مُحاضرته وخرجَ مثل فكرةٍ فاسدة ، وبدأ خيط الطّلاب ينسلّ خلفه ، أمّا هو فظلّ جالِسًا مكانه دون أن يبرحه ، أدار طرفه في المكان ، ظلّتْ هذه عادتَه كلّما وفد إلى مكانٍ لأوّل مرّة ؛ كان ينظر في كلّ أرجائه ، ويتفحّص كلّ زواياه ، ويُحاوِل أن يفهمه ، ويقيم معه علاقةً من نوعٍ ما . أدرك بعد زمنٍ من المِران على هذه الطّريقة أنّ الأماكن كالبشر تألَف وتُؤلَف ، وتنفر ويُنفَر منها!! وأنّ ديمومة التّواصل معها تصنع صداقةً من نوعٍ فريد ، وأنّ البعد عنها يُزعجها ، ويثقب قلبها ، وقد تُبادل هذا الجفاءً بجفاءٍ مثله ، فتعبس في وجه القادمين إليها ، وتنظر إليهم نظرة الغُرباء!!

خرج بعد دقائق من المكان ، ظنّ أنّه اكتفى بما قرأ . فكّر : إلى أين سيمضي؟! إلى المكتبة . أجاب عن نفسه . في الجهة الأخيرة من الجامعة ، وبعد كلّ مباني الكُليّات يقع مبنى المكتبة . همس في نفسه : منذ بدء الخليقة كانت المعرفة منبوذة!! كانت هناك مجموعات من الطّلاّب تجلس على بِساطٍ من العشب هنا ، وعلى دكّةٍ من الدَّرَج

هناك ، والأصوات الصّاخبة تتقافز في كلّ اتّجاه ، والضّحكات البلهاء ترنّ في كلّ أذن . أزعجتْه بعض المظاهر الّتي رآها ، لكنّه تجاهلها بما يكفي لِيَقنِيَ حياءه ، وليُتابع سيره إلى غايته!!

أمام باب المكتبة وقف مثل شريدٍ تدثّره الذّكريات ، همّ بأن يدخل غير أنّ يدًا خفيّة نقرتْ كَتِفَه من الخلف ، فالتفت . خُيِّل إليه أنّ صوتًا ما يُخاطِبه :

- إلى أين؟
- إلى المكتبة!
- هكذا . . . بهذه البساطة!!!!
- نعم . . . هكذا . . . بهذه البساطة!!!
- ترفّقْ يا رجل . . . وتحلَّ ببعض الأدب ؛ ما هكذا تُورَد الإبل!!
- . . . . . .!!
- أقرأتَ الوِرْدَ قبل الدّخول؟!
- وهل هنالك من وِرْدٍ للدّاخلين؟!!!
- بلى .
- أعلِمْني إذًا .
- استحضرْ قلبكَ يا فتى . . . ففي هذا المبنى يرقد كلّ العظماء ، وفيه أرواح الّذين أوقدوا الشّموع للبشريّة في ظلام الجهل ، وفيه الّذين سطّروا للإنسانيّة سطورًا من ضياء لا يخبو نورها حتّى وإن ماتوا . . . فقد ظلّتْ كلماتهم حيّة إلى اليوم!! وفيه الّذين صنعوا من الإنسانِ إنسانًا . وفيه الأنبياء الّذين حوّلوا مجرى النّبع إلى الجِبال بعد أن كان يهوي إلى القِيعان!! وفيهم من سال الماء من بين أصابعه!! أتظنّ أنّ جهلك بطقوس الدّخول إلى عالَمهم يشفعُ لك؟!

- وماذا أقول؟!

- فإذا دخلتم فسلّموا على أنفسكم!! لأنّك قد تُصبح واحِدًا منهم . . . وتواضعْ يا فتى ففي الدّاخل نار الحِكمة الّتي كان وقودها قلوب الحكماء!! مَنْ أراد أن يصبح حكيمًا فليُلقِمْ قلبَه للنّار!!!

دخل بعد أن قرأ الوِرْد ، وأحسّ برائحة غريبة تملأ أنفه ، كأنّها رائحة الأموات في القرون الغابرة!! خطوات أخرى خطاها عبر الرّفوف الّتي ارتفعتْ أعلى منه ، فطامن من قامته أمام هذا الكبرياء الثّرّ . أحسّ ببرودة تلفّ عنقه ، برودة سافرة لا تمشي على قدم ، بل تتحسّس بأنامل من خَدَر ؛ لم يشكّ لحظةً أنّ أرواح المفكّرين والكتّاب والشّعراء حفّتْ به ، واحتفتْ بمقدمه ، وأقبلتْ عليه تستقبله . أحسّ براحة غريبة ، ونشوةٍ عارمة تجتاح كيانه كلّه ، وتغمره بالسّعادة ، حلّق قليلاً ، ونظر إلى قدميه فرآهما ترتجفان ، أدرك أنّه مخر عُباب عالَمهم المسحور ، وارتاح إلى أن يُلقي بِكُلِّه إليهم!!

دار كالمأخوذ على العناوين واحِدًا واحِدًا ، مرّ على كتب الطّبّ كما يمرّ الشّعاع في الأفق ، وتوقّف عند كتب الهندسة كما يتوقّف الحلم الغائم في الذّاكرة ، ومضى إلى كتب العلوم كأنّه يقطع شارِعًا تتقاذفه المركبات ، وانتهى إلى كتب الآداب ، فوقف (وُقُوفَ شَحِيح ضَاعَ فِي التُّرْبِ خاتَمُهْ) ، وجلس كأنّه يرى (حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ) يستظلّ بظلّها ، ما كان له أن يُنبِتَ شجرها لولا أنّ الله دلّه عليها!!

راح يتفحّصها كِتابًا كِتابًا ، ويترفّق بالكتاب بين يديه ترفّق الأمّ بوليدها ، ويقلّب صفحاته بحنوّ ، ويتحسّسها بأنامله برفق كأنّما يريد أن يقيم معها علاقةَ وُدٍّ قابِلة . لم يَدْرِ في تلك اللّحظة مصدر هذا العشق المُعتّق في أعماقه للكتب ، ولم يفهم سرّ هذه الحميميّة بينه وبينها ،

وعبثًا حاول أن يُدركَ مصدر هذا الهُيام فنسي!!

جاءَ موعد المُحاضرة الثّانية ، صحا من سَكْرته ، وخرج مُسرِعًا ، تلتهم خُطاه الأرض خشية أن يتأخّر . عند الباب توقّف ، تساءل : إنّه اليوم الأوّل ، وأنا أطاردُ فكرةً هاربة!! مَنْ يدلّني كيفَ تُصطاد الأفكار؟! أحسّ أنّه دَخَلَ في القطيع دون أن يدري ؛ مـحاضـرةٌ تتلوها أخـرى ، ودرسٌ يتبعه آخر ، ومجموعةٌ من الكُتلِ البشريّة تتحرّك مُبعثرةً لتنحشرَ من باب المُحاضرة نفسه ، وتتجمّع هنا ، ثمّ تَعودَ إلى بعثرةِ نفسها من جـديد عندمـا تخـرج . للحظةٍ كَـرِهَ أن يكون واحـدًا من هذه المُعـادلة المَقيـتة ، هزّ رأسه طاردًا الفكرة من رأسه ودخل ؛ رضي أن يكون أحد مكوّناتها آنيًا ريثما يجد طريقةً للخروج عنها!!

جلس في المقـعـد الأخيـر ، خـشي أن تُطارده فكرة الّذين يأتون مبكّرين ، ويحجزون المقعد الأوّل ، ولا يسمعون غير كلمات الدّكتور ، ولا يعرفون من الحياة غير الكتاب والدّراسة ؛ نعم خشي أن يتندّر به الآخرون ويسخروا منه ، فأوى إلى الصّفّ الأخير من المقاعد في الجزء الأبعـد من البـاب الخلفيّ ، وراح يُراقب الدّاخلين من البـابَيْن ، كـانت أشكال الطّلاّب والطّالبات في معظمها غريبةً غير مألوفة ، لم يعتد أن يرى كـثيرًا من المناظر الّتي لم تُتِحْ له تربيتـه أن يراها . . . ولكنّه اليـوم يجـد نفسـه يسـترق النّظر ، كـأنّه لِصٌّ يُمكن أن يُمسَك به في أيّة لحظة . . . عاوده شيءٌ من الاطمئنان ، فرفع رأسه قليلاً وهو يُديم النّظر إلى الدّاخلين بعد أن كاد يدفنه في صدره ، وينظر من طَرْفٍ خفيّ . . . بدأ يتـحرّك في مـقـعده ، تململ : متى سـتبـدأ المُحاضرة؟! لقـد تأخّر الدّكتور؟! تساءل : أكان مُضطرًا أن يُسارِع بالخروج من المكتبـة ليلحق بموعد المحاضرة الّتي لم تبدأ بعد!!

دخل الدّكتور ، كان يميل إلى الطُّول قليلاً ، نقل خطواته كما لو كانت إحدى رجليه أطول من الأخرى ، فبدا كأنّ عرجةً خفيفةً أصابتْه ، وحين استقرّ في منتصف اللّوح ، أدار وجهه للطّلاّب ورفع نظّارتيه ذواتي الإطار الأسود الغليظ ، وأرجعهما إلى رأسه . جبهته الواسعة ، وغمّازتا خدّيه أبرز ما لفتَ انتباهه ، كان يميل إلى السِّمَن ، ويلبس مريولاً أبيض يطول إلى ركبتيه ، وتحت المريول كان يلبس قميصًا أزرق ، وربطة عنق حمراء داكنة ، بان منها بمقدار ما سمح المريول المُغلَق ذو الأزرار الرّمادية أن يَبين ، شعره الأصفر تراكم بكثافة فوق رأسه . راح يُنادِي على الأسماء ليتفقّد الحُضور . سمع واثق اسمه ولم يرفع يده ، كان قد سرحَ في عالَم آخر ، انتبه عندما أعاد الدّكتور اسمه مرّة أخرى ، حدجه الدّكتور بنظرةٍ تأفّف ، وتابع الأسماء .

حينَ يسير تفاعُلان بين مادّتين ، تكون سرعة التّفاعل معتمدةً على الشّحنات الكهربائيّة الّتي تنتهي بها كلّ مادّة (قال الدّكتور ذلك) وتابع : كلّما زادت الشّحنات السّالبة كان التّفاعل أسرع وأشدّ . هذه هي النّقطة الأولى . النّقطة الثّانية أنّه في كلّ تفاعل بين مجموعة موادّ هناك مادّة واحدة يُمكن أن تحدّد التّفاعل ؛ هذه المادّة هي الّتي تُسيّر التّفاعلَ على هواها ، أوّلاً لا يمكن أن يتمّ التّفاعل إلاّ بها ، وثانيًا يجب أن تتفاعل هي حتّى تتبعها بقيّة الموادّ في تفاعلاتها . (همسَ في نفسه ؛ فكرة القطيع هنا مُلغاة . لا بدّ من قائدٍ يُحدّد ويُرشِد ، ويبدأ ، ومن بعده تتهاوَى القادمات)!!

انتهت المُحاضرة ، وظلّ جالِسًا كعادته ، كأنّ مسًّا من الذّهول قد أصابه ، يفعل ذلك كثيرًا : لا يكون مستعداً للمُغادرة إلاّ حينما يصحو . مرّ اليوم الأوّل له في الجامعة ، ولم يتعرّف إلى أحدٍ . فكّر :

هل يمكن أن يجد صديقًا هنا في هذه الجامعة مثل (جمال)؟! هل تجود الأيّام برفيق يأنس به ، ويرتاح إليه؟! أمْ أنّه سيبقى وحيدًا مثل صفصافة الوادي العتيقة؟! تحسّر بشكلٍ مُبالَغ فيه : ليتك يا جمال درستَ معي هنا!! لماذا اخترتَ أن تدرسَ في الجامعة الأخرى ، وتنأى بنفسك عنّي أنا الّذي يفشل دائمًا في أن يجد صديقًا من البشر؟! هل يقرأ الطّلاّب على جبيني أنّني لا أحبّ أن أتعرّف إلى أحد؟!! صحيحٌ أنّني أحبّ أن أكون وحيدًا ، ولكنّني لا أكسر هيبة الوحدة إذا وجدتُ صديقًا يجيد الاستماع إليّ!!

في مشوار عودته إلى البيت كان عليه أن يستقلّ الباص ، محطّة الباصات الّتي تربض عند مدخل الجامعة كانت عبارةً عن شارعٍ يلتفّ على هيئة نصف دائرة تصطفّ الحافلات على قوسها الخارجيّة ، ركب الباص بعد أن قطع تذكرته من الكشك ، وتلفّت في الوجوه وهو يصعد علّه يجد من يعرفه ، فعرف أنّ كلّ الوجوه تُنكره ، استقرّ في المقعد الأخير من الباص ، كان المقعد الأخير يرتفع قليلاً عن بقيّة المقاعد ، ومن هناك تراءت له فكرة القطيع مرّة أخرى . . . غريبةٌ هي كلّ الوجوه الّتي صادفها ، وباردةٌ هي كلّ الأطراف الّتي رآها . . . في الطّريق فتح كِتابًا على عادته ليقرأ ريثما يصل الباص إلى مدينته ، لم يكد يغوص في ثنايا الكلمات حتّى ارتفع صوت المسجّلة في الباص : (بعيدْ عنَّكْ حَياتي عذابْ . . . ما تبعِدْنيشْ)!!

مرّت الأسابيع بلا طعم ، والأيّام بلا لون ، لم يجد غير كتابه يمشي إلى جانبه في طرقات الجامعة ، ولم يدرك أنّ للأشياء قيمةً خارج حدود دفّتي كتبه الّتي ظلّ يحتضنها في ذهابه إلى الجامعة ، وإيابه منها . كانت أوقات قراءته في هذا المدّ الجامعيّ تتوزّع على الفترة الّتي

يقضيها في الباص قاصِدًا أو قافلاً ، والفُسَح الّتي بين المُحاضَرات ، وصباحات الكافتيريا وهو يشرب النسكافيه ، والجلسات الصّوفيّة في المكتبة . لكأنّه صدق من قال عنه : إنّه لا يألف إلاّ الطّير!!

صاح في داخله مرّة وهو ينتبذ زاويةً في الكافتيريا : أينَ أنتَ يا (جمال) ، تقتلني الوحدة ، وتذبحني سكاكين الانتظار!! سمع صوتًا يخرج من أعماقه خُيّل إليه أنّه صوت جمال نفسه يردّ عليه : ولماذا لا تبدأ أنتَ ؛ ألم تعلم أنّ الطّيور لا تحطّ إلاّ على أكتاف أولئك الّذين يلقون إليها بالحَبّ!! شعر بوخزة في صدره تؤلمه ، أحسّ أنّ جمالاً يُقرّعه ، ويُلقي باللّوم عليه . خُيّل إليه أنّه لن يعرف أحدًا بعد اليوم ، حتّى (جمال) هذا سينتهي من حياته ، لقد تغيّر ، وتبدّلتْ حالُه . ولا يدري إلاّ الله ماذا يفعل الآن في جامعته ، وكم من الأصدقاء والصّديقات يَحفُفْن به من كلّ جانب . يعرف ؛ كان (جَمال) قادرًا على أن يُوقعَ في شِباكه من الحَسناوات بكلامه المَعسول أكثرَ مِمّا تُوقع الشّجرة في الخريف حولَها من أوراق!!

في الخريف تتعرّى الأشجار ، وفي الشّتاء تبدأ السّماء بكاءها لهذا العُري الفاضح ، فلا تجد الأشجار في الرّبيع مناصًا من أن تعود فتلبس ما خلعتْه عنها لكي توقِفَ بكاء السّماء الفاجع ، وتحضر الشّمس فتنعم القلوب بالدّفء .

عندما بدأت السّماء تبكي في ذلك اليوم المشهود ، كان (واثق) يركض تحت وابل المطر مُحاولاً أن يتّقي منه ما استطاع ، لجأ إلى أحد الأسقف ، التقط أنفاسه اللاّهثة ، وظلّ متسمّرًا مكانه يُراقب الطّلبةَ وهم يُهروِلون في اتّجاهات مُختلفة ، كان قطيعًا مُبعثَرًا تتقاذفه الأبواب والغايات ، مَنْ وجد بابًا يُفضي إلى البناء الّذي فيه مُحاضرته دخله

كما يدخل الضّبّ الجُحر ، ومَنْ كانت الطّريق طويلة عليه ركض دون غاية لأيّ مُتّقى . . . استغرب أنّهم يركضون في كلّ الاتّجاهات ، ولا أحدَ يتّجه نحوه حيثُ السّقف الّذي يحتمي به ، غير أنّ المشهدَ كان بالنّسبة له مُمتعًا ، امتزاج الطّبيعة مع حركات البشر الّتي تعود إلى طفولتها ، وتلقائيّتها شكّل له حالةً من البهجة العابِرة . . . في غمرة مراقبته للصّورة الّتي يتحكّم المطر في رسم خُطوطها ، لمح فتاةً من بعيد تقصد السّقف الّذي يحتمي هو به ، لم يصدّق أنّ أحدًا في النّهاية توجّه إلى المكان الّذي يقف تحته ، شعر للحظات أنّه منبوذٌ حتّى في هذا المكان الّذي اختاره على غير هُدى . . . اقتربت الفتاة منه ، وظلّت تركض باتّجاهه حتّى وصلتْ إليه ، عندما وقفت إلى جانبه وهي تلهث ، كانت ترتجف تحت وابل المطر ، وتُسابق الزّمن في أن تُهدّئ من ثورة لُهاثِها . وقفت إلى جانبه فأحسّ أنّ جانبه القريب منها يكاد يلتهب نارًا في هذا الجوّ البارد ، حانت منه التفاتةٌ خاطِفةٌ إلى وجهها ، فشهق ، فترنّح قليلاً ، فأمسك بطرفه الآخر الّذي كاد يهوي ، وراح ينتفض في الطّرف القصيّ : (كما انتفض العصفورُ بلّلهُ القَطْرُ)!! وبين النّار والصّقيع كانت روحه تتهاوى في مجاهل الغيب!!

أمّا هي فلم تشعر بوجوده أصلاً ، ولم تجدْ غير لسعات البرد الّتي أصابتْها جرّاء هذا البكاء الرّهيب للسّماء في هذا الوقت الصّباحيّ المُبكّر . . . رمقها بنظرةٍ أخرى ، فشهق مرّة أخرى ، وارتفع صدره ، وهبط ، وارتفعتْ مع ذلك روحه وهبطت . . . في تلك اللّحظة كان القطيع يُتمّ دورة بعشرته في كلّ مكان ، ولكنّه لم يكنْ ليلتفتَ إليه ، وفي نفسه ما يشغله عن العالَم كلّه ، حتّى لو سقط هذا العالَم في بئر الموت ، يكفيه أنّه يعيش عالمًا مُغايِرًا الآن ، وأنّ هذا العالَم استحوذ على

كلّ خليّة من خلايا جسده النّحيل ، فأحاله إلى رمادٍ من العشق في لحظات . . . اقتربتْ الفتاة منه قليلاً ، وسألتْه :

– إلى أيّ مُحاضرة ؟!

كان في ذهولٍ لا يستطيع أن يُفيق منه ، لم يسمع السّؤال في الأصل ، رأى فقط شفتيها تتحرّكان كأنّهما بتلتا وردةٍ من ورود الجنّة!! أعادت عليه السّؤال بطريقة أخرى :

– إلى أيّ كلّيّة ستذهب؟! (قالتْ ذلك وهي تنتفض ، وقد ذهب البرد بسكونها ، وحلّ محلّه ارتجافٌ يعرفه هو) .

اقترب منها ، لأوّل مرّة يقترب من أنثى إلى هذا الحدّ ، لم يكنْ يدرك أنّ قدميه تتحرّكان إليها بِفعله هو أم بِفِعلها هي . أحسّ بأنفاسها تلفح وجهه ، فتخضرّ ينابيع العشق في صفحته ، وتنمو أشجار الهُيام من تحت قدميه ، وبحركةٍ لا إراديّة ، خلع مِعطفه الّذي يلبسه ، ونفضه بشكلٍ رقيق ، ثمّ ألبسها إيّاه . شعّتْ من عينيها علامات الاستغراب في البداية ، غير أنّهما لم تلبثا أن نطقتا بالشّكر العميم . أمّا هو فلم يدرِ أينَ قرأ ذلك؟! أكان حقًّا قرأه في روايةٍ ما ، أمّ أنّها هذه هي روايته هو ، وهو يصنعها الآن ، ويحرّك شخوصَها كيفما يشاء . . . . سرى في جسده خدرٌ لذيذ ، لم يَسْرِ في جسده من قبل . . . كم من مستويات الشّعور عاشها في حياته منذ أيّام القرية الأولى ، غير أنّ هذا الشّعور الّذي يعيشه الآن لم يزره من قبل قطّ . . .

نظر في عينيها هذه المرّة بثقةٍ أكبر ، غام فيهما ، ورأى حدَّ الجمال يقف على حافّتَيهما ، فقدَ اتّزانه في لَحَظات ، وقعَ في السّحر ؛ عَيناها منازلُ الأقحوان ومدائنُ الوَجد . خُيّل إليه للحظةٍ أنّه تعرّف إلى هاتين العينين قبل أربعةَ عشر قرنًا ، وأنّه يُحاول أن يستعيد هذه القرون ليعرف

مَنْ هو هناك أو من هي هنا؟! غير أنّ محاولاته كانت ضربًا من الخيال فكفّ عن طواعيةٍ ، وألقى بنظره إلى الأرض كأنّ حديقةً من عشقٍ ترفعه ، ثمّ رفعه إلى الأعلى كأنّ داليةً من هُيام تُظلّله . . . ثمّ راح يعبّ من خمر عينَيها بنَهم جارفٍ قبل أن يفقد سرّ الجاذبيّة فيهما . . . وفي غوريهما أحسّ أنّ السّماء تُناديه ، وأنّه لم يعد من أهل الأرض ، لقد صار تُفّاحةً للسِّحر ، السّحر الّذي يُعرّف به ولا يُعرّف!!

كان ذاهلاً عن كلّ شيء ؛ تمنّى أن يجد مَنْ يخبره أنّه هو هو ، وأنّ المكان الّذي يقف فوقه ليس المكان الّذي تعارف عليه النّاس ، وأنّ شيئًا ما لا يدري كُنهه يغوص في رئتيه ، فينفث فيهما ما ينفثه روح القُدُس ، فيمتلئان وردًا ، فينفصل عن جسده ، ويُصبح غيره . . . نعم لا بدّ أن يكون غيرَه في تلك اللّحظات كي لا يُنكِر ما عوّدته النّفس من نُكرانها الدّائم – كالآخرين – له ، ولهواجسه الّتي لا تنتهي!!

أصلح من حال المِعطف على كتفيها ، وشدّ بيده على ما انفرج منه عند صدرها ، وهمس :

– كلّيّة العلوم!!

في تلك اللحظة كانت هي قد فقدت توازنها ، ولم تدرِ ما تفعل أمام حركته المُفاجئة ، استعادت شيئًا من هدوئها ، ورمقتْه بعينٍ من عتاب . غير أنّه عاجلها بسؤاله السّاذج :

– وأنت؟!

– كليّة الطّبّ (قالت وهي تبلع ما تبقّى من ريقها الّذي جفّ) .

– حيثُ تعيشون مع الدّيناصورات . (قالها وهو يُرجعُ رأسه إلى الخلف قليلاً ، ويضحك ضحكةً خفيفةً) .

– وأنتم مع من تعيشون . . .؟! تعيشون مع . . . (قالت ذلك كمن

تريد أن تردّ له الصّاع صاعَين)

– نحن لا نعيش . (قاطَعها قبل أن تتمّ تهكّمها الانتقاميّ) . أريحي نفسك . نحن كائنات هُلاميّة تتحرّك بغير غاية . . .

كان المطر قد خفّ ، خلعتِ المعطف على عجل تريد أن تُنهيَ لقاءً بدأ يتشعّب فيه الكلام على غير ما تريد ، وألقت به إليه ، وغادرتْه من غير أن تقول كلمةً واحدةً ، أمّا هو فظلّ يراقبها وهي تختفي في الممرّ المقابل له وقد زرعتْ في صدره ألفَ موعدٍ لألفِ قصّة ، ونثرتْ فوقه ألف وردةٍ لألفِ حِكاية!!

(١٤)
مَنْ يعشقْ يَعِشْ حياتَين

تصحو الطّيور ذاتَ صباحٍ ربيعيّ ، أمّا طيوره هو فصحت ذات بكاءٍ شتائيّ ، ومن قطرات المطر الّتي سالت على خدّيه أنهارًا من العشق المُعتَّق ، بدأ يقرأ الكون بطريقة مُختلفة . . . كان بلا شّك مُقبِلاً على عالَم من صُنع الأرض الّتي تُنبِتُ ورودَها على قمم الجِبال الجليديّة ، في اللّيالي الكانونيّة ، زنابقَ من حلمٍ مؤجّلٍ ليومٍ تشخص فيه القلوب . . .!!

يصبح الحبّ نوعًا من السّجن إذا حرّكتْه الشّهوة ، ويصبح فضاءً مطلقًا من الحرّيّة إذا حركّته العِفّة . من سَجَنَتْهُ قُضبان النّفس صَعُب عليه الخلاص ، ومن سجنته قضبان الرّوح رأى ما يريد . . . كان (واثق) الطّافح بالخجل يدخل طواعية في أفق الحبّ ، ليتحرّر من جسده الّذي عذّبه طويلاً وهو يحاول الانعِتاق فلا يجد لما يريد سبيلاً ، قال في نفسه : في بَحْثنا الدّائم عن حرّيّة أرواحنا تظلّ أغشية الشّهوة تُسدل ستارها على القلب فيعمى ، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصارُ﴾ .

ظلّتْ - وهي تنسحب من المكان لتحلّ في الخيال المادّيّ له - تترك خلفها خيوطًا من سِحْرٍ تشابكتْ عُقَده لتستعصي على الانحلال . لَبِسَ معطفه من جديدٍ وقد أحسّ أنه يلبسها هي ، تخيّلَ

لينَ ما التقى منه عند صدرها الفاره ، ومضى لاهثًا على إثرها ، يستنشق عبير وجودها الملائكيّ في حياته ، ويستميح الزّمان عذرًا لأنّه لم يرها قبل اليوم ، ثمّ يلوم هذا الزّمان نفسه لأنّه لم يعرّفْه بها قبل هذا اليوم!!

تغيّرت المشاهد بعد ذلك الصّباح الجامعيّ الماطر ، صارت مساحة الورود الّتي تستقبله عند مدخل الجامعة أكبر ، الكلّيّات نفسها بدت منبسطةً على مسطّح الجامعة ، ومن قَبلُ كان يراها شاهقةً تضرب قِبابها في عنادٍ نحو الفضاء . الطّريق المؤدّية إلى كلّيّته بدت خضراء ، وكم عاينها من قبلُ سوداء ملأت الحجارة جانبيها البغيضَيْن . خطواته إلى مُحاضراته صارت أسرع وأخفّ بعد أن كانت بطيئةً مُتثاقلة . الأرض رفعتْه إلى الأعلى أكثر مِمّا جَذبتْه إلى الأسفل ، لكأنّه كان يسير في الفضاء ولا يخطو على الدّروب الحامِضة . لكأنّه كان يسبح في بحر ولا يجرّ في الصّخر رِجليه المريضتَين!!

جلس في المُحاضرة يحدّق في الفراغ ببلاهة . لم يشعر بوجودِ أحدٍ معه في القاعة . مرّت لحظات صمتٍ عميقة لم يسمع خلالها شيئًا ، حرّك رأسه بحركةٍ آليّة وببطء ، إلى اليمين مرّةً وإلى اليسار مرّةً أخرى ، ثمّ وقف على قدميه ، ثمّ جلس حين أدرك أنّ الدّكتور موجودٌ في المُحاضرة ، وهو آخذٌ في شرحه ، تتحرّك شِفاهه دون أن يسمعه . نفض رأسه بشدّة وبسرعة ، ثمّ تناهى إليه صوت الدّكتور . عرف حينَها أنّه العِشق في تطرّفه القاتِل . لم يكنْ الأمر جديدًا عليه من ناحية المعرفة ، فقد قرأ عن ذلك كثيرًا فيما قرأ ، غير أنّه الآن يعيشه في الواقع ، ولا يقرؤه في سطوره المتراصّة على بياض الصّفحات . لوهلةٍ ظنّ أنّه سيُقضَى عليه ، وأنّ عِشقًا من هذا النّوع الغامض سوف يُودي بمستقبله!!

انقضت المُحاضرة دون أن يشعر ، ودون أن يُدرك كلمةً واحدةً ممّا قاله الدّكتور ، وظلّ جسده يتهالك على المِقعد كلُفافة من عجينٍ لا تقوى على التّماسك . نهض في النّهاية قبل أن يتماهَى كلّيّةً ، وخرج مثل تمثالٍ من الثّلج يوشك أن يتراشح . في طرقات الجامعة مشى دون غاية ، وفي دروبها ظلّ يتحرّك دون أن يعرف إلى أين ، كمأخوذٍ سلبتِ القوّة الخفيّة جوارحه فاستسلم لها راضِيًا مرضيًا .

تمنّى أن يجد الطّريق إلى الكافتيريا ليرتاح من حالة الدُّوار الّتي ظلّتْ تُصيبه منذ ذلك الصّباح كلّما قَدِمَ إلى الجامعة . كان قد مرّ على الحادثة المشهودة أسبوعٌ حزينٌ دون أن يجد لدخوله إلى هنا أيّ معنىً ، ولا أيّ لونٍ ، ولا أيّ طعم!! كان مسحورًا على الحقيقة ، ظلّتْ عيناها تتراءى له فيذهل ، وظلّت شِفاهها ترتسم أمام ناظريه فيصيبه الهَوَس . فكّر : ما كان أغناني عمّا صِرتُ إليه . ليتَ الّذي أصاب العُشّاق من قبل فيما قرأتُ ما أصابني . ألم يكن العيش معهم على صفحات الرّوايات أفضل من أن أنضمّ إليهم في جادّة المهلكات؟! قفز إلى ذهنه بيت أبي نواس : (وداوِني بالّتي كانت هي الدّاء) . صاح صيحة فيثاغورس : وجدتُها . . . وجدتُها . شدّ خطواته بحثًا عنها ، لا بدّ أن أجدها ؛ تُطفأ النّار بالماء ، ويخفّف عن المحموم بالماء ، وينجو المنذور للهلاك بالماء . فأين أجدك يا (. . . .) هَمّ بأن يُناديها باسمها ، وينطق به ، لكنّه توقّف ، ومن يدلّه عليها ، لقد ذابت في ممرّات الغياب ، مثل اسمها الّذي لم يخرج من الغياب أساسًا!!

وصل إلى الكافتيريا بعد عناء ، شعر أنّه بحاجةٍ إلى من يدلّه على الطّريق قبل أن يستعيد طَرَفًا من ذاكرته . تهاوَى على أقرب مقعد ، ورَكنَ مِرفقَيه على سطح الطّاولة ، ودفن رأسه بين يديه ، وغاص في

أحلامٍ لا تنتهي ، وبدأ يهذي مع نفسه :
- إلى أين؟!
- إلى الهاوية .
- أيعجبكِ ذلك؟!
- أشدّ الإعجاب .
- وماذا في الهاوِية؟!
- القِمّة .
- عجبًا . . . كيفَ؟!
- مَنْ عشق رأى في هاوية معشوقه قِمّة سعادته .
- لماذا نعشق؟!
- هل تستطيع أن تسأل الطّيور : لماذا تُغنّي؟!
- هل من سبيلٍ إلى الخلاص؟!
- بلى .
- كيف؟!
- بالموت .
- عجبًا . . . أيكون الموتُ خلاصًا؟!
- بلى ؛ الموت فيمن تحبّ حياة .
- أنتِ تُفلسفين الأمور .
- صحيح . . . وهل العشق إلاّ فلسفة؟!
- أريد أن أنسى .
- ومن نحن إذا لم نتذكّر؟!
- لا أريد أن أموت مرّتين .
- مُخطِئ ؛ مَنْ يعشقْ يَعِشْ حياتين ، ويولد مرّتين ؛ مرّة بالوجود ،

ومرّة بالذّهول عن هذا الوجود . مساكين أولئك الّذين لم يولدوا إلاّ مرّة واحدة ؛ إنّهم لم يصنعوا أفضل مِمّا صنعته يد القدر للحيوانات . تذكَّرْ : الوجود لا يصنع حياةً!!

- آه . . . آه . . . أخبريني بالنّهاية؟! هل هناك نهاية؟!

- أنتَ تصنع النّهايات ؛ النّهاياتُ لِمَنْ يملكها!!

ظلّ خافِضًا رأسه حتى وفدتْ إليه أصوات الطّلبة يتاقطرون من كلّ باب ، وهم يتصايحون ، ويتمايلون ، ويتضاحكون . نهض من غفلته ، وحطّ من خياله ليدخل إلى واقِعه . رفع رأسه وبدأ ينظر في الوجوه . كانت كلّ الوجوه - بالنّسبة له - بلهاء كأنّها أشرطةٌ من رماد ، ويابسة كأنّها أقنعةٌ من جِلد ، وبليدةٌ كأنّها صفائحُ من نُحاس . وحده وجهها هو الوجه . وحده وجهها يُعيد إليه ذاته . ظلّ يتشوّف الوجوه لعلّه يراها ، غير أنّ عينيه خانتاه ، فانصرف مثل كومةٍ من كآبة . . .

مرّ شهرٌ كاملٌ . كم كان طويلاً ونابِحًا وداكِنًا . كانت الأيّام مُدى تطعنه في القلب ، حاول أن يتعايش مع نزيف القلب الّذي لم يهدأ يومًا . كان ينزع سِهام الألم من كبده ، وينثني عليها من خشيةٍ أن تصدّعا . كم من الطّعنات تكفي لتكون قربانًا يقدّمه على مَذبح الحُبّ من أجل أن يحظى برؤيتها من جديد . قال في نفسه : أنا مستعدّ لأنزف كلّ دمائي عدا قطرةٍ واحدة لكي ألقاها بها!!

طال انتظاره لقَدَرٍ يجمعهما معًا . لم تشفع له زِياراته إلى كلّيّة الطّبّ بحثًا عنها ، كانَ لا يرى أحدًا في الجموع المتراكمة ما لم تكنْ من بين ما يرى . لقد أوجعته ليالي الوحشة ، وسلبتْه اتّزانه ، وتغوّلت على جسده النّحيل فزادَتْه نحولاً ، وظلّ الوجع نهرًا مالحًا يصبّ في فمه العَطِش فيزيده عطشًا . وظلّتْ لحظات الوحدة تتلاعب بخلايا

دماغه، وتخلط بعضها ببعض حتّى ظنّ أنه لم يلتَقِها قطّ، وأنّ ذلك الصّباح الشّتائيّ الباكر كان من صُنع خياله، وأنّ الفتاة الّتي قابلها هناك أوجدها ذِهنُه المريض من العَدَم. وعاودتْه ذكرياتُ القرية، فانخلع قلبُه حينَ أحسَّ أنّ الزّمان يعود به إلى الوراء حينما كان جدّه وكلّ مَنْ في الحوش يسخرون منه ومن خيالاته، ويعتقدون أنّ الأشياء تتهيّأ لهذا المسكين المُثير للشّفقة، وأنّها من اختِلاقه ووَهْمِه، وصدّق للحظةٍ أنّ جدّه كان مُحقًّا، وأنّ تلك الأيّام الغابرة تعود إليه الآن، وأنّ شبابه الّذي استوى على عوده لم ينفعه بالتّخلّص من هذا الماضي الكئيب، وأنّ ثقافته الممتدّة لم تزد هذيانه إلاّ مستوىً جديدًا مُعتّقًا من الهَذَيان... حينها خاطب نفسه: إذا كنتُ أصنعها من خيالي وهي طيفٌ لا وجود له، فَمِنَ السّهل أن أحطّمها كذلك في خيالي. وصمّم من ليلتها أن يهدم ما ابتناه عقلُه المريض من صورةٍ لها، وأن يُنهي حالةَ الشّرود الّتي بعثرتْه في الطّرقات كأنّه جذع شجرةٍ مُنبتّة!!

تمدّد على السّرير في غرفته الصّغيرة. كانت غرفته تقع في أوّل البيت من جهة اليسار للداخل من الباب الرّئيسيّ. جدرانها الأربعة تتّشح بالبياض النّاصع، لم يُعلّق عليها أيّ شيءٍ يسرق منها عُذريّتها، وظلّت تُحيط به من كلّ جانبٍ، فيشعر أنّه في بحرٍ من البياض الّذي يُريح النّفس. في قلب هذه الغرفة لم يكنْ هناك إلاّ مكتبه الأبيض الّذي تتبعثر فوقه بعض كتب الدّراسة ودواوين الشِّعر والرّوايات، وسريره الّذي يستلقي عليه الآن. أمّا خِزانة الكتب فكانتْ تتمدّد على البياض القريب من الباب، ولم تكنْ مُصادفةً أنّها بيضاء كذلك...

راح يحدّق في سماء الغرفة، ويختلق تفسيرًا لما حلّ به فيعيى، صاح دون أن ينبس بحرف: ليتني أجد من هذا الجحيم مخرجًا؟! ردَّ عليه

صوتٌ خرج من أعماقه : وكيفَ لك أن تُدرك حجم النّعيم ، إذا لم تبتلعكَ نيرانُ الجحيم؟! وجد في هذا المقولة الأخيرة بردًا من الجمر الّذي يتّقد في أعماقه . . . حاول مرّة أخرى أن يفسّر حالته فَعَجِزَ . . . توغّل في البياض النّاصع أكثر ، رأى نفسه يطير فوق السّحب البيضاء ، ثمّ هاجمته الأحلام من كلّ صوبٍ ، دون أن يدرك أنّه قد ذهب في سبات عميق . . . رأى في المنام أمّه عند طَرفةِ الباب ، تتلمّس الحائط تُحاوِل ألاّ تتعثّر ، وتمدّ يدها في قلب الغرفة الفارغ ، وتخطو خطواتٍ إلى الأمام ، ثمّ تناديه بصوتٍ عميق قادمٍ من البئر المسحورة الّتي أودتْ بأخته بعدما شربتْ منها ، استيقظ مفزوعًا ، وصاح في الظُّلُمات : أمّاااه . . . شقّتْ صرختُه السّكون ، انفتح الباب على الحقيقة . . . مدّتْ أمّه يديها إليه بالماء ، وهي تُحاولُ أن تُحدّ النّظر إليه بعينَين لم يبقَ من نورهما إلاّ بمقدار ما بقي من ذُبالة المصباح قُبيل الانطفاء ، وذهبتْ تبكي في أعماقها وهي صامتة . . .

رحل نيسان ، وفَتاتُه الغامضة لم ترحل من ذاكرته ، كلّ ما استطاع أن يفعله ، هو أن يجعلها تتّخذ لها زاويةً من زوايا عقله وروحه فتسكن إليها ، ثمّ تترك ما تبقّى منه له كي يعيش الجانب الآخر من حياته . . . اقترب عامه الأوّل في الجامعة من النّهايات . . . وبدا أنّ الاستعداد للامتحانات يحتاج إلى ترويضٍ للنّفس على نسيان العشق لحين . . . غير أنّ العشق لا يعترف بغيره ، وسلطته طاغية ، ومن عادته أن يحفر في صخرة النّسيان فيفجّر الأنهار خلالها تفجيرًا . وإذا حلّ في سواد القلب ، لم ينجُ القلب منه إلاّ بالاستسلام له!!

مشى هذه المرّة ليبحث عن صديقٍ علّه ينسى فَتاته ، أو علّه يجد عند صديقه السّلوى مِمّا أصابه . . . قادتْه خُطاه إلى ملعب الجامعة ،

كان يحاول أن يُجهِدَ جسده الّذي تداعى بعد ذلك اليوم من لقاء حبيبته ، لعلّه بإفناء جسده يفنى عن محبوبته ، ولم يكن يعلم أنّ فناء الجسد فيمن تحبّ زِيادةٌ في بقائه إلى ما لا تحبّ . . . دخل الملعب الّذي يستقرّ في الجانب الشّرقيّ من الجامعة ، وقف على طرفه بعد ولوجه من الباب الكبير الرّابض في منتصف محيطه . هالتْه سعة الملعب ، وعلوّ المدرّجات المتصاعدة على الجوانب كافّة . . . كان هناك بعض الطّلبة يلعبون في مساحته البيضاويّة المُغطّاة بالنّجيل ، بدوا كأنّهم أشباح تتراقص في مدى الذّاكرة ، فكّر : لو انعكس غَوْر الملعب فصار قمّةَ جبلٍ وانحدرت إلى أسفله المُدرّجات ، وصار النّهار ليلاً ، وكان هؤلاء اللّاعبون سِباعًا ما شكّ لحظةً أنّه في قمّة ابن جُبير في ليلة الذّئاب الّتي لا تُنسَى . . . أزاح رأسه ليُزيح عنه ماضيه ، ومضى يمشي على حافّة الملعب ، ظلّ يمشي حتّى صار قريبًا من اللّاعبين ، كانوا أقلّ من أن يشكّلوا فريقًا كاملاً من (٢٢) لاعبًا ، فاتّخذوا من وسط الملعب مكانًا على مِقدار عددهم ليُمارِسوا فيه هوايتهم . . . كانوا (٩) لاعبين ، انقسموا إلى أربعتين ، ووقف تاسعهم حارسًا للفريقين ، مرّ صياحهم في أذنه مثل طائرةٍ شراعيّة ، وتجاوزهم وهو يُتابع سيره على الحوافّ . . . كانت خطواته تبدو آليّة لمن تابعه في سيره الوئيد . دار دورةً كاملة حول الملعب ، وجلس على أوّل دكّة من دكّات الدّرج قريبًا من باب الخروج ليستريح قليلاً ، ويتابع المباراة الّتي لم تكنْ تشوقه بأيّ حالٍ من الأحوال ، إلاّ أنّه يحاول أن يُسرّي عن نفسه بعض الهموم . لم يفارقه الكتاب قطّ في مسيرته منذ الصّفّ الرّابع . . . جلس يقلّب صفحات رواية جديدةٍ يهمّ بقراءتها ، قلّب صفحاتها بملل ظاهر ، ما في أعماقه أكبر من أن يدع له مجالاً للقراءة ، كلّ شيءٍ يراه يُحيله إليها ، صارت

سطور الرّواية تتماهَى ، وتتداخل فيما بينها ، ويذوب سوادُها فتصبح الصّفحة كأنّ دواةَ حبر سالت فوقها فلم يعد يُرى من حروفها شيءٌ . قلّب أوراق الرّواية سريعًا ، أحسّ أنّ دوران الأوراق يشبه دوران أيّامه ، وأنّ اختلاط السّواد فيها يملأ روحه بالسّواد ؛ روحه الّتي ضاعت في السّديم ، وراح يبحث عنها بلهفةٍ في مهبّ الذّكرياتِ ، غير أنّه كلّما أشرق نورٌ من بعيد يدلّه عليها انفلتت من بين يديه . بصيص الضّياء الخافت في آخر النّفق أغراه بالمسير نحوه ، ولكنّه لم يكد يصله حتى انطفأ ، ووجد نفسه وجهًا لوجه أمام الحائط المُصمَت الّذي يقف مثل قدرٍ محتوم تنتهي عنده الحياة ، ولا عالَم – مهما كان – حتّى ولو كان عالَمَ الأمواتِ يقبَعُ خلف هذا الحائط الأخرس .

أيقظه من خيالاته صوتٌ وقف أمامه ، يسأله :

– ماذا تقرأ؟!

رفع بصره نحوه بيأس ، فرأى شابًّا من الّذين كانوا يلعبون كرة القدم ، كان الملعب قد خلا من اللاّعبين ، ولم يبق فيه غيرهما ، مرّوا أمامه دون أن يراهم ، ولولا أنّ هذا اللاّعب قد أيقظه بصوته من غفلته ما رآه .

– ما الّذي تقرؤه بين يديك؟! (كرّر عليه السّؤال)؟

– رواية لتولستوي . (أجابه باقتضاب) .

– كاتبٌ عبقريّ . قرأتُ – تقريبًا – كلّ ما كتب .

انتفض من مكانه كأنّ أفعى لسعتْه ، أيكون فعلاً قرأ كلّ تولستوي؟! أمعقولٌ أن يجد في النّهاية من يُشاطره همّ القراءة ، ومتعة النّقاش حولها؟!

– حقًّا؟!! (قالها وهو يشخص ببصره نحوه ، بمزيدٍ من الاستغراب)

– حقًا .
– اجلسْ . . . هل يمكن أن نتحدّث قليلاً .
– بلى . . . بكلّ سرور . . .!!
– لؤيّ . . . هذا هو اسمي . (مدّ يده مُصافِحًا) .
– واثق . . . (وهو يمدّ إليه يده) . . . واثق . . .

كان (لؤيّ) مربوعًا ، يدرس في السّنة الثّانية في كلّيّة الهندسة . وجهه مُدوّر ، وبشرته بيضاء ، وعيناه سوداوان ، وجسمه مشدود ، وفكّه بارزٌ على طرفَي ذقنه ، أمرد إلاّ من بضع شعرات يتيمات يبرزْن بشكلٍ صارخ عند أسفل ذلك الذّقن . صوتُه رخيم ، وبسمته لا تُفارقه ، وكلّما ابتسم أو ندّتْ منه ضحكة سحبَ طَرَفًا من الهواء إلى الدّاخل ملتقطًا بعض الأنفاس ليُنهي ضحكته ، ثمّ يُخرجِها في زفيرٍ خفيف ، وأحيانًا يُصاحب هذا الزّفير أصواتٌ مثل : آآآه . . . أأأخخخ . . .

كان جريئًا ، ومتحدِّثًا جيّدًا ، ولسانه ذَرِب ، لا تُعجِزه الكلمة ، ولا تخونه العبارة ، بدأ هو بسؤال (واثق) :

– ما رأيك أن نتناول شيئًا ساخِنًا في الكافتيريا . . . بالطّبع . . . إذا كان وقتك يسمح؟

– نعم . . . نعم ، يسمح .

ظلاّ يمشيان حتّى دخلا الكافتيريا ، لم يكادا يخطُوان بضع خطوات حتّى توقّف (واثق) وشهق شهقةً عالية ، انتبه لها (لؤيّ) غير أنّ (واثق) عاجلها بالكتمان . كان قد خُيّل إليه أنّه رأى فَتاتَه تجلس إلى إحدى الطّاولات ، ولَمّا مدّ عنقه إلى الأمام قليلاً وأحدّ النّظر تبيّن له أنّها ليست هِيَ . كتم شهقته ، وأصلح من حال وقفته المُفاجِئة ، ونظر إلى (لؤيّ) ليتأكّد أنّه لم يقرأ فيما فعل شيئًا . غير أنّ (لؤيّ) سارع بالقول :

- لماذا كلّ هذا العشق؟!

- ماذا تقول؟!

- شهقة العِشق لا يُخطِئها القلب!!

- أراك تُلمّح إلى شيءٍ مـا . إن كنتَ تنوي أن تقـوله فـقُلْه دون مواربة .

- لا أُلّمح يا صديقي . أنا أعتقد أنّك عاشق ، بدا ذلك من صوت شهقتك ، ومن هيئة وِقفتك!!

لم يجـد (واثق) مـهـربًا من كلمـات (لؤيّ) ، وأدرك أنّ حـالتـه تفضحه ، فبادر قائلاً :

- إنْ كنتَ تنوي الحديث في هذا الموضوع فلنؤجّله إلى وقته .

- لا بأس . أنا أريد أن أعرفكَ أنتَ ابتِداءً ، لا هي!!

دَرَجَا معًا إلى سِياق المشروبات السّاخنة ، تناولا كأسَين من النسّكافيه السّوداء ، ومضَيا ينظران حولهما ، فاهتديا إلى طاولةٍ في أقصى زاويةٍ في الكافتيريا وجلسا إليها ، وبدأ (لؤيّ) الحديث وهو يرشف من كوبه رشفةً عميقة :

- منذ متى تقرأ تولستوي؟!

- هذه أوّل روايةٍ أقرؤها له . . . غير أنّي أقرأ منذ أمدٍ بعيد .

- نعم . نعم ، أفرأيت متعةً تُعادل متعةَ الجلوس إلى كتابٍ؟!

- كلاّ . في الكتاب يعيش المرء أكثر من حياة ، ولا يقرأ صاحب الكتاب بِقَدْر ما يقرأ الأمّة الّتي ينتمي إليها الكاتب إذا كان أمينًا .

- سألتُ نفسي أكثر من مرّة هذا السّؤال : لماذا نقرأ؟! غير أنّ إجابةً واحدةً لسؤال وجوديّ مثل هذا لا تكفي . قلت : القراءة تختصر أزمنة ، وتكثّف تجارب ، وتنقل خِبرات يحتاج المرء معها إلى آلاف

السّنين لكي يحصّلها ولا يستطيع ؛ وحده الكتاب قادرٌ على أن يضع أمامك ذلك خلال حياتك أنت!! (صمت برهةً ، ثمّ تابع) : وأنتَ ؛ ألم تسأل نفسك هذا السّؤال؟!

- بلى . كلّ يوم .

- هه . . . وماذا لَديك . . . قُل لي؟!

- أنا أقرأ لكي أعيش ، تشكّلَ مع الزّمن لديّ يقينٌ بأنّني لا يُمكن أن أعيش بدون أن أقرأ . وتكوّنت لديّ قناعة أنّ الموت سوف يكون لي بالمرصاد إنْ توقّفْتُ عن ذلك . تعرف . . . (يصمت قليلاً ، ثمّ يسترسل) : القراءة تحميني من الموت!!

- ما الفرق بين من يقرأ ومن لا يقرأ إذن؟!

- تمامًا كالفرق بين الحيّ والميّت . الّذين يقرؤون أحياء ، والّذين لا يقرؤون أمواتٌ ولو أكلوا وشربوا ، وناموا وقاموا!!

كان (واثق) يستمتع بالحديث مع (لؤيّ) ، ويعتدل في جلسته متوثّبًا كلّما جاء دَورُه في الكلام ، بدا أنّه بدأ يتحرّر من عُزلته الطّويلة ، وأنّ جذوةً من حماسة تأخذه بعيدًا ، حيثُ الصّديق الّذي يجد لديه مساحةً حرّة من النّقاش ، تحرّك خلايا الدّماغ ، وتستثير بُؤر التّفكير ، وتستنطق مكامن العِبرة . . .

- أتعرف؟! (قال ذلك واثق) .

- ماذا؟!

- نحن في نهاية السّنة ، لقد عييتُ بأن أجد رفيقًا منذ دخولي هذه الجامعة!!

- الخطأ فيك أم فيهم؟! (يضحك معها)

- أرجح الظّنّ أنّه فِيّ (يُجاريه في الضّحكة ، ويتابع) : أنا سمكةٌ

في بحرٍ من الرّمال . . . أكاد أختنق . . . أبحثُ عن صديقٍ يعيد إلى بحري ماءه!!

– وهل تظنّ أنّك وجدتَه؟!

– بلى . إنْ تخلّيْتَ أنتَ عن نفسك قليلاً ، وتخلّيتُ أنا عن نفسي بمقدار ما تخلّيتَ أنتَ ، فربّما نلتقي في مساحة التّخلّي . (يضحك)

– تتفلسف عليّ إذًا؟!!!

– أنا أمازحك . . . (أتعرف) : أتمنّى حقًّا أن تبدأ علاقتنا ولا تنتهي . . .!!

– إنْ كان همُّنا واحِدًا . . . فأعدك ألاّ نفترق!!

نظر (لؤيّ) في ساعته وقام وهو يشدّ على يد صاحبه :

– ستبدأ محاضرتي بعد قليلٍ . أنا مضطرٌّ للمغادرة . . . آه صحيح ، كيفَ يُمكن أن نلتقي مرّة ثانيةً؟!

– في الصّباحات الباكرة ، قبل بدء المُحاضرات!!

– اتّفقنا . . . اتّفقنا . . . لكن ياااه . . . نسيت أن أسألك في أيّ كلّيّةٍ أنت!!

– كلّيّة العلوم ، الكيمياء التّطبيقيّة . . .

– اتّفقنا . . . اتّفقنا . . . في الصّباحات الباكرة . . . نعم في الصّباحات الباكرة . . .

خرج (لؤيّ) ، وظلّ من بعده (واثق) جالسًا في مكانه ، وقد شعر أنّه وجد صديقًا يشاطره الهمّ ، ويُفضي إليه بهواجسه الّتي تعذّبه كلّما عنّت الذّكرى بباله . . .

ولكنْ من يُنقِذه من الصّباح الشّتويّ الّذي حطّ فيه نورس الحبّ على كتفه يومَها؟! مَنْ يحميه من وجهها الّذي ظلّ يبرز له في كلّ

شيء ، ويطلع له مثل قمرٍ في ليلة باردةٍ قد خلتْ من النّجوم؟! مَنْ يقول له إنّ ما يمرّ به ليس جنونًا ، وإنّه مجرّد عاشق مثل آلاف العاشقين الّذين سبقوه والّذين سيأتون من بعده؟! أكان لِزامًا على العاشقين أن يُصبِحوا مجانين؟! أم عليهم أن يمنحوا عقولهم فترةَ استراحةٍ لأنّ العشق لا يعترف بالعقول ، ولا يلجأ إليها ألبتّة ، فما يفعله العاشق يفعله بقلبه ، ويحكم عليه بقلبه ، ويحاوره بقلبه . . . فما حاجة العقل إذًا؟!!

جاء إلى هذه الجامعة وحيدًا ، مُحمّلاً بالرّؤى الذّابحة ، وسوف يخرج منها وحيدًا مُسربَلاً بالطّعنات النّازفة . . . أكان في مقدور الأصدقاء أن يتلقّوا الطّعنات عن المذبوحين؟! كلاّ . الطّعنة تعرف طريقها إلى مقتولها ، ما من طعنةٍ في الحبّ نفذت إلى غير صاحبها؟! وما من أحدٍ ينوب عن العاشق في تلقّيها . . . وحده العاشق يحمل أثقال عشقه على عاتقه!! ويحه إذًا ممّا تخبّئه الأيّام له!!!

قرّر أن يهبها أسبوعًا كاملاً . لتذهب المُحاضرات إلى الجحيم (قال ذلك لنفسه) ؛ المُحاضرات أستطيع تعويضها بالقراءة ، أمّا وجهها فلا يعوّضه شيء . لا حدّ له إلاّ بحدّه . ولا يقوم مقامه إلاّ حضوره البهيّ في عالَمي المفتون . . . راح يمشي طائعًا إلى كلّيّة الطّبّ . . . دخل كلّ القاعات ، وتلفّت في كلّ الوجوه ، وراقب كلّ الفَتَيات . . . في ذهابه بين الكلّيتين ؛ كلّيّته والطّبّ أحسّ أنّه يعبر طريق الآلام ، أوجعه ذلك لبرهة ، غير أنّه أسعده من بعد ؛ عَلِمَ أنّ لهذه الآلام نهاية ، وأنّ الغفران يكمن في العذاب نفسه!! هجس : كم من النّزيف تحتاج قاتلتي لتمنحني الخلاص في نهاية المطاف؟!

صار يشعر بامتلاكه لرغباته ، لم يكنْ من قبلُ يجرؤ على النّظر

في وجه فتاةٍ واحدةٍ ولو كانت عابرةً في الطّريق ، الآن يجد متعةً من نوع ما في التّفتيش عنها بين الوجوه المزدحمة ؛ الوجوه الّتي تتهادَى في القلوب قبل الدّروب ، الحسناوات يمخرن عُباب الجسد ، بدت الحسناوات دُنيا من الفِتن ، تفتك بعشّاقها حسب درجات عشقهم ، قد تصفعهم مجرّد صفعةٍ عابرة ، وقد تجرحهم جرحًا بسيطًا ، وقد تفعله عميقًا فيمن تعمّق في حبّها ، وقد تأكله أو تلتهمه في جوفها مثل تُفّاحة طافِحة ، أو حبّة عنبٍ سقطت من عنقودها بعد أن لم تَعُدْ تتمالك نفسَها . . .

لم يظفر بما يريد في اليوم الأوّل ، فقد كان صيدُ الظّباء عسيرًا ؛ شعر أنّ مدى الرّؤية قد ضاق ، وأحسّ أنّ الجِبال في هذا المدى متناثرة ، والأشجار تُخفي كلّ شيءٍ حتّى ما كان قريبًا منك . . . عادَ في اليوم الثّاني وقد صمّم على أن يرى ما يدلّه عليها . . . سأل نفسه : لماذا تحضر كلّ الوجوه ويغيب وجهها هو؟! من أين للسّماء أن تأتي بمثله . . . هل هو مستحيلٌ إلى هذا الحدّ؟! خارج صفّ القاعات ، كانت هناك بعض المقاعد المترامية على بساطٍ من العشب ، يفصل بينها وبين تلك القاعات جدارٌ زجاجيّ كاشف . . . اتّخذ مِقعدًا في الوسط يكشف كلّ الدّاخلين إلى القاعات والخارجين منها . . . بدأ يقلّب صفحات (مقدّمة ابن خلدون) ، يستهويه تمحيص التّاريخ ، وقراءته بطريقة صاحب المقدّمة هذه . نظر في ساعته كانت المُحاضرة قد بدأت قبل عشر دقائق . . . راح يقرأ فيما بين يديه : (أهل الحضر ألقَوا جنوبهم على مِهاد الرّاحة ، وانغمسوا في النّعيم والتّرف . . .) خرج وجهها الملائكيّ من بين السّطور . . . تنهّد . . غيّر جلسته . . . قلب الصّفحة ثمّ عاد إليها . . . وضع إصبعه في تلك الصّفحة وأطبق عليها

دفّتَي الكتاب ، وقرّبه من وجهه ، ركزه على جبهته ، وتنهّد تنهيدة أطول من الأولى . . . نظر في السّاعة مرّة أخرى . . . ثمّ فتح الكتاب ثانيةً ، وراح يحاول جاهِدًا متابعة القراءة . . . مرّ أكثر من نصف ساعة وهو على تلك الحال ، ركن الكتاب إلى جانبه وراح يراقب أبواب القاعات بعينين فاحِصتين . . . خرجت الأسراب كأنّها خرجت من فم الأسد ، تتدافع بشكلٍ سريع ، كأنّما أفلتت من الأسر ؛ أكانت المعرفةُ سجنًا؟! (همس في أعماقه) . أَحَدَّ النّظر ، واقترب من الجدار الزّجاجيّ ، فتح أحد المصارع ، ودخل إلى الممرّ الّذي تترامى عليه أبواب القاعات . . . حدجتْه العيون من كلّ صوب ، أحسّ أنّ كلّ رأسٍ قد نطقت عيناه في وجهه : أيّها الغريب . . . ما الّذي جاء بك إلى هنا؟! أسدل سِتارًا من التّحدّي على أسئلة العيون واستغرابها ، وتابع هو بحثه في الوجوه . . . انساح الماء وابتلعتْه الرّمال ، لم تبق منه قطرةٌ واحدةٌ تدلّه عليها . . . أحسّ بثقبٍ في الفؤاد ، وضع يده على صدره يريد أن يمنع الدّم من الانثِعاب!! فَشِل . . . أحسّ أنّ صدره امتلأ دمًا . . . وأنّ قميصه تضرّج به . . . عادَ خاوِيًا من كلّ شيء إلاّ منها ؛ ومن خنجرها المغروس في القلب!!

ذاهِلاً . . . لا شيءَ في المدى الأفقي يُوقِفه ؛ الكائنات هباء وما قام من حجرٍ وإسمنتٍ في طريقه خواء . . . شيءٌ ما في البعيد الغامض يجذبُ روحه إليه بلا تفسير ، تركه يحوزه بالكامل فترك كلّ شيءٍ له ؛ ولذا طال شَعرُ رأسه حتّى وصل كتفَيه ، ونبتت شَعَرات ذقنه على غير انسجام ، وانفتح زرّ قميصه الأعلى فبان ما تناثر من شعر صدره ، وتكافأ طرفا قمصيه من الأسفل فغاب طرفٌ في بِنطاله وخرج طرفٌ آخر ، ولا أختَ له اليوم (كسُميّة) تُهذّب ما تناثرَ من هيئته ،

وتُعيد لقِوامه ما فقده من اعتِدال . نابتْ عيناه عن كلّ أوجاعه العميقة المستكنّة في كبده ، فنحل جسده أبعد ما يكون ، وزاغت عيناه عن كلّ كائنٍ إلاّ ما كانتْه هي ، وصمتتْ شفاهه عن أن يقول كلمةً واحدة في حقّ نفسه ليُجيب عن سؤال الرّائين : ما الّذي فعل بك كلّ هذا؟! في الحبّ : العيون تتكلّم والشّفاه تصمت ، القلوب تمتلئ والجوراح تفيض ، الأرواح تُحلّق والأجساد تغوص!!

(١٥)
(وَما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غداً)

لسعةُ البرد في الصّباح تذكّره بها . . . جذوةُ اللحظة الأولى في العشق لا تخبو مهما مرّ عليها من زمن ؛ ولا تموت مهما تعاقب عليها ليلٌ أو نهارٌ ، ولا تنطفئ مهما تناوبَ على ذِكراها صيفٌ أو شتاء . دخل من الجهة الّتي التقى بها أوّل مرّة قبل مئة يوم ، أراد لهذا اليوم المئة أن يكون مميّزًا . . . عبر كلّ الدّروب مُغمِضًا عينيه عن كلّ شيءٍ ما عدا ما جال في خاطره . . . تجاوز أحواض الورد الأولى ، وخطا مترنّمًا ، يداري أوجاع صدره بالغناء . . . أبيات الشّعر الّتي تنداح على لسانه كلّما خطرتْ بباله كثيرةٌ لا تُحصَى . . . ظلّ يدرج مثل قطاة ، ويلتفت مثل أيّل حتّى وصل إلى السّقف الّذي احتمى به من المطرِ في ذلك اليوم . . . أصلح من هِندامه ، تنحنحَ قليلاً ، وركَزَ الوردة الّتي يُمسِكها في ياقة قميصه ، وتخيّلها أمامه ، وراح يقرأ ما اختار لها من أبيات المجانين . . . أسمعَ طيفَها تسعةً وتسعين بيتًا ، وختمها بالبيت المئة :

وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَواجِع
إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

انهمرتْ دموعُه على خدّيه ، وأحسّ أنّها تقترب منه ، وقد أشفقتْ لحاله ، مدّت يدها البيضاء إلى خدّه تمسح ما تقاطر عليه من الدّمع ، فأمال وجهه إليها قليلاً ، وألصقَ خدّه بباطن كفّها ، أطرق

خاشعًا للحظات ، ثمّ هوى يلثم يدها ويتشمّمها . . . صحا من هَذَيانه ، رفع رأسه ، أخذ نفَسًا عميقًا ، أصلح الجزء المنفلت من قميصه ، وتلفّت حوله ، ثمّ راح يعدو كالأبله . . .

تأكل الأيّام عمر الإنسان . وُلد ليموت . عندما رأى النّور بدأت ذُبالة مصباحه بالانطفاء . . . القطرات الّتي راحت تنزّ من سراجه كانت أكثر ما يُمكن لحظة ولادته ، ها هو يراها تتلاشى قطرةً فقطرةً . . . لم يستطع أن يخمّن كم بقي له من القطرات حتّى يكون الانطفاء التّامّ . . . أرعبه أن ينطفئ قبل أن يشتعل بها . . . . اقتنع لوهلة بما عاشه حتّى اليوم . . . لقد عاشَ كثيرًا . . . عمره يمتدّ لسنوات طويلة لم يعد قادرًا على ضبطها أو عدّها . . . ظلّت الوساوس تصكّ دماغه ، وتُحدث فيه طنينًا متتابعًا حتّى وصل الكافتيريا . . وقف في الطّابور الصّباحي المتهافت على أكواب النّسكافيه . . . ما زال ذاهلاً عن نفسه . . . سابحًا في الخيالات . . . أيقظتْه يدٌ امتدّت إلى كتفه فهزّتْه برفق ، تطلّع بتثاقلٍ إلى الخلف يكاد يقول في نفسه : مَنْ هذا الأخرق الّذي لم يجد سواي ليُزعِجني بسماجته . . . لم تكدْ عيناه تقع عليه حتّى صاح :

– لؤيّ . . .!!

– نعم . . . أينَ كنتَ يا رجل . . . منذ أسبوع لم أرك . . . ألم نتّفق أن نلتقي هنا في الصّباحات الباكرة!!

– أنا لم أغيّر في اتّفاقنا شيئًا . . .!!

– عجيب . . . حقًّا ؟!

– حقًّا .

– لا بأس يا صديقي . . . تهمّنا اللّحظة الرّاهنة . . . المهمّ ها أنذا أراك من جديدٍ . . .

جلسَا في الزّاوية القصيّة إيّاها . . . مرّتْ لحظات صمت قاتلة ، كانت تقطعها أصوات رَشَفاتهما من كوبَي النّسكافيه بينَ الفَينة والأخرى . ظلّتْ عينا (لؤيّ) مُعلّقتَين بأهداب (واثق) بدا أنّهما تلمعان تحت ابتلال دمع لم يفارق الجفنَين ، ووقف هناك مثل دُررِ رمّانة ناضجة . قال لؤيٌّ:

– ما هذا النّحيب الدّهريّ الّذي يضجّ به فؤادك يا صديقي؟!

– . . . . .!!!

– أعرف أنّ العاشقين أَبْأسُ النّاس . ولكنْ حدّثني .

– . . . . .!!

– لا يمكنك أن تبقى صامتًا هكذا . . . صمتك يقول أشياء كثيرة ؛ الغصن الرّطيب الّذي قُطعَ للتّوّ من شجرةٍ باسقة يفوح نَدًا . . . قُلْ ها أنذا أُصغي .

– سأحدّثك . . . سأحدّثك يا صديقي . . .

– هاتِ . . .

– المساحة الّتي تفصل بين الوهم والحقيقة عندي غير موجودة . . .

– ماذا تعني؟!

– أتخيّل أشياء أو أرى أشياء ؛ لم أعد أفرّق أيّهما هو الحقيقة وأيّهما الخيال . . .

– يعني؟!

– أريدك أن تحدّد لي مستوى الوهم الّذي أعيشه ، هل هو مرضيّ ، أم أنّه طبيعيّ!!

– سأفعل . كلّنا معجونون من الأمرين معًا ، يغلب أحدهما الآخر مرّة ، ثمّ يتناوَبان ، وما بينهما نتأرجح مثل بوصلة تحاول أن تحدّد اتّجاهها .

– يا صديقي لا أقول ما أقول ، لكي نُفلسف الأمور . أقوله من أجل أن أهتدي إلى وصف حَقٍّ لما أنا عليه .

– إذًا ادخل إلى الموضوع مباشرةً .

– هي فتاةُ التقيتُها . . . (يصمت قليلاً . . .) لا أدري إذا كنتُ التقيتُها فعلاً ، أم أنّ ذلك كان حالةً ذهنيّةً مُختلقة (يصمت مرّة أخرى . . .) حدثَ ما حدث أم أنّني نسجْتُه من خيالي . المهمّ أنّها وقفت إلى جانبي في ذلك الصّباح الشّتويّ وقد بدتْ ملاكًا هبط من السّماء ، وقد دخلتْ بلطفٍ إلى حجرات قلبي ، ولم تغادره إلى اليوم .

– أعرفتَ اسمها؟!

– لا .

– أعرفتَ من أيّ كلّيّة هي؟!

– نعم ، الطّبّ .

– جيّد . وفي أيّ سنة؟!

– لا أدري . ربّما الأولى أو الثّانية أو الثّالثة . . . أو الأخيرة ، أرجّح أنّها . . . لا أدري . . . لا أدري . . .

– ابحث عنها يا صديقي . والْتقِها . وأَسِرَّ لها بما تُكنّ ؛ يموتُ العشق بالصّمت ويحيا بالبَوح .

– بحثتُ . . . ليتني استطعتُ أن أجدها .

– وأين بحثتَ عنها؟

– في كلّيّة الطّبّ بالطّبع .

– غير كافٍ ، إذا كانت في السّنة الأولى ، فلا بدّ أنّها تأخذ بعض الموادّ المشتركة معك في كلّيّتك . . . أبحثتَ عنها في مُحاضرات قسمك؟!

- لا!!!
- يا لك من ساذج!!
- صـحـيح . . . مـاذا دَهاني . . . دَعْني أجـرِّبْ هذه المرّة في كلّيتي . . .
- يصـرف الحبّ قلوب المحبّين ، يجـعلنا في أقلّ اسـتـعـداداتنا الذّهنيـة وفي أبعـد تلك الاسـتِعداداتِ حِسًّا ؛ القلوب حينئذ تصبح عيونًا . فمن أينَ ترى عينان دامِيتان مثل عينَي قلبكَ يا صديقيٍ!!
- أرى أنّني لا أرى!!
- المهمّ . . . كـيف استـعـدادك للامتِـحـانات . . . لا تدع العـشقَ يهدمْ روحَك ، تستطيع أن تجعله يبعثها من الرّماد مثل طائر العنقاء!!
- أحاول . . . نعم أحاول . . . ها أنذا أفعل . . .
- العشق صاعقة ، قد تميت الحيّ إذا كانت قويّة ، وقد تُوقِظ الميّت إذا كانت بالقَدْر المعقول .
- أظنّ أنّ صاعقة عشقي ساحقة!!

نهضَ واثق بعد تلك الجلسة وقد شعر أنّه استعاد بعض ذاته ، وأنّه صار يمتلك أملاً بهيجًا في أن يرى فتاته السّاحرة . . . مشى وقد شعر بخفّةٍ في جسده ، ونشاطٍ في بدنه .

تتسـارع الأيّام في ركضِـها نحو المجـهول ، وتتـهاوى الأنفس في سعيها لالتقاط ثمرة الحكمة من شجرة الحياة ، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَدًا) ، وتظلّ النّفس طائرًا يحلّق في فضاء الغيب بجناحَين ضعيفَين . . . أحسّ في عشقه لفتاته الّتي لم يرها إلاّ مرّة واحدة أنّه سجينُ رغبته ، رغبته الّتي ظلّ يحاول طوال عمره أن يتخلّص من أنيابها ، كان يعتقد أنّ للرغبة أنيابًا إذا غُرزَت في القلب صار الانفكاك

منها ضربًا من المستحيل . . . شعر بالعبوديّة للحظة فهمس في نفسه : إذا تقتُ إلى الحرّيّة ، فيجب أن أتخلّص مِمّا أشتهي!!

كانت الشّمس قد خفّفتْ من حدّتها قليلاً في أواخر شهر مايو من سنة العشق الخضراء ، تنازلت هذه الآسِرة عن عرش السّماء ، ومالت في السّديم الأزرق لتقف إلى جانب البُسطاء من هذا الخلق العميم . . . أشعّتها الدّافئة سرتْ في عروقه فتحرّك فيها الدّم يتهادَى تهادي الإبل على أديم الرّمل النّاعم . . . شعر ببهجةٍ لم يجد لها تفسيرًا ، قفزتْ أمامه ظِباء الأماني من كلّ صوب ، وأحاطتْ به من كلّ جانب . . . قام من مقعده يمشي رويدًا ، راكِزًا يديه في جيبه تاركًا خلفه كُتبه ، وهو يطوّح برجله كلّما صادفتْه حصاةٌ في بساط العشب . على طرف هذا البِساط رأى البُستانيّ يقوم ببعض الأعمال ، وعلى محيطه رأى صنابير الماء ترشّ رذاذها لتسقي الورود والشّجيرات المنسّقة في القلب والجوانب ، كان بعض هذا الرّذاذ الخفيف يصيب وجهه بين فترةٍ وأخرى فيزيده انتعاشًا ، ظلّ يمشي فَرِحًا ، وكلّما أصابه بعض الرّذاذ أخرج يده اليمنى المركوزة في جيبه ومسح بها وجهه من القطرات ، وتابع مسيره مترنّمًا . . . كانت المسافة الفاصلة بين مقعده عند بداية هذا المسطّح الأخضر ونهايته هي المسافة الّتي أنهتْ عهد الآلام أو بدأتْه ؛ لم يعد يدري . ظلّتْ خطواته الشّاعريّة تتنامى حتّى وصل إلى دكّة البساط من طرفه البعيد ، كانت الدّكّة ترتفع قليلاً عن الطّريق الإسمنتّية الّتي يتّخذها العابرون ممرًّا بين كلّيّاتهم ، ما إنْ وصل إلى هناك حتّى قفز من أعلى الدّكة بخفّة إلى الطّريق . . . مشى بضع خطوات ، وهمّ بأنْ يعود إلى بداية البساط الأخضر ليأخذ كتبه ، ويغادر الجامعة . . . إلاّ أنّ شيئًا ما جمّد الدّم في عروقه ، وأوقف دقّات قلبه

للحظات ، وأحال وجهه إلى ورقةٍ صفراء يابسة . . . خُيّل إليه أنّه يراها ، وأنّها القادمة باتّجاهه . . . تسمّر مكانه كأنّه تمثال قُدّ من صخر ، لم يتحرّك فيه غيرُ عينيه ، وبصعوبةٍ غير متكلّفة أحدّ بهما النّظر إلى الشّبح القادم من تلك الجهة ، ظلّتْ حدقتا عينيه تتّسعان حتّى كادتا أن تتفجّرا . . . في المدى المرئيّ بوضوح بدتْ بكامل أنوثتها تقترب من تمثاله ، لفح الحبّ جانبيه بالنّار ، تخلّص من جموده ، نفض يديه ، وهزّ جسده اهتزازةً عنيفةً كمن يخرج من غيبوبةٍ ، وسرتْ دماء الوَلَه في شرايينه ، وعاد حيًّا بعد أن كاد يموت . . . صارتْ بجانبه تمامًا ، أوقفها بكلمةٍ من معجم مفرداته المليون ، ولكنّها خذلتْه :

– ألستِ . . . ألسْتِ . . . (همّ بأن ينطق بما يريد ، لكنّه صار يُتأتِئ . . . نظرتْ إليه مُستغربةً ، وضيّقتْ عينيها قليلاً ، وتوقّفتْ كأنّ دفقةً من كهرباء لسَعَتْها . . . تابع هو كلماته بعد أن انفلتت حُبسة لسانه) :

– أنا صاحب المِعطف . . . هل تذكّرتِني . . .؟! (ظلّتْ صامتة ، فتابع) :

– أنا صاحب المِعطف في ذلك الصّباح الشّتويّ الباكر . . .!!

– آه . . . آه . . . آه . . . (قالت ذلك ، وهي تضع يدها على فمها من الدّهشة) . . . تذكّرتُك . . . تذكّرتُك . . .

– أرجوك . . . امنحيني قليلاً من الوقت . . .

– . . . . .!!

– اسمي . . . اسمي . . . (وتلعثم لسانه مرّة أخرى ، وأحسّ أنّه يُمكن أن يكون قد نسي اسمه ، تمالك نفسه قبل أن ينسى بالفعل ، وتابع) : اسمي واثق . . .

- . . . . . (ظلّتْ صامتة ، وإنْ أطرقتْ قليلاً لتحمي نفسها من نَظَراته المُلتهبة) .

- أنا في السّنة الأولى في كلّيّة العلوم ، وأنتِ في كلّيّة الطّبّ ، ولكنّي ما عرفتُ اسمك!!

- (تردّدت قبل أن تنطق باسمها ، ثمّ أردفتْ) : مُنَى . . . اسمي مُنَى . . .!!

وقع الاسم على قلبه مثل أعذب المُنى ، أحسّ أنّه في قلبها ، وأنّه بدأ حياةً جديدةً غير حَيَواته السّابقات القاتِلات . . . تابع قائلاً :

- هل يُمكن أن نجلس معًا لدقائق . . .؟!

- وهل هناك ما يدعو لذلك؟!

- قليلاً . . . قليلاً . . . لن أؤخّرك . . . على طرف هذا البساط ما يستحقّ أن يُقال!!

جلَسَا كهيكلَين في مَعبد الحبّ ، تُظلّلهما عرائش المودّة ، وتمتدّ من تحت أقدامهما مِهادُ الرّضى . . . ملأ عينيه منها وهي تجلس إلى جانبه ، كانَ صباحُها صافِيًا كصفحةِ الحليب ، وشفيفًا كمرآة ماءٍ في بحيرةٍ هادئة ، وبين الصّفاء والشّفافية انفتقتْ شُعلة العشق الأسطوريّ في طُورٍ الوَجد ؛ إنّه اللقاء الحقيقيّ الأوّل الّذي يُصبح من بعده الصّاعد إلى الطُّور رَسولاً أو شهيدًا . بدأ حديثه :

- أتعرفين . . . كان لقاءً استثنائيًا ، لم تغيبي عن بالي منذ ذلك اليوم لحظةً واحدةً . . .

وَرَّدَ الخجلُ وجنتَيها ، ودارتْ ذلك بالنّظر إلى الجهة الأخرى وهي تعبثُ بأناملها الرّقاق (أمّا هو فكان يُتابع وجهها بشغفٍ طفوليّ لم يعرف له سِرًّا) ثمّ التفتتْ إليه قائلةً بصوتٍ خفيض :

– أنتَ تُبالغ في ذلك!!

– لا أبالغ في حرفٍ واحدٍ، ولو كنتُ شاعرًا لكتبتُ فيك ألف قصيدة . . . بل ألف ديوانٍ . . . (يتنهّد ، ثمّ يتابع) : لكن لا بأس ، عزائي بأنّني أحفظ آلاف القصائد . . .

– حقًّا؟!! (قالت ذلك مستغربةً) .

– نعم . ولكنّكِ القصيدة الأحلى من بينها جميعًا .

(شعرتْ بأنّه يتمادَى في التّغزّل بها ففكّرتْ بترْك المكان سريعًا ، وأمّا هو فلم يدرِ مصدر هذه الجرأة الّتي واتتْه بهذه الصّورة الّتي لم يعهدها . . . تململتْ في مكانها قليلاً ، فأدرك أنّه تجاوز الحدّ ، فبادر قائلاً) :

– أعتذر . . . إنْ كانت كلماتي تخطّتْ حدودها .

(أعجبها اعتذارُه ، وعلى النّقيض شعرتْ لو تستمرّ هذه الجلسة لزمنٍ أطول . . . استغربتْ كيفَ يصيبها هذا التّناقض في الشّعور في أقلّ من دقيقةٍ ، مالت إلى التّفكير بالمغادرة ، فوقفتْ على قدميها . . . وقف هو الآخر كالملدوغ ، وحدّق في وجهها كالمسحور ، كانت شفتاها الكَرَزيّتَين مزمومَتَين كأنّهما تتهيئان لقُبلةٍ مؤجّلة ، هام فيه وفيهما ، تأرجح ، كاد أن يسقط وهو يحاول أن يغوص في تقاسيمهما ، فنَهَره صوتُها القادم من جوف بئرٍ سحيقة) :

– أنا مضطرّةٌ للمغادرة . . .!!

– هل أستطيع أن أراك مرّة أخرى؟!

– ربّما . . .!!

– أرجو أن يكون قريبًا . . .

– ربّما . . .!!

– أين ألتقيك . . . إذا سمحت الظّروف . . .؟!

– . . . . .!!

– أُتنهين مُحاضراتك كلّ يوم في هذا الوقت . . . في الرّابعة أو الخامسة؟!

– في الخامسة؟!

– هنا في هذا المكان أم في مكانٍ آخر؟!

– في هذا المكان . . .

– سأنتظر خامسة الغد بلهفٍ وحُمّى . . .

– . . . . . .!!!

غادرتْ مثل حلم ، وخرّ هو على ركبتيه بعدها كأنّ سكّينا خرجتْ من صدره بذهابها ، ركّز وجهه بيديه ، وأحسّ بأنّه يموت ، ثمّ يُولَد من جديد . . . واجتاحتْه موجةٌ عارمةٌ من الحبور . . . ثمّ موجة هستيريّة من البكاء . . . ثمّ توقّف عن البكاء ، وصار يضحك ، ثمّ اختلط بكاؤه بضحكه ، وظلّ راكِعًا لدقائق قبل أن يتماثل للوقوف ، وخرج وهو يُهلوِس بكلماتٍ وأشعارٍ غير مفهومة . . .

صعد الحافلة ، وهو لا يرى أحدًا ، استقرّ في الجوف ، أحسّ أنّه يُشبه جوف القبر . . . حدّث نفسه : المكان هنا خانق ، وكان على بِساط العشب يشرح الصّدر . الموتُ هنا والحياة هناك . تابع هلوساته : نموت لِنُولَد ؛ أم نولد لنموت؟! أبالموت ننجو أم بالحياة؟! مضى الباص في طريقه ، يمرّر أمامه المناظر المترامية على جانِبي الطّريق . . . كان يبدو شارِدًا ، حاول أن يخفّف من شروده بالنّظر إلى النّاس والمحلاّت من زجاج النّوافذ فلم يُفلِح ، عنّ بباله أن يقرأ في كتاب ، مدّ يده إلى حقيبة كتبه يتحسّسها بجانبه فلم يعثر على شيء ، حاول مرّة أخرى

أن يبحث عنها . . . لم يكنْ هناك حقيبة . . . . صاح : آآآه لقد نسيتها على بساط العشب هناك ، يا لي من أحمق!!

وصل البيت ، وتمدّد على السّرير ، وراح يغوص في خيالاته ، لقد وجد حبيبته أخيرًا . . . برزتْ أمّه على الباب مرّة أخرى . . . لم يكنْ حلمًا ، دخلتْ بكامل تاريخها العتيق إلى عالَمه الجديد ، عالَمان مُختلفان يقبعان على حافّته الّتي تكاد تهوي بهما معًا ، ظلّ الاختلاف سيّد الفكرة . لم يشعر بوجود أمّه معه في الغرفة ، وقفتْ على أطراف أصابعها عند خصلات شعره المنسدلة على جبهته العريضة ، وعينيه الواسِعتين ، همّتْ بأن تقول شيئًا ، وقبل أن تفعل حانت منها التفاتةٌ إلى عيني ابنها ، كانتا هادئتَين كبحر ، وعميقتَين كفكرة ، وصافِيتَين كسماء . تعرف من هاتَين العينَين أنّه هنا وليس هنا . أمسكتْ لسانها عن أن تسأله أيّ شيء ، تركتْه وراءها – حين خرجت – مثل سحابة عابرة في يوم لاهب .

أمّا (مُنَى) فلفّتْها الحيرة من كلّ جهة . تقاذفتْها طيور اللّوم تنقر من رأسها في كلّ حين : كيفَ سمحتُ لنفسي بأن أجلس معه؟! ولكنْ : لقد فعلتُ!! ماذا بعدُ؟! لا أدري سرّ هذا الارتياح لمثل هذا اللّقاء . . . لماذا تشابكتْ في عينيه كلّ أسراب القطا؟! لماذا نامت بين يديه كلّ غزلان الرّضى . . . ظلّتْ تُشكّك في عقلها حتّى ولجت البيت ، وكأنّه ليس المكان ذاته الّذي تلجه كلّ يوم . . .

في حالته ؛ لم يكن الجنون داءً يصيب العشاقَ . بل كان العشق داءً يصيب المجانين ؛ أولئك الّذين فهموا الحياة كما رأوها هم ، لا كما رآها الآخرون عنهم . كان الفارق بينه وبين العُشّاق أنّه أسّس قاعدةً تعتّق أحوالهم ، ووضع لهم تاريخًا جديدًا يختلف عن تاريخ المجانين الغابرين . . .

(١٦)
كلانا مَريضٌ بالآخَر

خفق قلبُه بشدّة ، ورفّ بداخله مثل حمامة بيضاء ، كانت الدّقائق الثّلاثون الّتي تفصله عن الخامسة تبدو ثلاثين قرنًا ، وثلاثين جدارًا شاهقًا ، مضى يحطّم الجدر ، ويزيح الرّكام عن طريقه ، ويزرعه بالورود ، وهو يُجاهد مدّ الوقت الّذي غالبه حتّى الرّمق الأخير . . . كان من قبلُ قد أنهى محاضراته في الثّانية عشرة ظهرًا ، وظلّ ينتظر خمس ساعات ، مضى أكثرها في الحيرة والتّرقّب والخيال والذّكريات . . . ظلّ ينزف من دماء الصّبر ، حتّى كاد أن ينتهي ، لولا أنّ بوارق الأمل في اللّقاء السّاحر ظلّت تمدّه بقطراتٍ جديدةٍ من هذه الدّماء . . . الدّقائق الّتي تفصله عن مرآها جبال شاهقة تحجب كلّ البشر عن عينيه ، بمعول الإرادة نقب الجبال ، ووَذَرها قاعًا صفصفًا ، ومضى إلى بِساطه الأخضر . . .

تلفّت حوله ، تخيّل أنّ البستانيّ الّذي رآه أمس لم يُغيّر وقفته ، وما زال على هيئته يسقي الورود في هذا الحوض الكبير ، اقترب منه ، وسأله بابتسامةٍ عريضة :

– لله يا مُحسنين . . . وردة لأجل الله (غنّى المقطع الأخير وردّده غير مرّة) : وردة لأجل الله . . . وردة لأجل الله!!

التفتَ البستانيّ إليه ، وبادله ابتسامته بضحكةٍ خفيفة ، وردّ :

– شِكلَك حَبّيب؟!

– حبّيب . . . هاي بسيطة . . . يا صاحبي أنا ماكِل هوا ومذبوحٌ من الشريان للشّريان!!

– لَعادْ بِلْزَمَكْ وَرْدِةْ حَمْرَا . . . جُوري حَمْرا (وضحك ضحكةً مسموعةً ، ثمّ استدار إلى إحدى شجيرات الورد ، وانحنى قليلاً ليتناول وردةً قد بلّلتْها قطرات النّدى ، قطفها ثمّ مدّ بها إليه وهو يقول : رَحْ تجيبْ مَفعولْ . . . زَيْ ما بَقُلّك) .

– غنّى وهو يأخذها من يد البستانيّ : ولا يومْ جيتني وبيدَك وردْ تِهْديني . . . ولا يوم . . . مُوْ تِعْرِفْنِي أَحِبِّ الوَرْدْ . . .؟!! ولا يوومْ . . . ولا يووووومْ . . .!!!

أخذ الوردة ، وانحنى وهو يشكره بشكلٍ مُبالغ فيه ، وعاد إلى بداية البِساط ، حيثُ سيكون اللّقاء . جلس ينتظِر علىً المقعد القريب من باب أحد الممرّات الموصلة إلى كلّيّة الطّبّ ، وهو يطوّح رجليه في الفراغ ، ويبرم ساق الوردة بإصبعيه الإبهام والسّبّابة ، ويتلفّتُ حوله بترقّبٍ جليّ . . . ظلّ ينظر في ساعته كلّ دقيقة ، ويقلّب فيها النّظر ، ويُعاوده فيما حوله . . . قفز عقرب الدّقائق بثقلٍ شديدٍ ليُعلِنَ الخامسة ، وكأنّه توقّع أن تظهر أمامه في الفراغ فجأة ، ثمّ لمّاً لم يجدها كما تخيّلها رجع إلى نفسه فأنّبها :

– ألا تستطيعين الصّبر قليلاً . . . ألهذا الحدّ صار الجزع يسيطر عليكِ؟!

– لا أستطيع . . . ليتني أستطيع . . . (ردّ على نفسه ، وهو يتذمّر) .

– قفي على الحدّ . . . ليس بينك وبين الموعد شيء . . . أتظنّين أنّ

البشر ملائكة يجوبون السّماء، ويهبطون من السّحاب في طَرْفة عين . . . ستأتي كما وعدتْ . . ولن تُخلِفَ وعدها!!

– وما أدراكَ أنّها لن تُخلِفَ وعدها . . . ربّما رأتْك طفلاً ساذجًا!!

– لا . . . لا . . . أستطيع أن أعرف من لهجتها أنّها كانت صادقة!!

كانت دِيَكة الوقت تتصارع أمامه، وهو مُنزعجٌ من صوتها الّذي يُفقِده تركيزه واتّزانه، مشى يذرع الأرض بخطوات مرتبكة، ويدور حول المقعد مثل فراشةٍ تدور حول النّار، ثمّ خفّف من انفعاله قليلاً وجلس على المِقعد، نظر في السّاعة؛ كانت تشير إلى الخامسة وخمس دقائق . . . بدأت شياطن الرّيبة تتقافز أمامه، ثمّ راحت تصفعه على وجهه:

– ومن أنتَ حتّى تُصدّق أنّ فتاةً ساحرةً مثلها سوف تلتقيك؟! مَنْ أنتَ حتّى تمنحك هذا الشّرف؟! وتفوز لديها بهذه الهديّة . . . أنتَ مجرّد واهمٌ . . . شخصٌ احترقتْ بداخله الكلمات، واستيقظت في أعماقه الخيالات؟!

– صحيح . . . صحيح . . . ومن أنا حتّى تنظر في وجه بائسٍ مثلي!!

– اصحُ من أحلامك . . . تلك الّتي أحببْتَها ليست أحلامًا في فضاء هلاوسك!! إنّها فتاةٌ من لحمٍ ودم . . . وأنتَ مجرّد كائن من ورقٍ وكلمات . . .

– لاً . . . لا . . . لن تُخلف الوعد . . . هي صادقة . . . ما رأيتُه في عينيها يشعّ بالصّدق الّذي لم يعد موجودًا . . . وحدها تملك هذه العملة النّادرة في هذه الأيّام، ولهذا أحببتُها!!

أرجع رأسه إلى الخلف – وهو جالسٌ على المقعد – بأقصى ما

يستطيع حتّى كادت عنقه تنفصل عن جسده ، وراح يغوص في بحر السّماء الصّافي ، ويخفّف من سواد ظنونه بزرقةِ فضائه . . . كاد يذهل عن نفسه حين سمع صوتها :

- واثق . . . واثق . . . إلامَ تحدّق . . .

قفز واقفًا على رجليه مثل زنبركٍ كان مضغوطًا فانفجر . جَلَسا ، وراح يتأمّلها ، يغوصُ في جمالِها المكنون ، كانتِ الشّمسُ قد أشاعت بقُربِها جوًّا من الدّفء لم يعهدهُ من قبلُ ، أرسلتْ خيوطَها في الفراغ الحاجز بين وجهَيهِما ثمّ انحازتْ إلى شبيهتِها فسقطتْ على وجهها الملائكيّ ؛ وجهُها ليس ككلّ الوجوه فلقد بدا قادمًا من الجنّة ؛ الخدّان المُخمَليّان نضجا تُفّاحتَين من سِحر ، والعينان لَمعتا بريقًا من ألق ، كلّما أضاءتا تساقطَ العُشّاق في غورَيهما تساقُطَ الفَراش الحائم حول النّور أو الهائم حول النّار . كيفَ تكون الفِضّة النّاصعة حينَ تمتزج بالذّهب الخالص فيُشكّلانِ حُمرةً مَشبوبةً تدع الحليم حيرانًا ؛ هكذا كان خدّاكِ!! لكأنّه نسي في غمرة انشداهه كلّ شيء ولم يعد له من هدفٍ سوى أن يحدّثها :

- لقد متّ ألفَ مرّة قبل أن أراك!!

- ألهذا الحدّ تأخّرتُ؟!!

- أنتِ لا تُدركين أنّ دقائق الانتظار عند العاشق ليست الدّقائق نفسها الّتي عند باقي البشر!!

- وبِمَ تختلف؟! (قالت ذلك وهي تُناكفه بدلال!!)

- دقائق العشّاق هي دقائق المجانين ، كلّ دقيقةٍ بيوم . . . ولهذا مرّتْ عليّ سبعة أيّام قبل أن أظفر بهذا الوجه الملائكيّ!!

خفضتْ رأسها ، تُداري خجلها . . . . فاستغلّ هو ذلك وتابع :

- نجلسُ هنا ، أم نذهب إلى الكافتيريا؟!

- هنا أفضل ؛ الكافتيريا تضجّ بالصّراخ!!

- صدقتِ . . .

أشارَ لها بالجلوس ، وحينما استقرّا على المِقعد ، مدّ يده إليها بالوردة الجوريّة الحمراء . . . قالتْ وهي تذوب بالخجل ، وتطفح بالعجب :

- أهذه لي؟!

- بلى . . . ومن غيرُك يستحقّها ؛ أهديك الوردَ وأنتِ الوردُ . . . ومن خدّيكِ نضارتُهُ . . . عجبًا للوردة تُهدَى الوردةَ . . .

(تُطرِقُ أكثر ، فيتابع مأخوذًا) :

- خُذي وجعي في وردة . . . الوردة أوجاع العاشقين ، نزيف دمائهم ، لا أذكر من قال إنّ عاشقًا سقط مُضرّجًا بدمائه تحت عريشةٍ من الورد فاكتستْ باللّون الأحمر منذ ذلك اليوم . . . قبل العُشّاقِ كانت الورود بلا لون . . . بعدهم صارت تصطبغ بكلّ ما يأخذ الأبصار والبصائر . . .

- الوردةُ الّتي تَهَبُكَ العِطر في حالة الرّضى هي ذاتُها الّتي تُدميكَ في حالة الغَضب .

- لكِ عليّ ألا أُغضبكِ أبدًا حتّى أفوزَ بالعِطر .

- تُجيد الحديث!! (قالت ذلك وفي كلماتها بعض استغراب شفيف) .

- أجدتهُ بعد أن التقت عينايَ في يوم الهوى عينيكِ . . . حروفي من غير هاتين العينين تائهة ، لا تحمل أيّ معنى ، تبحث عمّن يُعيد ترتيبها من جديد لكي تكون ذات قيمة . . . أنتِ صنعتِ من حروفي

المبعثرة كلمات ، ومن الكلمات جنونًا يسمّيه الجاهلون قصائد . . .!!

- أنتَ تُخجلني بهذا الكلام . . . أراك تُبالغ فيما تقول . . .

- آه لو كنتُ أستطيع ترتيب المشاهد . . . لقائي بك أعاد إلى الطّبيعة ربيعَها ، لكأنّي أبحثُ عن هذا اللقاء لكي يستعيد العالَم توازنه ، إنّما أنا عاجز . . . قلبي شجرة حَوْر عتيقة ، كلّما هبّت رياح العشق تمايلتْ حتّى كادت تسقط . . .

- أنا سعيدةٌ بما أسمع . . . ولكنْ . . . (تصمت قليلاً) . . .

- ولكنْ . . . ولكنْ ماذا؟! (يُقاطِعها)!!

- لم تعرفْني ولم أعرفك!! صحيح؟!

- غير صحيح .

- غير صحيح!!

- بلى . . . أعرفك . . . لأنّ روحي التقتْ روحك ، ألا يكفي التقاءُ الأرواح ليكون مادّة للتّعارف . . . ما تآلفتْ عليه الأرواح يبقى مُتّصلاً حتّى بعد الموت ، أمّا ما تناكرتْ بسببٍ منه فينفصل ولو طالت الحياة إلى الأبد ، فما من سبيل إلى التّلاقي . الأشعّة المتوازية تذهب إلى اللانهاية ولا تتقاطع!! الخلود للأرواح لا للأجساد ؛ فالطّين غير السّماء!!

- هل تسمح بأن تدعني من حديث الأرواح الّذي تُجيده!!

- . . . . .!!!

- لا أريد منكَ أن تُدخلني في دوّامة . . . أريد أن أعرف . . . أعرف فحسب!!

- ماذا تريدين أن تعرفي؟!

- أشياء كثيرة . . . في ذهني عشرات الأسئلة!!

– اممممم . . . سَلِي . . .

– لا أعرف غير اسمك . . .

– تحت ظلّ زيتونة ولدتُ ، وعلى دالية العنب تعربشت ، وعلى شجر اللزّاب حفرتُ أولى كلماتي ، وفي ساقية الماء عند وادي الحور سبحت . . .!!

– تسألني أم أسألك!!!

– نعم . . . نعم . . . والدي مُزارعٌ ترك قريتنا بعد أن انتهى من صيد وحوشها جميعًا ، وسكنَ هنا ، في هذه المدينة الصّاخبة!!

– وما اسم قريتكم؟!

– أمّ الكروم!!

– لم أسمع بها في حياتي!!

– هي في عِداد المنسيّات وكثيرٌ ما هُنّ ، نحن لا نعرف من أوطاننا إلاّ ما استوطنَ فينا بالولادة أو العمل أو الموت . ليتنا نعرف عن الأردنّ أكثر .

– أوافقك . . . عرّفني بها إذًا .

– أبي تركها مُرغمًا . . . كان يحبّها ويحبّ لياليها ، بعد موت أختي الكبرى صارتْ القرية تعني له الموت نفسه ، أراد أن يهرب منه فجاء إلى هنا!!

– وهل لك أختٌ ماتت!!

– بلى . . . سُميّة . . . اسمُها سميّة . . . أعني كان اسمَها سميّة ؛ الموتى يأخذون أسماءهم معهم ، لم تعد كذلك بعد أن اصطحبها الموت في رحلته الأبديّة!!

– منذ متى ماتت؟!

– منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا . (قال ذلك وهو يتنهّد تنهيدةً طويلةً)

– تتحدّث عنها بلوعة كأنّما ماتت من عهدٍ قريب!!

– بالنّسبة لي لم تمت!!

– ماذا تعني؟!

– أراها في كلّ شيءٍ . . . تزورني أحيانًا . . . غيرَ أنّها تخرج أكثر الأحيان من قبرها باكيةً . . .

– تخرج من قبرها؟! تُخيفني أم تُحاول أن تُبقي ذكراها حاضرةً . . .!! أم أنّك تُعاود اللعب بالكلمات .

– عندي مشكلةٌ فيما أظنّ أنّني أراه ، مثلاً أعني ما أقول حين أقول : إنّني أراها تخرج من قبرها وهي تستصرخني . . . أسمعها بجلاءٍ تهتف بي : لماذا تركْتني وحيدةً وغادرتَني!! أذوبُ خوفًا وخجلاً حينها ، وأحسّ أنّنا نحن الموتى ، وهم الأحياء . . . أشعر أنّنا نعالِجُ الموت في هذا الهباء الّذي نعيشه!!

– لنا من حياتنا ما لم يُسرَق منها بعدُ!!

– أنت ما تبقّى لي من هذه الحياة . . . أنتِ ما لم يُسرَق منها!!

– حدّثْني أكثر عن عائلتك . . .!!

***

هبطت الطّيور أعشاشها في آخر اللّيل ، قرأ ما تبقّى من (مجنون إلزا) لأراغون ، ونامَ مرتاح الضّمير . . . اصطادتْه الأحلام من جديد ، هذه المرّة اختارته ضحيّةً كعاشق لا كفقيد ، الرّاحِلون يصطفّون في مشهدٍ واحد ، يلقون تحيّةً أخيرة ، ويمضون في طريق كان من الممكن أن نقطعها دونهم ، ولكنّ الطّريق ما هي إلاّ طبقةٌ متحرّكة تنزلقُ بمن تشاء

إلى الضّفّة الأخرى ، بعضُنا ظلّ على الجسر ، وآخرون عبروا . . . العابرون في تلك اللّيلة رأيتُهم وهم يُتابِعون سيرهم بالاتّجاه القصيّ ويذوبون في المدى البعيد إلى أن اختفوا تمامًا ، وصحوتُ أنا على نفسي وحيدًا إلاّ من ذاكرتي . . . نظرتُ حولي لأراها فلم تخُنّي عيناي ، كانت هي ؛ حبيبتي الّتي ألغتِ المسافة بين وحدتي وجنوني ، وقاسمتْني ما ظلّ معي من هموم بعد أن ذهب بعضُها بأكثري .

(١٧)
الرّصاصات قبل الكَلِمات

كانت حرب الأمّة في وجه قوى الشّرّ قد نشبت . العالَم المتحضّر يفهم الحضارة على أنّها بطشٌ واستعلاء . وأمّ الكروم – ككلّ القرى – كانت تضجّ فيها الحكايات حول صورة الزّعيم البطل الّذي يستطيع أن يواجه جيوشَ ثلاثين دولةً مُدجّجةً بالسّلاح دون أن يُهزَم . . . كانت المدن والقُرى والأرياف والبوادي تنتظر ما سوف تُسفر عنه الأيّام ، بعد أن حشدتْ قوى الشّرّ كلّ ما تستطيع من الشّياطين من أجل أن تواجه الملاك الوحيد الّذي تبقّى على وجه الأرض ؛ الملاك الّذي استطاع بخفّة روحه أن يرتسمَ وجهُه البهيّ على سطح القمر ، وها هو ما زال يُناضِل عن الطّهارة الّتي تكاد تمّحي في وجه أولئك الفَسَقة الّذين يريدون بقوّتهم الباغية ، وأسلحتهم الفتّاكة ، وأفكارهم العفنة أن يملؤوا الأرض فسادًا ، ويزرعوها بالأوبئة!!

إنّه عالَمُ القوّة ، ينحازُ النّاس بسهولةٍ إلى القويّ ، وربّما يُقدّسونه ، أمّا الضّعيف فكلّ النّاس تحمل سكاكينها لتطعنه الطّعنة الأولى ، وحين يخرّ على الأرض صريعًا تُشارِكَ في إنهاء مأساته البائسة . حتّى هو يتشفّى بنفسه وهو يُذبَح ؛ إنّه لا يستحقّ الحياة ما دامت القوّة لم تكنْ إلى جانبه يومًا . صرخَ أحد الّذين يملكون سِرّ الكتاب الأقدس في

الّذين يلوّحون بأيديهم يُوفِضون إلى البطل المُطلق : (لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانُوا هُمُ الغالِبينَ) .

تتحوّل القطّة الأليفة إلى نَمِرةٍ جامحة إذا حُشرت في الزّاوية ، واستفزّها الموقف . على هذه الشّاكلة بدتْ أمّ الكروم .

في نهايات الأسبوع كان أبو واثق يُغلِق متجره الّذي فتحه في المدينة بعد أن غادر القرية ليعتاش منه ، ويُنفِق على عياله ، ويتحمّل هلوسات ابنه الأكبر . . . كان يبيع في متجره كثيرًا من أنواع الأسلحة ، استطاع أن يحصل على ترخيص لبيع المُسدّسات ، والبنادق ؛ والخرادق ، والخراطيش ، وغيرها . . . أمّا الذّخيرة فكانت تتوافر لديه بكامل أحجامها وأنواعها واستخداماتها ، يبسطها خلف الزّجاج الّذي يحتلّ واجهة المحلّ ، تعرض نفسها للغادين والرّائحين . . . كان أبو واثق لا يُصدّق متى يحلّ عصر يوم الخميس ، يُنزِل جارور المحلّ المعدنيّ ، ويُحكِم إغلاق أقفاله ، ويُهرع إلى القرية ، حيثُ تبدأ ليالي السّهر عند الفلاّحين ، وهم يُناقِشون هذا الهجوم البربريّ على الأمّة ، ويتوعدّون – وهم يتّكئون على مِخدّات الخيش المهترئة – الغاصبين بالويل والثّبور ، ويهدّدون الخَوَنةَ والعُملاءَ بالجحيم المُسعّرة . . . نَفَثَ أحدُ الجالسين عن يمينه دُخان سيجارةٍ ذات نَفَسٍ عميق في وجهه ، وراح يتلمّظُ منتظرًا دوره في الصّياح ؛ الصّياح الّذي يبدأ ولا ينتهي . . . ألم يكنْ أبو واثق يجد أحدًا ليناقشه في هذه الأمور الجليلة في المدينة الّتي لا تنام ، فراح يُصدّع رأسه ورؤوس الآخرين بهذه النّقاشات في ليالي أمّ الكروم؟!!

لم تكن الجامعات بمنأى عن هذا الحراك الّذي ملأ كلّ مكان ، ووصلت أمواجه إلى كلّ موضع . . . في (سكوير السي) حيثُ يتجمّع العدد الأكبر لطلبة كلّيّة العلوم ، وجد واثق نفسه تتشكّل على إيقاعٍ

جديد لم يألفه من قبل . . . ورأى أنّ مستوىً بديعًا من حياته يتبلور حول انطلاق الذّات من سجونها العميقة . . .

تقاطَر الطّلبة البعثيّون والشّيوعيّون والإسلاميّون إلى السّاحة الّتي تتمدّد بين ذراعَي كلّيّة العلوم ، وراحت هُتافاتُهم تتعالَى من كلّ جانب . كانت المنطقة تغلي عن بَكرة أبيها ، وكانت النّفوس كأنّما رُكّبتْ في أعماقها مراجل من غضب ، تفور عن قدورها ، وتفيض عن جوانبها . . . وهو الخجول الحييّ تحوّل فجأة إلى أسدٍ هصور ؛ دخل المعترك كأحد عرّابيه ، وعتّقه كأحد صانعي مُفرَداته . . .

على الأطراف انتشرتْ صبايا ببناطيل الجينز ، طوّقتْ أعناقهنّ شالاتٌ حمراء ، وانتظمَ بعضهنّ في حلقةِ نصفِ دائريّة ، ورُحنَ يتمايلْنَ على إيقاع أهازيج ثوريّة قادمة من الزَّمن الجَميل ؛ حيثُ الانتصار للوطن لم يتلوّث بأيّ مصلحة أو أيدلوجيّة فاسِدة ، كانت الهَبّة عفويّة تُدافع عن الوطن المغروس في قلب كلّ حرّ . كانت الصّبايا يُغنّينَ بصوت عالٍ ويلوّحنَ بمناديل حمراء وزرقاء مِمّا صنع حالةً من الحماسة زادتْ من تقاطُر النّاس وتهافتهم إلى السّاحة .

التقى بلؤيّ قبل بضعة أمتار من هُويّهما إلى موضع الاعتِصام ، وانضمّا إلى الجموع الحاشدة ، والتفّا على الفكرة كما تلتفّ الأفعى على غصن شجرةٍ رطيب ، واندسّا فيها كما تندسّ شوكةٌ في كُتلة صوف . . . بدأت الهُتافات الحماسيّة تعبث بهدوئهما ، فاختارا أن يكونا فيها حطبًا يحترق لكي يزيد من شغف اللّهيب المتطاير في الأجواء . بعد فترةٍ وجيزة سيصبحان مع آخرين من أولئك الّذين يبتكرون أساليب جديدة من أجل ألاّ يخمد هذا اللّهيب ، وألاّ ينذوي . . .

صـاحـا مع الصّـائحين ، وناديا مع المنادين ، وصـرخـا ملء حَنجرتيهما :

لو سـال الـدّمّ بشـلاّل
لو حـبـسـوا منّا الأبطالْ
مـا راح نْبـيـع الأوْطانْ
ونِحْنا نِعْـشَقِ القَـتـالْ
ونِحْنا نِعْـشَقِ القِـتـالْ

ومع التّوشيحة الأخيرة كانت أجساد المتجمهرين تتمايل وهي تهتف ملء طاقتها ، بقوّة غريبة ، لا يعرف الواقع لها تفسيرًا . وكان الجَمع خليطًا من كلّ شيء ، والتقى فيه الثّائرون من كلّ لونٍ .

في غمرة الهتافات الّتي ارتجّت لها جنبات الجامعة ، وانخلعتْ لها الأفئدة ، تقدّمَ الصّفوف دون دعوةٍ من أحد ، ووقف في المنتصف ، وارتقى دَرَجَ النّافورة الصّغيرة الّتي من حولها تشكّلتْ صفوف المتظاهرين ، وشمخَ هنالك في المُرتَقى ، وشعر بقوّة غامضةٍ تحفّ به ، وبغضبةٍ عارمةٍ تعبره . . . حينما صار أعلى من الجمهور ، مدّ بصره في الجموعٍ ، فتراءتْ له الذّئاب الّتي وقف أمامها أبوه بكامل جَبَروته ، أحسّ أنّه يُعيد سيرة أبيه الأولى في هذه اللحظة ، أخذتْه الحميّة وطارت به في الآفاق ، وحلّقت به في الأجواء ، وصنعتْ له جناحَيْن من عنفوانٍ راعف . . . أجال نظراته كأنّما يملأ عينيه من المكان والنّاس ، ثمّ ابتلع غُصَصهً الطّويلة الّتي حفرت أخاديد في حلقه منذ لحظة الصّخرة الّتي كان يُوقِفه جدُّه عندها ؛ ليعتليا هو وأخته سميّة ظَهرَ الحِصان . بدا قويًّا شامخًا مَهيبًا ، وتقحّمتْه العيون من كلّ صوب ، وشعر هو بالعيون تتلقّفه فازدادت حماستُه ، وبدأ صوته يدوّي في

المكان ، وراح يهتف ، والنّاس تردّد من ورائه :

خَـــايِنْ يَلّي يْمُـــدَّ أديْهْ
ويْصــافِحْ عَــدُوَّ الشَّــعْبْ
غَــضَبَ اللهْ يِنْزِلْ عَليْـــهْ
مــا لُهْ مِنّا غِـيْـــرِ الحَــرْبْ

كانت الجامعة تُصغي لإيقاع هذا الفتى المُذهِل ، الّذي بدأ يرسم على جدرانها لغةً جديدةً خاصّةً به ، لغةً تختلف عن الّتي اعتاد عليها النّاس ، لغةً هفت إليها القلوب قبل الأسماع ، وتلقّفتها الأفئدة قبل العقول ، وذابت فيها الأرواح قبل الأجساد . . . إنّها لغةٌ تفتح سجن النّفس ، لتسمح لها بالتّحليق . . . اللغة الّتي يعرف النّاس متى سمعوها أنّها تعنيهم كما لو كانت جزءاً من خلايا دمائهم ، وبعضًا من مسامات جلدهم ، وشيئًا من أنفاس هوائهم . . .

إذًا ها هو نَجْمُهُ يصعد من حيثُ لا يدري ، ومنارته تضيء للسّارين من حيثُ ظنّ أنّه ليس أكثر من جذوةٍ خامدة ، عاشتْ مهملةً زمن سميّة ، وازدادت إهمالاً بعد موتها . . .

التفتَ في غمرة انفلات حنجرته من مكانها إلى الطّرف الأيمن من الجموع ، فرآها بكامل سحرها ، سحرها الّذي ينجذب فؤاده إليه ولو من ألف ميل . . . وعيناها ؛ آه من عينيها الذّابحتَين حينَ تُحكِمان الإحاطة به والاستئثار بكبريائه ، وهي يستطيع أن يشمّ عبير وجودها ولو كانت في الفضاء الخارجيّ . . . جمد الصّوت في جوفه للحظات حينَ رآها تنظر إليه بشغف ، ثمّ استعادَه هادِرًا ، وابتسم في أعماقه دون أن ترتسم البسمة على شفتيه ، وراح يهتف من جديد ، وقد امتلأت روحه بدفقة عشقٍ حارّة :

نفْـــديْكْ بِالنَّفسْ والرُّوْحْ
إِحْـنـا إِنْـتَ وْإِنْـتَ إِحْـنَـا
رَاح نْـداويْلَـكْ لْجْـــــرُوْحْ
ومَنْبِـــيْـــعَكَ يا وَطَنَّا

وتردّد الجموع الجائعة إلى الثّورة والحرّيّة ، خلف هذا الشّابّ الّذي دخل عـالَمهم ، كـمـا لو كـان طائرَ الوعـد المُنتَظر منذ آلاف السّنين : (ومَنْبِيْعَكْ يا وَطَنَّا . . . ومَنْبِيْعَكْ يا وَطَنَّا)

انفضّ الجمع ، وبقيتْ واقِفةً في مكانها كأنّها لم تشبع من النّظر إليه ، أو كأنّه تراءى لها على غير ما توقّعت منه أن ترى . . . تقدّم نحوها وهو يكاد ينفلت من نفسه فرحًا وسرورًا :

– كيف حالكِ؟!

– بأحسن حال . (ردّت وهي تنظر إليه بعينين تبحثان في وجهه عن شيءٍ ما)

– وما الّذي جاء بكِ؟! ظننتُ أنّ هذه الأمور لا تروق لكِ!!

– أنتَ الّذي جئتَ بي إلى هنا . . . سمعتُ صوتكَ من بعيد ، فناداني إليك . . . أتعرف؟!

– ماذا؟!

– صوتُكَ كان يستحوذ عليّ . . . له إيقاعٌ خاصٌّ في قلبي . . .!!

– صحيح؟! (يُرجع جسده إلى الوراء وهو يضحك مسرورًا)

– صحيح!! لم أكن أعرف أنّك تُجيد النّفاذ إلى القلوب!!

– أنا أم أنتِ؟! مَنْ يفعل ذلك بالآخر؟!

– أنتَ أبقى ؛ حجرة القلب الّتي دخلتَها ، أغلقتْ عليكَ بابَها ولم تعدْ تفتح لسواك .

- أنتِ تسجينني داخل قلبك ؛ إنّه الاستحواذ المُطلَق إذًا؟!

- بل هو الوفاء المُطلَق ؛ لقد ملأتَ عليّ كلّ شيءٍ فلم أعد أرى غيرَكَ!!

- عيونُ المحبّ عمياء في غير هَيولا المحبوب!! قرأتُ ذلك لصوفيٍّ مجنون .

- أتعرف؟!

- ماذا أيضًا؟!

- أنتَ رائع . . . أحببتُكَ اليوم أكثر وأنتَ تهتف . . . هذه الرّجولة الطّاغية فيك تملؤني بكَ فخرًا .

- ألهذا الحدّ . . . تأكّدي أنني إذًا لن أُفوّت مُظاهرةً بعد اليوم . . . إنْ كان ذلك يقرّبني منك . . .

- ولكنْ . . . قُلْ لي . . . هذه الأناشيد والأشعار الّتي هتفتَ بها ، أهي لك أم أنّك تحفظها . . .؟!

- أحفظُها؟!! لا ، لا . . . هي لي . . . ولكنّها بضع كلمات سريعة ، ارتجلْتُها ارتجالاً . . .

- لكنّها هزّتنا جميعًا ، بل إنّني شعرتُ أن جدران الكلّيّة كانت تهتف معك بها ، وكانت تتمايل على إيقاع صوتك الشّجيّ . . .

- صوتي كان شجيًّا؟!

- بلى . وكانت الرّجولة تتجسّد في تضاعيفه . . .

مشيا معًا إلى الكافتيريا ، شعرتْ أنّهما سارا كموجتين من ترنيمة عشقٍ قديمة لفرح مُؤجّل . . . أمّا هو فشعر أنّه يملك الدّنيا إلى جانبها ، وأنّ إنسانًا جديدًا يُصنع في داخله ، تعيد هي ترتيب عوالمه من جديد . . .

من أين هبطت إليه في ذلك الصّباح الشّتويّ البارد؟! كيفَ يكونُ الاحتراقُ في قسوة البرد الّذي يحزّ العظام؟! وكيفَ يُشرِقُ مَنْ دلَتْه الظّلمات عليه ، فغدا بها إنسانًا؟!! وكيفَ يمكن للمحروم أن يقدّر نعمة الله إذا كان لا يعرف إلى ذلك سبيلاً؟! وكيف للعاجز أن يرفع يديه بالحمد إذا لم يكتشف بعدُ هاتين اليدين؟!

***

لم تهدأ ليالي واثق بعد ذلك ، التقطتْه قلوب التّائقين إلى شيء يُدعَى (الحرّيّة) ، كان صوته قادِمًا من سرّها الّذي لا تمنحه إلاّ لأوليائها . دعاه لؤيّ إلى بيته ، دخل البيت على أطراف مستقبله ، ومن خلفه كانت حديقة ماضيه تدفعه برائحة الكرامة .

في الغرفة ، فوجئ بجمع من الشّباب يفوق العشرة يملؤون صدرها . سلّم عليهم ، وجلس على كرسّي الدّهشة . وقف لؤيّ مثل رفٍّ عتيق ، وبدأ يعرّف :

- خالد ، فيزياء سنة رابعة .
- صلاح ، اقتصاد سنة ثالثة .
- ضياء ، هندسة مدنيّة ، ثانية .
- سعيد ، لغة عربيّة ، ثانية .
- نادر ، حقوق ، أولى . . . .

ثمّ بعد أن أنهى التّعريف ، أشار بيده إليه ، ووقف إلى جانبه ، وهو يقول :

طبعًا تعرفون جميعًا ، واثق ، سنة ثانية كيمياء . لا بدّ أنّكم جميعًا طربْتم لأشعاره ، وهو يصدح بها في المظاهرة الأخيرة!!

دارتْ كؤوس الشّاي على الجميع ، قبل أن يتنحنح لؤيّ ، ويُعدّل

من جِلسته ، ليُشعرهم بأهمّيّة ما سيقول :

– اجتمعنا ، من أجل أن نفكّر في كيفيّة تنظيم مسيراتنا ومظاهراتنا القادِمة . يجب أن لا نسمح للأمور أن تمرّ هكذا . . . .

– إدارة الجامعة لا تأبه لشيء ، كلّ ما يهمّها أن تجمع الأقساط من الطّلبة (قال ذلك ضِياء) .

– من حقّنا أن نعبّر عن آرائنا فيما يجري حولنا . . . العالَم يغلي ، والأمّة مستهدفةٌ في خيراتها ونحن نتفرّج !!! (قال ذلك نادر) .

– إنّه استعمار لمقدّرات الأمّة بثوبٍ جديد ، ثوب يدّعي الدّيمقراطيّة والحرّيّة ، وهو يقتلهما . . . . (قال ذلك صلاح) . . .

– إنّها ديمقراطيّة ذات أنياب . . . (قال ذلك سعيد ، وضحك محاولاً تلطيف الأجواء السّاخنة الّتي اتّسم بها الحِوار)

– اسمعوا (قال واثق) . . . شبعنا من كثرة الكلام ، الآن جاء دور الفِعل . . . نريد أن نصنع شيئًا على أرض الواقع . . .

– هاتِ يا أبو العُرّيف . . . ورّينا شو إللي عِندك (قال ذلك لؤيّ مُمازِحًا)

– الأحد القادم يجب أن نُشعِل الجامعة . . . ونحرقها . . .

– نحرقها . . . !!! (ردّ عليه لؤيّ بمزيدٍ من الاستغراب)

– يعني بالمعنى المجازي . . . المعنى الحقيقيّ لم يأتِ بعدُ . . . ولكنْ مَنْ يدري ، قد يكون أمرًا مطروحًا . . .

– بَلّشْتِ تْخوّفنا يا زلمة . . . هدفنا الإصلاح مش التّخريب . . . هدّي بالك شوي!!

– يا جماعة ركّزوا معي في الخطوة القادمة . . . يجب أن ننظّم النّشاط القادم بشكلٍ تامّ . . .

– اطرح الفكرة . . . نناقشها . . . ثمّ نخطّط لها . . . ثمّ ننفّذها . . .

– تمام . . . تمام . . . أوّلاً : بَدْنيّاها مسيرة مش اعتصام . . . تبدأ من (سكوير السّيّ) وتنتهي عند (برج السّاعة) . . . ما رأيكم ؟!

– معقول . . . ردّوا جميعًا . . .

– نِحْكي أيّ ساعة . . . شو رايكم تبدأ السّاعة ١٢ الظّهر وتستمرّ نصّ ساعة لعند برج السّاعة بها الوقت بكون أكبر تجمّع للطّلاب . . . وهناك ممكن نحكي بعض الكلمات . . . ونلقي بعض الأشعار . . .

– حلو . . . بس أثناء المسيرة شو رايكو لازم نرفع بعض اليافطات . . .

– ممتاز . . . هسّا بدنا حدا يفكّر بالعبارات إللّي بدنا نكتبها على اليافطات . . .

– سعيد شو رايك إنتا تكتبها . . .

– على طول . . .

– بس زبّطها . . . بدنا إشي يولّع الدّنيا . . .

– بسيطة إذا بدكو بنكتبها بالأحمر تضامنًا مع أرواح الشّهداء إللّي بسقطوا كلّ يوم . . .

– ممتاز . . . ممتاز . . .

– ظلّت الهتافات . . . أثناء المسيرة . . . بدنا حنجرة قويّة . . . وهتافات أقوى . . .

– أنا . . . أنا . . . هاي عندي (قال ذلك واثق وهو يقفز في مكانه عدّة مرّات متحمّسًا)

– نسينا شغلة ؟؟!!

– لسّه . . . طبعًا في أشياء كثيرة ما حكينا فيها . . .

- مثل إيش؟!
- الكلمات والأشعار إلّلي عند برج السّاعة مين يحكيها ؟!
- شو رايكو تْخلّوا واحد من دكاترة الجامعة يشاركنا فيها . . .
- فيه حدا منهم بِقبَلْ ؟!!!
- شو قصدك؟!!
- ولا شي!!
- طيّب كيف بدنا نِعلِن عن الموضوع . . .
- بسيطة ورقة A3 مطبوع عليها الإعلان وتِتْصوّر ٢٠٠ نسخة وتِتْوزّع بكلّ الجامعة . . . بسْ شو رح نكتب فيها . . .
- هاتوا . . . هاتوا ورقة وقلم . . . اكتب يا سعيد : تدعوكم القوى الطّلابيّة الحرّة لمسيرة حاشدة نصرةً لأمّتنا العربيّة ضدّ العدوان الأمريكيّ الإسرائيليّ . . . ووقوفًا إلى جانب الضّحايا والأشلاء .
- مشاركتكم مقاومةٌ للطّغيان العالَمي ، والاستِكبار الدّولي . . .
- نسينا شغلة . . .؟!!
- أَيْوَهْ .
- شو؟!
- إذا تعرّضلنا الأمن خلال المسيرة شو رَحْ نِعمل . . .
- ما رح يتعرّضونا . . .
- يا أخي افرض . . . كلّ شي ممكن . . .
- أنا بقترح أوّل ما يصير تدخّل من جانبهم نرفع صوتنا : سلميّة . . . سلميّة . . . وبالنّسبة إلنا ما نتعرّضلهم . . . خلّونا سلميّين لآخر لحظة . . .
- معقول . . .

– لأ . . . مش معقول . . . (قال ذلك لؤيّ) . . . افرض صار فيها ضرب نظلّ ساكتين . . . هاظا اسمه هبل . . .

– يا شباب . . . ليش تفترضوا الأسوا . . . نِحْنا بلد ما فيه مِنْ ها الحكي . . .

– لأ . . . فيه . . .

– لعاد كلّ واحد يخبّي بقميصه (مِنشاكو) . . .

– لأ يا شباب . . . لأ . . . هيك بتخرب الأمور . . . بدنا نعبّر عن غضبنا لكن بدون ما يِتأذّى حَد . . .

– يا زلمة إحنا بنحكي إذا هُمّوا بَدُوا . . .

– يا شباب . . . مين هُمّو . . . مَهُمّو مِنّا وفينا . . . خلّيها سلميّة ونِتوكّل على الله . . .

– ماشي . . . ماشي . . .

كان يوم الأحد يومًا مشهودًا . . . كلّ شيءٍ نُفِّذ بدقّة ، تدافعت أمواج الطّلبة من سكوير السّي باتّجاه برج السّاعة كأنّها السّيل الهادر ، ومضت كأنّها الحتف القادم ، وتعالت الهتافات ترجّ لها قِباب السّماء ، ودخلتْ في النّسيج الطّلابيّ كلّ الأطياف ، ومخرت عُباب المسافة الفاصلة بين المكانين كلّ الأمواج ، وصدحت الحناجر بهُتافات (واثق) كأنّها جائعةٌ إليها منذ آلاف السّنين . . . كانت الهُتافات تزيد من حماسة السّائلين في النّهر الطّلابيّ فتجعلهم صخرة الوادي إذا ما زوحمت . . . يومَها ، ويومها فقط التفتت أعناق الأجهزة الأمنيّة إلى هذا الشّاب ذي الجسد الضّئيل وهو يتقدّم تلك المسيرة . . . وفتحت كلّ العيون محاجرها لتبتلع في مخيّلتها هذا السّاحر الّذي يقود كلّ هذه الأوكسترا بكلّ هذا التّناغم الطّاغي . . .

كانت (مُنى) ترتقي في درجات السّماء ، وهي ترى حبيبها بهذا العنفوان الملتهب ، يومها عرفت أنّها تحبّ فيه بطولةً كامنة ، ورجولةً مُعتّقة . . . ومع أنّ قلبها كان يقفز بين أضلاعها خوفًا ومهابةً في كلّ جملةٍ جديدة يهتف بها إلاّ أنّه سرعان ما يتحوّل إلى قفزٍ من نوعٍ آخر . . . إنّه الحبّ . . . نعم . . . لقد بدأت تعشق هذا الفتى الجبليّ المُدهِش . . .

كعادتهما بعد كلّ مظاهرة أو مسيرةٍ التقيا . . . كانت عيناها تكتشفان فيه غورًا جديدًا لم تصله من قبل . . . ظلّتْ تعلّق على أهدابه تساؤلاتها عن السرّ الّذي يقرّبها منه ، ويداهِمُ مناطقها المحرّمة ، ويعبثُ بكلّ الرَّغَبات الجامحة فيها ، من أيّ طينةٍ عُجِنَ هذا المهووس بكلّ شيء؟!!

- كانت هتافاتك أجمل منك!!

- حقًا (وهو يبتسم) . . .!!

- حقًا .

- لا شيء مع ما يجري . . .

- بل شيء . . . . كثيرون هم الّذين يجلسون في صفّ المتفرّجين . . . أنتم على الأقل صنعتم شيئًا . . . عبّرتُم . . . لم تظلّوا حِجارةً صمّاء . . .

- كلّ ما نفعله لا يُساوي قطرةَ دم واحدة تسيل من طفلةٍ في غزّة . . . وحده الدّم أصدق القائلين في عالَمٍ يتفنّن بذبح الأبرياء . . .

- صحيح (تتنهّد) . . . لهم الله . . .

- الله يكون لهم حين نكون نحن لهم . . . انظري إلى ما يجري حولنا . . . تقتيلٌ وتشريدٌ وذبحٌ من الوريد إلى الوريد . . . ويريدون مِنّا

بعد ذلك أن نظلّ صامتين . . .!!!!!

– والله شيء يقطّع القلب . . .

– عدالة أمريكا تصحو حين يؤسر جنديّ صهيونيٌّ واحدٌ ، تبدأ تتشدّق بالحديث عن حقوق الإنسان . . . وتنسى كيف تخنق هذه الحقوق وهي تدعم إسرائيل بالأسلحة الفتّاكة الّتي تُبيد البشر والشّجر والحجر في فلسطين والعراق . . .

– الأقوياء يصنعون مفاهيمهم الخاصّة بالعدالة . . . العدالة تُحابي الأقوياء وتخذل الضّعفاء . . . أتساءل أين حُكّامنا مِمّا يجري . . .!!

– حبيبتي . . . القاتل واحدٌ . . . والسّفّاح هو . . هو . . . سواءٌ أكان عربيًّا أم غير عربيّ . . . نحن أيضًا شركاء في الجريمة!!

– كيف؟!!!

– حين نقتلهم بتخاذلنا . . .!!!

– ولكنّنا نحاول!!

– نحن لا شيء . . . أعطني بندقيّة واحشُها بالرّصاص وخُذ كلّ ما قرأتُ وحفظتُ ودرستُ . . . الإنشاء لا يصنع نصرًا .

– بل يصنع . . . لماذا تقسو على نفسك . . . ألم تصنع هذه الكلمات – الّتي تسمّيها إنشاءً – النّصر حينَ استعملها طارق بن زياد في مكانها الصّحيح . . .؟!

– لكنّه أعدّ الرّصاصات قبل الكلمات . . .

– لا . . . كانت الكلمات هي الأسبق ، ألم يقل : البحر من ورائكم والعدوّ من أمامكم . . . ثمّ انداح بعدها الطّوفان؟!

– بلى!

(١٨)
(كلُّ الدّروبِ أمامَنا مَسدودةٌ)

عيونُنا تقول أشياء كثيرة لا نقولها : في الغد الّذي نمضي إليه أريد أن أكون كُلّي لك ، أليسَ هذا تعريف العشق؟! لك بكامل أنوثتي وانهياري وجنوني ، كلّ ذرّة من جسدي ، كلّ بوصة ، كلّ حركة أو سكون هي لك . . أنا عرفتُ أنّني مريضةٌ بك منذ ذلك اليوم الّذي كان التقاء الأرواح فيه – من قبل انبعاث الخليقة والهبوط على الأرض – يقرّر ذوباني فيك واندماجي في عالَمكِ .

نامت ظِباء العشق في دمائها . . . وصحت طيور الهُيام على أغصان مشاعرها ، ارتجف قلبها لكلماته الّتي ظلّتْ تحطّ فراشات على الورود البيضاء في صباح ربيعيّ بارد ، بين أحضان جنينة تتعربش على سياجها الزّنابق . . . إنّ الحبّ لا يعترف إلاّ به ، يقدّم نفسه على أنّه الملاذ لكلّ التّائهين في طرقات الحياة المتشعّبة ، ويحمل المتألّمين إلى حدائق الأمل . . .

كلمة (حبيبتي) الّتي نطقتْ بها شفتاه – سهوًا أو قصدًا لم تعد تدري– في غمرة الحديث عن المظاهرات ، كانت مثل أوراق ياسمينة ناعمة تتناثر بين زخّات الرّصاص ، ومثل لفائف دحنونة حييّة تتهادَى بين وابلٍ من أمطار القذائف الحارقة . . . يجد الحبّ وسيلته في البقاء حيًّا حتّى ولو كان الموت يلفّ به من كلّ جانب . . . الحبّ يحبّ

الحياة ، ويلتصق بها كلّما نأت عنه ، ويظلّ رفيقَها المخلص إلى آخر قطرةٍ من دمِ العاشق المذبوح . . .!!

احتشدتْ جموعٌ غفيرةٌ لا تُرى أطرافُها أمّتِ المكان من حيثُ يدري ولا يدري . . . كانت وسائل الإعلام قد جيّشت النّاس ، وهي تنقل أخبار هطول الصّواريخ على الأحياء السّكنيّة في (بغداد) مرّة ، وفي (بيروت) ثانية ، وفي (غزّة) ثالثة ، وفي (الخليل) رابعة ، وفي (دِمشقَ) خامسة . . . تجد صواريخ الجيش الثلاثينيّ أهدافها بسهولة وهي تحصد أرواح البشر دون رحمة . . . حينَ تهدأ الصّواريخ في رحلاتها العابرة لبلاد العرب أوطاني من الشّام لبغدان ، تقف الحشود البشريّة من الأطفال اليتامى على قدمين من جوع تعاني الموت في كلّ يومٍ ، لكأنّ الموت قَدَر أطفالنا وحدهم دون غيرهم (هكذا هتف في نفسه) ، ألا يعرف الموت صديقًا له غير هؤلاء البؤساء؟!!

كنّا نعرف أنّه لا يمكن أن نسكت ، قال (واثق) ذلك لكلّ مَنْ عرفه خلال تلك المرحلة الحرجة من تاريخه وتاريخ وطنه ، كيفَ يُمكن أن أدفن مشاعري ، وأتجاوز مناظر الأشلاء وأنا أمشي على قدمين صحيحتين ، دون أن أهبهما لطفلةٍ فقدتْهما في قصفٍ عشوائيّ على مخيّم الشّاطئ في غزّة . . .

في المكان الّذي يبعد قليلاً عن برج السّاعة هذه المرّة . . . أينَ إذًا؟! عند النّافورة ؛ المركز الّذي يطوف النّاس حوله ، وتعلو عنده الأصوات ، وتتوالى أمامه الهُتافات . . . كان يومًا له ما بعده ، يومًا حماسيًا فائرًا ، فار فيه كلّ شيءٍ حتّى الدّم المُحرّم . . . انشغل كلّ ثوريٍّ يومها بإعداد ما سوف يلقيه على مسامع زملائه المُتَجمهرين . . . أكثرهم لم يكنْ قد أعدّ للأمر عُدّته ، ولكنّه انخرط في الثّلّة الّتي تحبّ

أن تُشارك في هذه السّوق المِنبريّة ، وحرصت على ألاّ تخرج خالية الوِفاض من المشهد . . .

كان (لينين) في مستوى السّنة الخامسة في الهندسة ، وإن كان قد مرّ على وجوده في الجامعة أكثر من سبع سنوات ، لم يلبس غير بنطال الجينز إيّاه طيلة السّنوات السّبع الّتي قضاها بين جنبات الجامعة ، ورافقتْه في أغلب الأحيان طاقيّته السّوداء يلفّ محيطها بشريطٍ أحمر ، كان شيوعيًّا صِرْفًا ، رأى فيه بعض زملائه وزميلاته منارةً هاديةً لجرأته الفائقة ، ومثلاً عاليًا لاندفاعاته الجنونيّة ، يومها أمسك بالسّماعة ذات البوق الحليبيّ والمِقبض الأحمر ، ووقف بدل توفيق زيّاد ليصرخ بأعلى صوته :

أَلْقُوا القُيودَ عَلى القُيودِ
فَالقَيْدُ أَوْهى مِنْ زُنودِي
يا طُغْمَةً أَسْقَيْتُها
كَأْسَ المَذَلَّة مِنْ قَصِيدِي
لا تَحْسَبِي زَرَدَ الحَديدِ
يَنالُ مِنْ هِمَمِ الأُسُودِ

والنّاس تُردّد من خلفه :

لا تَحْسَبِي زَرَدَ الحَديدِ
يَنالُ مِنْ هِمَمِ الأُسُودِ

كانت أوداجه تنتفخ وهو يرفع صوته بهذه الأبيات ، ويحمرّ وجهه ، ويسيل العرق سخينًا على خدّيه ، ثمّ ينزل من مكانه مزهوًا ، والهُتافات الصّارخة تتبعه ، والأمواج من النّاس تتمايل على إيقاع الشّعارات الثّوريّة .

لم تهدأ المنصّة في ذلك اليوم ؛ المِنصّة النّافورة ، صَعدها كذلك (شامان) فهتف حتّى بُحّت حنجرته ، ثمّ جاء من بعده (هَشّال) فوقف يومها بدل الجواهريّ ليصرخ :

ثارَ الشّبابُ وَمَنْ مِثْلُ الشّبابِ إذا
رِيعَ الحِمى ، وشُواظُ الغَيْرَةِ احْتَدَما
يَأْبَى دَمٌ عَرَبِيٌّ في عُروقِهِمُ
أَنْ يُصْبِحَ العَرَبِيُّ الحُرُّ مُهْتَضَما

ثمّ يُعيد البيت الأخير ، قبل أن تترنّم به الجموع من خلفه ، لينزل كراية عُلّقت على جبلٍ من الرّيح ، ثمّ لفّها الصّخر الهابطِ من السّفح إلى الوادي .

ثمّ أفلس الطّلاّب ، فصاروا يُردّدون ما ردّدوا سابقًا ، والنّافورة من خلفهم تتماوج على إيقاع أصواتهم الغاضبة . . . ثمّ حدثت إحدى الطّوامّ الكُبرى . . . لا أحد يدري بالضّبط من أين انطلقت الشّرارة ، ومن الّذي أشعل الفتيلة . بعضهم قال : إنّه خلافٌ نشب بين طالبٍ ينتسب إلى الحزب الشّيوعيّ ، وطالب ينتسب إلى الإخوان ، والخلاف على الشّعارات الّتي رُفعت ، كلّ يريد للجموع أن تردّد من خلفه ما يريده هو . . . قيل إنّ الأمر بدأ بالكلمات ، ثمّ تتطّور إلى اللّكمات ، ثمّ إلى الاتّهامات بالتّخوين والاندساس ، ثم . . . ثمّ ظهرت العصيّ الطّويلة ، ولا أحد يعرف كيف ظهرت هكذا فجأة ، ولا مصدرها الغامض . . . وليتها وقفت عند هذا الحدّ . . . ولكنّ الّذي لم يملك أحدٌ له تفسيرًا هو الطّوب الّذي بدأ يتطاير في الأجواء . . . نعم بدأت المعركة ، البلاطات الّتي اقتُلِعت من الأرض كانت يدُ الموت تختفي

تحتها، ملأ الصّياح أجواء المكان، وتدافع الجمهور كأنّه في حلبة صراع للثّيران، وتناطحت كلّ الرّؤوس، أمّا الفتيات فصار صراخهنّ يزيد من لهيب الموقعة، ويُشعل النّار المحتدمة أكثر، وتحوّل النّزاع إلى استعراضٍ للقُوى . . . وسقط جرحى راحت دماؤهم تسيل على وجوههم فتغطّيها، واندفع بعض المصابين خارج الحلبة نازِفًا يلحق به بعض أصدقائه محاولاً إسعافه، وضلّت بعض البلاطات والطّوب طريقها فكسّرت زجاج المبنى المُحيط بمركز النّافورة، وغلت النّفوس، وخضّها الغضب، وأعماها الصّراع فراحت تقذف بالزّجاج المكسور على رؤوس الحاضرين، وفي غضون أقلّ من نصف ساعة كان المشهد دمويًا بامتياز، وسقط بعض الطّلاّب على الأرض ينزفون ولم ترحمهم أقدام المتدافعين فوطئت في بطونهم، وتلوّت الأجساد الغضّة تحت هذه الأقدام . . . ولجأ بعض الطّلبة إلى الأبنية المجاورة، وبعضهم لم يغادر المكان، وصرت ترى اثنين يتناوبان على مِقعد مثبّت في الأرض فينتزعونه من الإسمنت ويقذفون به في وجوه الخصوم فتتهاوى الأجساد، ثمّ تسقط على الأرض تُعاني نزيفًا، أو تتلوّى من الألم، أو تذهب في غيبوبةٍ طويلة . . . كانت ساحة المعركة قد امتلأت بالكثير من الأسى الماثل في كلّ شيءٍ، وكان يومًا حزينًا بكلّ المقاييس . . . وبعد أقلّ من ساعة كانت قوّات مكافحة الشّغب قد حضرت، دخلت من الباب الرّئيسيّ للجامعة في فرق مدرّبة، ورابطت الآليّات العسكريّة والمدرّعات على أسوار الجامعة من الخارج، وأغلقت المداخل، وفرّقت ما تبقّى من الطّلاّب والطّالبات بالقنابل المسيلة للدّموع، وحدثت حالات اختناق كثيرة، ومن نجا من القتل أو الإصابة، داهمته غازات القنابل فارتمى على الأرض مثل ورقةٍ في مجرى نهرٍ ملتوٍ . . .

داهمت القوّات ما تبقّى من الطّلاّب ، ولاحقتْهم إلى مخابئهم في غرف المحاضرات ، ومنعطفات الكرادورات ، وزوايا الحمّامات ، واعتقلت يومها (٨٧) طالبًا ، وأودعوا مخفر المدينة الّذي فاض بهم عن بكرة أبيه ، ولم تكنْ (نظارته) مهيّأة لهذا العدد . . .

أفرج عن حوالي (٧٠) منهم في غضون يومين بعد تحقيقات بسيطة ، وبقي (١٧) طالبًا لمدّة أسبوعين في تحقيقات متواصلة ، وكان (واثق) أحدهم .

لم يترك أبوه - الّذي بدأ مرحلةً جديدة يخوضها مع ابنه - أحدًا ذا شأنٍ إلاّ زاره متوسِّطًا له : إنّ ابنه أرقّ وألطف من أن يُشارك في أعمالٍ شغبٍ مروّعة مثل هذه الّتي سمع عنها وحدثت في جامعته . . . إن ابنه يبكي إذا سمع صوتَ قِطّة تموء من الجوع فكيف له أن يخلع الكراسيّ من أماكنها ويُلقي بها في وجوه زملائه . . .؟!!

بعد أسبوعين أفرجَ عن مجموعة الـ (١٧) ، وقرّرت الجامعة أن تفصل عشرة منهم بعد أن خضعوا للجان تحقيق جامعيّة ، وتبيّن ضلوعهم في إشعال أحداث الشّغب المشؤومة ، وكان (واثق) من السّبعة الّذين لم تطلهم عقوبةٌ بعد خروجه من المعتقل . في اليوم الّذي أفرج عنه ، وقبل أن يحدث ذلك ، نادى مدير المخفر أباه ، ودخل عليه ، قال له يومها :

- هَيني يا بو واثق بحذرك ، وبحذّر ابنك . . . هاي المرّة مرّت بسلام ، في المرّة الجاي رح تكون العواقب وخيمة . . . ولا تلوم إلاّ حالك . . .

- وتبيّن إنّو ابني شارك في الأحداث حقًّا . . .؟!!

- لا . . . ولكن انجرّ مع المنجرّين . . . شُو دَخَلُو بالشّيوعيّين أو

بالإخوان المسلمين . . . ليش إنتو بِدّوروا على وجع الرّاس . . . أنا مش فاهم . . .!!

– أنا متأكّد إنّو ابني ما ساوى شي . . .

– والله أهلين . . . أنا عارف إنو ابنك ما ساوى إشي . . . لو كان ساوى أنا بخلّيه يِطلع من السّجن . . .؟!

– إنتو فوق منتو ساجنينه وهوّه . . .

– البلد مش متحمّله وعلى كفّ عفريت . . . ضُب ابنك أحسن إلك وإلو .

– شو قصدك . . . بتهدّدني يعني . . .

– اعتبروا زي ما بدّك . . . بدل ما تهدّي على ابنك . . . وتخلّيه ينتبه لدراسته . . .

(يضغط الجرس . . . يدخل عسكريّ . . . يؤدّي التّحيّة) . . .

– طلّعلي من النّظارة إلّي اسمو واثق . . . خلّيه يوقّع على الأوراق . . . ويطلع مع أبوه . . .

– حاضر سيدي . . .

عاد إلى البيت مُحمّلاً بِجَبلٍ من التّجربة المريرة فوق ظهره ، استقبلته أمّه على الباب ، تحسّست وجهه كعادتها ، ومرّرت يديها بحنّو على أكتافه ، وضمّته طويلاً قبل أن تبدأ بالنّشيج . . . أمّا هو فدخل مُتعبًا إلى غرفته ، واستلقى على سريره الّذي لم يمسّ جسده طوال أربع عشرة ليلةً فائتة . . . تراءت له (مُنى) غيمةً من بردٍ شفيفٍ تُظلّل جسده المتعب ، ثمّ غرق في الأحلام كطفلٍ شريدٍ أوى إلى مهده بعد طول ارتقاب . . .

ما الّذي تغيّر فيه بعد تلك الأيّام؟! ما الّذي نشأ في أعماقه بعد

تجربة المعتقل الأولى؟! أهي شجرة الخلد الّتي مدّت جذورها في تربة الحبّ؟! أم الشّجرة الخبيثة الّتي اجتثّت من فوق ركام الحقد؟! وهل كان يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً لولا شعوره الصّارخ بالظّلم بعد تلك الأيّام؟! لا أحد يدري . . . ولكن أين (مُنى)؟! أينَ حبيبته الّتي تحمّل كلّ العذاب في الأيّام الغابرة من أجلها . . . أين اختبأت كلّ هذه اللّيالي؟! حدّث نفسه مُعزّيًا : لا بدّ أن تُشرق شمسُها ولو غابت إلى حين . . . فالعشق الّذي يتغلّب على كلّ شيء حتّى الموت ، أقدر أن يتغلّب على طبقات الأسى المختّر الّتي تراكمت خلف تلك القضبان!!

كان يوم الخميس . . . دخل الجامعة وتوجّه إلى النّافورة الّتي دارت حولها المعركة ، وجدها تفيض بالماء على عادتها كأنّ شيئًا لم يحدث ، أرهف سمعه وضيّق عينيه علّه يستعيد الهُتافات الّتي تعالت في المكان في ذلك اليوم ، حاول أن يعود بالزّمن إلى الوراء ليستحضر المشهد . . . نجح قليلاً . . . أجال بصره في المكان ، لم يُصدّق شيئًا . . . كاد يقع في هوّة الأحلام مرّة أخرى ، تأرجح وهو يظنّ أنّ كلّ ما مرّ به لم يكن أكثر من وهم ، حمى نفسه من السّقوط في البئر ، نفض رأسه ، ووضع يديه في جيبه ، وسار بخطىً سريعةٍ إلى الكافتيريا يبحث عن لؤيّ!!

(لا بدّ أنّه موجود ، خرج قبلي من المعتقل ، ولديه – ربّما – معلوماتٍ أكثر ممّا لديّ) قال ذلك في نفسه ، ووقف على بعد خطوات من باب الكافتيريا ، خُيّل إليه أنّه يسمع صوتها ، التفت إلى الخلف أملاً في أن تقع عيناه عليها فتراءى له الفراغُ غائبًا في لجّة ضبابيّة . سار خطوةً إلى الأمام باتّجاه الباب ، همّ أن يدفعه ليدخل ، سَمِعَ صوتها من جديد ، صوتًا ملائكيًّا يسكب في أذنيه جدولاً من الموسيقى . توقّف ، وضع يديه في جيبيه ، قرّر ألاّ يلتفت إلى الوراء كما

فعل في المرّة الأولى ، رفع ذقنه قليلاً إلى الأعلى ، زَمّ شفتيه ، وحدقّ النّظر في الزّجاج أمامه فرآها ، تبدّت له بكامل سحرها ، لا يُمكن لهذا الجسد النبويّ أن يتشكّل فيه غيرُها ، يعرف هذا الجسد بكامل تفاصيله ، يعشق كلّ قطعةٍ فيه ، ويذوب في كلّ ثنيةٍ تصنعها منحنياته الشّهيّة . . . تسمّر في مكانه ينظر إلى طيفها الماثل في الزّجاج ؛ ابتسم فابتسمت ، هزّ رأسه فهزّت رأسها ، طرق بطرف إصبعه أنفه فطرقت بطرف إصبعها أنفها ، تقدّم خطوةً نحوها فتقدّمت خطوةً نحوه . . . فجأة دفعه أحد الدّاخلين من الخلف فصحا من هَذَيانه ، تساءل في سرّه وهو يمشي إلى الدّاخل : هل كانت هي أم كنتُ أنا؟! هل هي صورتها هناك أم صورتي؟! أمعقول أنّني لا أرى منها – حين أنظر إليها – إلاّ نفسي؟! أيعقل أنّني لا أعشق إلاّ ذاتي؟! هتف بأبياتِ (نزار) وهو يمشي داخل الكافتيريا هذه المرّة بصوتٍ مسموع :

مــــارَسْتُ أَلْفَ عِــــبـــــادَةٍ وَعِـــــبـــــادَةٍ

سمع صوتًا يُكمِلُ البيتَ :

فَــــوَجَــــدْتُ أَفْــــضَلَهـــا عِـــبـــادَةَ ذاتِي

التفتَ فإذا هو (لؤيّ) ، كاد يطير من الفرح ، فأكمل له وهو يترنّم :

فَــــمُكِ الْمُطيَّبُ لا يَحُلُّ قَـــضِـــيَّـــتِي

فردّ عليه (لؤيّ) :

فَـــقَـــضِـــيَّـــتِي في دَفْـــتَـــرِي وَدَواتِي

ثمّ ردّدا معًا وهما يصيحان ويتعانقان :

كُلُّ الـدُّرُوبِ أَمـــامَنا مَـــسْـــدُودَةٌ

وَخَـــلاصُنا فِي الرَّسْمِ بِالكَلِمَـــاتِ

جلسا في الزّاوية الّتي تعوّدا خلال عامينِ كاملين أن يجلسا إليها ،

كانا تائقين إلى كلّ شيء ، بَدَاَ حوارًا مثل حوار الأشجار للحقول :

- متى خرجتَ من المعتقل؟! (قال ذلك واثق)

- في اليوم العاشر .

- فلماذا استبقَوني إلى اليوم الرّابع عشر؟!

- يا سيدي ، أنتَ خطير . . . بدأت الدّولة تَخاف منك!!

- تخـاف منّي؟!! مـاذا في جـعـبـتي يا حـسـرة؟! أطنان من المتفجّرات ، أم (تريلاّت) من الصّواريخ ذات الرّؤوس النّوويّة؟!

- في جعبتك وفي جعبتنا الكثير .

- الكثير ؟!!!!

- بلى . هناك من يخاف من الكلمات أكثر مِمّا يخاف من الأسلحة الفتّاكة . . . هذه الكلمات تتحوّل إلى أسلحة فتّاكة إذا كانت وقودًا يُميط عن العقول عِقال الجهل ، ويزيح عن عينيها غِشاوة التّبعيّة العمياء . . .

- ولهذا هم خائفون؟!

- بل مرعوبون!!!

- ألهذا الحدّ تكون الكلمة مرعبة؟!

- بل أكثر مِمّا تظنّ . . . انظر نحن حُبسنا على مقدار كلماتنا .

- ماذا تعني؟! لم أفهم!!!

- أنا خرجتُ بعد عشرة أيّام ، وأنتَ خرجت بعد أربعة عشر يومًا ، وهناك مَنْ خرج من أوّل يوم . مَنْ كان يملك ذخيرةً أكبر من الكلمات امتدّ اعتقاله لأيّام أطول في الزّنزانات!!

- أريد أن أفـهم مـاذا حـدث يوم الأحـد الّذي كـان سـبـبًـا في اعتقالنا؟!

- المسألة واضحةٌ جِداً!!

- حقًّا . . .؟! كيف . . .؟!!!

- الطّوشة كلّها من أوّلها إلى آخرها كانت من تدبير الدّولة .

- معقول؟!! لم يخطر ذلك على بالي قطّ!!

- يا صديقي . . . المسألة واضحة . . . يفعلون ذلك من أجل أن يتّخذوا ما حدث ذريعةً لإسكات أيّ نشاطٍ طلاّبيّ قادم ، ولتخويف آبائنا وأمّهاتنا!!

- يفكّرون بهذه الطّريقة؟!

- نعم . . . قرصوا آذان كثيرين . . . فما عادوا لما نُهُوا عنه!!

- والعشرة الّذين فُصِلوا من الجامعة؟!!

- ذهبوا ضحيّة .

- تعني أنّهم كانوا كبشَ فِداء .

- تمامًا . . . وليس مُستبعدًا أن ترضيهم الدّولة بقبولهم في جامعات أبعد ، أو جامعات غير حكوميّة!!

- يا لؤيّ . . . أنا تعبتُ من هذا الحديث . . . ماذا عن الحبّ . . . تخيّل أنّني جائعٌ إلى نظرةٍ من (مُنى) ألم ترها؟!

- أنتَ تعرف كيف تجدها .

- كيف؟!!

- لا تستغبِ . . .

- . . . . .!!!

- افتح قلبك ، واترك بوصلة العشق تشير إليها ، بوصلة العشق لا تُخطئ أبدًا!!

- . . . . .!!!

خرج من الجامعة ، وهو يُعِدّ نفسه لرؤيتها بداية الأسبوع القادم ،

أحسّ أنّ ذلك سوف يحدث ، صَعِدَ الباص وألقى جسده على الكرّسيّ الأخير كومة من الهمّ والعشق والحزن والذّكريات والجوع والتّوق والألم والهُيام ، تقدّم الباص وتراجعت الصّور ، قذفت الأشجار الّتي على جانبي الطّريق نفسَها إلى الوراء ، وكتلة الباص تندفع مسرعةً إلى الأمام . ارتفع صوت أمّ كلثوم يُغنّي :

ما خَطَرْتَشْ عَلى بَالَكْ يُومْ . . . تِسْأَلْ عَنّي

وعينيّ يُجافيها النّومْ . . .!!

حينما وصل موقف الباصات ، عنّ بباله أن يشرب كأسًا من عصير البرتقال لعلّه يُنعِشه ، ويذهب ببعض الأسى الّذي يعتمل في داخله ، دخل المقهى ، استرعى انتباهه وجهٌ أسمر عتيق ، يجلس إلى فتاة تُقابله ، أمّا هو فلم يرَ منها إلاّ شعرها الأشقر الطّويل ، كانا يبدُوان عاشقَين ، هو يتحدّث وهي تُصغي وعيناها لا تتزحزحان عنه ، تتطلّع فيه بشغف شهوانيّ وهي تعبثُ بدفتر صغير بينَ أصابعها . تقدّم خطوات باتّجاهٍ هذا الوجه ، شيءٌ ما فيه ناداه بقوّةٍ ، خُيّل إليه أنّه الوجه الّذي يعرفه أيّام الدّراسة الأولى ، أيعقل أن يكون (جمال)؟!!! بعد لحظات نهض صاحب الوجه الأسمر ، ظنّ أنّه فعل ذلك لأنّه تعرّف إليه ، إلاّ أنّه كان يهمّ بالمغادرة هو وصاحبته ، اقترب منه أكثر حتّى صار بإزائه ، تفحصّ هذه المرّة وجهه دون خجل ، وأدرك دون شكٍّ أنّه جمال ، أهوى عليه يحضنه :

– جمال . . . .؟؟!! جماااااال . . . جماااااااااال!!!!!

– واثق . . . . وااااااثق . . .!!!!

– بلى يا صديقي ، يا رجل هذا ليس من شأن الأصدقاء ، كيف نغيب عن بعضنا كلّ هذه المدّة . (استأذنت الفتاة ذات الشّعر الأشقر

الطّويل) أمّا هو فصاح :

- لك وحشة يا صديقي . . . أينَ تلك الأيّام الحالِمة؟!!!

- لم تُولِّ تمامًا . . . نستطيع استعادتها . . . ها نحن ذا!!!

- ما فات مات يا صديقي . . . ما غاض من الماء في التّراب أنّى أن يعود؟!!

- لا تكن متشائمًا . . . المهمّ طمئنّي عن أخبارك؟!

- أنا بخير . . . في نهاية السّنة الثّانية ، اقتصاد . وأنت؟!

- في الكيمياء أتجرّع علقم المعادلات . . .

- ظننت أنّك ستدرس الأدب ، لم أشكّ للحظة أنّك ستدخل كلّيّة الآداب ، لطول ما صدّعتَ رؤوسنا في الإذاعة المدرسيّة بقصائد امرئ القيس وجرير والفرزدق والمتنبّي . . . هل ما زلتَ تحفظ الشّعر؟!

- كما كنت وأكثر!!

- عجيب . . . هل من أحدٍ في هذه الأيّام ما زال يحتفظ بروحٍ كروحك يا صديقي . . .!!

- الشّعر يسمو بالرّوح ، حين أقرؤه أو أحفظه ، أحسّ أنّني حلّقت في عوالم لا يصلها البشر العاديّون!!

- يا صاحبي . . . الشّعر هذه الأيّام لا يُطعم خُبزًا ولا يكسو عارِيًا ولا يُبلّغ غاية ، إنّه بضاعة العاطِلين!!

- وهل المطلوب منه أن يُطعمنا خبزًا؟! المطلوب منه أن يحرّر الرّوح!! «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»!!

- آه يا صديقي ؛ نسيت أنتَ ما تزال تعيش في تلك الفلسفات الّتي كُنّا نُحاولها أو نهذي بها في أيّام الدّراسة . . . شيء حُلو . . . ولكنّنا في عالَم البزنس الآن ، يجب أن نكون واقعيّين كذلك . . .

– صحيح . . . والواقع إذا لم تزيّنه بما يلامس شغاف الرّوح ظلّ جامِدًا . . . وتحوّل فيه الإنسان إلى آلة تتحرّك كالبشر ولكنّها في الدّاخل جوفاء!!

– ماذا تشرب؟!

– خلّيها عليّ . . .

– لا والله!!

– طيّب . . . عصير برتقال!!

– طيّب . . . اليوم الخميس ، وأنا مشتاق لك جدًّا . . . ما رأيك أن تسهر عندي في البيت؟!!

(١٩)
ليس في الفجيعة أقسى من الغِياب!!

قبل أن تتهاوى الشّمس بقليل في بحرها الأزليّ ، كان يعبر البوّابة الّتي تنتصف سياجًا من الأشجار القصيرة تُحيط بالبيت من جهاته الأربع ، استقبله على البوّابة الّتي لم يبارحْها وهو ينتظره بشوق العاشقين ، بَسْمَتُهُ البيضاء الّتي تزداد بياضًا في تقاسيم وجهه الأسمر بدت – وعينه اليُمنى تضيق – شُعاعًا من نور يخترم السّدفات . . . قاده إلى الجهة اليمنى من البيت ، حيث انتهيا تحت شجرة صفصافٍ عالية تتوسّط المكان ، هاله ارتفاعها ، ومدّ عنقه ليتابع شموخها وهو يُميل جذعه إلى الخلف ، قبل أن يتأرجح ويتدارك نفسه من الوقوع . على كرسيّين من القصب ، وإلى منضدة من جذع شجرة عتيقةٍ مقطوعة من حياةٍ وموصولة بموتٍ أُعِدّت لتحمل فضلات البشر فوقها ، جلسا . وطارت أسراب الكلام من مخابئها دون توقّف حتّى آذن الفجر بالانبلاج .

لم يتركا صغيرةً ولا كبيرةً أيّام المدرسة إلاّ استحضراها ، وأقاما لها عرسًا من فرحٍ كان قد مات ، ثمّ أحيَياه بمسحة من يدٍ حانية . تذكّرا (هيثم) ذلك الطّالب الّذي كان يهزأ من (واثق) كيفَ انتهى به الأمر إلى محطّة لغسيل السّيّارات ، بعد أن دمّر مستقبله بالانغماس في المخدّرات . أمّا (سميح) فقد لحق بأبيه في تجارة البلاستيك في المدينة

الصّناعيّة بعد أن أخفق في الثّانويّة . وأمّا (سُلطان) فطار إلى أمريكا في الفصل الثّاني من الثّانويّة ، حيثُ أعمامه هناك يملكون محطّة لبيع البنزين ، كان يقف في اليوم ساعاتٍ طويلة عند مؤخّرات السّيارات يفتح مخازنها ليملأها بالوقود ، ثم ينتظر لحظات قبل أن يمدّ له سائق السّيارة من زجاج النّافذة بضعة دولارات ، كلّ ذلك مُقابل مبيتٍ في غرفةٍ نائيةٍ كريهة وأن يكون مشروبه اليوميّ مُؤمّنًا . . .

– ياااه . . . !!!! (قال واثق)

– ماذا؟!! (ردّ جمال)

– كلّ هؤلاء الّذين كانوا معنا أخذتهم دوّامة الحياة فطوّحت بهم في كلّ اتّجاه . . .!!

– طوفان الحياة لا يرحم أحدًا!!!

– تذكّرتُ أبيات شوقي!!

– ماذا يقول صاحبك؟! ألا تتعب من استنهاض أرواح الموتى؟!

– ما أروع ما يقول ، حينَ يكتب :

ألا حبّذا صحبة المكتبِ
وَأَحْبِبْ بأيّامها أَحْبِبِ
ويا حبّذا صِبْيَةٌ يَمْرَحُونَ
عنانُ الحَياة عَلَيْهِمْ صَبِي
وغابَ الرّفاقُ كأنْ لَمْ يَكُنْ
لَهُمْ بِكَ عَهْدٌ وَلَمْ تَصْحَبِ
إِلى أَنْ فَنَوْا ثُلَّةً ثُلَّةً
فَناءَ السَّرابِ عَلَى السَّبْسَبِ

– أرى أنّ ولعك بالشّعر والأدب ما زال في أوجه . . .

- أترانا نفنى كما يفنى السّراب؟! أكنّا سرابًا أم سنصير سرابًا؟!!
- عندي لك أحسن جواب (قال جمال ذلك وضحك)؟
- حقًّا؟!!
- حقًّا .
- هاتِ!!!
- سترى السّراب بعينه ونحن نمخر عُباب الصّحراء باتّجاه البحر . . .
- ماذا تقصد؟!
- ألا تريد أن ترى إن كنّا سرابًا أم سنصير إليه؟!
- بلى . ولكنْ كيف؟!!!
- غدًا نذهب في رحلةٍ إلى (العقبة) ، وهناك في الدّروب الواصلة إليها نتأكّد من صحّة فلسفاتك الّتي ما زلتَ تنقر بها رؤوسنا (قال ذلك وضحك ضحكة خفيفة)
- هل تدعوني لأشاركك رحلةً إلى البحر؟!
- بلى . غدًا هو الجمعة ، والسّبت كذلك عطلة ، فلماذا لا نروّح عن أنفسنا قليلاً ونستعيد صفحات الذّكرى الّتي أوغلت في الدّهاليز المُعتِمة؟!
- صدقتَ . ولكن!!
- لا تقلْ ذلك . . . أنا متأكّد أنّك ستستمتع عند البحر . . . والبحر هو الآخر سيستمتع معك؟! كلاكما يحبّ الفلسفة . فتطارحا كما تشاءان!!
- والله شجّعتني!!
- وليكنْ . . . التّنفيذ فوريّ .

- طيّب . . . مع مَنْ سنذهب؟!
- وحدَنا!!
- والمواصلات؟!
- سأستعير سيّارة أبي . . . إنّها فرصة لننبش ذكرياتنا من جديد . صدّقني ؛ لقد أوحشتْني أيّامك حيثُ فلسفاتُك تُعطي للحديث طعمًا آخر .
- شُكرًا ؛ أدري أنّك تسخر منّي!!
- أعرف أنّك ستقول هذه الكلمة ؛ يا صديقي متى ستتخلّى عن فكرة أنّ كلّ النّاس تستهدفك!! ربّما الرّحلة في الصّحراء ستُعطيكَ الفرصة لذلك!!
- ولكنْ . . .!!!
- قد لا نلتقي مرّة أخرى ؛ فلا تفوّتْ علينا ذلك .
- ماذا تعني؟!
- أخشى أن تأخذنا الدّنيا والدّراسة والمشاغل فيطول الغياب!!
- لا تذكر الغياب أمامي . . . أرتعب من هذه الكلمة كأنّها غولٌ لا يشبع من الالتهام!!!
- الغياب . . .؟! (ابتسم هازِئًا) الغياب إذا كان محتومًا فما الّذي يُنجي منه؟!!
- . . . . . .!!!

في السّابعة من صباح الجمعة تناهى إلى سمعه زامور سيّارة (جمال) الواقفة أمام بيته ، أتمّ توظيب ما تبقّى من أغراض الرّحلة ، وودّع أبويه ، وخرج ، وسؤال الغياب يملأ رئتيه بهواءٍ باردٍ!!
ظلّتْ عجلات سيّارتهما تنهب الطّرقات الخالية ، وهي تُولّي

وجهها شَطر الجنوب ، هل كانا عاشِقَين يغتنمان الفرصة الأخيرة لقول كلمة الوداع الذّابحة؟! أيّام المدرسة لا يُمكن أن تُنسَى ، ومساءاتُ الخميس الغابرة عند أطراف المدينة الّتي تسقط في الوادي العميق منحفرةٌ في الذّاكرة مثل نُشّاب في جلد طريٍّ لطفلٍ فطيم!! وهو هو . . . وإن تغيّر قليلاً . ماذا يتغيّر في الإنسانِ حينَ يغيبُ عن نفسه سنتين مُتتابعتين؟! هل يلبس وَجَعَ الأيّام الّتي تتراكم على القلب فتزيد الهوّة ما بينهما؟! لم يَدْرِ على وجه التّحديد أنّه وجمال هما هما ، أو أنّهما تغيّرا حتّى أنكر كلٌّ منهما الآخر . تطلّع في وجه صاحبه يريد أن يجد جوابًا على تساؤله ، فارتسمت ابتسامةٌ هادئةٌ ساخرة على قهوة وجهه!!

لم يتوقّفا في الطّريق كثيرًا إلاّ لقضاء بعض الحاجات ، وظلّا ينهبان وجه المكان ليسرقا من الزّمن فؤاده ، فيصلا أبكر ما يكون!! فجأةً قرّر جمال أن يُعرّج على البتراء ، ليقرأ على حجارتها الورديّة أرواح ﴿الّذِيْنَ جابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ﴾ .

– يحتمي النّاس في الجبال من كلّ شيء . حتّى من أنفسهم!! (قال ذلك جمال) .

– لماذا يحتمي ما لم يكنْ خائفًا؟!

– عالَم الوحوش لا يرحم!!

– تخيّل لو أنّهم فكّروا بالالتجاء إلى هذه الجبال الشّاهقة في زمن الصّواريخ والطّائرات الّتي تقصف من قارّة إلى قارّة ؛ ماذا كانت ستُغني عنهم!!

شعرا بالرّاحة وهما يدخلان السّيق ، كانت البرودة الّتي شكّلها غياب الشّمس خلف الصّخور الّتي وقفت دُروعًا تصدّ أشعتها عن الزّائرين قد سرتْ في جسديهما فأنعشتْهما . . . عن يمينهما وشمالهما

ظلّت العربات تنقر الأرض على إيقاع حوافر الخيل والبِغال والحمير، كانت تلك النّقرات تصدح بموسيقى يعرفها (واثق) جيّدًا، ويستطيع على الأقلّ أن يميّز منها بحر الخبب، فردّد معها:

حـــركـــاتُ المُحـــدَث تنتـــقل

فَـــعِلُنْ فَـعِلُنْ فَـــعِلُنْ فَـــعِلُنْ

عندما وصلا الخزنة، هالَهما ارتفاعها الشّاهق، قال واثق:

- ماذا لو اجتمع الأمران؟!

- أيّ أمرين؟!

- طول هؤلاء الّذين نحتوا هذه الصّخور إلى مخترعات أهل عصورنا من الصّواريخ والدّبّابات والطّائرات!!

- كان يُمكن حينها ألاّ تكون حضارة، ولا مدنيّة؟!

- نعم . . . ستسود شريعة الغاب!!

- ألا ترى أنّها تسود في عصرنا هذا . . .؟!

في البتراء، تناولا طعام الغداء، وانطلقت السّيّارة إلى العقبة بعد أن خفّت حُمّى الحجارة والأتربة، واستعادت الطّرقات ظلّها . وتلاشى السّراب فأفلتت من يده الحكمة!!

في الأفق تستّرت الشّمس بحياء خلف الجبال الشّاخصة كأنّها قافلة من الجِمال المُرتحلة . سقطت هذه السّرمديّة في المهوى البعيد، وتضرّج الأفق بدمها الأرجوانيّ وودّعت الدّنيا . . . ظنّ أنّها غابت دون أوبة . . . أحسّ أنّ هناك علاقةً من نوع ما بين الغياب والموت، فكّر: أيّهما الآخر؟! وتساءل: أيّهما القسريّ وأيّهما الطّوعيّ!!

ليس في الفجيعة أقسى من الغياب، وليس في الغياب أوجع من رحيل مَنْ تُحبّ . . . العاشِقون صاروا كذلك لأنّهم أدمنوا وجع الغياب

في قلوبهم ، ولم يستطيعوا الهروب من ذئابه الغارزة أنيابها في أرواحهم الغافلة . . .!! والُمحبّون سُمّوا بذلك لأنّهم مَحَوْا ذاتهم ، واستبدلوا بها ذات من يُحبّون ؛ أليس الحبّ محوًا؟!!!

هل تموت الشّمس؟!! هل ينطفئ إكسير الحياة الأبديّ الملتهب فيها؟! وهل تغرق في بحر السّديم؟!! وهل تذهب في طريق اللاّعودة ؛ فلا يطلع من بعدها نهار؟!! إذا كانت الشّمس تريد أن تموت فلتفعل ذلك مطمئنّة ؛ فلقد عاشت من القرون ما يكفي!! ألا تسأم هذه المسكينة الحياةَ مثل البشر؟! ألا يُصيبها التّعب من اللّهاث خلفَ دوّامة العمر؟!! ألا يُربِكها الدُّوار وهي تطوف في مسارات الفراغ الُمطلَقة؟!!

من بعيد بدت أشجار النّخيل تمدّ سعفاتها مرحّبة بالقادِمَين ، وخلفها امتدّ البحر بساطًا من العشب الأزرق يستقبل الزّائرَين ، وبينهما بدت البيوت والطّرقات تتسلّى بترقيص الأضواء على الظّلال الملقاة في اللُّجّة!!

كانت نفسُهُ قد هدأت بعد عاصفة الحبّ؟! غير أنّ هذه العاصفة الّتي تغوّلتْ على كلّ شيءٍ حتّى على قلبه ، لم تدمّره ، بل شدّت من عُودِه . . . صارت موجات الحبّ تعبر فؤاده العاشق فتلفّه لفيف ريح بشجرةٍ جوزٍ عتيقة ، وتتركه بعد أنْ ملأتْه (سَكْرانَ مِنْ ذَوْبٍ وَمِنْ وَلَهٍ) . . . أربعةَ عشر يومًا في المعتقل حفرت وديانًا في روحه ، وأسالت في تلك الوِديان ماء الهُيام ، أحبّها أكثر . . . تولّه بها أشدّ . . . غرق في بحرها الهادر أعمق . . . وتأكّدَ تمامًا أنّ الحرمان منها جعلها تُشرّش في تربة الرّوح النّديّة . . . لا يعود الانعتاق من القيد سهلاً حينَ تستعذب هذا القيد ، وترتضيه عن طواعية ، وتشدّه على يديك لأنّك تحسب فيه الخلاص!!

أربعة عشر يومًا في المعتقل ، فتحتْ أمامه كِتاب الحياة . عرف أنّه كان جاهِلاً به قبلها . حدّث نفسه : حتّى ليلة الذّئاب لم تفتح لك كتاب الحياة هذا من قبل؟! أجابها : ولا ليلة الذّئاب . . . في السّجن ذِئابٌ من نوع آخر ؛ هل غفل أبوه عن أن يعلّمه كيفيّة الاحتماء من هذا النّوع الجَديد من الذّئاب؟!

كانت حاضرةً فيه بالرّغم من أنّه لم يرها منذ تلك الواقعة الّتي أعقبها دخوله إلى المعتقل . . . بين القذارة والرّوائح الكريهة واكتظاظ الأجساد في (النّظارة) في اليوم الأوّل ظلّ مُحافظًا على مسافةٍ بينه وبين اليأس باستحضارها في ذهنه ملاكًا حارسًا يزرع شتلة الأملِ في روحه ، ويُدفئ أوصاله الّتي ظلّت ترتعش في خضمّ التّجربة الأولى له من هذا النّوع . . . في اليوم الثّاني لم يعتدْ حياة السّجن ، ولكنّه وزّع مساحة التّلقّي في نفسه . . . انتظرها ابتداءً من اليوم الثّالث ، وظلّتْ تصرّ على أن تجعله ينزف دون أن تُسارِع إلى إيقاف نزيفه . . .!!

البحر لا يعرف الغناء ؛ البحر يبكي ، كلّ دموعه الّتي ذرفها منذ بدء الخليقة جمّعها في الوديان فتشكّلتْ على هذا النّحو ، وحين يتذكّر المأساة الّتي حلّت به يمور وتهيج أمواجه ، ويزفر زفرةً طويلة فيكون المدّ ، ثمّ يشهق شهقة الارتياح المؤقّت فيكون الجزر . . . البحر رئةُ اليابسة!!

جلَسَا إلى الشّاطئ ، مدّ اللّيل غلائله على المكان ، وألبس تلك الغلائل للبحر فبدا وادِعًا هادئًا ، واستكان عبدًا مطيعًا في حضرة سيّده ، كانت أصوات الصّبية تتعالى بين فترةٍ وأخرى ، والأضواء تأتلقُ في صفحة الماء ، والبدر يتّخذ له المكان الأبعد من هذا المدى المائيّ . . . لا البحر عاتبه على أحلامه ، ولا السّماء لامته على خيالاته ؛ أمّا البحر فلأنّه حالمٌ أكثر منه ، وأمّا السّماء فلأنّها صانعة الخيال جميعه!!

عادا إلى الشّقّة الّتي استأجراها ، وناما كُتلتَينْ هامدتَين بعد سفرٍ طويل ، وتعبٍ قاسٍ . . . متى تُباغِت الأحلامُ الإنسان؟! حين يكون قد نسيها تمامًا ، واستراح إلى غيابها!! ومتى تنقر غفلته؟! حين ينتبه من طُمأنينته الّتي تراتبت مع مرور الأيّام ؛ حينئذٍ تكون أحلامه مثل الكلب الّذي يشمّ العاصفة القادمة ، أو يستشعر انفجار زلزال قريب!! كانت أحلامه في تلك اللّيلة كلبًا جامِحًا مادًّا أذنيه إلى القدر المختبئ تحتهما!!

الطّريق ليست الطّريق ، والدّروب ليست الدّروب ، وهما يسيران في عمىً لا ينقطع ، أصابه الرّعب ، ولبسه كثوبٍ رثّ ، ونظر في وجه (جمال) فوجده هادئًا يُمسكُ بمقود السّيّارة ، ويثبّتُ نظره أمامه دون أن يرفّ له جفن ، لم يشكّ أنّ (جمال) بلا عينين ، وأنّ عماه سوف يسحقهما . هزّه من كتفه فلم يُحرّك ساكِنًا ، صرخ فيه :

– ألا ترى ألا تُبصر . . . حاذِرْ . . . حاذر . . . ماذا تفعل . .؟!! نحن ننزلق إلى الوادي . . . نحن نهوي . . . نحن نموووووووت . . . . نحن نموووووووت . . . .

وكأنّ (جمال) ليس موجودًا ؛ ذهبت الصّرخات سدى ، وذابت في الظّلام الّذي اشتدّ سواده . . . حاول أن يُحرّك هو مقود السّيّارة فوجد نفسه عاجِزًا لا يستطيع أن يمدّ يده . . . عاود الصّراخ فيه مرّة أخرى ، ولكنّ صاحبه كان أعمى وأطرش وزائغ النّظرات ومنفصلاً عن الواقع ومشلولا!!

استيقظ من نومه فِزَعًا ، سارع إلى غرفة (جمال) ، هزّه من كتفيه بعنف ، وراح يصيح كالمجنون : جمال . . . جماااااال . . .

– يجب أن نعود؟!!!

– ماذا . . .؟! نعود؟! ما الّذي أصابك؟! لماذا تصرخ هكذا؟!

- يجب أن نغادر هذا المكان؟!!

- هل تمزح؟! كم السّاعة الآن؟! الثالثة فجرًا؟!! هل تتسلّى في تعذيبي . . . أنا مُتعبٌ جِداً . . . عُدْ إلى فراشك ودعنا ننمْ ما تبقّى من اللّيل .

- يا صديقي . . . إنّه كابوس . . .!!

- هل عادت إليك الكوابيس مرّة أخرى . . . سأناقش معك هذه الترّهّات في الصّباح (قال ذلك مستهزِئًا)!! والآن دعْني أكمل نومي . . .

انسلّ عائدًا إلى غرفته ، مثل كومة قشّ يابسة ، أحسّ أنّ جسده فارغ ، وأنّ الثّلج قد غلّف روحه ، انسدلتْ يداه على جانبَي جِسمه ، جلس على حافّة السّرير ، ودفن وجهه في يديه ، وظلّ مُستيقظًا حتّى بزوغ الفجر!!!

مشيا في الطّرق الخالية قبل أن تملأها أشعّة الشّمس إلى الشّاطئ ، كان (واثق) يبكي من الدّاخل ، وينظر إلى (جمال) فيرى في عينيه بريقًا غريبًا . . . وقفا على الرّمال الممتدّة :

- ألا تريد أن تسبح؟ (قال جمال لواثق)

- لا . أنا لا أجيد السّباحة . وأنتَ؟!

- بالطّبع . . .!!

- أرجوك لا تفعل!!!

- لماذا؟!

- أخاف عليك!!

- لا تخفْ . . . . أنا أمهر السّبّاحين في الشّمال . . . لو سابَقَتْني سمكةٌ لسبقتُها؟!!

– ولكنْ . . . ألا نستطيع الاستمتاع بمنظر البحر في هذا الشّروق السّاحر دون أن نلجه؟!!

– لا . . . إذا لم يمسّ الماء جسدك فلن تشعر بالمتعة ، نحن من الماء وبالماء وإلى الماء . . . إنّه حنين الأجساد إلى أصلها!!

– تتفلسف يا جمال . . .؟!!!

– ولمَ لا . . . ألا تحبّ أنت الفلسفة؟! ألم تبنِ حياتك على أساسها؟! بِمَ تريدني أن أخاطبك حتّى تنزل معي إلى الماء ولا تُفسِد علينا رِحلَتَنا؟!!

– افعلْ ما بدا لك . . . لن أنزل معك إلى الماء ؛ أنا أخافه!!

– كما يحلو لك . . . لستُ محتاجًا لك ولا إلى أن تُشاركني في السّباحة ، وحتّى إذا غرقتُ فلا أريد أن تشاركني الغرق . . . دعْني أغرق وحدي . أمّا أنت فاستمتع بكتبك وبخيباتك!!!

رفع (شرت) السّباحة الّذي يلبسه قليلاً ، وشدّ على عينيه نظّارات الماء ، وركض باتّجاه البحر حافِيًا . لم يدرِ (واثق) حينها مَنْ ركض باتّجاه الآخر ، البحر أم هو!!

من بعيد تناهى إلى سمعه صوت (جمال) وهو يصيح فرحًا . أمّا هو فاتّخذ من مقعدٍ مهترئ مكانًا يلوذ به ، وراح يبحث عن السّرّ الغامض الّذي جعل العجوز ينتصر على أهوال البحر في رواية (همنجواي)!!

ظلّ يراوح في نظراته بين صفحات الرّواية بين يديه ، وبين اختلاس تلك النّظرات باتّجاه (جمال) ؛ يبدوان في قمّة السّعادة ؛ (جمال) بما يغوص في أعماق البحر وأمواجه ، و(واثق) بما يغوص في أعماق الكتاب وأمواجه . . . مرّت لحظات طويلة هادئة لم يكنْ يقطعها إلاّ صياح (جمال) من بعيد :

- تعالَ شاركْني المتعة!!

- لن آتي . . .!!

- البحر وسادة السّماء ، ألا تريد أن تتكئ قليلاً؟!!

- دعني وشأني!!

- أنتَ جبان . . . جبان بالفعل . . .

- لم تكنْ أوّلَ من قال لي ذلك . . . جدّي قالها من عشرين عامًا . . .!!!

- جبااااااااااااان . . . . جبااااااااااان . . . .!!!

- وليكنْ . . . جبان . . . ولا . . . الله يرحمه . . .!!!!!!!!!

عاد إلى الكتاب ، وعاد (جمال) يسبح في البحر كأنّه جزءٌ منه ، ينزل تحت الماء ، فلا يبدو من جسده شيءٌ ، يُحرّك رِجليه بالتّناوب ، ويشقّ عُباب الماء بصدره ، وينساب فيه ، مثل سمكةٍ تقوم ببعض الألعاب استعراضًا . فجأة أحسّ (واثق) بوخزة في الصّدر وهو يقرأ في الرّواية : (يا سمكة أنا أُحِبّك وأحترمك كثيرًا . . . ولكنّني سأقتلك قبل أن ينتهي هذا النّهار) . قفز الرّعب إلى صدره ، لم يدرِ لماذا تخيّل هذا الحوار يدور بين البحر و(جمال) . نظر باتّجاهه يريد أن يطمئنّ على وجوده ، فرآه يُطرطِشُ بيديه صفحات الماء سعيدًا غير مُكترث بما يجول في خاطره . . . عاوده قليلٌ من الاطمئنان ، ولكنّ أثر الوخزة الأولى ظلّ يتحرّك في أعماقه كشوكةٍ تغوص قلب يقينه!!

حاول أن يُبعِد الكتاب قليلاً عن ناظريه ليرتاح ، وضعه إلى جانبه ، وبسط رجليه على المقعد الخالي ، وراح يتأمّل المدّ المائي الّذي ينبسط أمامه . . . أربعة عشر يومًا في المعتقل تفعل الكثير ؛ أشياء كثيرة صارت موضع شكٍّ بالنّسبة له ؛ ثقته بالآخرين ؛ وإيمانه بجدوى

ما يفعل ، وقناعته بأنّه يسير في الاتّجاه الصّحيح ، وأحلامه الّتي لم تعد صالحةً للاستمرار بعد الواقعيّة المفرِطة للسّجن وما يدور فيه من أحداث جارحة . . . وهو . . .؟! هل عجمَ السّجنُ عوده؟! هل جعله صلبًا بما يكفي ليواجه انهيارات العمر القادمة؟! وجسده الّذي يتكوّر على نفسه لضآلته هل طال قليلاً ليكون قادرًا على استشراف المستقبل الخاذل الرّاكض نحوه؟!!

عاد إلى الكتاب لينسى . هل يقرأ الإنسان لينسى؟! ومتى يقرأ إذاً ليتذكّر؟! نظر إلى السّماء ثمّ حوّل نظره إلى البحر ، فكّر : يشتركان في اللّون ؛ فهل كانا قطعةً واحدةً ثمّ انفصلا ، فكّر أكثر ، ثمّ ارتاح للجملة الآتية : البحر مرآة السّماء!! تابع قراءته في همنجواي ، أوقفتْه هذه المرّة : (لا تزال يده اليُسرى متشنّجة ، لكنّه كان يحلّها ببطء . . . أنا أكره التشنّج ، إنّه خيانة الجسد للإنسان) داهَمَه الخوف مرّة أخرى ، وقف على قدميه ، وتمطّى بصلبه ، وحاول أن يخفّف بتمطّيه تعب اللّيلة السّابقة ، نظر إلى البحر ، لم يبدُ (جمال) في المشهد ، ارتعب ، أحدّ النّظر ، لم يرَ شيئًا ، هلع . أحدّ النّظر أكثر ما عاد يرى شيئًا . اقترب من الماء وهو يرتجف ، أمامه الجسر الخشبيّ الّذي يمدّ عنقه في خاصرة البحر ، أرسل من تحته نظرة فاحصة فتراءى له خيال صاحبه ، اقترب أكثر ليتأكّد وهو ما زال يعاني اصطكاك الأسنان ، وارتجاف القلب . . . نعم هو ، صاح به :

– تُحاول أن تُخيفني؟!! أنا لا أخاف . . . إذا أردتَ أن تغرق فاغرق أمامي ولا تختفي . . . لا تكنْ جبانًا حتّى في غرقك!!!

– أنا؟! أخيفك؟! أنتَ تخاف من جملةٍ في كتاب ، وتخاف من آهةٍ في صدر!!! أنتَ تخاف من نفسك يا صاحبي . . .!!

– لستُ خائفًا من أحد!!

– فلماذا لا تتقدّم بضعة خطوات وتغطس معي في هذه المتعة؟!

– لأنّني مشغول بالكتاب الّذي بين يديّ!!

– أرأيتَ . . . تتذرّع بالكتاب . . . تهرب إلى الكتاب من شبح الرّعب الّذي امتلأت به . . . لن يُلغي الكتاب مخاوفك . . . الكتاب يزيدها!! أنتَ ما زلتَ أنتَ منذ تلك الأيّام ، قلبك هواء وخيالاتك تطعنك في الصّحو أكثر مِمّا تطعنك في المنام!!

– لا تكنْ قاسيًا عليّ!!! أنا اخترتك صديقًا لأنّي فشلت أن أجد مثلك!!

– وستفقدني إن بقيت مصابًا بحمّى الخوف من كلّ شيء!!!

– ليلة الذّئاب السّبب!!

– حفظتُ ليلة الذّئاب هذه . . . ومللتُ منها . . . أليس عندك أسطوانة أخرى تُعيد عليّ عَرْضَها . . .

– لستَ صديقي . . . ظننتُ أنّني سأستعيد معك نفسي . . .

– أنتَ تفقد معي نفسك إنْ بقي أبوك يحشو رأسك بخيالات تلك اللّيلة!! يا أخي ألم تبرأ منها؟! كم مرّ عليها . . .؟! أليس الزّمن طبيبًا . . . ألا يستطيع بتقادمه أن يمسح على الجروح فيشفيها؟!

– لا . . . لا . . . الحقيقة أنّه يزيدها معي!!

– لقد سئمت من هذا الحوار . . . سأعود إلى الماء . . . الماء أكثر واقعيّةً منك!!

عاد كلّ واحدٍ منهما إلى مائه . . . أمّا واثق فازداد عدد الطّعنات الّتي تحيط بشغاف قلبه ، وعبثًا حاول أن ينزع بعضها فلم يقوَ . . . قرأ : (يا سمكة . . . يا سمكة عليك أن تموتي على أيّ حال) ارتجف هذه

المرّة ، وأيقن بالخاتمة . . . هي وحي . . . هي إلهام . . . هي تنبّؤات . . . هي تخيّلات . . . لا يدري . . . نهاية السّمكة أصبحت محتومة ، لا يُنجي الحذر من القدر . . .

ابتعد (جمال) أكثر ، أكثر . . . أين يهرب . . .؟! إلى أين يتّجه هذا المجنون . . .؟! أيحاول أن يتخلّص منّي بالدّخول إلى قلب البحر . . .؟! ظلّ يسبح باتّجاه الغرب حتّى أصبح نقطة سوداء لا تكاد تُرى من الشّاطئ . . . ثمّ . . . ثمّ ذاب في البحر . . .

اختفى تمامًا كأنّه ما كان ، وفرغتْ صفحة الماء منه . هذه المرّة قلب الكتاب ، ووقف على قدميه ، وأخذ نفسًا عميقًا ، وشعر براحةٍ كبرى لا يجد لها تفسيرًا . . .!!!

لم يقلق أبدًا ، بهدوء ترك الكتاب مقلوبًا على المقعد الخشبيّ المهترئ ، وتوجّه نحو الشّارع ، تاركًا البحر وراءه كأنما تخفّف من عِبْءٍ ما!!!!!!

نزلوا إلى العمق . . . الرّجال الضّفادع نَعَثوا الماء نَعْثًا ، والطّوافات حوّمت فوق المكان ، والغوّاصون فتّشوا حتّى ثنايا الصّخور المرجانيّة . . . نهارًا كامل ظلّوا يبحثون عنه ، وظلّ يحاول معهم لعبة التّخفّي ، حتّى تجلّى والشّمس تودّع المكان ، ليقول جسدُه لهم : وداعًا ، ها أنذا آتيكم ، ولكنّني آتي بجسدي بعد أن أطعمت البحر روحي!!

في طريق اللاّعودة سمعه يقول : حينَ تعود إلى البيت ، لا تقل لأمّي : إنّني متّ غرقًا ، بل قل لها : إنّني قضيتُ شهيدًا . لا تنسَ أنّني وهبتُ نفسي للبحر ؛ لقد كان ينقصه لؤلؤة سوداء جديدة من أجل أن يزداد (جمالاً) . . .

(٢٠)
مَنْ باع نفسه في سبيل الكرامة فقد اشتراها

ما أقساها من لحظة . . . ما أصعبها حينَ تحزّ بسكّين الألم جسدك جارحةً جارحةً ، وتمزّقها شِلْوًا شِلْوًا!!!

الجامعة خالية من كلّ شيءٍ والنّاس أمام مُحاضَرات كئيبة ونادرة بعضهم يموج في بعض . والنّافورة في ساحة الاعتصامات ما زالت تتـــدفّق بالماء . . . يرى ولا يرى . . . ويشكّ في يقين ، ويوقن في شكّ . . . ويتأرجح بين الأحوال دون مقام يرفعه .

شمختِ المداخل البُنّيّة في البوّاباتِ العالية ، مدّت الشمس في المساء أشعّتها بوهنٍ ، وراحت الظّلال تزحف إلى الخلف ناشرةً هدوءاً حزينًا ، لماذا هو الوقتُ بائسٌ إلى هذا الحدّ؟! ولماذا هي الحياة فارغةٌ إلى هذا المستوى؟! كان الصّمتُ يغلّف كلّ شيءٍ حتّى أنفاسه الباردة ، صمتٌ مُغلّفٌ برَهبةٍ لا يقطعه سوى أقدامٍ قادمةٍ من بعيد بين الحين والآخر .

أثرُ الفَقْد ما زال ماثلاً على عينيه ، داكِنًا في خضرة ، وزاهِرًا في اسْوِداد . . . وهو يرشح بدمعةٍ ثاعبة ، كأنّ قدَره لا يُفارِقه ، فيغدو هو هو . . .!!

الزّاوية المُقدّسة في الكافتيريا ضمّتْهما من جديد :

– ماتَ . . . كأنّه ما عاش!!! (قال للؤيّ وهو يخفض رأسه)

– هوّنْ عليكَ . . . الحياة ممرّ!!

– تخيّل أنّني استخرجْتُه من الغياب المؤقّت لأبعث به إلى الغياب المؤبّد!!

– . . . . . .!!!

– كنّا قد غِبْنا عنّا منذ أيّام المدرسة . ثمّ لمّا التقينا ظننّا أنّ فم الحياة ابتسم لنا قليلاً ، ولم نَدْرِ أنّ الموتَ سيلتقمنا . . . لم يُمهلنا فترةً كافية من أجل أن نتذكّره!!!

– عليك أن تلتقي (مُنى)!!!

– آه . . .آآآآه . . . . لم أرها منذ أيّام المعتقل!!!

– إذا رأيتَها أبعدتْ عنك شبح الموت ريثما تتعافى منه!!

– ظلّتْ أسئلتُه معلّقةً في عُنُقي!!

– لم تحدّثني عنه سابِقًا!! ألسنا أصدقاء؟!!

– لم ينتظرني حتّى أجيب عن أسئلته . ولم يودّعني!!! أكان بخيلاً إلى هذا الحدّ!!

– الهذيان يُمكن أن يساعد على تجاوز المأساة ، لكنّه –أحيانًا– قد يعتّقها!! أعطه فرصةً ليتجاوزك . حدّثني عنه . مَنْ هذا الّذي فَقْدُه أفقدك؟!!!

– ذاكرتي لا تتّسع لمزيدٍ من الفجائع . . . أنا أتذكّر الفجيعة الرّاهنة!!

– ما من فجيعة تدوم!!!

– كلاّ . . . أنتَ مُخطِئ ، فجيعتي بسميّة لا يمكن أن تنتهي!!

– أنتَ بالفعل محتاج إلى (مُنى)!!

– وهل عندها شِفاء ما أنا فيه؟!!

– قد . . . جرّب . . .!!!

– يبدو أنّها تتحاشاني . . . وإلاّ فلماذا كلّ هذا الهجران؟!

جثث الأطفال في الملاجئ كانت قد تفحّمتْ ، كانَ الصّاروخ الأوّل قد أحدث ثُقبًا في سطح الملجأ ، أمّا الصّاروخ الثّاني ذو الألف طن فقد نزل بكامل ثقله هو والسّقف على رؤوس الأطفال والنّساء والعجائز . تفحمّت الجثث بفعل الحرارة العالية الّتي تصهر الحجارة ، وقفزت أخرى لتعلق ببعض الجُدر المهدّمة ، وتدلّتْ بعض الأيدي أو الرّؤوس من بعض النّوافذ العالية ، وانحشرتْ بعضُ الأرجل في بعض الثّقوب .

(غيداء) كانت في اللّيلة السّابقة قد سهرتْ في الملجأ هي وأمّها وصديقاتها وأقاربها على ضوء الشّموع ، وقليلٍ من الرّقصات الّتي تُحاول انتزاع البسمة من الوجوه الكئيبة ، وبعضٍ من الشّراب الّذي دار على الحاضرات في محاولةٍ لنسيان الحزن ولو لليلةٍ واحدةٍ في مدينةٍ تُقصَف كلّ دقيقة ، وترتجف كلّ ساعة ، وتموت كلّ يوم . . .

لبستْ ثوبها الأبيض ، ووقفت وسط اللّواتي تداعَيْن من كلّ أنحاء الملجأ ليشهدْن حفل زفاف استثنائيًا ، وعلى بساطته فقد كان طافِحًا بالمودّة . يستطيع الإنسان أن يُزحزحَ الحزن عن مكانه قليلاً ليقول للفرح تقدّم خطوتين إلى الأمام!!

أمّها – رغم قتامة الظّلام – كان وجهها يُشعّ بالنّور ، ما في الظّلام من قوّة تستطيع أن تهزم نور القلب ؛ القلب يفيض بالنّور على الوجه ، والوجه ينثره على الحاضرين ، رقصت فرحًا حتّى أُنهكت ، ودارت بالشّراب والحلوى حتّى كادت تسقط من الإعياء ، وضمّتْ ابنتها إلى صدرها طويلاً طويلاً كأنّها تخشى من قدرٍ مخبوء في جنح الظّلام ؛ أليس قلبُ الأمّ دليلَها؟!!

في تلك الليلة نامت غيداء بثوبها الأبيض ، وفي الصّباح سيكون فارس الأحلام ينتظرها على أحرّ من الجمر . هل يمكن للصّباح ألاّ يطلع؟! هل يُمكن للّيل أن يظلّ باسِطًا أجنحته على الأمكنة كلّها؟! كان الصّاروخ الأوّل قد دار في السّطح بشكلٍ لولبيّ ، ثمّ سقط على أرض الملجأ وابتلع الهواء المخنوق في ثوانٍ معدودات . استجابت الأبواب لانسحاب الهواء فأَغْلقتْ مصاريعها بإحكام ، فلم يعد بإمكان أيّ أحدٍ أن يفتحها ولا أن يخرج من المكان المحصور ، ثمّ جاء دور الصّاروخ الثّاني ، وكان متواطِئًا - ربّما - مع الموت نفسه ، فحلّ قريبًا من الثّوب الأبيض ، رماها بقسوةٍ على الجدار الّذي يبعد بضعة أمتار فذاب لحمُها عن عظمها ، وساحت عليه كما لو كانت دلوَ ماءٍ صُبّ على زُجاجٍ أملس . . . ارتطامها بالجدار لهول الانفجار كاد أن يوقعَ الجدار نفسَه ، ولكنّ هذا الجدار فضّلَ أن يرسم خطوطَ جسدها الملائكيّ عليه ، على أن يبتلعها في جوفه ، أو يسقطا معًا . . . بدا جسدُها المُلصَق على الجدار لوحةً سرياليّة ، لا يُدرك مستوى الفجيعة فيها إلاّ من لمسَ بيده ما تبقّى من الدّم والثّوب (والطّرحة) . . . وعلى غُبار هذا الجدار ظلّتْ حكاية (غيداء) تروي نفسها للقادمين ، شاهدةً على عدالة العالَم الحُرّ؟!!!!!!

من السّهل أن تبدأ الحرب ، ولكنْ من الصّعب أن توقِفها . لم يدرِ لماذا خطرتْ بباله هذه المقولة ، وهو يفد إلى ساحة مربّع (السي) الّتي سوف تنطلق منها المسيرة ، باتّجاه النّافورة مكان الاعتصامات الأَشْهَر عبر مسيرته الجامعيّة المليئة بالمفاجآت والتّعرّجات . . .

كانت الطّيور الّتي تحطّ في المربّع من كلّ جنسٍ ولونٍ . . . لم يبقَ أحدٌ في الجامعة سمع بالحادثة إلاّ وهُرع إلى المكان يكاد يتميّز من

الغيظ . . . ظلّ الأساتذة نائين بأنفسهم عن المشهد . كان اللاّفت أنّ عددًا من الموظّفين البُسطاء في الجامعة شاركوا في التّجمّع . . . انطلقت الهتافات تتوعّد وتُرعِد . . . من رأى المشهد أيقن أنّ حرب التحرير قادمة ، وأنّ الشّعوب يُمكن أن تصنع ما لم يكنْ بالحُسبان . . .

كانت العيون قد بدأت تتربّص بذلك الشّاب الّذي صار يرتقي درجات القلوب ، وبدأت تسلّط عليه عيون الرّقباء . . . لا يُمكن أن يكون جسده بهذه الضآلة وصوته بهذه الفخامة . . .؟!! (تساءَلوا) ولا يُمكن أن يكون يكاد يختفي عن نفسه ولا يظهر إلاّ إذا صعد منصّة أو ساريةً ثمّ يلهب الجماهير بكلماته النّاريّة ، وخطاباته الثّوريّة . . . على يد مَنْ تعلّم الثّورة هذا الفتى؟!!

سارت المسيرة وأرجاء الجامعة تكاد تتشقّق للهتافات ، وتنبعج للشّعارات . . . صاح أحدهم :

خـــايِنْ خـــايِنْ مَـــهْـــمَنْ كـــانْ
يـا عَـــمِـــيـلِ الأمْـــرِيـكـانْ

فصاح النّاس من بعده .

هتف أحدهم :

بالرُّوْحْ . . . بِالدَّمْ . . . نَفْـدِيكْ يا شَـهِـيـدْ

فتماوج الجمع ، على إيقاع كلماتها المُقطّعة .

انفجر ثالث :

شِـــدْ حِـــيْلَكْ شِـــدْ حِـــيْلَكْ
خَلّي جِـــيلِ الثَّـــوْرَةْ جِـــيْلَكْ

فتمايل الشّباب وهم يشعرون أنّ كلّ كلمةٍ في هذا الشّعار تعنيهم .

صرخ رابع :

أَمْـــــرِيكا هِيِّــــــةْ هِيِّــــــةْ

أَمْــــرِيكا رَاسِ الحَـــــيِّـــــةْ

فـتلقّف النّاس الشّـعـار ، وهاجـوا ومـاجـوا وهم يبـعـثـون به من حناجرهم إلى أعالي الفضاء .

ظلّت المسيـرة تشقّ الطّريق من مـربّع (السّي) إلى دائرة النّافـورة ، وفي المقـدّمة كان هذا الفتى الثّائر يقود الجمـوع ، يهتف بكـلّ ما أوتي من قوّة ، فتردّ الجموع قوّته إلى قوّة . تُلهِب كلماته السّائرين ، وتحمّس حـركات يديه المُنتـفِضين . حتّى إذا تحلّق الجـميع حول النّافورة ، كـان المهرجان قد بدأ . أشرف على تقديم فعاليّاته هو ومجموعة من البعثيّين والإسلاميّين .

نظر إليـها وهي تتّخذ زاويةً قصيّـةً عن يمينه فـارتجف لها قلبُه . . . سارع بالنّزول من المنصّة بعد أن أوكل أمر الهُتافات لزميلٍ آخر له . . . وشقّ الصّـفـوف نحوها والعيـون ترمـقه من كلّ صوبٍ ، حتّى إذا صار على مسافـةٍ قريبةٍ جداً منها ، صنعت العيـون المُحدقة به جدارًا من الإسمنت العالي أمامه . توقّف فجأة ، وحكّ ذقنه الصّغيرة عدّة مرّات ، ولوى زاوية فمه ، ثمّ عاد أدراجه إلى المنصّة .

ثلاث ساعاتٍ من النّار المتّقدة لم تخمد إلاّ لتنبعث من جديد . انفضّ الجـمع إلاّ منهـا . تقـدّم نحوها وتوقّع أن تنتظره بعد أن يُغـادروا . جلسا على مقعد اللّقاء الأوّل ، نظر في عينيها طويلاً قبل أن يقول ألف قصيدةٍ خبأها من أيّام المُعتقل لينثرها أمام جلالها الطّاغي .

- جــوعي إلى رؤيتكِ كــادَ أن يقــضي على مــا تبــقّى من جسدي . . .!!

- ليس أكثر من جوعي إلى لقائكَ!!
- عجيب . . . فلماذا لم أركِ أيّام سجني؟!
- خاف أهلي عليّ . بصراحة هم يعرفون ما يدور بيننا .
- وأنت؟!
- خِفتُ عليكَ!! كلّ يوم كنتُ أتكوّر على نفسي في الفراش ، وأنا أضع يديَ على قلبي من الألم خوفًا من فقدك . . . صَدِّقْ : أنتَ عندي أهمّ من نفسي!! (بالعبارة الأخيرة أطفأت كلّ نيران العتاب الّتي أكلتْ قلبه ، وأزالت كلّ ركام الهمّ الّذي تحجّر في روحه)
- والله لولا طيفك الحاضر فيّ ما استطعت أن أصبر على وساخات المُعتقل ، وقذارات المُحقّقين . . .
- أنا أحبّك لأنّي أجد عندك طمأنينتي الهاربة منّي . . . أمّا أهلي . . . (تتردّد)
- ماذا يقول أهلك عنّي؟!
- يقولون : ليس لك معه مستقبل . مستقبل فَتاك على كفّ عفريت!!
- ألم تقولي لهم إنّني العفريت نفسه؟!! (تضحك طويلاً ، ويضحك هو تؤرجحه ضحكتُها)
- ها نحن نطفئ شمعة عمرنا دون أن يعيرنا العُمر انتباهًا!!
- وكيف ينتبه لنا؟!
- عليكَ أن تتّخذ الخطوة المناسبة . . .!!
- عديني أن ألتقيك كلّ يوم . . . لا أستطيع أن أبصر الطّريق دون أن آخذ من بريق عينيك ضياءً يُزيلُ العتمات . . .
- . . . . . .!!

– لنجعل من مكان لقائنا الأوّل معبدًا . . . في الخامسة مساءً حيثُ تكون الطّريق إلى القلب مفتوحة ، والصّلاة فيه طيّعة ، والمعراج مُهيَّأ!!

ظلّتْ ساحرته . لم يعرف هو قبلها معنى الحبّ . أو لم يعرف لماذا يأتي الحبّ ، ومن أيّ الجهات يطلّ ؛ من جهة الغفلة ، أم من جهة الوَحدة!! كانت بين يديه عصفورةً تتعلّم الغناء ؛ وكان بين يديها شاعرًا يحترف العزف على موسيقى الوجع!!

هي ياسمينة كلّما نظر إليها عبقتْ بالطِّيب ، وكلّما نظرتْ إليه ازدادت بياضًا . . . أمّا هو فورقة مُسطّحة تعبث بها رياح العشق ، وتؤرجحها في الفراغ . . .!!

يا (مُنى) . . . . يااااااا (مُنى) . . . . يااااااااااااا (مُنى) أنا مجنونٌ فيك ، مذبوحٌ من الوريد إلى الوريد ، مرميّ على طرقات العاشقين كوردةٍ بينَ يدي الذّبول تدوسني أقدام البائسين . . . أحتاجك . . . أجوع إليك . . . أنصهر في ملكوتك . . . أنحبس في ضلوعك . . . أنغمسُ في رحموتك . . . أتماثلُ في شَهَقاتكِ . . . أحترق في زَفَراتكِ . . . أموتُ بنظرةٍ من عينيك . . . وأحيا بنظرةٍ أخرى من هاتين العينينِ الفاتِكَتَين . . . من أينَ دخلتِ إلى عالِمي المُغلَق؟! من أين قدمتِ إلى هلوساتي وجنوني؟! كيف تمكّنتِ من الإمساك بسلاسل روحي المُنهَكة؟! هل كنتُ محتاجًا إلى ميتةٍ أخرى لِتُضاف إلى آلاف الميتات الّتي عِشْتُها . . . لماذا يعشق المجانين؟! لماذا يثقب الحبّ فؤادهم . . .؟! لماذا تأكل الهموم جوانحهم . . .؟! لماذا تُعشِّش الأوجاع تحت مسامات جلودهم . . .؟! لماذا تفقأ الدّموع عيونهم . . .؟! أيفعل الحبّ بهم كلّ هذا . . .؟! كيف ينهضون من رمادهم بعد أن يكون

الحريق قد أتى على كلّ ما فيهم . . .؟!!!!

ها هو العام الثّاني من عمرنا ننهيه قُبيل أن نغادر أجسادَنا . . . كنتِ طائري الوحيد ، وكنتُ قافلةَ الحنين . كنتِ زنبقةَ الوادي الرّطيب ، وكنتُ سنبلةَ الجبل العتيق . كنتِ دمعتي الذّارفة ، وكنتُ عينَها النّازفة . . . كنتِ معزوفتي الخالدة ، وكنتُ عرّابها المجهول . كنتِ رائحة الصّنوبر في المنعرجات الصّاعدة إلى قمّة ابن جُبير وكنتُ ثمرتها الّتي سقطت في فناء الشّجرة يابسةً أسِيّة . كنتِ بيتًا في قصيدةٍ لم يقلها المجنون ، وكنتُ القصيدة . كنتِ صفحة في (آلام فارتر) ، وكنتُ (فارتر) نفسه . كنتِ مقطوعةً من موسيقى نينوى ، وكنتُ العازف الّذي نقشها على الحجر . كنتِ مستعدّةً لسحقي دون أن تدري ، وكنتُ مستعداً لأقبل ذلك وأنا أدري . كنتِ أنا وكنتُ أنتِ!!!!

(٢١)
العشقُ... ارتِعادُ الجوارح لِما خفيَ من سبب

الصّاعدون إلى القمم لا يضيرهم وعورة الدرّوب ولا كثرة الحُفر ولا وَحْشة الوِديان ؛ الغايات تهزأ بالصّعوبات ، ومهما يكنْ من أذىً في سبيل الغاية العُظمى يكن مُستعذَبًا وإن عذّبَ وآذى وأوجعَ وأحزنَ . هتف في نفسه : وَأَعْلَمُ أنَّ الطَّريقَ طَويلٌ . . وَأنَّ المَنالَ بَعِيدٌ . . وَلَكِنَّهُ الحَقّ ؛ هَيْهاتَ مَنْ هَمُّهُ الحَقُّ أَنْ يَرْتَضِيْ بِالظّلامْ!!

اجتمع في نهاية الأسبوع مع المجموعة المصغّرة الّتي شكّلها من أجل تنظيم تحرّكات الشّباب ، وقرّروا – دون تردّد – الآتي :

– ٥/١٩ إضراب عن الدّراسة في الجامعة ليوم واحد في الكلّيّات كافّة . (وجّههم إلى ملاحظةٍ صغيرة : إذا نجح ذلك بنسبة ٦٠ بالمئة فهو إنجاز غير مسبوق) .

– ٥/٢٠ إعلان الإضراب عن الطّعام – لِمَنْ أراد – لثلاثة أيّام . خيمة الإضراب تُرفع عند برج السّاعة ليراها كلُّ الدّاخلين والخارجين . نعصب شريطةً سوداء على أفواهنا ، ونلبس طاقيّة بيضاء على رؤوسنا . . .

– ٥/٢٦ اعتصام صامتٌ في ساحة النّافورة . . . والجلوس على الأرض احتجاجًا على العدوان الأمريكيّ . الشّعارات مركزيّة . إذا أفلتت بعض الشّعارات وقصفت باتّجاه الحكومة فلا بأس ؛ فالجميع متّفق على

أنّ الحكومات خائنة للشّعب وللوطن . وتستحقّ أكثر مِمّا تتوقّع!!

– ٥/٢٧ معرض صور ورسومات لضحايا القصف الأمريكيّ . لن ننظّمه في قاعة . القاعات متواطِئة مع المخابرات . فلتكن قاعاتنا كلّ الجامعة . ممرّات الكلّيّات . . . ألواح المحاضرات . . . ساحات التّجمّعات . . . لوحات الإعلانات . . . حوائط المباني . . . (أوصاهم أكثر من مرّة : رَكّزوا على الصّور الّتي تُظهِر تفحّم الجثث وخاصّة من الأطفال . . .) وليستمرّ المعرض حتّى تسقط اللّوحات عن أماكنها باختيارها أو بيد الموت . . .!!

– ٥/٢٧ – ٥/٣٠ المبيت في الجامعة ، في مدرّج كلّيّة الصّيدلة ، لن نغادرها حتّى تحقيق مطالبنا . . .

لماذا غفلت الحكومة كلّ هذا الوقت عن هذا الفتى المُدهِش ، ألئنّ الثّوريّين بالمعنى الحقيقيّ انتهوا منذ زمنٍ بعيد ، وأعاد هو إليهم اعتبارهم من جديد؟! ولكنّ هذا الفتى خطيرٌ بكلّ المقاييس . . . إنّه يذهب بالطّلاّب نحو المجهول!! ثمّ . . . ثمّ من أين امتلك كلّ هذه الكاريزما والجاذبيّة الشّخصيّة حتّى يجعل كلّ هذه الجموع تلتفّ حوله؟! أم أنّ شخصيّته ليست هي السّبب ؛ بل إنّ الظّروف هي الّتي خدمتْه؟! والأوضاع السّياسيّة هي الّتي أعطتْ لكلماته مفعولاً ، ولخُططه نجاحًا؟! المهمّ : لم يعد السّكوت على هذا الفتى مُمكنًا!!!

نجحتْ مُخطّطاته كما لو أنّ رئيس دولةٍ هو الّذي أوعز بها!! وظلّتْ (مُنى) ترى فيه سيّدها الّذي تربّع على عرش قلبها . رافقتْه في كلّ الفعاليّات والسّباقات نحو قمّة البركان . وازداد بها حماسةً ، وازدادتْ به التِصاقًا ؛ أحسّتْ أنّ قَدَرها ينسرب إلى ساقية هذا الفتى!! ما الّذي صنع منه – في نظرها – بطلها الأوحد؟! عفويّته!! ربّما . ثورته الطّاغية!!

ربّما . إيمانه العميق!! ربّما . صِدقه اللامنتهي!! ربّما . انتماؤه إلى قناعاته دون سواها!! ربّما . حركته المتدفّقة تدفّق الماء في الجدول المنساب بين الصّخور!! ربّما . جنونه؟! ربّما . جنوحه؟! رُبّما . والحكومة؟! ماذا تفعل حِيال هذا الّذي يصنع مفاهيم جديدة في عقول الجيل الجديد!! خافتْ منه؟!! ربّما . احترمتْه؟!! ربّما . أدهشَها؟!! ربّما . قرّرت أن تقضي عليه؟!! ربّما .

إنّها ليلة السّابع والعشرين من شهر أيّار ، كما لو كانت ليلة السّابع والعشرين من رمضان ، اعتكف هو وزملاؤه في كلّيّة الصّيدلة . ماذا يفعلون في أروقتها الّتي تضجّ بهم؟! وفي قاعاتها الّتي خلتْ إلاّ منهم!! كانوا حوالي (١٧٠) طالبًا . التحموا جسدًا واحدًا في المحنة . وانصهروا في نسيج متآلف لمواجهة القادم الأخطر . ظلّ النّسيج مترابطًا على الرّغم من اختلاف خطوطه .

كلّما خمدت نار العزيمة في النّفوس ، قام هذا الفتى وهو يحمل صورةً لطفلة فُصِل رأسُها عن جسدها ، فصاغ من الصّورة خطابًا يقطر دمًا ، فتهيج النّفوس ، وتلتهب النّيران في الصّدور ، وترتجّ الجنبات لصيحات الاستنكار ، وهتافات التّوعّد بالثّأر . هذا هو الدّم العربيّ المسفوح ، ولا أحد من الحاكمين يَطرِف له جَفْن!! هذا هو شلاّل الدّم النّازف من الأشلاء المبتورة ، ولا عُميان غيرُ الزّعماء!! هاتوا لنا السّلاح ، وافتحوا لنا الجبهات ، واتركونا وشأننا . إذا كنتم لا تريدون أن تقاتلوا فنحن نريد أن نقاتل ، خلّوا بينا وبين بلادنا المنهوبة ، وسنخلّي بينكم وبين شهواتكم المسكوبة . كلٌّ على ما تعوّد!! مليون مُستضعف يستصرخ ، ولا أصمّ سواكم . نريد أن نقاتل ؛ في فلسطين ، والعراق ، ولبنان . . . إذا كان وقود مذابح العدالة الأمريكيّة والصّهيونيّة هو أجساد

إخواننا ، فنريد أن نكون جزءاً من هذا الوقود!!

ظلّتْ كلماتُه الثّائرة المفتاح السّحريّ الّذي استطاع أن يُشرِّع الأبواب المغلقة . كان هناك مَنْ يسمع ، وكان هناك من يقرأ . وكان هناك مَنْ يكتب . . . وكانت هي إلى جانبه تكاد تذوب في هذه الصّفصافة الباسقة ، الّتي تؤتي حُروفُها أُكُلَها . . .!!!

انهمرت القنابل المسيلة للدّموع ، وملأت المكان بالغازات الخانقة ، وبدأ أصحاب القلوب الضّعيفة يتساقَطون ، وظهرت حالات التّشنّج ، والإغماء ، والتّقيّؤ ، والغيبوبة ، وارتفاع الضّغط . . . ونزلتْ الهراوات على الصّدور والرّؤوس والأجساد ، وسالتْ دِماء كثيرة ، وكادت أرواح بعض الطّلاب تُغادر أجسادهم . ولم يحتمل هو انفلات الوحوش من عُقُلها ، فخرّ صريعًا يسبح في بركةٍ من الدّماء . . .!!

كان صيفًا لاهبًا ، والدّول مُستشرِسة ، والأحداث متسارعة تضع المنطقة كلّها على صفيح ساخن ، وفوقه اكتوى باللّهيب الأقارب والأباعد . أمّا هو فاستيقظَ على أنبوبة المصل المغروسة في ظاهر يده ، وبيده الأخرى تحسّس رأسه ، فعرف أنّ الشّاش الأبيض يُغطّي ثلاثة أرباعه . أجال النّظر في الغرفة ، تمنّى أن تكون ابتسامتها هي أوّل ما يفتح عليه عينيه ، لكنّه خاب . استحضرها في ذهنه ، فبدت ماثلةً أمامه بكامل إشراقتها . . . اقترب منها وشدّ بيده الحرّة على يدها ، فغاصت . فاحت في الجوّ رائحة الصّنوبر العتيق ، ابتسم . الغد أفضل من أمس . وهتف : يأخذ الحياة مَنْ وهبها ، ويختار الموتَ مَنْ كتبه عليهم في الألواح .

لم تكفّ الرّسائل الأمنيّة الّتي صارت تنهال على رأس أبيه مقامع من حديد . فمرّة تحمل في طيّاتها نصيحةً ، ومرّة وعيدًا ، ومرّة

تهديدًا . . . كانت نصائحهم ذات أنياب ؛ نصحوه بأن يراقب ابنه ، فلم تعد الدّولة تحتمله ولا تحتمل حماقاته ، ولا لعبه بالنّار!! ولولا أنّه من (أمّ الكروم) لكان قد رُفعَ على عود المشنقة منذ زمنٍ بعيد!! قالوا له إنّ : ابنه صار تحت دائرة الضّوء ، وإنّ هذه الدّائرة تتسّع لتشمل مسامات جلده ، وخلايا جسده . وقالوا له : إنّ الأجهزة الأمنيّة تستطيع أن ترصد عدد ذبذبات جناح الذّبابة وهي طائرة في الفضاء ، وإنّ حركات (واثق) ليستْ بمنأى عن يد هذه الأجهزة . وقالوا له أيضًا : هو متفوّق في دراسته ، وعليه أن ينتبه إلى دروسه بدلاً من أن يركض مع اللاّوطنيّين واللاّمنتمين الّذين يخرّبون البلد . . . ومرّة بعثوا لأبيه يطلبونه ، وعندما دخل أبوه على الضّابط المسؤول ، قال له :

– يا (أبو واثق) إنتا من (أمّ الكروم) المعروفة بحبّها للوطن ، وإنتا معروف بولائك إِلُهْ ؛ ليش ابنك مِشْ طالِعلَك؟!!

– كيف يعني مِشْ طالِعلي؟!

– يعني إنتا فاهِمْني ؛ ابنك بِمشي مع الهَمَل . وبقود مسيرات تخريبيّة ، واعتصامات وكلام فاضي . . .

– الهَمَل؟!! بِمشي مع الهَمل؟!!!!!

– قصدي هَظول إلّي كُل يوم بمظاهرة ، ونُصهم راسبين بالمواد ، وحاملين ثلاث أرباع الفَصل!!!

– آه . . . آآآآآآه . . .

ولا ينتهي الجِدال إلاّ بارتفاع الأصوات ، ويخرج أبو واثق من المركز الأمنيّ مُثقلاً بالدّهشة ، متعجّبًا من ابنه ، وإن كان في أعماقه لا يستطيع أن يُخفي إعجابًا به ، وسرورًا بما يفعله . لم يشكّ للحظة أنّ ليلة الذّئاب هي الّتي شكمت ابنه ، وصيّرتْه على هذا النّحو!!

كان يعرف أنّهم لن يتركوه بعد أن يخرج من المستشفَى ، ينتظرون تماثله لكي يقبضوا عليه من جديد . قرّر أن يكون أسرع منهم فاختفى . اختار أن يغيب . خرج في منتصف اللّيلة الثالثة على أطراف أصابعه ، ومشى يتّقي القيود الّتي تقترب من الالتفاف على معصميه . جُرعات من الخوف تنزلق في المريء . ووخزات من التّرقّب تضرب جدار معدته . ولكنْ أينَ يذهب في مثل هذا الوقت من اللّيل ، والطَّريق عمياء ، ورأسه غارقةٌ في الشّاش ، ويده تنزف من أثر الإبرة . . . إلى (لؤيّ) ؛ اهتدى إلى الجواب سريعًا . أكثر صديقٍ مضمون في مثل هذه الأزمات . مشى على أقدام التّرقّب والحذر ساعتين حتّى وصل إلى بيت (لؤيّ) . يعرف أنّه يبيت في طابق التّسوية وحده ، هناك يُمكن أن يكون المكان أكثر أمانًا من سواه ، تسلّل من خلف البيت حتّى وصل إلى الشّبّاك المنخفض الّذي لا يرتفع سوى نصف متر عن وجه الأرض ، جثا على ركبتيه عنده ، وأزاح الزّجاج برفق ، ونظر في العتمة السّائدة ، فلم يتبيّنْ شيئًا ، أحدّ النّظر فازداد عماه حيرةً ، أزاح جسده عن الشّبّاك قليلاً كي يسمح لبعض النّور القادم من عمودِ الكهرباء في الشّارع أن يتسلّل ، فيميط اللّثام عن بعض الموجودات في الدّاخل ، نعم بالكاد استطاع أن يحدّد موضع السّرير ، تأكّد أنّه (لؤيّ) فاندهش ، قال في نفسه : إذًا ها هو هنا بلحمه ودمه لم يُعتقل!! حمدَ الله . أجال بصره مرّة أخرى ليتأكّد أنّه وحده هناك ، ثمّ قفز بخفّة إلى الدّاخل ، وفي ثوانٍ معدوادت كان يجلس على حافّة السّرير عند رأسٍ صديقه . هزّه من كتفيه قليلاً ، وناداه بصوتٍ خفيض ولكنّه حادٍّ : (لؤيّ . . . لؤيّيّ) استيقظَ فَزِعًا ، وازداد فزعه وهو يرى وجهًا فوق رأسه لا تظهر منه إلاّ عينان ، كاد يصرخ ، فعاجله واثق بِوَضْع يده على فمه بقوّة ،

وقرّب وجهه منه ، وقال :

- اهدأ . . . اهدأ . . . أنا واثق . . . أنا واثق!! ثمّ أزاح يده عن فمه ببطء . ابتلع لؤيّ ريقه بصعوبة ، ثمّ هتف بصوتٍ أجشّ :

- واثق . . .!!!!!! أرعبْتني يا رجل . . .!!!

- قُمْ . . . قُمْ . . . هناك الكثير من الأمور يجب أن نناقشها . . .!!!

- يا رجل . . . . فعلوا بك كلّ هذا . . .؟!! يا ويلي عليك!!! (قال ذلك بألم وهو يتحسّس بيديه على رأس صديقه) .

- الآن . . . قُمْ . . . اصنع لي فُنجانًا من القهوة ، وأجّل تأوّهاتك بعد أن نعرف ماذا ينتظرنا . . .

كيف استباحتْ دمَه بهذه القسوة . . .؟!! كيف نامت فيه ما بين خليّة وخليّة؟!! كيف تمكّنت منه بهذه السّهولة؟! وليكنْ ؛ لقد بدأ حياته عاشقًا ، وسيُنهيها عاشقًا كذلك!!! كان العشق بالنّسبة له الهواء الّذي تنفّسه على قمّة ابن جبير . والرّعب؟! مثلُ العشق . لقد تنفسّه عند البئر الأولى الّتي شرب منها الماء هو وسميّة!! أمانيه قبلها كانت مشتّتة فاجتمعت فيها . هل كان يرى ما لا يراه الآخرون؟! هل كان يملأ قلبه بورود اللّوعة الّتي قطفها من حدائق الدَّنَف؟!

اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى ، يرى أنّها تلتفّ على روحه فتمتزج بها . اليوم يُدرك أنّه لن يشفى منها إلاّ بها!! ولن تغادره حتّى يُغادِرَ هو الدّنيا . وأنّ العشق ربيبُ الموت ، وخِدنه الطّائع ، وأنّ أحدهما لا يُمكن أن يخذل الآخر ، وأنّهما هما هما في حقيقتها وإن كانا يتّخذان اسمين يبدوان مُختلفَين!! سأله العشقُ أن يعرّفه؟! فحارَ . قال : العشق : خديعة العين للقلب . نِتاجُ التّوقِ من الهَذَيان . ندمٌ على زمنٍ لم يُقطَّع القلبُ فيه إلى أشلاء من قبلُ . غمرةٌ تضرب صفحة القلب عن غفلة .

شوقٌ لحاضر يغيب جسدًا ويحضر روحًا . ارتعادُ الجوارح لما خفيَ من سبب . معزوفةٌ مُبتكرة تُعزَف بأصابعَ من شَجَن!!!!

جاءه بالقهوة وهو يكاد يتعثّر في الطّريق . سحب منضدة بلاستيكيّة إلى طرف السّرير ، وجلسا على الحافّة :

– ماذا حدث لك . . . طمِّنّي؟! (قال ذلك لؤيّ بلهفة بادية)

– كما ترى . . . سقطت بعد عشرات الهراوات الّتي سقطت على رأسي وجسدي . . . غبتُ عن الوعي ، واستيقظتُ على نفسي في المستشفى . هربت منه وجئتك!! وأنت؟!!

– حدث تدافعٌ كبير عند هجوم قوّات مكافحة الشّغب . فشلتْ خُوَذُهم السّميكة في إخفاء بريق العينين اللّتين تتدفّق الشّراسة منهما . . . هجموا كما تهجم السّباع على الفرائس!!

– والأصدقاء . . .؟!

– لم أتبيّنْ . . . . بعضهم رأيتُه يسقط تحت الأقدام . . . الأبواب كانت مُغلَقة . . . حاولنا أن نفتحها كانوا قد أعدّوا أنفسهم لهذه اللّحظة . . . انهمرت العصيّ الخشبيّة ، وبعض الغازات والقنابل المسيلة للدّموع . . . رأيتُني اندفع أنا وخمسة من الشّباب باتّجاه أحد الأبواب الجانبيّة . . . فتحناه بالقوّة بعد أن استعنّا بأحد القضبان الحديديّة وكسرناه ، استطاع بعض الزّملاء والزّميلات الإفلات . . . هربوا باتّجاه السّاحة . . . ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك . . .؟!!!

– ومُنَى . . .؟!

– رأيتُها في بداية الهجوم علينا مع بعض الزّميلات يتّقين العصيّ ويصرخنَ في وجه الشّرطة . . .

– هل خرجتْ من الباب الّذي فتحتموه . . .؟!!

– لا أدري . . . خـــرجتُ أنا منه . . . ولا أدري مـــاذا حـــدث بعدها . . .!!

– يعني . . . هربتَ وتركْتَها . . . (قال ذلك بغضب)

– لم يكنْ لديّ وقتٌ للتّفكير . . .!!!

– ولكنْ كان لديك وقتٌ للتّفكير بنفسك . . . وكان لديك مكانٌ للهروب . . . أنتَ أنانيّ وأحمق . . .!!

– صبرك يا صديقي . . . (قال ذلك وقد فاجأتْه ردّة فعل صديقه)

– آه لو لم يُغمَ عليّ . . .!!

– لا تكنْ قاسيًا . . .

– لماذا لم تُعتَقل مع من اعتقلوا . . . هاه . . . لماذا؟!

– لقد هربتُ . . . لقد كنتُ جبانًا . . . هل أعجبك هذا الجواب؟!

– نعم . . . أنتَ جبان . . . . دعْنا ننته هنا . . . سأغادر هذا اللّقاء الملعون .

– إلى أين تذهب . . . أنتَ عرضة للاعتقال في أيّ لحظةٍ . . .!!

– وليكنْ . . . هل أنتَ بمنأى عن هذا الاعتقال . . .؟!

– لا يا صـديقي . . . صـدّقني . . . مـا حـدث لم أبرأ منه إلى اليوم . . . نَمْ عندي اللّيلة . . . لا تتركني بعد أن رأيتك . . .!!

– مضطرّ أن أنام . . . في الصّباح سأذهب إلى دار (مُنى) وأقابِل أباها . . .

– تُقابل أباها . . . !!!!!

– بلى .

– لماذا؟!

– سوف أخطِب إليه (مُنى)!!

- بهذا المنظر البائس؟!!

- هذا أفضل منظر يدلّ على صِدقي وجِدّيّتي . . .!!

- أنتَ مجنون !!!

- كلّنا مجانين . . . الجنون عرضٌ يصيب البشر جميعهم ، وإنْ بدرجات مختلفة .

- وأنتَ أين تصنّف نفسك . . .

- دعني من التّصنيفات الآن . . . لم يعد الانتظار مُجدِيًا . . . سأذهب إلى أبيها ، وأقف مثل عاشقٍ أسطوريّ وأطلب يد ابنته منه . . . ما رأيك؟!!!

- مجنون في الحدّ الأقصى من حالات الجنون . . .!!!

- أليس الجنون مُمتعًا أحيانًا!!!!

نام (لؤيّ) في تلك اللّيلة ، أمّا هو فظلّ العشق مُمسِكًا بأطراف عينيه يمنعهما أن تُغمِضا . . . ملايين الأسئلة جالت في خاطره وهو يتذكّر تفاصيل الليلة المشهودة .

ستُقاتِلون أو تُقاتَلون . خانَه التّوفيقُ من لم يختر الأولى . يهتف أحد الّذين بعثرتْهم كلمات واثق : (إنْ عِشْتَ فَعِشْ حُرًّا . . . أَوْ مُتْ كَالأَشْجارِ وُقُوفًا . . . وُقُوفًا كَالأَشْجار) . مَنْ باع نفسه في سبيل الكرامة فقد اشتراها . سيخدعونكم حين يقولون : البلد لا تحتمل . لا تكنْ معولاً يحفرُ في جدار البلد . نحن أفضل من غيرنا . فَرْكَةْ كَعبْ من حولنا وشوفوا إلّلي بصير . . . نعم سيخدعونكم ، فهل أنتم سُذَّج إلى هذا الحدّ؟! انحازوا إلى مبادئكم بتخلّيكم عن القيود الّتي يضعونها في أفواهكم وعقولكم قبل أيديكم وأرجلكم .

ثمّ في الثّانية فجرًا ، هدأتْ أمواج الطّلاّب ، وراح بعضهم يتّخذ

من المقاعد الخشبيّة فراشًا ينام عليه ، واستلقى آخرون على الأرض . وافترش قسم ثالثٌ المسرح . وانزوت الطّالبات في الكواليس خلف المسرح وهناك وجدنَ بعض السّتائر فَرُحْنَ يتغطّين بها . أمّا هو فلم يُغادِر موضعه الّذي كان يُلقي منه الخِطابات النّاريّة . تكوّر على نفسه ، ومدّ عنقه داخل المنصّة الصّغيرة ، وأراح جسده من أجل أن يكتسب طاقةً جديدةً ليوم جديد من الثّورة . . .

نعم في الثّانية فجرًا ، تعالت الأصوات . استيقظ على صوتِ الطّلبة القريبين من الباب الرّئيسيّ للمدرّج وقد داستْهم البساطير . . . شقّت الآهات سكون المكان ، وانطلقت صيحات الرّعب والفزع تتلاطم في الفضاء . . . وبدأت أفواه قوى الأمن تُطلِق سيلاً من الشّتائم والمسبّات . . . أمّا هو فنهض من مكانه فَزِعًا ، قفز من داخل المنصّة كزمبرك فارتطم رأسه بالحافّة الخشبيّة ، فساعد ذلك في سرعة استيقاظه . . . فكّر فيها أول الأمر . . . ركض باتّجاه الكواليس ليحذّرها ، وكانوا أسرع منه . . . قصدوه هو بالذّات ؛ يعرفون المكان الّذي نام فيه . . . فانثالوا عليه من كلّ مكان . . . كان هو غاية الغايات ، أكثر من اثني عشر عسكريًا أحاطوا به ، وراحت هراواتهم تهوي عليه ، وأرجلهم تركله في صدره وبطنه . . . ابتسم في وجههم كأنّه ينتظرهم من زمنٍ . . . قال في نفسه : لم يعد بعد ليلة الذّئاب ما يُخيف . . . فتح صدره ويديه . . . واستقبل ما خُيّل إليه في تلك اللّحظة أنّه الموت . . .

تناثرت الأجساد على المدرّج ، وفي باحته ، ولم يستطع أن يتبيّن مَنْ سَقَطَ مِن الزّملاء وقد انتشر ضبابٌ كثيفٌ جرّاء الغازات المسافرة في الجوّ . . . استطاع أن يتبيّن بعض العساكر يحملون البنادق ، ويدقّون بِكُعوبها صدور بعض الطّلاب وظهورهم . . . صرخات التّأوّه لم تفارق

مخيّلته ، ما زالت تطنّ في أذنيه مصحوبة بالهلع والفزع ، وممتزجةً بالدّم والألم . . . انعكست أدوار ليلة ابن جبير ، هكذا اعتقد : الذّئاب هي الّتي تقتل البشر . . . وليس البشر هم الّذين يقتلونها . . . أدرك : كَمَا تَدِيْنُ تُدان . . . ارتاح للعبارة الأخيرة ، وجعل يردّدها مُتشفِّيًا بنفسه . . . وانتصارًا لهذه الأدوار المعكوسة في فجائعيّة لم يسبق لها مثيل . . . فلتأتِ أيّها الحالِمُ الوسيم . . . أيّها الفاتِكُ الجميل ؛ الّذين ينتظرون قدومك قليلون ؛ كُنْ على يقين أنّني من هذا القليل . . .!!!

ولكنّه لم يأتِ . . . ظلّ يحوم حوله ، وكأنّه كان هو الآخر يتشفّى به عن طريق عدم تحقيق أمنيته في أن يقبض روحه . . . ظلّ ينظر إليه بريقُ عينيه يلمع وهو جالسٌ واضِعًا رِجْلاً على رِجْلٍ على أحد مقاعد المدرّج الحمراء . . . كان يقترب منه قليلاً يُقهقِه في وجهه ، ثمّ يعود إلى مقعده ، وأحيانًا كان يقترب حتّى يُلاصِقَ جسده ، يتشمّمه طويلاً ويرفع رأسه بعد عمليّة التّشمّم مادًّا عنقه إلى أعلى ومُغمِضًا عينيه بالكامل ، ومُطلِقًا ضحكةً هستيريّة ، ثمّ يعود إلى مقعده الأحمر . . . لم يشكّ واثق أنّه في لحظةٍ ما سوف يُحقّق أمانيه ، كانت تلك اللّحظة الّتي هوت فيها ثلاث هراواتٍ على جانبي رأسه ، وأعلى فروة ذلك الرّأس . . . رأى ذلك الفاتك الجميل يقترب منه بشكلٍ كبير ، ويكاد يلتف حوله ، ولم تمرّ لحظة حتّى أطبق بيديه على جِيده ، وقبض بشدّة على عنقه ولواها بقسوة ، كاد ينتقل إلى العالَم الآخَر . . . لم يفعل انفثأت بقعة كبيرةٌ من الدّم من رأسه فأبعد يديه عن عنقه قليلاً ، ثمّ سمع أحد العساكر الثّلاثة يقول لزميليه : اتركوه . . . يكفي . . . إنّه يموت . . . حينما تركوه ، كان الفاتك الجميل يُغادره ببطْء ويعود إلى مقعده الأحمر مرّة أخرى ، وبريقٌ من الانتصار الوحشيّ يغلّف عينيه المُتوهّجتَين . . .!!

لم يَطُلِ الصّباح حتى أطلّ برأسه من النّافذة الّتي تغوص في الأرض أكثر مِمّا ترتفع عنها . هزّ كتفَي (لؤيّ) وهتف به :

- قم يا كسول . . . الفجر قد شَقشَق . . .!!

- يا رجل . . . ألا تنام؟! ألا يعرف النّوم إلى عينيك سبيلاً؟!

- قم وأعدّ لي فنجانًا آخر من القهوة . . . أكاد أتضوّر اشتياقًا . . .!!

- حاضر . . . (يتمطّى وهو يُحاوِل أن يُبعد غمامة النّعاس عن عينيه)

- أسرع . . . لا تتأخّر . . . عندي مشاريع كُبرَى اليوم . . .

- مشاريع كُبرى؟!!!!

- نعم .

- مثل ماذا؟! (قالها رافِعًا صوته وهو يدخل المطبخ ويردّ عليه من بعيد) .

- ألم أقلْ لك؟! يا رجل ؛ كلامُ اللّيل يمحوه النّهارُ؟!

- يا سيِّديْ . .

- لا تكنْ غبيًّا!!!

- هات يا فَطْحَل!!!

- قلتُ لك : سأذهب اليوم لخطبة (مُنى) إلى أبيها . . .

- ظننتُكَ تمزح!! لقد تعودّتُ على جنونك .

- لا أمزح . . . وأنتَ أوّل من أسررتُ له بالأمر . . . تخيّل أنّ أبي لا يعلم بذلك!!

- يا رجل . . . ليست هذه الطّريقة المناسبة (قال ذلك وهو يمدّ إليه بصينيّة القهوة ، ويجلس إلى جانبه) .

- أنا أحدّد الطّريقة الّتي تُناسِبني . . .

- يا واثق . . . (قالها لؤيّ وهو يُغيّر جِلسته كأنّه يريد أن يقول شيئًا مهمًّا) .

- ماذا . . .؟!!!!

- مَنْ هو الأصمّ فينا؟! نحنُ أم الدّولة؟! مَنْ يجهل الآخر؟! وَمَنْ يبني فرضيّات خاطئة عن الآخر؟! نحنُ أم هم؟!

- أرى لهجتك اختلفتْ قليلاً يا لؤيّ . . . بدأتَ تَحجِل . . .!!

- لا . . . لا . . . ما زلتُ أنا أنا . ولكنّي بدأتُ أحتار . . .!!

- لا . غير صحيح . هذه الميوعة الّتي أشمّها في مفرداتك ليست خافيةً عليّ . .!!

- عُدتَ إلى تحطيمي . . . يبدو أنّه صار يحلو لك ذلك . . .

- إيّاك أن تهون . . . إيّاك أن تسقط . . . سقوط الواحد مِنّا ليس كأيّ سقوطٍ . . . إنّه السّقوط الأخير ، ومن خلفه سوف يتتابع الآخرون . . . ولا تقوم لنا ولا لهم قائمة . . .!!

- يا حبيبي يا واثق . . . لماذا تصرّ على تصوير ما يحدث على أنه حالة حرب . . .!!

- أنا لا أصرّ على ذلك . . . (ارتعشَ من الغضب) هي بالفعل كذلك . . . أتريد أكثر من هذا دليلاً على صدقِ ما أقول (يُشير إلى رأسه) . . . فيمَ تنفجر رأسي على يد هذه الحُثالة؟!!!

- نحن ذهبْنا في الشّوط أكثر مِمّا ينبغي . . .!!!

- صحيح . . .؟! إذًا لا أريدك أن تُكمِل . . . أخشى أن أسمع ما يملأ أذنيّ قيحًا . . . حينَ يضمّنا سجنٌ واحدٌ سأعرف حينها كيف أتعامل معك . . .!!!!

(٢٢)
ما أجملَ أن تُعانِقَ الموتَ إذا كان صديقاً؟!

العشق لا يترك فرصةً للعاشقين لكي يستأذنوه إِنْ قَتَلَهم أَنْ يَقتُلَهم مرّةً واحدة ، لا على دفعات . . . هو مات بها وفيها ومنها في كلّ يوم عشر مرّات . . . وهي انصهرت فيه حتّى أحسّتْ أنّها جزءٌ منه غيرَ منفصم ؛ جزءٌ من رجولته الكاسحة ، من عنفوانه الشّفيف ، من براءته السّاحرة ، من لسانه الّذي يُخرج الحيّة من جُحْرها ، من وثوقه الطّاغي بنفسه ، من عِناده المُستميت حول أفكاره حتّى وإن لم تكن تروق لها بالكامل ، من صدقه التّامّ حتّى مع أشجار الطّريق . . .!!!

كان يعرف ، أنّها إذا ابتسمتْ ، فمعنى ذلك أنّها سمحتْ للشّمس أن تُشرق . وكان يعلم أنّها إذا ضَحِكت ، فمعنى ذلك أنّها تريد أن تعذّب النّجوم فتتساقط عند قدميها . وكان يُدرك أنّها إذا نظرتْ ، فمعنى ذلك أنّها تريد للأزهار أن تتفتّح . وإذا نَطَقَتْ ، فمعنى ذلك أنّها أَذِنَتْ لهذه الأزهار أن تفوح بالعِطر . . .!!! أيّ ملاك تجتمع فيه الرَّحَمات مثلها . لا شكّ أنّها تجاوزتْ طِينيّتها لتصبحَ مخلوقةً من نور ، وإلاّ فما معنى أنّه ينهمك في التّسبيح كلّما رآها ، ويخشع كلّما مرّتْ في خاطره؟!!!!!!

– يا عمّي . . . أنا (واثق) . . .

– . . . . .!!!

– زميل ابنتك في الجامعة .

- . . . . .!!!
- أكيد أنّها حدّثْتكَ عنّي حتّى شبعتَ من هذه الأحاديث!
- . . . . .!!!
- لا يغرّنك تورُّم رأسي ، فقلبي ما زال سليمًا ، سليمًا لأنّه يضمّ حجراته على ابنتك مُستأثِرًا بها!
- . . . . .!!!
- واثق . . . أنا واثق . . . غير معقول أنّها لم تحدّثكَ عنّي!!
- . . . . .!!!
- آه . . . آه . . . تتساءل لماذا جئتُ إليك . . . ولماذا أقف الآنَ بين يديكَ!
- . . . . .!!!
- بسيطة!
- . . . . .!!!
- أنا جئتُ كي أطلبَ يد ابنتك . ألم أقلْ ذلك قبلَ قليل؟!!!
- . . . . . .!!!
- أنا أحبّ مُنى ، ومُنى تُحبّني .
- . . . . . .!!!
- لا داعي لتسأل عنّي ، وعن أهلي!
- . . . . . .!!!
- الّذي بيني وبين مُنى أكبر من أيّ سؤال . ومقامُ السّؤال في حضرة الحال يبدو ساذجًا!
- . . . . . .!!!
- يا عمّي لماذا أنتَ كالأطرش؟!

- . . . . . .!!!

- ألا تفـهـم مـا أقـول . . . هل هناك أشـيـاء غـيـر مـفـهـومـة في كلامي . . .؟! هل تريدني أن أعيد على مسامعك الجُمَل السّابقة؟!

- . . . . . .!!!

- حدّد أنتَ الجملة الّتي لم تفهمها ، وأنا أعيدها!! حاضر يا عمّي سأعيدها عليك كرمال ابنتك مُنى!!

- . . . . . .!!!

- يا عمّي لماذا أنتَ كالأعمى؟!

- . . . . . .!!!

- ألا تراني أمامك بكامل فصاحتي؟!

- . . . . . .!!!

- دَعْني أقـتـربْ منكَ قليـلاً لكي تراني . . . أتريد أن أهمِسَ بـهـا في أذنك أم أصرخَ بها في وجهِك؟!

- . . . . . .!!!

- أنا أريدُها لي!!

- . . . . . .!!!

- يا عمّي لماذا ترتسم علامات التّعجّب على عينيك؟!

- . . . . . .!!!

- أَفاجَأَكَ أن يخطب أحدٌ ابنتك بهذه الطّريقة؟!

- . . . . . .!!!

- لا تتفاجأ . . . أنا أموت بِمُنى ومُنى تموت بي .

- . . . . . .!!!

- ولا يُمكنك أن ترفض .

- . . . . . .!!!
- ولا يُمكِنك أن تُوقِفَ مشروعَنا!
- . . . . . .!!!
- مَنْ يستطيع أن يوقِف مجرى النّهر . . . مَنْ يستطيع أن يصدّ أمواجه وهي تتساقط من جبال الحبّ الشّاهقة ، لتهوي في وادي القلب المتعطّش؟!
- . . . . . .!!!
- أعرف الآن أنّك تقول عنّي : وَقِح . . . مَجنون . . . مُتفَذلك . . . مَقطوع من شجرة . . . أبله . . . مريض . . . مَفصوم . . . أثّرتْ عليه الضّربة الّتي تجعل رأسه ضعفَي حجمه الطّبيعيّ . . . أين أبوه . . . أين أمّه . . . أين أعمامُه . . . . ما هذا البلاء الّذي وقعْنا فيه . . .؟!
- . . . . . .!!!
- أحبّ أن أُطَمْئِنك ؛ كلّ ما تفكّر به صحيح . . . أَرِحْ نفسك . . . ودَعْنا نتفاهم في الخطوات الحمقاء الّتي تفرضونها في مثل هذه الحالات!!

مَنْ يَلُمُّه من بُنيّات الطّريق؟! أعتَمت الدّروب فمشى بغير هِداية . واسودّت الجُدَد فسار بغير دليل . . . وظلّ يسير إلى أن ضَلّ . . . لم يعرف من قبل أنّ الطّرق كلّها تؤدّي إلى الهلاك ، ولم يُدرِك أنّ الحبّ يجرّه نحو الهاوية . (ومُنى) الّتي انتقشتْ على فؤاده فصارت هي هو ؛ لماذا تفعل به كلّ ذلك؟! أمِنَ الحبّ أن يكون العذابُ مُلازمًا له؟! سيقولون له : تكبرك بعام أيّها الفصيح ، وليكنْ ؛ أخته (سميّة) الّتي شكّلتْ ثلاثة أرباع حياتهً كانت تكبره بعام أيضًا ، ولكنّها كانت تسبقه إلى الحياة بقرنٍ ربّما أو أكثر . سيقولونً أحبّ فتاةً أكبر منه؟!

كان مُحتاجًا إلى حنانها وعطفها لا إلى حُبّها وقلبها ، وليكن ؛ أنا نُثارةٌ في مهبّ الرّيح ، أحتاج مَنْ تضمّني إلى صدرها . سيقولون : مجنون يكاد ينتهي به المطاف في الشّارع بلا وجه ، وليكنْ ، لم يكنْ لي هذا الوجه وأنا أتبع أبي في الهضبات الصّاعدات إلى قمّة ابن جُبير . سيقولون : أفقدتْهُ الكتب عقلَه ، كان قبلها بلا قلب ، وصار بعدها بلا عقل . الكتب الّتي قرأها أعاشتْه فيها ، وفصَلَتْه عن الواقع ؛ فلم يَعُدْ هو هو ، وليكنْ ؛ دلّوني على أحدٍ يستطيع أن يقول إنّه هو هو!! سيقولون : دمّرتْه عيناها ، وهو يغوص فيهما ريشةً من جناح نورسٍ تتأرجح على رَهْو البحر ، وليكنْ ، أفكان لي قدرٌ أجمل من أن أغرق في بحرهما؟!! سيقولون : نضج قبل أوانه ، واحترق قبل نُضجه! وليكنْ ، أنا في الحبّ أعيش في غابات استوائيّة لا تعترف بالفصول ميزانًا للنُّضج ، ولا تعترف بالحرارة وسيلة للاحتراق . أنا أحترق في ذاتي من أجل ذاتي ، أنا أموتُ في سبيل ألاّ أفقدَني . . .!!!

تَعِبَ من الاختباء . . . مشى في الطّرقات المُظلِمة حتّى صار شبحًا ، مرّ أسبوع كاملٌ وهو يختفي خلف الجدران ، وتحت الأقبية ، وبين جذوع السّنديان العتائق . مِن صديق إلى صديق . . . ومن دار إلى دار . . . ومن جُبٍّ إلى جُبٍّ . . . ورأسه؟! بدأت تعود إلى حجمها الطّبيعيّ ؛ بعض الأمّهات أشفقنَ عليه ، فداوَيْنه بما يستطعْن . أمّ (سليم) : بكتْ عندما رأتْه ، قال لها : لا تبكي عليّ ، (سليم) هو البطل ، لولا أنّه اتّقى عنّي بعض الهراوات لكنتُ الآن في عِداد الموتى ، كان يصرخ بهم : سَفَلة ، اتركوه يا سَفَلة ، ألا ترون جسمه الّذي لا يقوى على وحشيّتكم؟! ألا ترون عوده ، يكاد ينقصف بين انقضاضكم الأعمى؟!!

وماذا عساه يفعل؟! وأبوه وأمّه . . .؟! ألا يجذِبانه نحوهما بخيطٍ رفيع ، لم يعد قادِرًا على أن يسمح لهذا الخيط أن يمتدّ أكثر من ذلك ، أو أن ينقطع في النّهاية . أحسّ أنّ روحه صارت أثقل مِمّا مضى ، وأنّ اضمحلال الوجع في الرّأس ، قابَلَه استفحالُ الوجع ذاته في الرّوح ؛ صارت روحه مُثخنةً بالجراح ، وثقلتْ حتّى كادت أن تقذفه في قعر الأسى . صار ثقيلاً على نفسه فكيف به على الآخرين . . . قال له أحد أصدقائه :

- لا تَعُدْ إلى البيت . . .!!

- لم أعدْ أحتمل!!

- إنْ عدتَ فأنت تعرف ما سيحدث .

- لا مفرّ من القدر . . .

- أنا أنصحك ألاّ تُغامِر . . .

- أأفِرّ منه وهو يتربّص بي . . . كلّما أشحتُ بوجهي عنه قابلني في الجهة الأخرى ، سأعود . . . لا بدّ أن أعود . . .!!

انتظر حتّى الواحدة فجرًا ، وسارَ كتلةً من الشّجى ، وتاريخًا من الحزن ، وحفنةً من الشّغف ، ونسمةً من الصَّبا . . . في الدّروب الواصلة إلى الأقدار ، يُدرك المرء أنّه في النّهاية يفرّ إلى حتفه مهما حاول أن يختبئ منه . ويعرف وهو سائرٌ إلى هذا الحتف أنّه يسير إليه ، ولا تملك قدماه أن تتحوّلا عنه!! هل يختار الإنسان موته؟! هل الموت أمكنُ من الحياة فيكون اختيارًا؟!! ها هو ينظر إليه يجلس على بوّابة البيت ، وهو يغذّ إليه الخُطا . . . ما أجمل أن تعانق الموت إذا كان صديقًا!!!

لم يلحظ أيّ شيءٍ غير اعتياديّ ، وهو يلج من بوّابة البيت الرّئيسيّة ، فتح له أبوه الباب ، ونظر في وجهه طويلاً ، وصمت صمتًا

عميقًا ، ولم يحرّك ساكنًا كأنّه أصمّ أو أعمى أو مشلول . . . وظلّ ابنه يغوص في تعابير وجه أبيه يُحاول أن يقرأ هذا المشهد الغرائبيّ . . . بعد ثوانٍ معدودات نزلتْ دمعات متتابِعات على خدّ أبيه ، قطرتْ على وجهه الّذي احمرّ قطرةً بعد قطرة ، لم تُمهِلْ واحدةٌ منهنّ أختها . ثمّ علا صوت بكاء أبيه شيئًا فشيئًا ، وحاول أن يكتمه ، نجح قليلاً ، وتحوّل البكاء إلى نشيج ، صار صدره يعلو ويهبط ، ثمّ اشتدّ العلوّ والهبوط حتّى ارتجّ جسده بالكامل ، هجم الولد على أبيه يحتضنه ، ويُشاركه دمعاتٍ مُؤجّلات منذ يوم الهروب من المستشفى :

- لا تبكِ يا أبي . . . يحرقني بكاؤك . . .

- . . . . (علا أكثر صوت النّشيج وأحس الابن أن أباه يحبّه أكثر مِمّا تخيّل ، شدّه إليه وهو يحضنه ، فهدأ قليلاً) .

- لا تبكِ . . . أنا بخير . . . ألا تراني . . . أنا بخير . . . .

- كيف تكون بخير . . . وأنا أَهُمُّ بألاّ أراك . . .!!

سمع صوت أقدام تتهاوى من خلف هذا اللّقاء الاستثنائيّ ، انتفضَ ، خلّى يديه ، ابتعد خطواتٍ مدروساتٍ إلى الوراء ، وبخفّة قفز في الفراغ ، وهُرِعَ إلى السّور ، تسلّقه ، ورمى نفسه خارجه ، كانوا في الخارج أكثر من ثلاثين عسكريًا . . . .!!!!!

(٢٣)
(وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)

تلوّى من الوجع ، فلم يسمع أحدٌ توجّعه ، تكوّر من الألم فلم ينتبه أحدٌ إلى ألمه ، انكمش على نفسه من العذاب فلم يُصغ أحدٌ إلى عذابه . . . ظلّت عشرة بساطير تتناوب على رَكْله في بطنه وظهره ورأسه ومجموع جسمه وهو يحاول عبثًا اتّقاءها بيديه الضّعيفتين حتّى فقد الوعي ، جاؤوا بِسَطْلِ ماءٍ كبير باردٍ ورشقوه به في وجهه ، فارتعش من البرد والألم ، ثمّ بعد أن فرغ قذفوه به في وجهه فتلوّى من جديد . تناوله أحدهم وأغلق الباب ، قبل أن تسنح له فرصةُ رؤية وجوههم أو بعضها . . .

رائحة المكان يعرفها جيّدًا ، مرّتْ بذاكرة أنفه من قبلُ ، ولكنّها هذه المرّة أعمق ، وأوسخ ، وأشرس ، ولها أظافر تنغرز في الرّئتين ، ويبدو أنّها جُمّعت عَمْدًا لكي تطعنه كلّما نسي!! لم يتبيّن من شقوق الباب السّفليّة شيئًا ، كانت هناك موجةٌ من النّور تحاول أن تهرب باتّجاهه ، ولكنّها ترتطم بجدار الباب الفولاذيّ فترتدّ عنه إلاّ بعض البقايا الّتي تنساب من أسفل الباب وتبلغ ظلّه ولا تتجاوزه ، وهو . . . غارقٌ في الظّلمات والألم والجوع والتّعب . ومحتاجٌ حدّ الفجيعة إلى أن ينام!!

لم يدرِ كم مرّ من الوقت قبل أن يستيقظ ، ولم يدرِ إن كان قد نام بالأصل أم لا؟! ولكنّه أدرك أنّه يعرف ما يفعله الآن . . . أجال بصره

في الغرفة فلم تُساعِده عيناه المتورّمتان على أن يرى شيئًا ، فركهما فآلماهُ بشدّة ، وسّع حدقتهما محاوِلاً أن يتبيّن حدود المكان وآلماه أيضًا . . . كفّ عن التّحديق وقام من مكانه ، فلم يستطع ؛ خانتْه رِجلاه . . . كان يشعر أنّهما منفصلتان عن جسمه ، تذهبان باتّجاه آخرَ غير الّذي ينويه لهما!! قرّر أن يبقى في مكانه ، وينتظر قليلاً ، لعلّ الضّوء الخافت القادم من شقّ الباب السّفليّ يكشف الغموض عن بعض موجودات المكان . . . تمدّد بجذعه على الأرض ، أحسّ بلزوجة عالية ، ظنّها بعضُ دمائه الّتي سالت حينما كانوا يبرّحونه ضربًا ، مسح بأصابعه جزءاً منها وراح يلعقها ، يعرف هو طعم الدّماء ، ولكنّه أوّل مرّة يجرّب هذا الطّعم ، كان مزيجًا من الحموضة والملوحة والمرارة ، جرّبه مرّة أخرى ، ثمّ فركه بإصابعه فتحاتّتْ بعضُ الجزيئات من تحت أصابعه ، عرف على الفور أنّ خليطًا من الحشرات والأتربة وبقايا الطّعام المتعفّنة وبعض السّوائل الفاسدة ، وملايين الملايين من البكتيريا المتحوّلة ، وربّما رَوث الفئران ، وما تآكل من اليرقات الميّتة ، وعدد من القشور الجافّة ، ومجموعة من النُشارات الصّدئة تجتمع كلّها في ما تذوّقه للتّوّ . . . نعم إنّه ينام فوق طبقة سميكة من القاذورات تتمدّد تحته ، تراكمت عبر سنين ، وربّما عقود . . .!! في أيّ سجن زَجُّوا به إذًا؟! ربّما هذا السّجن يعود بناؤه للعصور الوُسطَى على أقلّ تقدير!! هكذا قال لنفسه .

اعتاد العتمة السّافرة ، صار يرى بعض الأشياء ، وإنْ كانت تبدو كخيالات توغلُ في الغيب . تراءت له كتلة صلدة في الزّاوية الّتي على يساره ، خُيّل إليه أنّها برميل في البداية ، ثمّ أمسك أنفاسه وحدّق أكثر لعلّه يظفر ببعض الرّؤى ، فتقلّص البرميل الّذي رآه آنِفًا ليغدو

كأنّه طشت مقذوف على الأرض . . . قرّر أن يزحف بجسمه نحوه ، وقرّب رأسه يريد أن يتبيّنه ، فانبعثتْ منه روائح كريهة جِدًا ، أشاح بأنفه ووجهه عنه ، وتلمّسه بيده ، فغطست يده في جورة من السّوائل اللّزجة ، رفع يده وقرّبها أكثر من أنفه ، ثمّ أيقن أنّها مكان التّبوّل والتّغوّط!! قلب على بطنه مرّة أخرى وزحف إلى مكانه الأوّل الّذي يلتصق بالجدار الأيمن تمامًا ـ وقرّر بينه وبين نفسه أن ينتظر الضّوء ، وحدّثها قائلاً : لا يُمكن أن أستمرّ في اكتشاف الأشياء بهذه الطّريقة!!!

الدّروب المُسافِرة لا ترحم الموجوعين . من أينَ تأتيه الإجابات إن لم يسعَ نحوها!! لم يُمهل نفسه كثيرًا ، فعاد إلى الزّحف في أرجاء المكان ، تعثّر في طريقه بكوزٍ معدنيّ صغير ، قلّبه بين يديه ، وتلمّس حوافّه ، واعتقد أنّها صَحفة الطّعام ، ثمّ ألغى هذا الاعتقاد ، وقال : هي كأسُ الماء الّتي أشرب بها!! ثمّ احتار بين الأمرين ، وراح يحلو له أن يُجادِلَ نفسه ، وتقمّص في الحال شخصيّتين تتحاوران :

– هو صحن الأكل الّذي يملؤونه بالقيح ويقدّمونه لك . (قال لنفسه)

– لا . لو كان كذلك لكان أكبر قليلاً ، إنّه لا يتّسع إلاّ لبعض اللّقيمات . (ردّ عليها)

– طبعًا!! وهل تظنّ أنّهم سيقدّمون لك (سِدرًا) يسع طنًّا من الأرزّ ، وأطنانًا من الخرفان اللاحِمة . . . كثيرٌ عليك أن تتجاوز الموت بما تأكل فيه .

– لا . لا . جرّبتُ السّجن من قبل ، كانت أواني الطّعام أكبر منه هذا .

– أكيد أنّه سجن غير هذا السّجن . لقد ولّت أيّام الرّفاهية يا صديقي . أنت على أبواب عهد جديد!!

– لا . لا . بل هذا لا يعدو كونه الكأس الّتي أشرب بها .

– وهل تظنّ أنّهم يملؤونها لك من الينابيع الدفّاقة ، والجداول الصّافية حتّى تكون بهذا الحجم الكبير!! لماذا تُغرِق نفسك في الأوهام؟!

– هو كوز الشّراب .

– لا . بل هو صحن الطّعام!!

– بل كوز الشّراب .

– بل صحن الطّعام .

– بل كوز .

– بل صحن .

– اخرس ولهْ إنتا وايّاه . أَلَمْ تَجِدا موضوعًا تتناقشان فيه غير هذه التّفاهات؟!!! (خرج من نفسَيه وأنهى الحوار بهذه العبارة الحاسِمة)

سقطت رأسه من الإعياء ، وجاع إلى كسرة خبزٍ واحدة ظلّت حلمه الّذي لم يتحقّق طوال اللّيلة الأولى . اقترب أكثرَ من الزّاوية ، تمنّى أن يجد ما يمكن أن يُسنِدَ رأسه إليه لكي ينام ، فغاصت الأمنية في الظّلام ، بسطَ رأسه فوق عضده ، وثنى رجليه ، وخلع حذاءه منهما ، وحرك رأسه على عضديه مرّتين ، وأصدر آهةً أخيرة لم يسمعها أحدٌ ، ثمّ غطّ في نوم عميق . . .

استيقظ في صَباح اليوم التّالي . . . لم يكنْ متيقّنًا ما إذا كان صباحًا أو كان تاليًا ، هكذا قدّر بينه وبين نفسه ، سمع صوت أقدام عديدة قادمة من أعلى . . . أدرك ذلك من إيقاعاتها الّتي بدتْ كأنّها

تهبط سُلّمًا ، فجأة فُتِحَ الباب بعنف ، وسلّط أحد العساكر الضّوء على وجهه فكاد يُمزّق عينيه ، اتّقاه بيديه ، وصار ينظر من أسفل هاتين اليدين باتّجاه الضّوء وهو نصف مُغمَض ، بعد دقائق سيكون قادِرًا على فتح عيينه بالكامل . . . انتحى العسكريّ الّذي يحمل كشّاف الضّوء جانبًا وركزه في زاوية الزّنزانة بحيث يُضيء مُعظَم ما فيها . . . ودخل من بعده عسكريّان يحملان سريرًا متحرّكا ، وبطريقة مدروسة وَضَعاه قريبًا منه ، ثمّ حَمَلاه عليه كما لو كان كيسًا من عِظام ورَمَياه فوقه ، واتّخذا لهما مكانًا يحرسانه فيه . دخل من بعدهما الرّجل الّذي يلبس ثيابًا بيضاء ، ويضع سمّاعة تلتفّ حول عنقه ، وفي يده سِجلّ ورقيّ . ومن بعده دخل رجلٌ خامس يقود خلفه كلبًا يرتفع كبغل من فوق الأرض ، انخلع قلب (واثق) للمنظر أوّل الأمر ، وأرجع رجليه إلى الخلف ثانِيًا ركبيته ، وارتجّ جسده قليلاً قبل أن يُسارِع الحارسان إليه ، أمسك أحدهما بيديه وفَرَدَهما ضاغِطًا على رُسغيه بشدّة ، وانفتل الثّاني نحو قدميه ، وفعل بهما ما فعلَ الأوّل باليدين . ظلّ العسكريّ والكلب يتقدّمان باتّجاهه وهو ينظر إليهما بطرف عينيه وقد غطّى الرّعب عليهما ، وكساهما صُفرةً بعد حُمرة ، كان هرير الكلب مسموعًا بوضوح ، اقترب أكثر هو وصاحبه من حافّة السّرير فخُيّل إليه أن هريره يلفح وجهه بأنفاسٍ كريهة ، وشعر لوهلة أنّ الزّبد الّذي يسيل على شِدْقَي الكلب قد تناثر بعضُ رذاذه مع هريره فأصاب وجهه ، حاول أن يمسحه لكنّه اكتشف أنّ يديه الصّغيرتين تغوصان في يدي الشّرطيّ الغليظتين . . . أكمل الكلب وصاحبه دورته ، ومرّ من عند رأسه ، والتفّ حتّى صار عند قدميه ، في هذه اللّحظة سقط عليه الرّعب مرّة أخرى وشعر أنّ أنياب الكلب سوف تنغرز في قدميه المتورّمتين في أيّة

لحظة ، مرّتْ ثوانٍ معدودات كأنّها السّاعات الطّوال ، قبل أن يُبصر (واثق) الكلب وصاحبه يقفان كتمثالَين قريبًا من العسكريّ الّذي ركز الضّوء في بداية هذه الاحتفاليّة العجائبيّة!!

تقدّم الرّجل ذو المريول الأبيض ، وضغط بإصبعيه على جفنَي (واثق) ، ندّتْ منه آهةٌ عميقةٌ حاول كتمانها فخرجتْ مبحوحة ، راح ذو المريول يُسلّط الضّوء من مِصباح صغيرٍ على عينيه ويحدّق فيهما وهو يضيّق عينيه ويهزّ رأسه ، ثمّ انتقل إلى العين الأخرى وفعل الشّيء ذاته الّذي فعله مع صاحِبتها ، ثمّ فتح فمه بعصا خشبيّة ، وراح ينقّلها بين فكّيه وأسنانه ، ويضغط على لسانه مادًّا إيّاها إلى البلعوم حتّى كاد يختنق ، التفّ جسده من الألم والغثيان ، فسارع العسكريّان إلى تثبيته!! أشار ذو المريول للرّجلين بإصبعه فقلبا (واثق) على بطنه كأنّه لُفافة من قِماشٍ مهترئ ، وضع السّمّاعة على صدره في أكثر من مكان ، وبحركةٍ أخرى من إصبعه كان (واثق) ينقلب مثل القماش مرّة أخرى على صدره .

خرج ذو المريول الأبيض في البداية ، رآه (واثق) يغيب مباشرة خلف جدارٍ مُصمَت ، ثمّ سمع وقع أقدامه الصّاعدة فتأكّد أنّ زنزانته تقبع تحت الأرض . أقاماه العسكريّان حتّى جلس على قفاه على السّرير ، وكان وجهه باتّجاه الكلب وصاحبه ، مرّة أخرى برقتْ عينا الكلب وهما تُحدّقان به ، وذكّرتاه بليلة الذّئاب فكاد يخرّ صَعِقًا ، تدارَك نفسه ، وأحدّ النّظر في المشهد غير المتناسق أمامه . شاهد صاحب الكلب يُرخِي اللّجام للكلب ، وبإشارةٍ منه ، راح الكلبُ يبولُ على الأرض ، ثمّ لمّا انتهى من البول ، تغوّط . وحين أنهى كلّ ذلك واستراح ، خرج هو وصاحبه . أمّا العسكريّان فرفَعا السّرير إلى الأعلى

قليلاً ثمّ نَفَضاه بحركة عنيفة فسقط (واثق) من فوقه ، وارتطمت أضلاعه بالأرض ، وصرخ من الألم ، ولولا لزوجة الأرضيّة لتهشّمَت عظامه . تركاه يصرخ كأنّ الأمر لا يعنيهما وخرجا . وتبعهما صاحب الضّوء اللّعين ، وأُطبِق الباب من بعدهم جميعًا . وأعتِمَ المشهد بالكامل . . . وغرقت الغرفة في السّديم . . .!!

ماذا يفعل العالَم الخارجيّ؟!! كيف تمرّ اللّحظات على البشر؟! ماذا يُمكن أن يسمّي هو الزّمن الّذي يعيشه الآن في هذه الزّنزانة الخالية من كلّ شيءٍ إلاّ من السّواد والرّعب والجنون؟!! من أينَ تأتي الطّيور الهاربة باتّجاه الشّمال؟!! مَنْ يأتيه بالخبر عمّا يحدث؟! هل من هُدهدٍ جديد يظهر له في السّرداب من دون سليمان؟!! ماذا فعل الكلب في تلك الزّاوية اللّعينة؟! أشعر بانفجار في المثانة ، هل أهتدي في الطّريق إلى المبولة أم أغطس في القذارة والظّلمة واللّزوجة؟!!

فُتِحَ الباب مرّة أخرى ، جاءه العسكريّ بالطّعام ، سَحَلَهُ على الأرض وركله في وجهه كحيوان ، وأغلق الباب وخرج . . . انقضّ على ما وَفَد إليه ، وراح يلتهم ما في الصّحفة بكلتا يديه دون توقّف ؛ كان نَهِمًا حدّ الرّغبة الفاضحة ، وحزينًا حدّ الفجيعة الذّابِحة ، وجائعًا حدّ المأساة الدّاكنة ، ومشتاقًا حدّ المصيبة القاصمة . . .!!!

أسند ظهره إلى الحائط ، وشرب كلَّ ما تبقّى في الصّحفة من مَرَق ، ثمّ طاف عليه بأصابعه ولعقها جميعًا . شعر أنّ جروحه بدأت تشفى ، وأنّه يستطيع أن يتصالح مع جسده إذا رضيتْ عنه جوارحه ، وأنّ هذا ممكن إذا استطاع أن يقيم توازنًا بين العذاب والصّبر عليه ، ولكنْ بأيّ وسيلة يُمكنه ذلك؟! كيفَ وهو مُجرّدٌ إلاّ ممّا تبقّى من جسده؟! فكّر : لا بدّ من وسيلة ؛ عليّ ألاّ أخون نفسي!!! استسلم

للعبارة الأخيرة ، وذهب في سبات لم يستطع مقاومته!!

فتح عينيه فظنّ أنّه يحلم بأنّه مُعلّق في السّقف ، أراد أن يتأكّد من أنّه يحلم ، فرفع رأسه إلى أعلى فلم يُطاوِعه ، طوّح بجسده في الفراغ ، فصار يتأرجح كبندول مضطرب ، مدّ يديه إلى رأسه ليُسنده بهما قبل أن يسقط في الفراغ فخانتاه . عزم على أن يدور برجليه دورةً كاملة حتّى يقف عليهما فأهملَتاه . حينها تيقّن أنّه لا يحلم ، وأنّه معلّق بالمقلوب في سقف الغرفة . بدأ الخوف ينسرب في دمائه ، زاده ذلك توتّرًا . حزّتْ الحبال رجليه بفعل انجذاب وزنه إلى الأسفل فتأوّه قليلاً . بدأت الدّماء تغادر رجليه باتّجاه رأسه ، ضعفت رجلاه ، وخارت قُواه ، وبدا كأنّ رأسه قابلة للانفِجار في أيّة لحظة فلم يتمالك نفسه ، راح يصرخ بكلّ ما أوتي من قوّة ، وجسده يرتجّ بحركةٍ عنيفة . ذهبتْ صرخاته سُدى ، وارتطمت بالحائط المُصمت للسّرداب . . . ظلّ يصرخ ، ويشتم ، ويلعن ، حتّى جاءه اثنان ، هوى أحدهما بعصاه على رأسه ففقد الوعي على الفور ، وارتخى جسده فجأة . رفعه أحدهما كأنّه خروفٌ معلّق للسّلخ ، وفكّ الثّاني الحبل الّذي يقيّد رجليه ، وحَمَلاه وخرجا . . .

استيقظ على حَفنةٍ من النّور بعدما غرق في الظّلام ، فتح عينيه فتراءت له خيالاتُ أناسٍ يروحون ويجيئون بملابس بيضاء ، ظنّها الملائكة في البداية ، ثمّ بدأت بعض الملابس الخضراء تظهر في مدى الرّؤية فظنّها الجنّة . . . حاول أن ينهض بجسده قليلاً فلم يستطع ، أراح رأسه ، وبدأت سيّالات النّور والحركة والحياة تملأ عينيه . . . ظلّ يطوّف بنظره في الأرجاء محاوِلاً أن يفهم ما يدور حوله . . . وهو يظفر بإجابات خاطئة . . . ولكن لم يَطُلِ الجواب كثيرًا . . . ظهرت أشباح

العساكر على باب الغرفة باللّون البنّيّ هذه المرّة يُعطونه ظهرهم وهم يقومون على حِراسته . بعد طوفانات من الأسئلة الكثيرة ، دخل الطّبيب ، قام بفحصه ، وهو لا يكاد يتبيّن خطوط وجهه ، وكتب له ورقة الخروج مع العلاج . ولكن الخروج إلى أين؟! إلى الغياب بالطّبع . . .

كانت زنزانةً فارهة ، لم تكن مثل ذلك السّرداب المُرعِب ، على الأقلّ تستقرّ فوق الأرض ولا تغوص تحتها . وفيها كلّ مقوّمات الرّفاهية : فرشة إسفنجيّة بارتفاع لا بأس به ، المهمّ أنّها فرشة ، وليست خرقة بالية ، لم يكنْ هناك غِطاء ، ولكنْ كان هناك مخدّة يُمكن أن أضعها فوق بطني لأتّقي البرد عند النّوم (هكذا فكّرَ) ، وهناك مكان مُعتَبر لقضاء الحاجة ، دقّق النّظر فيه وهو يقف فوقه وكاد يصيح من الفرح : نعم ، إنّه مكانٌ مُخصّص لقضاء الحاجة ، وليس طشتًا ، أو جُورةً تغوص في الطّين!! وهناك صنبور ماء ، فَتَحَهُ فَسالَ منه الماءُ ، نظر إليه بعينين تبرُقان بهجةً ، ظنّه وهو يتقطّع مترقرقًا أنّه أعذب من النّيل ، وأفرت من الفرات . هتف وهو يكاد ينفلق من السّرور : الحمد لله . . . الحمد لله . . . أدرك نسبيّة الأمور ، وكاد يهوي برأسه على الأرض ساجِدًا لأنعم الله . . .

حلّقت طيور الفرح فوق رأسه في اليوم الّذي دخل فيها هذه الزنزانة الوثيرة ؛ المُجهّزة بكلّ ما يحتاجه ، وازداد فرحةً حين هتف : وهي مُلكي أيضًا ، وندّت منه صيحة تعجّب واستنكار : وحدي أملك كلّ هذه العطايا!!؟!

مرّ عليه ثلاثةٌ وأربعون يومًا ، والشّمس تُحيّيه عند الصّباح وتودّعه عند المساء من فتحةٍ علويّة في هذه الزّنزانة الّتي وفد إليها من

المستشفى ، لم يدرِ كم مكث قبل أن يأتي إلى هنا ، ذاكرته عن زنزانة السّرداب تُصيبه بالرّعب كلّما خطرتْ بباله . الأيّام الّتي قضاها هنا صنعتْ له تاريخًا حافلاً ، واليوم . . . فقط . . . في هذا اليوم . . . اليوم الرّابع والأربعين ، لن يشكّ بأنّ الجنّة قد اكتملتْ عناصرها . . . يستطيع اليوم أن يتذكّر كلّ تفاصيل لحظاته السّابقة ، وأن يكتب شيئًا من الهَذَيان الجميل عن هذه التّجربة القاسية . . .

ربطوا عينيه ، وقيّدوا يديه وراء ظهره ، ودفعوه من الخلف باتّجاه باب الزّنزانة ، وأمسك به عسكريّان ، ظلاّ مُرشدَيه طوال طريق استمرّت أكثر من أربع ساعات ، وهو يهبط أدراجًا ويصعد أخرى ، ويجلس على كرسيّ ويقوم عن آخر ، ويدخل بابًا ويخرج من آخر ، ويركب سيّارة وينزل من أخرى ، كلّ ذلك وهو لا يرى شيئًا . . . في النّهاية توقّفتْ رحلته في لحظةٍ حاسِمة ، مدّ أحد الشّرطيّين مِفتاحًا وأداره في قفل الأصفاد الّذي يغلّ يديه ، وحرّكهُ فتحرّرتْ يدا (واثق) ، مدّ ثاني الشّرطيَّيْن مفتاحًا آخر وأداره فانفتح بابٌ ما ، أزالا العِصابة عن عينيه ودَفَعاه إلى الدّاخل ، وأغلقَا الباب خلفه .

فركَ عينيه ليتعافَى من العمى المؤقّت الّذي أصيب به ، وسمع أصواتًا هاجتْ عندما رأته ، ميّز بعضها من النّغمة في البداية ، ثمّ اكتملتْ دائرة الضّوء فلم يقدر أن يبتلع دهشةً انسكبت فوق كِيانه كلّه . . . لم تكنْ زنزانةً كان مهجعًا كبيرًا ، وكان يضمّ أكثر من ثلاثين سجينًا ، لم يكنْ قد صحا بعدُ من الدّهشة حينَ سارع عدد من هؤلاء المساجين إلى احتضانه ، تفحّص وجهَ الأقرب إليه ، وضمّه طويلاً قبل أن يصيح ويبدأ سيمفونيّةَ بكاءٍ عاليةَ الإيقاع . . . كان هذا لؤيّ . . . وكان سليم هناك ، وفؤاد ، وأحمد ، وعشرة على الأقلّ يعرف

أسماءهم ، والبقيّة يعرف أشكالَهم . . . لقد التمّ شمل العائلة الثّائرة أخيرًا!!!

أقاموا احتفالاً يومَها بقدومه المفاجئ ، لم يعرف أحدٌ كيف استطاعوا أن يجمعوا بعض الحلوى والعصائر ، ويرتبوا مكانًا نظيفًا بعيدًا عن اكتظاظ الأسرّة ، وقف أحدهم خطيبًا ورحّب به على طريقته الخاصّة :

«اليوم اكتمل عدد الثّوريّين التقدّميين . . . كنّا كالأفعى بلا رأس ، واليوم التأمَ الرّأس ، وانضمّ إلينا باعِثًا الحياة فينا من جديد . . . وبهذه المناسبة الّتي لا تتكرّر اشربوا ما شئتم من الكؤوس حتّى تدور في الرّؤوس ، واعلموا أنّ كلّ مشاريبكم على حِسابي . . .» وانطلقت الصّيحات ، وجَلْجلت الضّحكات ، أكلوا ، وشربوا ، وقاموا ، وقعدوا ، ولم تنتهِ حفلتهم إلاّ بانتهاء قواهم ، ثمّ أتبعوا كلّ ذلك بالعشاء ، وناموا يومها بعد العشاء الأخير ، وقد أورفت قلوبهم . . . .!!!

أخذه من يده ، وانتحى به ناحية ، وجلسا على طرف سرير ، ونظر في عينيه طويلاً :

– لدينا كلام كثيرٌ يجب أن نقوله . (قال واثق) .

– قُلْ . . . كلّي آذانٌ صاغِية . (قال لؤيّ ، وهو يخفض رأسه مُدارِيًا نظرات واثق) .

***

مرّت عليه هنا أربعمئة وثلاثةٌ وثمانون يومًا ، يستطيع اليوم بعد أن صار عرّاب المرحلة أن يتذكّر كلّ ثانيةٍ مرّتْ به ، إنّه الأقدر على استرجاع الماضي وصياغته من جديد . . .!!

(أقفر من أهله مَلحوبُ) ، وبقي وحده يواجه أقدارًا لم يستطع أن

يحتال عليها ، أو يلتفّ حولها ، صار سيّدَ المكان ، لم يبقَ فيه سواه ، وعليهم أن يتعاملوا معه بطريقةٍ أخرى ؛ وضعوا في يده قيودًا ذهبيّة ، لم يشدّوها على الرّسغين تمامًا ، وحملوه في سيّارة غير معصوب العينين ، وابتسموا في وجهه أكثر من مرّة ، بل إنّ أحدهم مدّ إليه سيجارةً كي يُدخّن ، فاعتذر شاكرًا . . .

شاهد التّلفاز ذا الألوان الزّاهية والواضحة ينزل من سقف الغرفة مثل قَدَر جميل ، ورفّاس السّرير من النّوعيّة الجيّدة ، والفرشة مَخيطةً بعناية ذكّرتْه بفرشات الصّوف عند أمّه ، والمرآة عند المغسلة الّتي تنبثق من الحائط الأقرب إلى الباب ؛ هذه المرآة تستطيع أن تكشف تفاصيل الوجه كاملاً ، ووحده هنا يغطس في كلّ هذا النّعيم . . .؟!؟! نعم وحده دون أيّ شريك!!

مرّت مئتان وأربعة وسبعون يومًا عليه هنا . كم هو عبقريّ واستثنائيّ!! السّجن يصنع عباقرةً سواءٌ أكانوا كتّابًا أم مجرمين ، وكان يُمكن أن يكون هو الثّاني لولا أن تداركه رحمةٌ من ربّه فنُبِذ بالعراء ، وأنبت الله عليه شجرةً من حروف خضراء ؛ ليجربّ طقوس الكتابة والإبداع . . .!!

(٢٤)
هذي الرّسائلُ في هواكِ قصائدُ

الرّسالة الأولى :

حبيبتي :

شَدُّوا القيود على معصميّ ، انثعبَ بعض الدّم ، هانَ وأنا أتذكّر تورّد خدّيك أمام منظر يدي ، مَنْ هو الأجمل يا تُرى؟! فليحتمل الأقلّ جمالاً في سبيل الأكثر جمالاً . أنا لكِ . أيّامي هنا معدودة ، حينَ أخرج سوف نصنع أشياء كثيرة . أحلامي ما زالت معلّقة على أهداب عينيك ، وعيناك لن تنطفئا!! وكيف تنطفئان وفيهما من نور الله قَبَس ، ومن رحمة الله فَيْض ، ومن جلال العظيم جَلال . . .!!

المُخلص

١٨/ تمّوز

الرّسالة الثّانية :

حبيبتي :

أكتب لك هذه الرّسائل من قَعْر الزّنزانة المُعتِمة . مضى على اعتقالي منذُ صحوتُ من الغيبوبة أحدَ عشرَ يومًا ، كنت في كلّ يوم من هذه الأيّام كوكبًا دُرّيًا ، فأضأتِ في نهايتها (أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، والشّمسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِيْنَ) . كانت زادي في الظّلام .

ليست الظّلمة مُخيفة كما كنت أتصوّر ، ما هو مُخيفٌ بالفعل أن يكون القلب مُظلِمًا ، حينها يحدث انفصال بين الجسد والرّوح . بصراحة لا أريد أن أفقد روحي . إنّني أقاتل من أجل أن أحيا!!

المُخلِص أبدًا

٢٩/تمّوز

الرّسالة الثّالثة :

حبيبتي :

أستطيع أن أقول لك إنّني بخير ، صحيح أنّني قاتلتُ ، وخرجتُ ببعض الخسائر الجسديّة ، ولكن ليس بمثل ما خرج به خالد بن الوليد!! لو فتّشْتِ جسدي ، لوجدت في كلّ شبرٍ منه طعنةً من حبّ ، وضربةً من عِشق ، ووردةً من هُيام . خسائري - كما قلتُ لك - أقلّ من خسائر خالد ، ولكنّها أفدح!! ألا توافقين؟!!

المُخلِص قطعًا

٣٠/تمّوز

الرّسالة الرّابعة :

حبيبتي :

أكتبُ لك هذه الرّسالة على بَطْن علبة سجائر وجدتُها في الزّنزانة ، لا يوجد ورقٌ عندي من أجل أن أعبّر عن حبّي بشكلٍ أكبر ، اعذريني إذا كانت جُمَلي قصيرة وخاطفة ، ألم يكن زمن الحبّ قصيرًا وخاطفًا كذلك؟! حين أجد أوراقًا سأكتب لك عمّا في قلبي بشكلٍ أفضل .

المَذْبوح

٣١/تمّوز

الرّسالة الخامسة :

حبيبتي :

حدثتْ أشياء يُمكن عدّها جميلة ؛ صارت كمّيّة الطّعام أفضل ، ولم يعودوا يركلونه بأرجلهم ، صاروا يضعونه أمامي دون أن أرى وجه العسكريّ الّذي أحضره . أمّا الزّنزانة فما زالت مُعتِمة ، أمسِ قالوا لي : ستخرج إلى الفَوْرة ؛ يقصدون بذلك الخروج من أَجل التّعرّض لأشعّة الشّمس . يعرفون وأعرف أنّ السّجين سيتعفّن إنْ لم يخرج إلى الشّمس في الأسبوع على الأقلّ مرّة واحدة ، بالمناسبة حتّى لو تسرّب العفن إلى جسدي فلن يصل روحي ، أتعرفين لماذا؟! لأنّك الشّمس الّتي تُشرِق في سمائها!!!

المُتيّم

٢/آب

الرّسالة السّادسة :

حبيبتي :

تُفقدني العتمة – أحيانًا – توازني . قبل يومين تأخّروا في إحضار الطّعام ، أردتُها فرصةً سانحة للإعلان عن احتجاجي ، ما إنْ وضع الشّرطيّ الطّعام أمامي حتّى سارعتُ إلى حَمْل الصّحن وقلبه على صدره . كان حاراً ؛ فراح يصرخ . شَبَحوني بعدها ثلاثة أيّام ، في اليوم الثّالث عندما أرادوا أن يفكّوا قيودي ظلّت يداي معلّقتَين في الأعلى ، كان يلزمها بعض الوقت لتُدرِكا أنّهما أصبحتا طليقَتَين ، فكّرت : هل أَدْمَنتا العبوديّة؟! قال لي العسكريّ ، وهو يدفعني باتّجاه الزّنزانة :

– عَشانْ تِتْعَلَّمْ تِتَّطاوَلْ عَلى أَسْيادَكْ .

- اســمع . . . المرّةْ الجـايْ رَحْ اقْلِبْ الصّـحن على راسَكْ ، لخَلّي راسَكْ شُورَبَة!!

العاشق الأوّل

٦/ أب

الرّسالة السّابعة :

حبيبتي :

لا تُصدّقي كلّ ما يُقال . الّذين قالوا : (السِّجْن لَرْجال) كذبوا . والّذين قالوا : (السّجن عذاب) كذبوا أيضًا . أنا أجده جزءاً طبيعيًّا من الحياة . الحياة مائدةٌ والسّجن النّارُ الّتي تُنضِج فوقها الطّعام . دعيني أحكيها بطريقة ثانية : الحياة مُومِس ، والسّجن المكان الّذي تُمارس فيه المومس دورها . تخيّلي : السّجن صنع مُفرداتي الجديدة وعلّمني كلّ هذا الكلام!!

الّذي لا ينساك

٧/ آب

الرّسالة الثّامنة

حبيبتي :

الكلب الّذي بال في اليوم الأوّل بعد دخولي إلى هذه الزّنزانة ، ثمّ تغوّط فيها ، كان يقوم بدوره الرّوتينيّ هذا في الأسبوع مرّتين ، تخيّلي أنّه منذ ثمانية أيّام لم يزرْني ، ولم يقدّم لي هديّته المعتادة . لن تصدّقي إذا قلت لك : إنّني اشتقتُ إلى حضوره البهيّ!! المكان بدون رائحته الّتي اعتدتُ عليها يبدو فارِغًا ومُوحِشًا ويتيمًا!!

المجنون فيك

٨/ آب

الرّسالة التّاسعة :

حبيبتي :

ليتني أستطيع أن أرشو الشّرطيّ الّذي يقدّم لي الطّعام من أجل أن يأتيني بالمزيد من علب السّجائر الفارغة ، أريد أن أكتب لك أكثر . ولكنْ كيف أرشوه وأنا لا أملك فَلْسًا واحِدًا . . . آه . . . آه . . . فكّرتُ في طريقة قد تنفع . في المرّة القادمة سأحدّثك عنها إذا نجحتْ .

المُولَّه

٩/آب

الرّسالة العاشرة :

حبيبتي :

نعم ، نجحت الفكرة . بسيطة لكنْ لها مفعولُها . عندما قدّم الشّرطيّ لي الطّعام ، دنوتُ من عنقه ، وهمستُ في أذنيه :

- شو رايك توخذ نصّ الأكل ، وتجيبلي علب سجائر فاضية؟!
- ليش؟!
- بدّي أشمّ!!

كان شَرِهًا ، وجَشِعًا ، وبَشِعًا ؛ فوافق . بِمَ يَعْلِفونهم في السّجن هنا؟! لماذا يزدادون شراهةً كلّما أكلوا . المهمّ سأكتب لك في الأيّام القادمة خطابات أطول ؛ مللتُ من الجُمل القصيرة ، هي لا تُشبع نهمي إليك ، وجوعي لإلقاء كتل الهموم بين يديك!!

المَشغوف

١٠/آب

الرّسالة الحادية عشرة :

حبيبتي :

هذا هو اليوم التّاسع والثلاثون الّذي يمرّ عليّ وأنا بعيدٌ عنك . أحوالي طيّبة . أمّا أنتِ فماذا فعلتِ؟! هل بدأت الدّراسة في الجامعة؟! هل تصلك رسائلي؟! أَم يأكلها البريد ، ويُخفيها في جوفه؟!

لم يزرْني أحدٌ منذ اعتقالي . قالوا لي : الزّيارات ممنوعة . بصقتُ على الأرض يومها ، ولكنْ ما فائدة ذلك؟! الأرض لم تتأثّر!! مشتاقٌ إلى درجة الانتحار لأحدٍ يتحدّث معي ، لا أجد غير الكلاب الّتي عادتْ لتبول في الزّنزانة ، والوجه الّذي يُشبه الحرباء بِنَمَشِهِ الّذي يُغطّيه بالكامل ؛ وجه العساكر هنا كوجوه المومياءات ، فيه عينانِ ولكنْ مطفأتان ، وجبهة لكنْ من جلد سميك ، وصَفْحة لكنْ من شَبَطٍ مَمسوخ!!

لا أدري ، ماذا فعل أبي بعد اعتقالي؟! وماذًا فعلتْ أمّي؟! أتذكّرها أحيانًا في اللّيالي الخانقة فتكون الظّلّ في الحَرور ، وأستحضرها في العتمات الغائرة ، فتكون النّور في القبور . . . آه كم أنا مشتاقٌ إلى لمسةٍ من يديها الحانِيتَين . لا أدري ما التّهمة الّتي أنا مسجون بسببها . حقّق معي الضّبّاط حتّى الآن تسع مرّات ، كل التّحقيقات مُتشابِهة . أحيانًا أجدهم أغبى مِمّا كنتُ أظنّ . وأحيانًا أشعر بالشّفقة تُجاههم ، وأحيانًا أجد قلبي يحبّهم ؛ لا تقولي : إنّني الضّحيّة الّتي تعشق جلاّدها . لا . هؤلاء الّذين هنا أقرب إلى الكائنات الكرتونيّة تميل مع الرّيح وتتحرّك حسب اتّجاهها . هناك أشياء كثيرة أريد البوح بها . اعذريني صرفتُ ثلاث علب سجائر من أجل أن أكتب لك هذه الرّسالة . . . وداعًا . . .

المَهبول

١١/ آب

الرّسالة الثّانية عشرة :

حبيبتي :

لا شيء يُزيح الهموم عن قلبي غير وجودك الطّاغي فيه ؛ منذ أوّل يوم رأيتك فيه عرفتُ أنّك والأحزان ضدّان ، تخرج تلك الأحزان طائعةً منَ القلب وتحلّين أنتِ فيه غيمةً من ندىً شفيف ، وومضةً من حلمٍ رفيف . بدأ جسمي ينحل أكثر . ضمرتْ عضلات ساقيّ ؛ بسببَ الرّطوبة واللّزوجة والعتمة الكثيفة . قرّرتُ أن أمشي في مربّع الزّنزانة ، متران في مترَين ، إلاّ أنّها الملعب الأولمبيّ بالنّسبة لعالَمي الّذي أعيشه هنا ، أمشي في هذا العالَم لمدّة ساعتَين في اليوم . وأهتف بالشعر حُبًّا فيك . وأحيانًا أؤلّف بعض الأبيات . لن تصدّقي أنّ الزّنزانة جعلتْني أتذكَّر كلّ الأبيات الّتي حفظتُها منذُ حوالي سبعةَ عشر عامًا . إذا زاد مذخوري من علب السّجائر سوف أكتب لك بعض هذه الأبيات . مكوثي الطّويل هنا دون رفيق أو أنيس ، جعلني أخترع الأصدقاء وأتحدّث معهم . لماذا لم تكتبي لي إلى اليوم؟! إنّه اليوم الأربعون ولم تصلْني منك رسالة واحدة!! لا تكوني بخيلة إلى هذا الحدّ؟! ولا تتفنّني في تعذيبي!! رسالةٌ واحدةٌ منك تفجّر طوفان الرّحمة في قلبي ؛ تجعلني قادرًا على الصّمود أكثر ؛ أريد أن (أدفن وجودي في أرض الخمول) لكي أنبت من جديد ، وأصمد من جديد!! ولا أريدك أن تُساعدي في انهياري!! أنا هنا أحتاجكِ بجنون!! على أيّة حال لا أريد أن أظلمك ؛ قد تكونين بعثتِ لي بعض الرّسائل ، ولكنّ الكلاب هنا لم تُوصِلها إليّ!!

التّائق

١٢/آب

الرّسالة الثّالثة عشرة :

حبيبتي :

أصدقائي كثيرون هنا . أعرف كلّ بوصة في هذه الزّنزانة ، حفظتُها غيبًا . سأحدّثك عن أحد الّذين تربطني بهم علاقةٌ قويّة ، وهو أعزّ أصدقائي . هناك فأر يتسلّل عبر شقٍّ في الزّاوية اليُمنى الّتي يقبع رأسي عندها . أعرف وقتَ مجيئه ، يُشرّف ويصبح في ضيافتي بعد منتصف اللّيل ، يتقدّم متبخترًا ببطء من الشّقّ وأنا مُستلق ، فيصعد جسدي بادئًا برقبتي الأقرب إلى الأرض ، ثمّ تُرقوتي ، ويظلّ ماشيًا حتّى يقف بكامل زهوه فوق صدري . أبدؤه بالتّحيّة ، ثمّ أسارع إلى ضيافته بأفخر أنواع الأطعمة ، أنا أخبّئ له من طعامي ومِن خَشاش الزّنزانة ما أقدّمه له ؛ الخبز ، وقطع من اللّحم الصّغيرة ، وأحيانًا أغمس بعض ورق علب السّجائر بالشّوربة وبقايا الطّعام ، وأخبّئها له ريثما يأتي وأقدّمها له عرفانًا بوفائه في هذا النّوع الفريد من الصّداقة ، ذات مرّة ظلّ يأكل كِسَر الخبز الّتي بين يديّ ، فلمّا أنهاها عضّني بقوارضه الصّغيرة ، فانفقأت بضع قطرات من الدّم ، أحسستُ بوخزةٍ صغيرة مثل وخزة دبّوس ، غير أنّني شعرتُ أنّها لامستِ القلب ، أمّا بالنّسبة للفأر فقد أعجبه لونها الأحمر ، فراح يلعقها ، ظلّ يلعقها حتّى جفّفها ، ومسح بعدها إصبعي بلسانه المتورّد الصّغير . قلتُ في نفسي : لا بأس ببعض الألم في سبيل الصّداقة!!

في إحدى اللّيالي كنتُ أريد أن أفاجئه . بالفعل لم يتوقّع مستوى المفاجأة فأصيب بسكتة قلبيّة!! كانت المفاجأة أنّني اصطدت له من شقوق الزّنزانة عشرة صراصير ذات أحجام كبيرة ، ووضعتها في طبقٍ من علبة سجائر فارغة ، وانتظرتُ مجيئه في ساعته المحدّدة ، وحينما

شرّفَ بسطتُ أمامه المائدة الشّهيّة ، فغاص فيها غوصًا ، وصار يحرّك رأسه وفمه بسرعةٍ كبيرة وهو يلتهم الصّراصير بشهيّة فائقة . وعندما أنهى وجبته الملوكيّة ، تمدّد فوق صدري ولفّ ذيله حول جسده ، وأخذ إغفاءةً لذيذةً ، أمّا أنا فرحتُ ألعبُ بِفَرْوه النّاعم ، وملمسه الدّافئ ، وهو يزداد في إغفاءته عمقًا . لم أقدّم له مثل هذه الوجبة الدّسمة مرّة أخرى ؛ أتعرفين لماذا؟! خفتُ أن يُصبح سمينًا ، ويكون من الصّعب عليه أن يدخل من الشّقّ ، وحينئذٍ أفقد صديقًا حميمًا . قرّرت في الأيّام القادمة أن أقدّم له وجباتٍ خفيفة ، لكي أحتفظ بصداقته!!! قولي لي : هل أنا أنانيٌّ بهذا الفعلِ؟!!!

في اللّيل العميق ذبحني المغص ، رحتُ أتلوّى في الزّنزانة من شدّة الألم ، وراح بعض الدّم يسيل من أنفيّ ، ثمّ تطوّر الأمر إلى أن صرتُ أتقيّأ بشكلٍ مستمرّ ، صرختُ في الحرّاس . . . لم يسمعني أحدٌ في البداية ، ظللتُ أصرخ حتّى جاء أحد العساكر وهو يكاد ينفجر من الغضب ، صاح بي :

- السّاعة ثنتين يا كَلـ . . . شو بدّك!!!
- رح أموت من المغص (قلتُ ذلك وأنا أشدّ على بطني)
- بستّين داهية . . . شو أعملك . . .
- بقلّك رح أموت!!
- يا ريت . . .
- أرجوووووك . . . .!!

اقترب منّي ، سلّط الضّوء على وجهي ، اتّسعت عيناه من الخوف أو التّقزّز لا أدري ، تراجع قليلاً قبل أن يطوف بنظره طوافًا كاملاً على جسدي ، ويرى وجعي ماثلاً . صاح بقرف وخرج من الزّنزانة وأطبق

البــاب . مـرّت سـاعـة من العـذاب المسـتطيـر قـبل أن يدخل اثنان ويأخذاني في نقّالة متحرّكة إلى طبيب السّجن ، هزّ ذو المريول الأبيض كتفيه إلى الأعلى بحركةٍ بلهاء ، وقال إنّه لا يملك شيئًا ليفعله من أجلي . عليكم أنْ تذهبوا به إلى المستشفى!!

الجائع إليك

١٣/ آب

الرّسالة الرّابعة عشرة :

حبيبتي :

أرقد ورقةً صفراء هشّة في ما يُشبه المستشفى أو المُستَوصَف ، يبدو كذلك ، ولا أعرف منه سوى الغرفة التي أنا فيها ، لم يقولوا لي ما الّذي أصابني ليلة أمس ، غير أنّني قرأتُ في عيونهم بعضَ القلق والدّهشة . لم يَعْنِني الأمر كثيرًا ، ما دمتُ أفكّر فيكِ فيعني ذلك أنّني أحتمل الألم مهما عَظُم!!

في اللّيل أعادوني إلى زنزانتي بحراسةٍ مشدّدة ، بعد أن عصبوا عينيّ ، لم أعرف من الطّريق شيئًا ، لأنّني لم أر فيها شيئًا ، وضعوا معي كيسًا من الدّواء ، ولم يدلّني أحدٌ على كيفيّة استعماله!! كان عليّ أن أجتهد!!

المَعلول

١٤/ آب

الرّسالة الخامسة عشرة :

حبيبتي :

في إحدى جلسات التّحقيق ، كانت يداي مُقيّدتَين إلى مِسند الكرسيّ الحديديّ الّذي أُجلِستُ عليه ، وبسببٍ من ذلك كانتا تشدّان

جسدي إلى الخلف ، فينحني رأسي إلى الأمام ، يبدو أنّهم كانوا يقصدون ذلك ؛ يريدون إذلالي ، وأن أجلس مُطاطِئ الرّأس أمام المُحقّق . قرّرتُ أنّهم لن يفرحوا بذلك ؛ رحتُ أهزّ جسدي بكلّ ما أوتيت من قوّة يمينًا وشمالاً مرّات عديدة ، بدأ الكرسيّ يتحرّك ولكنّه لم يسقط ، زِدْتُ من قوّة حركتي ، بدأت الأصفاد تغوص فيما تبقّى من لحم على رُسغيّ ، ولكنّني أصبحتُ مجنونًا في لحظة فارقة ، أرجحتُ جسدي بكلّ ما أوتيت من عزم ، فتأرجح معي الكرسيّ ، ثمّ ظفرتُ في النّهاية بسقوطي على جانبيّ الأيسر أنا والكرسيّ . فعلتُ ذلك حتّى لا ينظر المُحقّق البغيض في وجهي وأنا محنيّ الرّأس . فضّلْتُ أن أسقط على أن أبقى ذليلاً . لستُ بطلاً ؛ ولكنّي أحاول الاحتِفاظ بكرامتي . جُنّ جنون المُحقّق . صرخ بعساكره : هذا المَعتوه لن يبقى يومًا واحِدًا عندي . خُذوه .

المُحترق

١٥/ آب

الرّسالة السّادسة عشرة :

حبيبتي :

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ . كان صباحًا لم أكتشفه إلاّ بعد أنْ غادرتُ زنزانتي المُعتِمة . ولّتْ أيّام العتمة وبدأ عهدٌ جديدٌ . دخل عليّ عشرة عساكر ، انهمك اثنان في تقييدي ، وأربعة في ضربي ، وأربعة آخرون في انتظار الدّور . ما إنْ أُنهكت الأربعةُ الأولى حتى حلّ محلّهم الأربعة الثّانية ، وقبل أن ينتهوا سمعتُ أحدهم يبكي ، أشفقتُ عليه بدوري ، وهو يقول لي كلامًا ولسانه يبلع نصف الكلمات بسبب بكائه العالي :

- حَرامْ عَليكْ تساوِي فينا هِيكْ . . .

- . . . . . .!!

- واللهِ إيدي صارتْ توجِّعْني . . .

- . . . . . .!!!

- اللهْ يِلْعَنْ أَبُو اليُومْ إِللي جابَكْ لَهُونْ . . . .

- . . . . . .!!!

مساكين الجلاّدون ، يستحقّون الشّفقة دائمًا!!! كنتُ غارقًا في الدّماء الّتي تُغطّي وجهي ، حملوا معي ذا المريول الأبيض إلى الزّنزانة المتحرّكة وانطلقْنا . في الطّريق وضع بعض (النّشادر) على أنفي كي لا أفقد الوعي ، ومسح ببعض الشّاش الأبيض الدّمَ ، وبكى هو الآخر :

- غلّبْتني يا حَيَوان!!

- . . . . .!!!

- كنت رح أروّح لولاك يا ابن الحرام . . .!!!

- . . . .!!!

بقيت في غرفة أشبه بزنزانة يومًا كاملاً ، بعدها انفتحت طاقة الفرج . لا تحزني!! الأيّام الأسوأ انتهتْ . القادم أجمل . والحياة تحبّني!!!

الجريح بسببك

١٦/ آب

الرّسالة السّابعة عشرة :

حبيبتي :

المفاجآت لا تُخبرك أنّها سوف تحدث ، وإلاّ لما سُمّيتْ كذلك!! السّجن - بالرّغم من العُزلة - يضجّ بالحياة من جديد!! أحتاج إلى عشرة أيّام لكي يعترف عقلي بأنّي غادرتُ العتمة القسريّة وإلى الأبد .

وأحتاج إلى عشرة قرون كي يشفى قلبي من الحبّ!!! هل الحبّ داء أم شِفاء؟! وهل هو موت أم حياة؟!! وهل هو حضورٌ أـم غياب؟! وهل هو كشفٌ أم حجاب؟!! وهل هو عبوديّة أم حرّيّة؟! أم تُراه يقف في المنطقة الرّماديّة بين كلّ ذلك!! لقد كان عشقك لذّة الرّوح حينَ يغيب العقل ويحضر الجنون . وكان سكرةً لم يُفق منها قلبي إلى اليوم ؛ فهل إلى كؤوسٍ من سبيل؟!!

عرّاب العهد الجديد

١٧/ آب

الرّسالة الثّامنة عشرة :

حبيبتي :

تقتلني الوَحدة . أسابيع طويلة عبرتْني منذ بدء اعتقالي ، ولا أدري لماذا يعذّبونني بالسّجن الانفراديّ . أحتاج إلى مَنْ يجلس معي ولو كان فأرًا ، تمنّيت أن أبقى في الزّنزانة المعتمة ؛ ففيها على الأقلّ فأري العزيز . أمّا هنا فالزّنزانة خالية إلاّ منّي!!

أشعر أنّني أناقِض نفسي أحيانًا . لو كان الله في قلبي ما سكَنَتْني الوَحشة ، ولو كان نوره في عيني ما عرفتُ معنى العَتْمة ، ولو غَنِيتُ به لاستغنيت عمّن سِواه ، ولو استغنيتُ بسواه ما رأيْتُني في الوجود!! بَنَتِ العزلة في عقلي عوالم ، ووسّعت مساحات لم تكنْ لتتّسع لولاها ، وجعلتْني أحاور نفسي وأجادِلها . من هذه النّواحي العزلة رائعة وأحتاجها ، ولكنّها على الطّرف الآخر تقتلني ، تدمّر صمودي ، تُشَوّشني ، تجعلني أتزحزح عن بعض مواقعي من أجل حديثٍ ولو عابرًا مع أيٍّ كان ، لولا أنّها تفعل بالإنسان ذلك ما طلب أبي آدم من الله أن يخلق له رفيقًا في الجنّة ، إذا كان آدم قد احتاج إلى مَنْ يؤنس

وحشته في الفردوس ، فماذا أقول أنا هنا؟! أنا القابع في الدّرك الأسفل من الجحيم؟!!

المَأرُوق

٢٨/آب

الرّسالة التّاسعة عشرة :

حبيبتي :

قال لي المُحقّق :

- لن ترى وجه أحدٍ من أهلك .
- سأراهم رغمًا عنكً .
- سيقتلك الطّاعون مِن مُصادقتك للفئران ، وستموت قبل أن تراهم .
- أنا الطّاعون الّذي سيقتلك أنتَ!!
- سوف تخرج من هنا إلى القبر ، وكأنّك لم تدخل عندنا أبدًا .
- إلى القبر . . . .؟! سوف تخرج إليه قبلي!!
- مِيْن وراكم؟!
- نحن وراء أنفسنا .
- مين داعِمْكم يا حَيَوان . . . .!!!
- نحن ندعم أنفسنا يا مُحتَرم .
- إيران ولا روسيا . . .؟! احكي . . .
- . . . . . .!!!!!

توقّفت كثيرًا عند آخر كلماتٍ قالها ، وصمتٌّ طويلاً . . . في الحقيقة لم أكن أملك جوابًا . . .

المَشعُوف

١/ أيلول

الرّسالة العشرون :

حبيبتي :

استيقظ فِيّ مطر الحُزن . . . واشتعلتْ فيّ حرائق الأسى . . . وانطفأت من جوانحي أسرجةُ اليقين . . . لا أدري متى تنتهي التّحقيقات هنا ، غباء المُحقّقين يُعذّبني أكثر مِمّا تُعذّبني سِياطهم . . . أنا نفسي لا أدري لماذا اشتركتُ في كلّ هذه المسيرات وتلك المُظاهرات . . . باختصار : بدأتُ أشعر بالضّجر ؛ ها هو العمر يمضي وأنا قابعٌ كذئبٍ عجوز في الزّنازين ، ألعقُ جراحي وأموتُ شيئًا فشيئًا . لي قلبٌ طافحٌ بالحبّ ، فائضٌ بالأمل ، ولكنّ وحوش الخوف من القادم والرّعب من المجهول ترشقه بألف سهم وسهم . أشعر بحاجةٍ جارحة إلى أن ألمس يديك المُخمَليَّتَين ، وأضع إحداهما على خدّي لكي تهدأ ثورتي ، ويعود إلى وجهي رونقُه ، وإلى شفتيَّ بسمتُهما ، وإلى عينيّ نورُهما ؛ أيّ انطفاءٍ وحرقةٍ هذه الّتي أعانيها بعيدًا عنك!! لقد صارتْ عيناكِ قِبلتي . إلى أيّ الجِهات سأهرب من وجع الحَبّ وأنتِ كلّ الجهات!! متى أرى وجهك الطّهور . . . لو أنّه يُطلّ عليّ من عَليائه فينير لي حاضري وغدي . أمّا ماضِيّ فقد كان مُضاءً لأنّك كنتِ حاضرةً في تفاصيله!!! كم أتمنّى نظرةً واحدةً من عينيك السّاحِرَتَين . . . أنا متأكّدٌ أنّهما سيبعثان الحياة في القلب الميّت لقرنٍ قادمٍ من الزّمن . . . آه يا حُلوتي . . . كم أشتاقك ، وكم أحتاجك . . .!!!

المَخبول

٤/أيلول

الرّسالة الواحدة والعشرون :

حبيبتي :

ظلّ أبوكِ – في اليومِ الّذي طلبتُ منه يدك ، وجئتُه فيه خاطِبًا – مذهولاً مشدوهًا ؛ إنّه لا يَعرف أنّ الحبّ يُمكن أن يُنطِق الميّت ، ويُقيم الحجر خطيبًا ، ويجعل من العَييّ فصيحًا ، وأنّك يُمكن أن تصنعي منّي عظيمًا إذا قبلتِ بأن يبتدئ معك رحلة العمر واحدٌ مَهبولٌ مثلي ، ليتني يومها قرأتُ له أبيات المجنون :

فَلَوْ أَنَّهـا تَدْعُـو الحَـمـامَ أَجـابَهـا
وَلَوْ كَلَّمَتْ مَـيْـتًـا إِذًا لَتَكَلَّمـا
وَلَوْ مَـسَـحَتْ بِالكَفِّ أَعْـمَى لأَذْهَبَتْ
عَـمـاهُ وَشِـيكًا ، ثُمَّ عـادَ بِلا عَـمَى

إذًا لربّما لم يتردّد في إجابتي . . !!!!!!

المَرسُوس
٦/ أيلول

الرّسالة الثّانية والعشرون :

حبيبتي :

قفزتْ ذكريات الماضي القريب إلى ذهني ، هذه الرّسالة يا حبيبتي من الأوراق المنفلتة من عُمْرِ عِشْقنا ، أستعيدها من الذّاكرة ؛ حينما التقيتُك ذات مرّة على غير موعدٍ ، وكأنّه كان الموعد ، كانت مجرّات الشّوق قد اتّسعتْ في قلبي إلى كلّ الاتّجاهات ، كنتُ أعرف قسوةَ الحرمان . أخذتُ دفترَ مُحاضراتك المليء بالأمراض والعلاجات ، فكتبْتُ على صفحةٍ بيضاء فيه :

لا يعـــرفُ الشّـــوقَ إلاّ مَنْ يُكابده
ولا الصّـبـابةَ إلاّ مَنْ يُعـانِيـهـا

فكتبْتِ لي :

لا تشكُ للنّاسِ جُرحًا أنتَ صاحِبهُ
لا يُؤلِمُ الجـــرحُ إلاّ مَنْ به ألـمُ

فكتبتُ لكِ :

أمــوتُ فــيكِ مَـدَى قَـرْنَيْنِ مِنْ وَلَهٍ
خَمائِلي عَطِشَتْ . . هلْ أنتِ ساقيها

فكتبْتِ لي :

ومـا أنا بالمُصـدّق فـيكَ قـولاً
ولكنّي شَـقِـيتُ بِحُـسْنِ ظَنّي

فكتبْتُ لكِ :

إنّ المُحبَّ إذا أحبَّ حـبـيـبَـهُ
صَـدَقَ الصَّـفـاءَ وأنجـزَ الموعـودَا

وظلّنا نفعل ذلك حتّى ملأنا عشر صفحات من هذه الأشعار ، يومها قلتُ لكِ : في المرّة القادمة دعينا نُسطّرْ على أوراق قلوبنا ما نكتبه نحن لا ما نحفظه ، فضحكتِ موافقةً ؛ ياااااااااااااااااه . . .!!!

العالِق

٧/ ايلول

الرّسالة الثّالثة والعشرون :

حبيبتي :

التّاسعة مساءً بتوقيت حُزننا المُشترَك على اختلاف الأوطان ؛ الأوطان نفسُها قد تفرّ من نفسِها إذا حاصَرَها الحبّ . والحبّ نفسه قد

يأسى لحال المُحبّين إذا نهشهم بأنيابه ووقف يتفرّج على دمائهم وهي تسيل من بين يديه ومن تحت قدميه . وحدنا نملك وَهَجَ العِشق الّذي يُفضي إلى الصَّلْب على مذبح الفضيلة . وحدنا نحمل تاريخًا من الورود تحتاج البشريّة إلى ألفِ عامٍ لتفسّرَ عاداتِها في الذّيوع . . .!!!

المُلتاع

٩/ أيلول

الرّسالة الرّابعة والعشرون :

حبيبتي :

زنزانتي قبرٌ حقيقيٌّ ؛ يملأ الإيمان – أحيانًا – فؤادي فتتّسع اتّساع الفضاء المُطلق ، وتمتدّ حتّى تصبح فسيحةً مَدَّ بصري ، ويداهمني الشّكّ – أحيانًا أخرى ، فتضيق حتّى تختلف فيها أضلاعي . إنّني أحاول أن أتصالَح معها ؛ أن أحاوِرها قبل أن تحبِسَ عليّ أنفاسي ، وتعدّ عليّ أنسامي ، فأموت داخِلها اختِناقًا ؛ غيرَ أنّها – للأمانة – تُجيد الحِوار ، وتقبل الرّأي الآخر ؛ وأحيانًا كثيرة تتعاطَف معي .

في الانفراديّ تحدث أشياء غريبة ، تُصبح ترى أشياء لا يراها سِواك ، يعني تَنْهبل؟! ربّما . يعني ينكشف لك الغيب؟! ربّما . يعني ينزل على روحك الوحي؟! ربّما . يعني يُزيّن لك الشّيطان ويُمنّيك؟! ربّما . المهمّ الحبس الانفراديّ يصنع الأعاجيب . أريد أن أعترف : إنّه في أغلب الأحيان ممتع ، مُذهل ؛ فيه طاقة روحيّة ترتقي بك إلى دَرَج الهُيام ، ولكنّ هذه الطّاقة الرّوحيّة سرعان ما تقف بك عند مُفترَق الطّريق ؛ وتُخيّرك بين مَسرَبَين : المسرب الّذي مشى فيه موسى ، والمسرب الّذي مشى فيه السّامريّ . اختار موسى القَبَس في جبل الطُّور ، واختار السّامريّ أثر الرّسول في صحراء سيناء . وأنا بين القَبَس

وبين الأَثَر أتأرجح دون أن أدري على أيّهما أستقرّ!!! يُغريني القَبَس في اللّيل ، ويُغريني الأَثَر في النّهار . يدعوني القَبَس إلى الجبل حيثُ العالي دائمًا يتجلّى لأصفيائه ، ويدعوني الأثر إلى الصّحراء حيثُ الأرض الممتدّة الّتي تنفتح على كلّ غامض!!!

دخل الشّرطيّ ذو الوجه الحربائيّ ؛ الّذي يُشبه المومياء ؛ حدّثْتُكِ عنه سابِقًا . دخل اليوم إلى زنزانتي ، وقدّم لي الطّعام بأدبٍ مُبالَغٍ فيه ، وابتسم في وجهي ابتسامةً عريضةً ، وحيّاني بأعذب التّحايا ، تعَجّبْتُ منه أيّما تعجّب . جلس إلى جِواري للحظات وراح يتملّاني بنظراتٍ حانيةٍ ؛ لأوّل مرّة أكتشف أنّ في هذا الوجه السّميك ، وهذه الصّفحةً البغيضةً عينَيْن يُمكن أن تحملا الودّ والمحبّة . كانتا طَوال أكثر من ستّين يومًا تحملان كُره العالَم وحِقده . ما الّذي غيّره فجأة هكذا دون أيّ تطوّر تدريجيّ في هذا التّحول الغريب؟! لا أدري . لم أتعوّد أن يجلس شرطيّ إلى جانبي بعد أن يقدّم الطّعام ؛ لكنّه فَعَل ، وللحظة خِفتُ عليه من المسؤولين أن يُعاقِبوه على جلوسه معي ، لكنّه أصرّ أن يبقى حتّى يقول ما يجول في خاطره :

- والله . . . والله . . . صدّقني . . . صدّقني . . .
- . . . .!!
- رايح تصدّقني لو حلفتلّك!!
- رايح أصدقك بدون ما تِحْلِفْلِي!!
- أنا آسف . . .!!
- آسف . . .؟!! آسف عَلِيش!!!
- عَلْ الأيّام إلّي عذّبتَك فيها . . . والله ما كانْ بِيْدي . . . أنا بَتْعَذَّرْ مِنّك . . . لا تحقِدْ عليّ . . . بَتْرجّاكِ تْسامِحْني . . . بَتْرجّاك لا

تئـذيني إذا طلعتْ من السّـجن وشُـفـتْني بالطّريق . . . لا تِئـذي وْلادِي . . . إذا كنتْ بدّكْ تُوخِذ حقّكْ خُذه منّي لا تُوخْذُهْ منهم . . . بترجّاك . . . إنتَ زلِمه بِتْخاف الله . . . والله أنا كنت عبد مأمور . . . بترجّاااااك . . .

قال آخر كلماته ، وهو يخطو إلى الخلف آخر خطواته المرتجفة ، وينظر في وجهي آخر نظراته البائسة ، ويُغلق الزّنزانة ، ويُهرول مُختفِيًا . . .

يومها بكيتُ بكاءً جنائزيًّا . وظللتُ أنحب حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل ، ولم أذق لقمةً واحدة من الطّعام الّذي جاء به .

المَوْسُوس

١٣/ أيلول

الرّسالة الخامسة والعشرون :

حبيبتي :

إنّه اليوم الأخير في الانفراديّ القاتِل . يبدو أنّ أيّام العَزْل انتهتْ ، دخل الشّرطيّ الّذي أبكاني أمس مرّة أخرى عليّ اليوم . . . انحنى يريد تقبيل رجليّ وهو يطامن من قامته من أجل أن يضع الطّعام بين يديّ . . . سحبْتُ نفسي منه بحركة مرتعشة وخاطِفة ، ووقفتُ على رِجليّ ، وأوقفْتُهُ معي ، وعانقتُه طويلاً ، قبل أن نبدأ معًا بالبكاء . . .!!!

دخل من بعده اثنان من المومياءات القديمة ، صرَخا بغلظة ، وقيّداني بقسوة ، وسارا بي معصوب العينَيْن إلى وِجهة لم أكن لأعلمها ولا لأحلم بها ، لولا أنّ لُطْفَ الله غالبٌ ، وقَدَرَه ماضٍ .

المَلْمُوم

١٤/ أيلول

الرّسالة السّادسة والعشرون :

حبيبتي :

مرّ العيد الفِضّيّ لرسائلي . . . وأنتِ ما زلتِ تصرّين على تَرْكي يتيمًا بدون رسالة واحدة . . . أعذرك . . . ربّما لا تستطيعين . . . ربّما ما زال أبوك خائفًا ومتشكّكًا ؛ خائفًا من أن أموت في الزّنازين قبل أن أرى الحياةَ خارِجَها ، ومُتشكّكًا من أنّني أحبّك بالفِعل . على الحالَيْن هو مخطئ . أمّا خروجي فأصبح وشيكًا . وأمّا حبّي فلا يوجد أصدق منه حتّى عند العُذريّين!!!

أكتبُ لك من البرزخ ؛ الغرفة الّتي علمْتُ أنّه سيكون فيها المبيت المؤقّت لليلة واحدة فقط ريثما ينقلونني إلى سجنٍ آخر . لستُ أدري أينَ يقع هذاً السّجنُ الّذي قبعتُ فيه (٧٢) يومًا كامِلاً في القبور الّتي تُسمّى عُرفًا زنازين انفراديّة . لكنّه يبدو في الصّحراء ، إذْ كان يتناهَى إلى سمعي عُواء قطيع من الذّئاب من بعيدٍ في بعض اللّيالي ، وعندما نُقلتُ منه مرّتين الأولَى إلى المستشفى بعدما شارفْتُ على الموت ، والثّانية أمسِ ، لم أسمع رِكزًا يدور من حولي أثناء الطّريق ، فلا بدّ أنّهم مَشَوا في الصّحراء حتّى يكون العالَم مُنبتًّا إلى هذا الحدّ ، ثمّ إنّ تهادِي الزّنزانة المتحرّكة الّتي نقلوني عَبْرها كانت تَشي بأنّها تمشي فوق رِمال الصّحراء ، وكان صوت المحرّك يشي بأنّها سيّارةٌ من النّوع المُخصّص ليقطع الصّحارى الرّمليّة لا الطّرق الإسفلتيّة . . . كانت هذه الأسئلة كلّها ستجد إجابةً شافية لو كانت عينايَ غيرَ معصوبَتَيْن ، اعتمدت على السّمع وعلى الإحساس بالحركة لأخرج بهذه القناعات!!

إذًا ماذا فعلتْ الأيّام الّتي قضيتُها في السّجن الصّحراويّ بي؟! ماذا أحدثتْ في القلب من جروح ، وماذا دفنتْ فيه من آهات ، وماذا

نقشتْ على جِدارِه من حِكَمٍ وعِظات . . . كلّ ذلك سأحدّثك عنه إنْ ظلّ في العمر بقيّة!!!

الأعمى إلاّ عنكِ

٢٩/ أيلول

الرّسالة السّابعة والعشرون :

حبيبتي :

هنا لؤيّ ، وهنا خالد وصلاح وضياء وسعيد وسليم ، وآخرون لا تعرفينهم الله يعرفهم . كان المكان الّذي وفدتُ إليه هنا عالِيًا وواسِعًا ، بقيتُ أسبوعًا كامِلاً وأنا أسمع من الأصدقاء تفاصيل ما حدث ، كيفَ اعتُقِلوا؟! وكم مكثوا في الزّنازين الانفراديّة؟! وكم مرّة حُقِّقَ معهم؟! وهل تعرّضوا للتّعذيب؟! ومَنِ الّذين حقّقوا معهم؟! وعن الطّعام واللّباس والفَوْرة والنّوم والاستيقاظ والضّوء والعتمة ، . . . . وأشياء أخرى كثيرة . . . كان الجوع القديم إلى الكلام جعلنا نغوص في نهر الحكي حتّى ارتوينا جميعًا من مائه .

وَعَدُونا بأنّهم سيبدؤون بالسّماح لنا بالزّيارات . لا أصدّقهم ، ولكنْ حتّى الأشياء الكاذبة نظلّ معها على أمل أن تكون صادقةً ولو مرّة واحدة!! إذا سمحوا لنا حقًّا بالزّيارات فستكون السّماء راضيةً عنّا!!

الأمراض تُهاجِمني من كلّ صوبٍ ، افترسني المَغْص في اللّيلة الفائتة ، حاول الشّباب التّخفيف عنّي ، لم ينجحوا بزحزحةِ الألم عن معدتي بوصةً واحدة ، رغم تفنّن كلّ واحدٍ منهم بتقديم المنقوعات بالأعشاب ، والمُذابات في الأمواه ، في نهايةِ المطاف رحتُ أصرخ ، أخذني العسكر بعد سِباب وشتائم متطايرة إلى ذي المريول الأبيض ، أعطاني إبرةً في قفاي ، ثمّ حملوني على نقّالة شبه مُغمًى عليّ ،

وأودعـوني في المهـجع مُـخـدَّرًا . . . صـمـتُّ عن الصّـراخ وحـتّى عن الكلام ، فقط ظلّت نظراتي الزّائغة تتنقّل بين الزملاء إلى أن نمتُ بقيّة اللّيل بهدوء مَريب كأنّ شيئًا لم يحدث!!!

بدأ الفصل الدّراسيّ في الجامعة ، أخبرني صلاح أنّ أهله نسّقوا مع أهالينا جميعًا وقاموا بتأجيل الفصل لنا حتّى يتسنّى لنا متابعة دراستنا بعد خروجنا من هنا . أصدقك القول : إنّني أحبّ الحياة ، وأرى فيها طيور الأمل دائمة التّحليق ، وفي سُحُبها العالية هناك أمطار الرّحمة . الموت الّذي أخذ نصف أحبابي لم يكنْ عدوًّا لي ؛ على العكس كان صديقًا ؛ لقد جعلني أتشبّث بالحياة أكثر!!!

المُدنَف

١٠/تشرين الأوّل

الرّسالة الثّامنة والعشرون :

حبيبتي :

حملتُ ذكرياتي معي من زنزانة السّرداب ، يمكن أن أعدّ ليالي هذه الزّنزانة تُقارب في روعتها ليلة الذّئاب في قمّة ابن جُبير!! لكن يبدو أنّ الحياة مليئة بالمفاجآت ، مليئة بالصّخب ، بالعنفوان ، بالخَلق المتجدّد . ليس في الحياة من لحظةٍ عاديّة ، كلّ لحظةٍ هي حياةٌ آنيّة لحياةٍ مُغادِرة ، وكلّ موت قادم هو استكمالٌ لموتٍ سابق في لحظات الحياة الّتي تدور مثل نقطةٍ كرويّة على مُحيط دائرة!!

لن أنتهي هنا كما أرادوا لي ؛ سينتهون هم كما أردتُ لهم ، ما دامت قضيّتي عادلة فأنّى لجيوش الظّلام أن تهزمها!! اتّبعوا كلّ الأساليب ولم ينجحوا ؛ كنتُ أخاف من الشّيء الواحد مرّة واحدةً ، ثمّ أكتسب مناعةً لأقاومه في كلّ المرّات اللاّحقة ؛ وهذا كان سرّ النّجاح ؛

سِرّ الصّمود . هناك فجوة بين الجسد والعقل ، وحده الصّبر قادرٌ على أن يُجسّر هذه الهوّة . مَن استطاع منّا أن يمدّ جسر الصّبر فوق هوّة الانفصال لم تكسِره كلّ آلات التّعذيب في الكون!!

أحيانًا أخجل من نفسي ؛ أعطاني الله الكثير ولم أُعطِه شيئًا!!

المَمْسُوس

١٢/ تشرين الأوّل

الرّسالة التّاسعة والعشرون :

حبيبتي :

من أوراق زنزانة السّرداب : «بجانب زنزانتي هنالك زنزانةٌ فارغةٌ إلاّ من دولابٍ يتدلّى من أعلى السّقف ، يدخل إليها بعض النّور لكي تكون الفظاعة ظاهرةً لِمَنْ أراد أن يرتعب ، ظلال الدّولاب المُلقَى على الحائط الأصفر الّذي تعلوه شحابير وأحافير يصنع مستوىً آخر من الرّهبة ، وهناك تّيارات هوائية تدخل بطريقة مدروسة عبر النّافذة العلويّة فتُحرّك الدّولاب قليلاً ، فيتأرجح ظلّه على الحائط فيتأرجح معه القلب من الهلع . تخيّلتْ أنّهم علّقوني عليه ذات مرّة ، وشدّوا وثاق يديّ إلى رجليّ وانهالوا عليّ بالكرابيج ، مجرّد هذا التّخيّل أرْعَشني ، وأفزعني . ولمّا نمتُ ظلّتِ الصّورة منطبعةً في ذهني ، وسمعتُ أصوات صراخ عالية واستغاثات واسترحامات تصفعني ، أقسم إنّني سمعتُها واضحة ، واستيقظتُ من نومي مرعوبًا ، كانت الصّور حلمًا ، ولكنّ الأصوات كانت حقيقةً!!

التّحطيم النّفسيّ أوّل أهدافهم ، وإذا نجحوا أكون قد انتهيت ؛ الجسد أحد خطوط الدّفاع المهمّة ؛ إذا استطاعوا أن يكسروه فبإمكانهم حينها أن يحصّلوا على ما يريدون بعد ذلك . وإذا صمَد بقليلٍ من العبارات الواثقة : العذاب كلمةٌ اخترعها البشر الّذين لا روح لهم ،

ولستَ منهم . مفردة الألم موجودة في قاموس اللّغات الأخرى ، ولكنْ ليس في العـربيّـة . السّـوط الّذي يغـوص في الجلد لا ينال من الرّوح شيئًا ؛ الجِلد قشرة ، يجب على المرء أن يغيّرها بسببٍ أو بدونه!!

إذا قرّتْ هذه العبارات في العقل سيكون النّصر حليفي بإذن الله ، حينها لا تخافي عليّ ، ولن أكون خائفًا على نفسي ؛ (إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)!!

المَلْذُوع

١٦/ تشرين الأوّل

الرّسالة الثّلاثون :

حبيبتي :

الموت صغيرٌ هيّن أمام ما سيحدث بعده ، لماذا يستوجب الموت مِنّا كلّ هذه العَبَـرات؟! هل نحن نبكي على ما بعـد الموت أم على الموت نفسه؟! هل نحن نبكي لما سنواجهه بعد هذه الحفرة من بعث ونشورٍ وقِيـام وحِسـابٍ وأهوال ووقـوفٍ سـرمـديّ بين يدي المَلِك ، أمْ نبكي لتخلّي الواحد مِنّاً عن وجوده الجثمانيّ ؛ عن حيّزه الّذي كـان يشغله في الفراغ؟!!

لِماذا كان النّهي عن البكاء على الميّت؟! ألأنّهُ لم يَمُت؟! أم لتوفير الدّموع ليوم أشدّ هولاً من لحظة انفصال الرّوح عن الجسد في هذه الدّنيا العابرةً؟! أم لأنَّ الميّت فارق الدّنيا إلى العُليا ، وما دام كذلك فهو يستوجب أن نفرح لا أن نحزن!! إذا كـان البكاء نتيجة الفَقْد ؛ فهل نبكي إذًا – حين نبكي – على أنفسنا أن تواجه المصير نفسه؟!

الشّجِيّ

٢٢/ تشرين الأوّل

الرّسالة الحادية والثّلاثون :

حبيبتي :

سوف يعرضوننا على محكمة أمن الدّولة بعد أيّام قليلة ، سيكون هذا أوّل خروج لي وللأصدقاء من السّجن إلى محكَمة ، لا أدري بالضّبط ما التّهم الّتي سيوجّهونها لنا ، ولكنّي أجد نفسي أردّد مع هاشم الرّفاعيّ :

الحُرُّ يَعْرِفُ ما تُريدُ المَحْكَمَةْ
وقُضَاتُهُ سَلَفًا قَد ارْتَشَفُوا دَمَهْ
لا يَرْتَجِي دَفْعًا لبُهْتان رَماهُ به الطّغاةْ
المُجرِمونَ الجالِسونَ على كَراسِيّ القُضاةْ

الواجد

٢٨/ تشرين الأوّل

الرّسالة الثّانية والثّلاثون :

حبيبتي :

لؤيّ صديقٌ حميمٌ ، رافَقَني في كلّ المراحل الثّوريّة السّابقة . كان يكبرني بعام . وكان مُثقَّفًا نوعيًا . هنا في هذا المعتقل الّذي يحمل الرّقم (٧) توطّدت العلاقة بيننا أكثر ، ولكنّها صارتْ أغرب ؛ يصوغ السّجن العلاقات بين ساكنيه على طريقته هو . يفرّغ الإنسانُ هنا كلّ عُقَده النّفسيّة طواعية ؛ لا أحدَ يخلو من عُقْدة ما أو مجموعة عُقَد ، تبدو الحياة بها طبيعيّة وبدونها تكون ليستْ حياتَنا نحن ، ولا حياة البشر بوجهٍ عامّ ، قد تكون أقرب إلى حياة النّورانيّين ولسنا هنا ملائكة ؛ نحن من طينٍ وماء!!

الأوجاع الّتي في القلب يُمكن أن تتعافَى بالبَوح ، ولكنّها لا

تُشفَى تمامًا!! يُمكن للشّكوى أن تُخفّف من حِدّتها ؛ هذا ما كنّا نفعله هنا . قضبان السّجن تضيق على صدرنا لمجرّد أنّنا حملْنا سِراً في أعماقنا ، وتنفرج المسافة فيما بينها إذا تخلّينا عن هذا السّرّ لصديق ، وقد تصبح هذه القُضبان من ريشٍ ناعمٍ إذا بُحنا به لِمَنْ نُحبّ؟!! فأينَ أنتِ الآنَ منّي . . . اتّسعت صحارى العطَش في روحي ، وجفّت بقاع الخواء في أعماقي ، وأنا مُحتاجٌ إلى نظرةٍ واحدةٍ منكِ ؛ فـ : (أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْك)!!

الكَلِف

١/ تشرين الثّاني

الرّسالة الثّالثة والثلاثون :

حبيبتي :

المهجع السّابع الّذي يُشكّل عالَمنا هنا ، مهجعٌ يضمّ كلّ الأطياف ، جمَعتْنا عدّة قضايا متعلّقة بأمن الدّولة ، أحدثُها قضيّتنا ، غدًا سوف نعرف اسم القضيّة حينَ نُعرَض على المحكمة كما أخبرونا . الّذين تضمّهم قضيّتنا حوالي (١٢) سجينًا . هذا ما تبقّى منّا . غَرْبَلونا في الزّنازين الانفراديّة السّابقة ، اكتشفتُ أنّ معظمنا قضى الفترة الغابِرة في زنازين تحت الأرض ، وأظنّ أنّها كانت في مواقع مختلفة . ما سمعتُه من رفقائي هنا من أوصاف جعلني أميل إلى الظّنّ بأنّنا وُزّعنا على الأقل على أربعة سجون ، وأنّنا في البداية كنّا أكثر من مئة معتقل ، كثيرٌ منّا أُفرِجَ عنه بعد يومين أو ثلاثة ، وبعضهم بعد أسبوع على أكثر تقدير . أمّا الخليّة المُصَغّرة الّتي تتألّف من (اثْنَيْ عَشَرَ نَقيبًا) فقد مكثت ما يقرب من سبعين يومًا في الزّنازين المُخيفة ، ثمّ لمّا أنهَوا تحقيقاتهم المبدئيّة بعد حفلات التّعذيب جمعونا هنا في هذا المهجع .

وهو مهجعٌ لطيفٌ ، وإذا ما قورن بزنازين العَزْل المُعتِمة ، فلا شكّ بأنّنا كنّا في الجحيم وخرجنا إلى الجنّة ، وكنّا في جوف الأرض فصعدنا إلى سطحها ، كنّا بلا هواء فأصبح لدينا بعضه هنا ، وهو كافٍ ليبلّغنا المَقيل فيما تبقّى لنا من عمر في هذه السّجون!!

يضمّ مهجعنا حوالي (٤٠) سجينًا ، ويمتدّ لأكثر من (٢٠) مترًا وبعُرض حوالي (٦) أمتار ، ويرتفع لأكثر من (٨) أمتار . كان السّقف الّذي يعلونا مرتفعًا جِداً ولا أدري لماذا ، وكانت أسرّتنا العشرون تُوزِّعنا حسب اتّجاهاتنا ، تجمّعنا نحن طلاّب الجامعة في الرّكن الأيمن للدّاخل إلى المهجع من جهة الباب . وفي الوسط كان بعض المتّهمين بالتّفجيرات ، وفي الرّكن القصيّ البعيد عن الباب من جهة اليسار كان الحشّاشون!!!

يختلف النّاس إلى مجموعات ، يُحاول الواحِدُ أن يحمي فيها نفسه من تغوّل الآخرين ، أو يُحاوِل أن يجد مساحةً مشتركةً من الفهم ، تجعله يلتقي مع الّذين يُشبهونه ، وهكذا توزّعنا إلى ثلاثة قُطعان!!

المَشُوق

١١/ تشرين الثّاني

الرّسالة الرّابعة والثّلاثون :

حبيبتي :

قيّدونا اثنَين اثنَين ، وبقيّة رفقائنا في المهجع ينظرون إلينا ، وسِرنا من باب مهجعنا في ستّة أزواج ، وتقدّمَنا ثلاثةٌ من العساكر ومشى خلفنا ثلاثة مثلهم . كنّا مُقيّدي الأيدي ، يمين الواحد مِنّا مع يسار الآخر ، وبالرّغم من ذلك فقد كنّا سعداء لأكثر من سبب ؛ مَشْيُنا معًا

في هذا الموكب المهيب ، إحدى اليدين طليقةٌ ، والعينان . . .؟! كانتا بكامل حَدَقَتَيْهما مفتوحتين على المطلق . . . تعوّدنا جميعًا أن نمشي معصوبي الأعين ، أمّا اليوم ، فلا عصابة ولا سياط تلهب الظّهر من الخلف . كان العساكر مجهّزين بالرّشّاشات تتدلّى بالجِناد على أكتافهم ، وكانوا متجهّمين طَوال الطّريق ، يتحرّكون بالإشارات . من بابٍ في المهجع يُفتَح لأوّل مرّة ، من الجهة المقابلة للباب الّذي ندخل منه خرجنا ، خلف هذا المهجع امتدّتْ ساحة ، أوّل ما دخلتُها مع رفقائي شعرتُ بأنّه أُفرج عنّا ، وأنّنا مُغادِرون إلى بيوتنا ؛ لن تتخيّلي الشّعور الجامح بالحرّيّة الّذي اعتراني لمشاهدتي هذا المنظر الفسيح ، كانت ساحة منبسطة مثل الكفّ ، معبّدة بالإسمنت ، عميقة وتُشرِع كلّ طاقات الأمل في الصّدر . . . وعلى بُعد مئات الأمتار أحاطتْ أسوار عالية بالسّاحة الّتي دارت في النّصف الّذي نُشاهِده ، وغابت في النّصف الّذي يلتفّ حول عنق السّجن من خلفنا . . . فوق هذه الأسوار العالية تشابكت الأسلاك الشّائكة ، وتوزّعت بعض أبراج المراقبة . . . خلف هذه الأسوار لم يبدُ شيء ؛ كان الفضاء المُطلَق سيّد الأشياء . . . وكانت السّاعةُ السّابعةَ صباحًا ، أخذتُ نَفَسًا عميقًا من هواء السّاحة النقيّ ، وشعرتُ بغبطةٍ كبيرة تجتاح جوانحي . . .

في الزّنزانة العسكريّة المتحرّكة ذات اللّون الأزرق الدّاكن صعدنا ، وغِبْنا في جوفها ، وأُغلِق دوننا بابها الحديديّ ، وخلف الباب الحديديّ اتّخذ عسكريّان مكانيهما في الحراسة ، وفوق رؤوسنا كانت هناك فتحة صغيرة جداً ، تحاوِل أن تُبقي علينا أحياء ببعض الهواء الدّاخل منها!! قبل أن نصعد شاهدتُ سيارةَ شرطة ، وسيّارَتَي حراسة مُجهّزتين برشّاش متحرّك لكلّ سيّارة يقبع خلفه قنّاصٌ مُحترف!! كانت القافلة

الّتي ضمّت موكبنا : إحدى سيّارتي الرّشّاش المتحرّك في المقدّمة ثمّ زنزانتنا المتحرّكة ، ثمّ سيّارة الشّرطة ، ثمّ سيّارة الرّشّاش الثّانية . . . لم نكنْ في حياتنا نحلم بموكب مهيبِ المنظر جليل الشّأن مثل هذا . . .!!!

نزلْنا دَرَجًا طويلاً ، وكدنا نتعثّر ونحن نهوي فوقه ، ثلاثٌ وعشرون درجةً متكسّرةً نزلناها قبل أن يُفتَح لنا بابٌ على غرفةٍ تنبعث منها رائحة العفن والرّطوبة ، يبدو أنّهم قرّروا أن يضعونا فيها ريثما يأتي دورنا في المحاكمة ، كانوا حريصين على ألاّ نختلط بأحدٍ أثناء مُحاكمتنا ولا يرانا أحدٌ . . . ولم تكنْ قاعات المحكمة تضجّ بغيرِ العسكريّين الّذين يتحرّكون كما يتحرّك الإنسان الآليّ . . .!!! أُغلِق علينا الباب من الخارج ، وظلّ عددٌ كبيرٌ من العسكر يحرسه من الخارج . . . بسرعةٍ انهمرت الأحاديثُ بيننا ، وغُصنا في لذّة الكلام . . . لم يُعكّر صفوَ استمتاعنا بالكلام سقوطُ العناكب على أيدينا أو رِقابنا أو في حُجورِنا بعد أن يكون أحدُنا دون أن يدري قد هتك نسيجه المعقود منذ وقتٍ طويلٍ . . . في شبكات العناكب وقعتْ فرائسُها الشّهيّة وبدتْ لنا في النّسجِ المُحكَم إحدى عناصر اللّوحة الفريدة الّتي رُسِمت بريشة الغريزة . . . كانت الألوان من الذّباب والحشرات والهوامّ وسواها . . . .

كانت تُسمع بين الحين والآخر ، وقع خطوات عسكريّة تمرّ من فوق سطح غرفتنا ، يبدو أنّها الطّريق الموصلة إلى قاعة المحكمة ، أو قاعة تجمّع الحَرَس ، مع خبطات أقدام العسكر فوقنا كانت تنهال من السّقف بعض الأتربة وبعض العفونة ، وتسقط فوق رؤوسنا ، كان الفاصل بين هذه الرّؤوس وتلك القذارات لا يزيد عن بوصاتٍ قليلة . الزّنزانة استمدّت ضوءَها من النّور القادم من الخارج بعد أنْ يتكسّر على الدّرجات ، ويتدحرج فوقها ثمّ يرتطم بنافذة الغرفة ككرة فتنقسم إلى

كراتٍ صغيرة ، ويدخل ما تبقّى منها إلينا هنا ، وهو - بالمناسبة - كافٍ لأنْ نرى وجـــوهنا ، ونلمس خـــيـــوط العناكب ، ونشمّ رائحـــة العفونة . . . .!!!!

مرّ ما يقرب من ثلاث ساعات ، قبل أن يُفتح الباب من جديد ، ونُساق إلى قاعة المحكمة!!

الهائِم
١٢/ تشرين الثّاني

الرّسالة الخامسة والثلاثون :

حبيتي :

عُدنا إلى مهجعنا بعد يوم شاقّ ، وأسئلةٍ مُقرِفة ، واتّهامات مُقزِّزة . مدَدْنا أجسادَنا المُنهَكة على الأَبراش ، وشعرناً براحةٍ عميقةٍ كأنّنا أنجزنا مهمّة عظيمة ، وانزلقْنا إلى وادي النّوم .

أريدُ أن أُكمِلَ رسالتي السّابقة ، أن أخبرك ببعض التّفاصيل الّتي حدثتْ معنا في المحكمة ، وما التّهم الّتي نُحاكم بسببها .

نعم ، وقفْنا في القفص الحديديّ المُشبّك ذي القُضبان العالِية الّتي ترتفع حتّى سقف الغرفة تقريبًا ، وأحاط بهذا القفص حوالَي عشرة حُرّاس ، وراح القاضي يقرأ من ورقةِ الاتّهام الموجودة أمامه : واثق . . . نعم . لؤيّ . . . نعم . سليم . . . نعم . . . .

- واثق؟! (قال القاضي الّذي في الوسط وتميل طاقيّته العسكريّة فوق رأسه أكثر من زميلَيه الجالِسَيْن حوله) .

- نعم .
- أنتَ متّهم بارتكاب جرائم خطيرة . . .
- . . . . .!!

– تُسنِد المحكمة إليك تهمة التحريض على العنصريّة ، وتقويض أركان الدّولة ، واحتلال مواقع حكوميّة ، وخيانة الوطن . . .

– شويْ . . . شويْ . . . . خيانة الوطن . . . .؟؟!!!!!!

– لّما بَحكي صَمْت . . . هاي محكمة . . . (قال ذلك وخبط بمطرقته على المكتب أمامه) .

– خيانة وطن . . .؟!! الّذين يخونون أوطانهم هم الّذين يُحاكِمون الشّرفاء أمثال هؤلاء . . . الّذين يخونون أوطانهم هم الّذين يرونها تُذبَح أمامهم ولا يُحرّكون ساكِنًا . . .

استشاط القاضي غضبًا ، وراح يضرب بمطرقته مكتبَه بعصبيّة واضحة ، وانتشر اللّغط في المحكمة ، وهاجَ بعض الرّفاق ، وراح آخرون يُكبّرون ، وآخرون يهتفون . . . عادت المحكمة إلى الهدوء بعد دقائق من هبوب العاصفة ، أُخرِجتُ من القفص بقسوة وأُعدتُ إلى الغرفة الّتي تهبط ثلاثًا وعشرين درجةً تحت الأرض . . . واستمرّت المحكمة ، وألقى القاضي العسكريّ التّهم في وجه الزّملاء جُزافًا ، وعُدْنا مُحمّلين بنياشينَ جديدة!!

المُغرَم

١٢/ تشرين الثّاني

الرّسالة السّادسة والثّلاثون :

حبيبتي :

فترةُ حبْسِنا في السّراديب قبل عَرْضِنا على المحكمة يبدو أنّها أطول بكثير من الفترة الّتي ستتبعها قبل أن يَفُوه القاضي بالحُكم ، هذا يعني أنّهم أَخذوا وقتًا في السّابق حتّى يُلفّقوا التّهم على ما يريدون ،

وأمّا الآن فالخُطُوات ستكون صُوريّة مظهريّة ، الأحكام جاهزة ، وعمّا قريب سوف ينطقون بها!!

حدّثني لؤيّ عن أيّام اعتقاله الأولى ، كانوا يريدون منه أن يُخبرهم بأسماء كلّ الّذين اشتركوا في التّخطيط للاعتصام الطّويل الّذي تُوّج بالَمبيت في كلّيّة الصّيدلة . كان يقول لهم في كلّ مرّة : واثق . . . هو واثق ؛ الرّأس المُدبّر . . . وماذا يفعلون باسم واحدٍ عتيقٍ ، هم يعرفون ذلك ويحتاجون إلى أسماء جديدة . يومَها رَبَطوه من رجلَيه ؛ كلّ رِجْل في حبل ، ومن يديه كلّ يدٍ في حبل ، ثمّ جاء أربعةٌ من العساكر الغِلاظ الشِّداد فسحب كلّ واحدٍ منهم طرف حَبْلِه من جهته ، وشدّه جيّدًا ، ثمّ ربطه في مكان مُخصَّصٍ لذلك على جدارَيْن مُتقابِلَيْن من جدران الزّنزانة ؛ صار لؤيّ مُعلّقًا في الهواء مرتفعًا عن الأرضَ حوالي لأكثر من متر ، وجهه إلى قعر الزّنزانة وظهره مكشوف للجلاّدين ، وجاءه الضّابط المسؤول ، ووقف عند رأسه :

– هه . . . . بدّك تحكيلي عَ إلّي نظّموا الاعتصام؟!!

– ما بعرف غير (واثق) . . .

وينهال سوطٌ مجدولٌ من حِبال معدنيّة على ظهره العاري ، ويلتفّ من شدّة الهُوُيّ على بطنه ، وينزعه الضّابط حينَ يُكمِل السّوط دورته الكاملة حول جسد لؤيّ بقسوة فيحفّ الجسد كاملاً ، ويأخذ معه كثيرًا من جسد لؤيّ وقليلاً من روحه ، يأخذ معه الدّماء والآهات وشيئًا من اللّحم . . . ويصرخ لؤيّ : آآآآآآآآآآآآآآه . . . فيأتي سوطٌ آخر قبل أن يُنهي صرخته . . . وبعد السّوط الثّالث انهارتْ من فمه بعضُ الأسماء ، ووفد من بعدها إلى الزّنازين عددٌ من الزّملاء . . .

يومَها بكى أمامي وهو يعتذر عن أنّه خان رفقاءه بهذه

الاعترافات ؛ وتابع وهو يغصّ ببكائه : قطعوا أحد الحِبال من الجهات الأربعة فتدلّت يدي في الفراغ ، وانشلخ جسمي من الشّدّ في اليد الأخرى ، وبصقت ما اختلط من دم في فمي مع اللّعاب على الأرض ، ثمّ وقف ثلاثةٌ منهم عند الأطراف المَربوطة المتبقّية وقطعو الحبال في الوقتِ نفسه فسقطتُ على الأرضِ ؛ تهشّم وجهي وأنفي وفمي ، وفقدتُ بعضَ أسناني من ثِقل السّقطَة!!

ثمّ ارتفع صوتُه بالبكاء ، وقال : ولكنّكم ستسامحونني . . . سوف أقتل نفسي إنْ لم تُسامِحوني . . . لقد سقطتُ في هذا الامتحان ، ولكنّني أقسم بالله إنّه كان رهيبًا وفظيعًا وفوق احتمال البشر!!!

أتعرفين يا حبيبتي : لم ألُمه . . . كدتُ أنا أفعل مثله أيّام التّحقيقات ، غيرَ أنّي لم أكنْ مُقتنعًا بأنّ جسدي يملكني ، أنا مَنْ يملكه ، واتّفقتُ معه : أنتَ كيسٌ من الجِلد إذا أرادوا أن يأخذوك سأتنازل عنك دون تردّد!!!

الآمِل

١٦/ تشرين الثّاني

الرّسالة السّابعة والثّلاثون :

حبيبتي :

في الشّهر القادم سوف تبدأ الزّيارات ، قال لنا ذلك أكثر من واحدٍ من العسكر المسؤولين عن حِراستنا ، فرحنا جميعًا ، فنحنُ محتاجون إلى أن نرى وجوه أحبّائنا . . . السّجن فارغٌ إلاّ من الهموم الّتي تتقاطر من كلّ جهة ، يستطيع وجهٌ نعرفه أن يقف في وجه هذه الهموم ، ويصدّها عن السّبيل .

لا نخرج إلى الطّعام ، يعدّون ذلك أمرًا خطيرًا ، الاحتكاك

بأصحاب القضايا الأخرى يعدّ هنا جريمةً لا تُغتَفر . ولذلك يأتون هم لنا به . في السّاعة السّادسة صباحًا يُفتَح باب المهجع من الجهة المُعاكِسة للسّاحة ، ويدخل ثلاثة عساكر ، واحدٌ يحمل أرغفة الخبز في كيسٍ بلاستيكيّ أبيض ، ونكون نحن قد هيّأنا مكانًا قريبًا من أبراش سجناءِ التّفجيرات ، ففرشنا حِرامًا واسِعًا على الأرض ليستقبل الأرغفة الّتي تصل أحيانًا إلى خمسين رغيفًا ساخِنًا تملأ الأنوف برائحتها الشّهيّة ، وخُبِزَت في السّجن للتّوّ!! أمّا العسكريّ الثّاني فيحمل في أطباقٍ خضراءَ الزّيتونَ والبيض المسلوق وأحيانًا الفلافل ، وفي النّادر الجبنة البيضاء . وأمّا العسكريّ الثّالث فيحمل بيده إبريق شايٍ كبيرًا لونه نُحاسيّ ، تتصاعد الأبخرة من (زُنبعته) ، وأتابعُ أنا تصاعدَ تلك الأبخرة ، وأتخيّل نفسي في لحظةٍ فارقةٍ تحوّلْتُ مثلها إلى بُخارٍ يصعد إلى طبقات السّماء ، تاركًا خلفه الألم والعذاب .

بعد أن تكتمل مكوّنات الفَطور ، نهبطُ من على أبراشنا كالطّيور الجائعة ، ونهفو إلى المائدة ، ويبدأ سليم يوزّع الكاسات الورقيّة على الرّفقاء ، ويقوم لؤيّ بصبّ الشّاي في الكؤوس ، ويقوم بعض أفراد التّفجيرات والحشّاشين بتوزيع الأرغفة والبيض المسلوق والزّيتون علينا جميعًا . ولا نقوم إلاّ بعد أن نلحس كلّ شيء ، لا أذكر إلى اليوم أنّنا تركْنا بعد وجبة الفطور خلفنا كسرةَ خُبزٍ واحدة ، أو نصفَ بيضة ، أو حتّى حبّة زيتون يتيمة ، كنّا نأتي على كلّ شيء ، ومن رأى المائدة قبل الهجوم عليها ، وبعد ذلك ، يرى أنّه : ﴿طافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيْم﴾!!

كانت المفارقةَ واضحة في كلّ جلسات الطّعام ، لم يجمعنا إلاّ السّجن ، وهذه الأبواب الحديديّة الغليظة الّتي تحيط بنا من كلّ

جانب . والحقّ يُقال إنّنا لم نكنْ نستمزجُ بعضَنا ، غيرَ أنّ الحشّاشين كانوا يُضفون بعض المرح على لقاءاتنا . كانوا (ضاربين الدّنيا بجزمة) على رأي إخوتنا المصريّين ، كانوا يمزحون بشكلٍ هستيريّ ، وكنّا - أحيانًا - ننفجر بالضّحك على بعض نُكاتهم ، وإنْ كانت قليلة الأدب في الغالب!!

وبمثل ذلك كنّا نقضي معًا فترة الغداء والعشاء . لم تكن وجبة العشاء تُطلّ علينا برأسِها دائمًا ، وكثيرًا ما كنّا نبيت دونها ، وكان الحشّاشون يرتزقون من ذلك ، ويفرحون إنْ لم تأتِ الشّرطة بها ، فكثيرٌ منهم كان يُخبّئ من الفطور والغداء ما توفّر ، ويبيعونه في السّوق السّوداء : الرّغيف الواحد بعشرة قروش ، والبيضة المسلوقة بخمسة عشر قرشًا ، وحبّة الجبنة ولو كانت معفّنة بخمسة عشر قرشًا كذلك . من جماعتنا كان سليم أكثرنا نهمًا ، ويبدو أنّه كان يأكل لينسى ، كان الحشّاشون يعدّونه كنزهم الاستراتيجيّ ، ولم يخيّب أمل واحدٍ منهم ، ظلّ يشتري ويأكل حتّى تكرّش ، وصارت كِرشُهُ تمشي أمامه . وإذا انتهت النّقود من جيبه باع ساعته أو جاكيته أو أيّ شيء ليحصل على النّقود ويشتري ، وأحيانًا كان يقترض من بعض الزّملاء!!

أمّا الحشّاشون فكانوا يُتاجِرون بكلّ شيء ؛ حتّى بأجسادهم!!! وكانت النّقود تتوافر معهم بشكلٍ دائم ، وبما نملك من أدواتٍ ثمينة كنّا نُقايضهم بها ، ثمّ نعود لدَفْعِها لهم مقابل أشياء أخرى . إدمانهم على الحشيش ظلّ رفيقًا لهم وهم معنا في هذه الغرفة يشاركوننا المكان والزّمان والهَواء ، كثيرًا ما رغبنا بأن ننفصل عنهم ، ولكنّ إدارة السّجن كانت ترفض ذلك ، وتتذرّع بأعذار واهية ، وكانوا يقولون : مَفيْشْ فِي السِّجِنْ وَسَعْ . . . ولْ مِشْ عاجْبُهْ يْطُقْ راسُهْ بْأَلْفْ حِيْطْ!!

وكان الحشّاشون في اللّيل العميق يفعلون كلّ المحرّمات ، لم يكنْ يردعهم شيء ، ولم يكن الحرام أصلاً موجودًا في قاموسهم ، كانوا يشربون الحشيشة ، ويقومون بفعل قوم لوط من تحت الأغطية ، وكانوا – حتّى في صحوهم – يشتمون ويسبّون ولا يسلم من سِبابهم القَذِر أحدٌ!!!

بدأ (سليم) يميل إلى مُصادقتهم ، حذّرْتُهُ ألفَ مرّة ، ولكنّه لم يسمع كلامي . باختصار بدأنا نفقده!!

المَحزون

٣٠/ تشرين الثّاني

***

مَنْ يألف مَنْ؟! ومَنْ يقتلُ مَنْ؟! أكان السّجناء قاتلين أم مقتولين؟! أصودِرتْ حُرّيّتهم أم هم الّذين صادَروا حرّيّة السّجانين؟! كيف تبدأ الانهيارات ، وكيف يُمكن أن تُقاوَم؟! مَنْ يُعين الهاوي في قعر الوَخَم والقذارات على الصّمود ، وأين اليد الّتي تمتدّ إليه لتحميه من هذا الهُوِيّ؟!

تسقط أمطار الرّحمة على صحراء الرّوح فتُعشِب!! يتفقّد الله عباده ، فلا يتركهم في مَسبَعة الوجد يُواجِهون الموت وحدهم ، يبعث إليهم بجنوده ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ فتقف معهم في وجه الحتف القادم من سكاكين الحنين . الله الّذي يغرز الحنين في قلوب أوليائه هو الّذي يُساعدهم على التّخلّص منه إنْ أرادوا!! الله الّذي يملأ فؤاد المذبوحين بالعشق ، هو الّذي يتجلّى عليهم ليمسح على جراحات العشق فتزهر بدل الدّماء والآهات ورودًا وزنبقات!!

لم يكنْ خليطهم متجانِسًا ، ازدادوا على أنفسهم انكِفاءً ، وبدأت

كلّ مجموعة تُحصّن أفرادها ضدّ المجموعة الأخرى . حدثت بعض الاختراقات!! وآلت النّتيجة إلى انشقاقات ، ثمّ شبه حرب طاحنة ، ثمّ عدّوا جرحاهم ، وبدأت الاتّهامات من كلّ طرفٍ لآخر ، وعلا صِياح من قِبَل أصحاب التّفجيرات : الله مولانا ولا مولًى لهم!!

كانت مجموعة طلاّب الجامعة تُعدّ المجموعة النّاعمة بين المجموعات الثّلاث ، ولم يكنْ في السّجن كلّه حتّى في مهاجع القتل البعيدة من هنا ما هو أشرس من هاتين المجموعتَين : الحشّاشين والتّفجيريّين . حدثتْ معركة طاحِنة وفاصِلة ؛ كانت البداية من أحد الحشّاشين عندما شَتَم الذّات الإلهيّة وهو يتناكَف مع أحد التّفجيريّين ، فما كان من الأخير إلاّ أنْ فزّ على قدميه بعدما كان جالِسًا ، وهوى بقبضة يده على وجه الحشّاش ، كُسِر الأنف وراح الدّم يسيل في مسربَين مُنحدِرًا بسُرعة ، مسح الحشّاش الدّم بأصابعه ونظر إلى لونه فجحظتْ عيناه ، أدخل أصابعه كلّها في فمه ولعق الّدم ، وركض باتّجاه التّفجيريّ الّذي تراجع إلى الوراء قليلاً عندما رأى الشّرر يتطاير من عينَي غريمه ، وراح يشتم ويلعن ويسبّ ، اندفع بثقله الكامل إلى التّفجيريّ ، وأحاطه بيديه وهوى به على الأرض ، ارتطمت رأس التّفجيريّ في هذا السّقوط المُريع بحافّة البَرْش الحديديّة ، فانفجر الدّم من مؤخّرة رأسه انفجارًا ، حاول أن يقوم ، فترنّح ، ثمّ كاد يسقط قبل أن يُمسِكَ بأحد قوائم البرش ويتّقي السّقوط بالاتّكاء عليه ، وفي كلّ هذا كان الحشّاش يُتابع لكماته وسبابه الّذي يصمّ الآذان . . . لم تمرّ سوى بضع ثوانٍ قبل أن يشتبك الطّرفان في ملحمةٍ تاريخيّة ، كان موقع طلاّب الجامعة القصّي في الطّرف قد ساعدهم على الانزواء بعيدًا عن ساحة المعركة ولكنْ في الوقت نفسه متابعتها كما لو كانت فلمًا

حقيقيًا ، أبطاله من الّذين يُقاسمونهم المهجع .

انخلعتْ أبراشٌ من أماكنها ، ونهضت الفَرْشات من فوق الأبراش ، وبرزتْ أوانٍ ، وملاعق ، وشُوَك ، وصحون ، وظهرتْ – عند الحشّاشين خاصّةً– أدوات انفغر لها فم طلاّب الجامعة وهم يرونها لأوّل مرّة ؛ ظهرتْ بعض السّكاكين ، والحدائد ، والسّلاسل ، والخواتم المُدبّبة . . . و(الْتَقَى الجَمْعانِ) ، وكانت صيحات : الله أكبر . . . الله أكبر تعلو من التّفجيريّين ، ومع كلّ صيحة كان يسقط واحدٌ من الحشّاشين مُخضَّبًا بدمائه ، وكان سيل الشّتائم الّذي لا يتوقّف يصدر عن الحشّاشين ، ومعه يترنّح بعض التّفجيريّين ، ويسقط هو الآخر ، وبعض الدّم يلوّن يديه ووجهه . . . .

مثل هذا المنظر لا يتكرّر ؛ الوجوه الّتي تطفح بالدّم وتسيل في مسالك عموديّة كانت تصبغ الوجه بأكمله وتغطّيه حتّى لا يعود يظهر منه سوى العينين اللّتين تقدحان غضبًا وألمًا ، فيبدو المشهد كلّه مُرعِبًا ، وكلّما رأى أحد الفريقَين صاحبه على هذا النّحو استشاط غضبًا ، واندفعت فيه قوّة كامنة فأشعلتْه من جديد للدّخول في هذا المُطاحنة . . . كانت القضبان الحديديّة في أيدي الطّرفين ؛ أمّا الحشّاشون فكانوا يُغافِلون التّفجيريّين فيأتونهم من الخلف فيهوون بها على رؤوسهم ، وأمّا التّفجيريّون فكانوا يضربون بها وجوه غُرمائهم وصدورهم . . . العجيب أنّه بعد عشر دقائق تقريبًا ، فتحت الشّرطة البابين ، الباب الّذي يُفضي إلى داخل السّجن ، والباب الّذي يُفضي إلى السّاحة الخارجيّة الواسعة ، وظهر بابٌ ثالث ، لم نره من قبل ، ويبدو أنّه بابٌ للطّوارئ . توافدتْ عساكر مكافحة الشّغب ، وتقدّمهم أحد العُقَداء ، ووقفوا على مصارع الأبواب الثّلاثة دون أن يحرّكوا

ساكِنًا ، وظلّوا يراقِبون المشهد من بعيد وهم يتلذّذون بمنظره الّذي استمر لأكثر من أربعين دقيقة . . . بعد ذلك بدا أنّ الفريقَيْن قد أُنهِكا إنهاكًا تامًّا ، وكانت ساحة المعركة شاهدةً على ذلك . . . كانت الدّماء تتراشق على الأرضيّة هنا وهناك ، بعضها انرشق على شكل بُقع ، وبعضها الآخر على شكل دُفُقات كبيرة . . . وكان هناك سجناء فقدوا الوعي ، وبعضهم انكسرتْ رجله فتمدّد على الأرض وهو يتلوّى من الألم ، ولا يستطيع النّهوض . وبعضهم كانت الضّربة قد فتحت أخدودًا في وجهه ، وبعضهم انسدلت يده على جانبه والدّم يقطر من أطراف أصابعه قطرةً قطرةً كأنّ صنبور ماء غير مُحكَم الإغلاق ينفلت الماء من فوهته!!!

ظلّت الشّرطة تقف متفرّجةً حتّى أدركت أنّ الطّرفين في النّهاية نالَهما من التّعب والإعياء ما لا يقويان على المقاومة بعدها . . . بإشارةٍ نصف دائريّة من المسؤول هجم العساكر على المجموعَتَيْن ، وانكمش طلاّب الجامعة بعيدًا ، وازدادوا التِصاقًا بزاويتهم . كان عدد العساكر يفوق المئة ، تخصّص بعضهم بتوجيه البنادق ، وبعضهم بالتّقييد ، وبعضهم بحمل المُصابِين . . . وبعد حوالي ربع ساعة أُخلِي المهجع من ساكنيه ، ولم يبقَ فيه إلاّ جماعة (واثق)!!!

ظلّتْ ساحة المعركة تحمل بعدهم بقاياهم ، خُيّل إلى واثق أنّه ما زال يسمع أصواتهم ؛ تكبيراتهم وشتائمهم ، وخُيّل إليه أنّ بعضًا منهم ما زال هنا يحوم حولهم ، كان هذا الخاطر مُربِكًا بالنّسبة له ، أراد أن يمحو الصّورة من ذهنه ، فتنادَى هو وعددٌ من مجموعته لكي يُزِيلوا آثار القِتال الّذي دار قبل قليلٍ أمام ناظِريهم . . . مسحوا الدّماء ، ونظّفوا المَكان ، وأرجعوا الأواني إلى أماكنها ، وأعادوا ترتيب الأبراش . . .

أُودِعت المجموعتان في الزّنازين الانفراديّة لمدّة ستّة أيّام ، بعضُهم نُقِل إلى العيادة الدّاخليّة للسّجن لتلقّي العلاج السّريع ، وبعضهم نُقِلَ إلى المستشفى ، وقسمٌ ثالثٌ أُفرِد في الزّنازين . . . بعد أسبوع عاد الفريقان ليتقاسَما المهجع ذاته الّذي كانوا يتقاسمونه من قبل ، كانت الهوّة بينهما قد اتّسعت ، ومواطن الخلاف قد تعمّقتْ . . . وصارت المجموعة الثّالثة هدفًا لكلّ منهما ، كان كلٌّ من الحشّاشين والتّفجيريّين يُحاوِل أن يستميل أكبر عددٍ ممكنٍ من طلاّب الجامعة إلى جانبه ، وكانت لدى كلّ مجموعة وسائلُها الخاصّة في ذلك . . .!!

***

الرّسالة الثّامنة والثّلاثون :

حبيبتي :

منذ ما يقرب من أسبوعَين بدأنا نشغل وقت فراغنا ببعض القراءة ، مجموعة التّفجيريّين كانت تملك بعض الكتب الّتي استطاعت تهريبها عن طريق رشوة الشّرطة ، ولكنّ الكتب الّتي بين أيديهم ذات لونٍ واحدٍ ، وبصراحة لم تكنْ كافيةً بالنّسبة لي ، قرأتُ ما استطعتُ أن أستعيره منهم ، ولكنّي سرعان ما توقّفت!! أتعرفين يا حبيبتي ما هو أقسى شيءٍ في السّجن ؛ أن ينذبح المرء دون أن يصل إلى كتابٍ فيقرؤه!!! كان الحِرمان من الكتب أقسى أنواع الحرمان ، وكم تحسّرتُ على الأيّام الّتي كان فيها الكتاب رفيقي الدّائم ، وكنتُ في بحبوحةٍ من اختيار الكتاب الّذي أريد ، أعرف أنّها كانت نعمةً عظيمةً لم أشعر بعظمتها إلاّ اليوم وأنا أجلس دون روايةٍ أو ديوان شعرٍ أو كتابٍ يحرك خلايا الدّماغ ، ويُوقِظ مغارس الحسّ!!

لا يُوجَد مكتبة في السّجن ؛ السّجن يعلّم الجهل إذًا ، ولكنّهم

وعـدونا من ضِـمن وعـودهم ، أنّ الكتب يُمكن إدخـالهـا مع الزّيارات حين تبدأ هذه الزّيارات . ولكن على هذه الكتب أن تمرّ بمراحلها الأمنيّة قـبل أن تصل إلى أيدينا . . . أتمنّى في اليـوم الّذي تزورينني فـيـه أن تحـملي بين يديك عـشـرة كـتب دُفـعـةً واحـدة لأقـرأها ، وأقـرأكِ من خِلالها ، فأنا أكاد هنا أضمحلّ وأتآكل دون أن أكون قادِرًا على التّواصل مع كاتبٍ أو شاعرٍ أو مسرحيّ أو مُبدع ، فقط أريد أن أحسّ بذاتي وأنا أحمل معشوقًا بين ذراعيّ يُدعى الكتاب!!

العَطِش

١١/ كانون الأوّل

الرّسالة التّاسعة والثّلاثون :

حبيبتي :

ما زالت لُحمتنا كفريقٍ واحد فاعلةً حتّى اليوم ، خرجْنا هذه المرّة معًا إلى المحكمة ، اليوم سيكون له ما بعده ، أنزلونا هذه المرّة إلى الغرفة الّتي تهبط تحت سطح الأرض ثلاثًا وعشرين درجةً . . . في الطّريق بين السّجن والمحكمة نظرتُ إلى وجوه رفقائي فقرأتُ فيها أشياء غريبةً ، كان بعضُها واجمًا كأنّه يُساق إلى الموت ، وكان بعضها الآخر ساهِمًا تكاد تطرف من مقلتيه دمعة . و(صلاح) كان يجلس ووجهه إلى جدار الزّنزانة المتحـرّكة مُؤذِيًا بذلك يد (وسيم) المقيّدة إلى يده بشـدّها إلى الجهة الأخرى بسبب جلسته الغرائبيّة ، لم ينبس ببنت شفة . و(لؤيّ) كان يضع يده الحرّة على خدّه ويُطرِق في الأرض طويلاً . خشـخشتُ بيـدي المقيّـدة إلى يد (ضيـاء) وطوّحتُها في الفراغ ، وأنهضتُه معي محاوِلاً أن أخفّف قليلاً من قتامة المنظر :

- شُو يا شبابْ . . . صَلُّوا على النّبيّ . . . .!!

- . . . . (خرجتْ غمغمات غير مفهومة)!!

- مِشْ مِسْتاهْلِةْ يا شَبابْ . . . كُلْها كَمْ يُومْ وْرَحْ نِطْلَعْ مِنْ هُونْ!!

- تحلَمْ (قال سعيد الجالس كالمنبوذ في زاوية الزّنزانة المتحرّكة) شِكِلْنا رَحْ نوكِلْها ها المَرَّةْ . . .!!!

- لِيْشِ التّشاؤُمْ يا حَبِيبِي . . . خَلِّيْكْ مَحْضَرْ خِيْرْ . . . اِحْكِيْلَكْ كِلْمِتِيْن حِلْوِين يا صاحْبِي . . .

- . . . .!!

- اِفْرِدُوها يا شَبابْ . . . طالْعينْ بَراءَةْ بِإِذْنِ الله . . .!!

مكثنا في زنزانة الانتظار أكثر من ستّ ساعات ، كدنا نختنق حقيقةً ، لم يكنْ من مسربٍ للهواء غير ما يدخل منه ضئيلاً عبر نافذة الباب الّتي ترتفع بضعة سنتيمترات فوق الأرض . . . وقبل أن تُغلِقَ المحكمة أبوابها بقليل ، ساقونا إلى القاعة ، وكانت خاليةً من المحامين ومن النّظارة ، ولم يكنْ في قفص الاتّهام أحدٌ . دَخَلْنا القفص ، وقام رئيس القُضاة من مكانه فورَ وصولنا ، وغادر قاعة المحكمة ، قدّرتُ أنّه ذهب لقضاء حاجته بعد نهارٍ طويلٍ من العمل الشّاقّ ، انتظرنا عشر دقائق قبل أن يدخل مرّة أخرى وهو يعدّل طاقيّته العسكريّة ، ويتحسّس بيديه على (القايش) الّذي يلفّ وسطه ، ثمّ توسّط جلسة القُضاة ، ونظر في الأوراق المكتوبة بين يديه ، ونادَى على أسمائنا واحِدًا واحدًا ، وأسمعَ كلّ واحدٍ حُكمه . . .

تلقّيْنا الأحكام بصمتٍ عميق كصمت القبور ، وبعضُنا اكتفى بالإطراق .

عَدَدْنا جميعًا الأحكام الّتي صدرتْ بحقّنا قاسية ، وأنّها تأديبيّة من أجل أن يتّعظ الآخرون من زملائنا في الجامعة ، وخرجْنا من قاعة

المحكمة عائدين إلى سجننا الكبير ونحن نحمل أثقال الأحكام الظّالمة الجديدة!!

المُعَنّى

١٣/ كانون الأوّل

الرّسالة الأربعون :

حبيبتي :

سليم ، وضِياء ، وسعيد ، وصلاح ، وآخرون أخذوا أماكنهم في زوايا أبراشهم بعد الحكم وانعزلوا عنّا انعزالاً تامًّا ، وحدنا أنا ولؤيّ بقينا نفكّر كيف نقضي مدّة المحكوميّة دون أن نفقد أنفسنا ؛ أشياء كثيرة كانت تجول بخاطرنا ، على رأسها دراستنا الّتي بدأتْ تهرب من بين أيدينا!!

غدًا تبدأ الزّيارات ، أرجو أن يكونوا صادقين ، هل ستكونين مِنْ ضِمن مَنْ سيأتي؟! مشغوفٌ أنا وملهوف ، منتظرٌ لحظة وقوع عينيّ عليك بأشدّ ما في العاشقين من توق وشوقٍ ولوعةٍ وجنون!! الجوع الّذي تراكم في أعماقي منذ أيّام الاعتقالِ البعيدةِ لا ينقضي إلاّ بمرآك ، والأُوام الّذي ملأ شرايين القلب لا ينطفئ إلاّ بقطرةِ عشق من عينيكِ . . .!!

المُعدَم إلاّ بك

٢١/ كانون الأوّل

الرّسالة الواحِدة والأربعون :

حبيبتي :

كان يومًا من الأيّام الّتي تملأ الرّوح بالطّمأنينة لأعوام وأعوام . . . الباب الثّالث الخفيّ الّذي ظهر لأوّل مرّة في معركة التّفجيريّين

والحشّاشين ، ظهر مرّة أخرى اليوم ، كان يُفضي إلى (كرادور) ، ينفتلُ الواحد منّا فيه إلى اليسار ، ثمّ يمشي فيه حوالي ثلاثين مترًا ، قبل أن يدخل إلى غرفة كبيرة الحجم قليلاً ، وعلى الجانبَين الأيمن والأيسر منها (كابينات) الزّيارة ، في كلّ جانب حوالي خمس (كابينات) ، كانت مخصّصة لمهجعنا فقط ، يقف الواحد على الكابينة لينتظر زائره على الطّرف الآخر ، ويفصل بينهما زجاج شفّاف ، ويتواصل الزّائر والمَزور عبر سمّاعة تليفون مُهيّأة لهذا الغرض ، انتظرتُ بضع دقائق قبل أن يهلّ على كابينتي طَيْفان يتهاديان ، احتجتُ إلى برهةٍ قبل أن أتبيّنهما ، كانا أبي وأمّي ، سقطتْ غيمة الرّحمة فجأة على صدري فانشرح ، وانسابتْ منها إلى العينين دمعتان فسالتا بحرارة على خدّي ، مسحتهما بأطراف أصابعي ، وحينَ بدأ الحديث لم يكنْ إلى ردّ سيل الدّموع من سبيل .

قدّم أبي أمّي إلى السّماعة قبله ، أمسكتْها ، وراحت تتأمّل وجهي عبر الزّجاج ، وتضيّق عينيها ، وتحدّق بما تبقّى فيهما من نور ، وتتطلّع بعمق كأنّها لا تصدّق أنّني أنا ، وأنّني حيّ ، وأنّني موجود ، وأنّني أقف قبالتها وأسمع دموعها ، ظلّتْ تبكي لدقائق وأنا أهدّئ من رَوْعها قبل أن تنطق بكلّ ما في الكون من حنان :

– كيفك يا حبيبي . . .؟!

– بخير . . . أنا بأحسن حال . . . ما في اِشِي ناقِصْني إلاّ شوفِتْكم . . .

– حَكَموك سنتين يا حبيبي . . .

– بكرة بخلصو يمّه . . . المهمّ كِيفِكْ إنتي . . .؟!

– معلش يمّه . . . قلبي بِدعيلك . . . ما بتعرف كيف ربّك

بِفَرْجْها . . .!! (قالتْ ذلك ، وهي تمدّ السّمّاعة إلى أبي)

- إنْ شاء الله يمّه . . . إن شاء الله . . .

- كيفك يابَهْ؟!

- بخير . . . هَيْنا عايْشين . . .

- ولا يهمّك . . . خلّيك قويّ . . . سمعتك مثل الورد . . . ولا تطاطي لها الكلاب . . .

- على فكرة . . . التّليفون مسموع يابَهْ . . .

- وشو يعني . . . خلّيهم يعملوا إلّي يدهمُ إيّاه . . . المهمّ إنتا ارفع راسك فوق ، مهما تطول رح تنفرج بالأخير . . . (طوّطتْ السّماعة معلنةً انتهاء وقت الزّيارة . . . لفّ أبي أمّي بذراعيه ، ووقفلا خارِجَيْن ، بعد أن أخذتْ منه السّماعة وودّعتْني بآخر كلماتها) :

- دير بالك على حالك يا حبيبي . . .!!

المَشْجيّ

٢٢/ كانون الأوّل

الرّسالة الثّانية والأربعون :

حبيبتي :

أشتاق أن تزوريني في السّجن . . . . أضاء أبي وأمّي عتمات الرّوح هنا . . . لكنّني أحتاج أن تُكمِلي عالَمي . . . عالَمي الّذي يتمدّد على بحرٍ من القلق يُمكن أن يبتلعنا فُرادى أو جماعات في لحظةٍ غادِرة ، إنْ . . . إنْ لم تظهري فيه ملاكًا يهبط على الجحيم فيحولّها إلى حدائق ذات بهجةٍ من نفخةٍ واحدةٍ!!

الوامِق

٣١/ كانون الأوّل

الرّسالة الثّالثة والأربعون :

حبيبتي :

مرّت شهور الشّتاء قاسية ، الكوانين كانت ذابحة ، ملأتْنا بالبرد والحزن والخوف والانتظار ، حدثتْ في هذه الشّهور الثّلاثة أشياء كثيرة ، بعضُها أضحكنا وبعضُها أبكانا ، بعضها أعاشَنا بالأمل ، وبعضُها قَتَلَنا باليأس .

(سليم) انحرف ، سرقه الحشّاشون منّا ، رأى أنّ الحكم الصّادر بحقّه كان قاسِيًا جِداً ، فأراد أن ينسى فانغمس في المُخدِّرات ، واستغلّه الحشّاشون أبشع استغلال ، حتّى على المستوى الجنسيّ ؛ كانت تمرّ أسابيع عليه وهو يتشارَك السّرير مع أحد الحشّاشين الغِلاظ ، كان يبيع جسده ويشتري به الحشيشة . كلّ محاولاتي معه ذهبتْ سُدى ، أمّا رفقائي الآخرون فتركوه إلى همومهم الخاصّة ، وتخلّوا عنه كأنّه لم يكنْ واحِدًا منّا يومًا . خاطبْتُه يومًا ، وهو يترنّح من أثر المُخدّر :

- إنتَ بتقتل حالك وبتقتلنا بِلّي بْتعْمَلُه!!
- وإنتا شو دخَلك يا روح أمّك . . .
- إنتا أخوي . . . وبهمني تظلّ قويّ . . .
- خلّيك بحالِك ، وخلّيني بْحالي . . .
- رح تموت بالأخير . . .
- وإنتا مسمّي إلّي عايشنوه حياة؟!!
- يا خسارة وين سليم إلّي وقّفْ يدافع عنّي لّما هَجموا عليّ . . . وين سليم البطل . . .؟!
- ماتْ . . . سليمْ ماتْ . . . ماتْ مِنْ زمانْ . . .!!!!

أكثر من عشرين محاولة في ثَنْيِه عن الهاوية الّتي سلكها ذهبت

أدراج الرّياح ، في آخر الأمر صرخ في وجهي :

- حِلْ عَنِّي يا كَلْبْ . . . (وأتبع ذلك بلكمةٍ على وجهي كادت تُفقدني وعيي) .

تركتُهُ وأنا أنزفُ من الدّاخل . . . وانزويت في بَرْشي ، وبكيت لثلاث ليالٍ بعدها . . .

ظلّتْ حالتهُ تسوء يومًا بعد يوم ، فاقَمَ الأمر أنّ أهله لم يعودوا يزورونه ، ولم يعودوا يبعثون له بالمال ، فتردّى أكثر وأكثر . . . وبدأ جسمه ينحل من المُخدّرات والجِنس . . . وفقد شهيّته للطّعام ولأيّ شيء إلاّ للحشيشة ، وكان الجنس الوسيلة الوحيدة لإشباع نَهَمِه في المُخدّرات . . . سليم الّذي تكرّش فيما مضى ، صار أقرب إلى الشّبح في هذه الأيّام . . . بدأ سليم يستسلم للموت!!!

المُمَزّق

٢٠/ شباط

الرّسالة الرّابعة والأربعون :

حبيبتي :

منذ ثلاثة أسابيع والحزن يقضم قلبي ، أرى أصدقائي يتساقطون أمام عينيّ وأنا لا أملك شيئًا ، (ضياء) انحاز في نهاية المطاف إلى التّفجيريّين ، وجد عندهم ما يشفي غليله من الحِقد على الدّولة وعلى النّظام وعلى الشّرطة . . .

ترك أبراشنا ، وصارَ واحِدًا منهم ، لغته اختلفتْ ، تعامله معنا تغيّر ، انقلب من اللّطف إلى الجفاء ، صار يمّر بنا ولا يسلّم علينا ، وصار يلبس دشداشة نِصفيّة ، ويعتمر طاقيّة سوداء ، وأطال لحيته حتّى بلغت منتصف بطنه ، وطال شعره المنسدل على كتفيه من الخلف ،

والمنفلت من طاقيّته السّوداء الدّائريّة الّتي تلفّ قُمعَ رأسه . . .

في أوقات الصّلاة لم يعد يصلّي معنا ، اعتبر صلاتنا باطلة ، وصار يصلّي معهم . كانت الكتب تأتيهم بسهولة ، وتدخل إلى أبراشهم كأنّها أرغفة الخبز في صباحات الإفطار . . . أمّا نحن فكانت الكتب تشحّ كأنّها وردة الرّبيع المؤجلة إلى صيفٍ قائظ!!

المَعْصوف به

٢٥/آذار

الرّسالة الخامسة والأربعون :

حبيبتي :

أبلغتْني إدارة السّجن ، أنّ أهالينا نحن طلاّب الجامعة قد أجّلوا لنا الفصل الثّاني لكي نبقى مُحافِظين على مقاعِدنا . . . أعرف أنّه قد نفقد هذه المقاعد إذا أجلْنا الدّراسة لأكثر من أربعة فصول!! ما زال عُشُب الأمل ينمو في قلبي رغم الصّحارى الّتي تُحيط بي من كلّ جهة ، أوقن أنّني سأعود إليك وإلى الجامعة قبل أن يختطفكما منّي سارقٌ الأحبّة والذّكريات!!

(لؤيّ) كفر بنا جميعًا ، لم يعجبْه أحد ، فجأةً رأى عبثيّة ما يحصل ، وقرّر أن يلعن كلّ شيء ؛ نحن زملاءه والتّفجيريّين والحشّاشين . صار خِطابه لي مُقتَضبًا ، لم يعد يروق له أن يُجالسنا ، وأدمن البَصْق على الأرض لسببٍ أو لغير سبب!!

قلت سأفقده إنْ لم أحاوره :

– لؤيّ . . . أريد أن أحدّثك قليلاً .

– فيمَ . . . لم يعدْ للحديث مناسبة!!

– أريد أن أراجع معك ما كنّا نقرؤه قبل سنة أو سنتين ، نراجع

كتابات تولستوي وهمنجوي وجوته ونجيب محفوظ وسيّد قطب . . .

- قرفتُ منهم جميعًا . . .

- يا صديقي . . . الكتب هنا قليلة ، لماذا لا أقرأ لك مِمّا قرأت وانطبع في عقلي ، وتقرأ لي مِمّا قرأت وانطبع في عقلك . . .

- عقلي لم يعد فيه مكانٌ لشيء . . . أنتظر فقط اليوم الّذي أخرج فيه من هذا القبر لأعود إلى حياتي . . .

- ستعود ، وسنعود معك . . . ولكن لماذا تجعل السّجن سِجنين بانزوائك عنّا؟!

- أنا هكذا أرتاح أكثر . . . قضينا معًا فترةً مهمّةً من حياتنا . . . كانت جزءاً من الماضي ، أشكرك أو لا أشكرك عليها . . . لا أدري . . . أنا مستعدّ اليوم لأقول لك إنّني أركل الماضي بقدميّ هاتين وأتطلّع إلى المستقبل . . . لم يعد الماضي يرضيني بقدر ما يُزعِجني . . .

- . . . .!!!

بدأت حياتي هنا تنقلب رأسًا على عقب ، وبدأتُ أشعر بالتّعاطف مع (سليم) و(ضياء) ، ومع قراراتهما المصيريّة ، راودني للحظة شعورٌ بأن أنحاز إلى أحد الفريقَين لأنتهي من عناء المُحافظة على فريقي . . . شعرتُ بحاجةٍ إلى أحدٍ يضمّني . . . يخفّف عنّي سدفات الحزن الّتي تثقب عينيّ في كلّ لحظةٍ!!

المَفجُوع

٢/ نيسان

الرّسالة السّادِسة والأربعون :

حبيبتي :

بدأ الشّتاء يلفّ معطفه على جسده الرّماديّ الدّاكن ، ويولّي

باتّجاه البعيد ، وبدأ الدّفء يتسلّل عبر الشّقوق ؛ شقوق الرّوح ، شقوق الأبواب ، شقوق العمر ، شقوق الأمل ليصل إلينا باسِطًا على بوّابة مهجعنا الكبيرة ضُمّة وردٍ من ألوانٍ شتّى .

المَغويّ بك

٩/ نيسان

الرّسالة السّابِعة والأربعون :

حبيبتي :

منذ زمنٍ لم أكتب لك . . . عندي شعورٌ بأنّ رسائلي – رغم أنّك لم تقولي ذلك – تصلك تِباعًا وأنّك تحتفظين بها احتفاظ الحسناء بالجواهر واللآلِئ!! حظي معظم رفقائي هنا بزياراتٍ من ذويهم وأقاربهم . . . الزّيارة تشكّل بالنّسبة للواحد منّا نفخًا للرّوح في الجسد الميّت ، بها نعيش ومن دونها نغيبُ عنّا ، يأكلنا الهمّ ، وتصفعنا الكآبة . . . وحده (سليم) تخلّى عنه أهله بالكامل . . . مُخطِئون هم . حجّتهم أنّه انزلق إلى عالَم الضّياع ، ولم يعودوا يشكّلون له أيّ أهمّيّة ، هم بتخلّيهم عنه كرّسوا حالة الضّياع الّتي يعيشها . . . مرّة في منتصف اللّيل سمعتُ آهاته وهو يَتشارك السّرير مع أحد الحشّاشين ، فزعتُ . . . انفجرتُ من الغيظ . . . فَزَزْتُ من نومي . . . وصرختُ بأعلى صوتي وأنا أتجّه صوبهم : اتركوه يا وحوش . . . اتركوه يا سفَلَة . . . لم يقلْ أحد من الحشّاشين شيئًا ، ولم يردّ بكلمةٍ واحدة ، هو الّذي أطلّ برأسه من تحت الغطاء وقال لي : اِقْلِبْ وِجْهَكْ مِنْ هُونْ يا حَسُودْ!! صدمني ردُّه . . . كنتُ بعد الغضب الهائل الّذي سيطر عليّ قد صرتُ مثل بالون نُفّس وراحَ يتضاءل حتّى تلاشى في النّهاية ، ومثل نارٍ متّقدة بالجمر ، سُكبَ عليها ماء المحيط كلّه فانخمدت بسرعة . . . عُدتُ إلى

برشي وأنا أبلع أنفاسي مُحاولاً ألاّ أختنق من الهزيمة!! يبدو أنّ عِقْدَنا في طريقه إلى الانفراط النّهائيّ!!

المَفْتون

١/ تمّوز (الثّاني)

***

في الثّامن عشر من تمّوز ، يُكمِلُ العامُ دورته ، وتبدأ الأيّام تلهث باتّجاه النّهايات ، يفرح واثق حينَ يقول إنّه صمد (٣٦٥) يومًا كاملةً دون أن ينالوا من صموده ، كانت عنده بعضُ الانهيارات الصّغيرة ، ولكنّها لم تتجاوز حدود الرّغبات المكبوتة في الاستسلام لأنّه أقصر الطّرق إلى التّخلّي عن المبادئ الثّقيلة ، وإلى العيش في القطيع . . . نعم لم تتجاوز حدود التّفكير وحدود الهَمّ بالموضوع دون الإقدام عليه . . .!!

على مستوى الاعتلال مزّقه المغص الحادّ الّذي كان يشعر به بين فترةٍ وأخرى ، وكان يرافقه إذ ذاك تقيّؤ لكلّ شيءٍ حتّى لجِدار المعدة المهترئة ، وبعض الدّم الّذي يسيل من الأنف في خطّين قصيرَيْن ، غير أنّ ذا المريول الأبيض تعوّد على صُراخ واثق حين تتناوشه هذه الحالة ، وكان الحلّ سريعًا ومضمونًا ؛ إبرةٌ في القفا تُفرَغ بكاملها هناك ، وهي كفيلةٌ بأن تذهب بـ (واثق) إلى بئر الرّؤى بعيدًا عن مكاليب الأوجاع!!

خرجَتْ (مُنى) ، في ذلك الصّباح التّموزيّ ، حاملةً عبء سنين كاملة من العشق الأخضر ، إنّها اليوم أكثر تأكّدًا من أيّ يوم سابقٍ أنّها تحبّ هذا الفتى الثّوريّ ، تحبّ فيه جرأته ، وقلقه ، وصِدْقه ، وجنونه ،

وفي النّهاية حنانه الّذي يغمرها بالدّفء والطّمأنينة ، ويبسط أمامها مساحةً واسعة من الأحلام . . .!!

ما الّذي وجدتْه عند (واثق) ولم تجده عند غيره حتّى تُغرَمَ به إلى هذا الحدّ . كان عفويًّا؟! بلى . كان بسيطًا وعظيمًا في آنٍ واحد؟! بلى . كان يغار عليها ، ويلفّها بكلّ ذراعٍ من حبٍّ؟! بلى . كان يتنفّسها كأنّها تعيش فيه؟! بلى . كان يعرف ماً يفعل ، ويؤمن بما يفعل ، ولا يتراجع عمّا يفعل؟! بلى . كان ذا مسؤوليّة أخلاقيّة وإنسانيّة؟! بلى . كان قارئًا ومُثقّفًا ويُدهِش السّامعين بثقافته؟! بلى . هو إذًا رَجُلها بكلّ المقاييس . تنبهر الأنثى بالكلمات الّتي تنساب من شفتيه انسياب النّمير الرّقراق في الأرض الوادعة المُورِقة ، غير أنّ هذا لم يكنْ وحده الّذي يجذبها تُجاهه ؛ كانت هناك أشياء تُحسّ بها وتتمنّى أنّها تملك لغة حبيبها لكي تعبّر عنها ، لكنْ هيهات!! إنّها أشياء بالنّسبة لها تفوق في طهارتها وعظمتها اللغة الّتي تملكها ، فتقف أمامها عاجزةً ، تكتفي بالصّمت ، وتقنع بما يعتمل في جوارحها من شعور!!

ظلّتْ طَوال عام كاملٍ تشرح لأهلها : (واثق) يحتاج إليّ لأقفَ إلى جانبه ، وظلّوا يقولونً لها : لَقد ذهب في طريق اللاّعودة ، انسيه يا فتاة!! تقول لهم : مِثلُه عصيٌّ على النّسيان!! فيقولون : الزّمن كفيلٌ بأن يُنسيك إيّاه هو وأهله أجمعين . فتقول : لم يزدْني الزّمن به إلاّ تعلّقًا ، وله إلاّ تذكّرًا!! فيقولون : نخشى أن تُصبحي مريضةً مثله!! فتردّ : المرضى يتعافَون ، وتُطلِق صرختها الأخيرة بيأسٍ وأسى : أنا مريضةٌ به ، غير أنّ التّعافي منه يبدو مستحيلاً!!

رسائله إليها تلمّها وردةً وردةً ، وتنسّقها في حديقة عمرها ، وتضمّها على دِفّتَي كتابٍ تعدّه كتاب حياتها ، وتُجِلّه على أيّ كتابٍ

من كتب الطّبّ والتّشريح المتكدّسة على مكتبها . كلّ رسالةٍ منه صنعتْ في حياتها شيئًا ، غيّرَتْها من الأعماق ، وأرتْها جوانبَ من الحياة لم تكنْ لولاه لتراها ، إنّه قادرٌ على أن يحلّق بها إلى عالَمه الخاصّ . أكثر رسائله أبكَتْها وجعلتْ قلبها يمتلئ بالوجع . كانت رسائله الخيط الّذي ظلّ يشدّه نحوها ، وكلّ رسالةٍ منه عملقتْ من تمثاله المركوز في قلبها حتّى صارت لا ترى غيره ، ولا تنام إلاّ على ذكراه ، ولا تصحو إلاّ على مرآه . . .!!

اليوم اقتنع أبوها بأنّه لا مفرّ من أن تزوره ، وأنّه إنْ ظلّ على عِناده مدّعيًا حبّه لها والحِفاظ عليها ، فسيفقدها عمّا قريب . خَرَجا إلى السّجن ، وعند بوّابته السّوداء العالية ، خفق قلبهما معًا ، أمّا هو فكمدًا على أنّه اضطرّ إلى ما اضطرّ إليه ، وأمّا هي فشوقًا إلى عاشقها الأكبر . . . دَخَلا على أطراف التّرقّب ، وخرج هو على أقدام الأمل ، وحينَ رآها من خلف الزّجاج شهق شهقةً كادت تُودِي بحياته ، تماثل للصّمود من أثر الانبهار ، ووقف دقائق مُتسمّرًا مكانه لا يكاد يصدّق أنّه يراها بعد كلّ هذه الشّهور والأيّام الطّويلة ، ابتسمتْ في وجهه فزال بعض الجليد عن قدميه ، ثمّ اتّسعتْ ابتسامتها فزال كلّ الجليد عنهما ، مشتْ نحوه فمشى نحوها ، اختطف السّماعة ، وفعلتْ مثله على الطّرف الآخر ، وانساب بينهما نهرٌ من عَسَل الكلام المُعتَّق!!

– هل تنتظرينني لو طال بي السّجنُ زمنًا سحيقًا؟!

– أنتظرُك!! سوف أضع عُمري بين يديكَ تُصرّفه كيفَ تشاء ، وسأجلسُ على باب حنانكَ ألوذُ بضِفّتَيكَ حتى يَبْيضَّ ريشُ الغُراب!!!!

– العُشّاق – في سَعْيهم نحو الحُلم – يخسرون كلّ شيءٍ ويربحون أوجاعهم!!

– بل العُشّاق أكثر النّاس تصالحًا مع النّفس ، حتّى لو أدّى بهم العشق إلى الموت!!

***

الرّسالة الثّامنة والأربعون :

حبيبتي :

الآن عدتُ إلى الحياة من جديد . . . الآن حُقّ لتمّوز أن يكون عرّاب الخِصب . . . الآن سأقول للجدب وداعًا ، لقد أزهرتْ حياتنا ، وتلوّنت بكلّ الجمال القارّ في الكون . . . الآن فحسب ، أستطيع – بخلاف كلّ العاشقين – أنّ أكون مغمورًا داخل قوس قزح وأراه في الوقت نفسه . . . هل كنتِ يا حبيبتي تجهلين أنّ زيارتك الأسطوريّة تملؤني بكلّ هذا الضّجيج؟! لماذا طال غِيابك عامًا كاملاً حتّى وصلتُ إلى حافّة اليقين بتخلّيك عنّي . . . كدتُ أسقط في هذا اليقين كحجرٍ يهوي في قعر جهنّم ، لولا أنّك انتشلتِني قبل أن أكمل مسيرة السّقوط الذّريع!!

أمسِ . . . وأمسِ فقط يُمكن أنْ أقول إنّني وُلِدت من جديد!!

المَصليّ بنار حبّك

١٩/ تمّوز (الثّاني)

الرّسالة التّاسعة والأربعون :

حبيبتي :

(سعيد) لم ينضمّ إلى أيّ من الفريقين . . . ولم يتمرّد على الواقع . . . اتّخذ له زاوية ، وأمسك مِسبحةً اشتراها من الحشّاشين ،

وراح يُطقطِقُ بها طوال اللّيل والنّهار . . . وإذا نحّاها جانِبًا راح يكلّم نفسه بهمهمات غير مفهومة . . .!!

أتعرفين يا حبيبتي . . . الآن عرفتُ لماذا سلك أكثرُ رفقائي دروب الجُرُف المُنهارة ، وسلكتُ دروب الجبال الصّاعدة ؛ ببساطة : لم يكنْ عندهم حبيبة مثلي . الآن أعرف أنّني بك أقف صخرةً جامدة في مسيل نهرٍ هادر ، وأرتقي نجمةً هادية في سماءِ ليلٍ داجٍ . مساكين أولئك الّذين لم يكنْ لهم من حبيبة ؛ ما أبأسهم!!

المَخْمور بسكر عينيكِ

٣١/ تمّوز الثّاني

الرّسالة الخمسون :

حبيبتي :

إنّه العيد الذّهبيّ لرسائلي الّتي أبعثها إليك يا غاليتي!!

في الفَوْرة ، لم يعد يخرج معنا إليها لا (سليم) ولا (سعيد) . قرّرتْ إدارة السّجن أن تعزل في الفَوْرات بيننا نحن سكّان هذا المهجع العجيب ، خصّصتْ للتّفجيريّين يومَي السّبت والثّلاثاء ، وللحشّاشين يومَي الأحد والأربعاء ، ولنا يومَي الاثنين والخميس . كانت الفورة تستمرّ لساعةٍ تحت سماء غير مسقوفة ، مفتوحةٍ مباشرةً على الشّمس ، وكنّا نقضيها في المشي أو اللّعب أو الحديث . . . لم أتعجّب من فعْل (سليم) ولكنّني تعجّبْتُ من فِعْلِ (سعيد) ، لا يوجد ما يُوازي الشّوق إلى رؤية الشّمس إلاّ الشوق إلى رؤية وجه المحبوب ، فلماذا يتخلّى (سعيد) طواعيةً عن هذه النّعمة؟!

ظلّ (لؤيّ) على تربّصه بيوم الإفراج ليرمي وراءه في السّجن كلّ ماضيه ، ويعود إلى حياته الطّبيعيّة كما كان يقول . في الفورة لم يعد

لي من صديق مُحتمل أكثر منه لكي أخفّف من انغراس القُضبان في صدري . . . كنتِ تحتلّين كثيرًا من أحاديثنا ، وجدتُ عنده بعض السّلوى ، غير أنّه لم يعد هو هو . ماذا يحدث هنا؟! ماذا يحمل القدر لنا من غيوب؟! ماذا . . .؟! ظلّتْ أسئلتي معلّقة في الفراغ بانتظار الزّمن أن يصيد الإجابة ويأتيني بها!!

المأْزور

١٢/ آب (الثّاني)

الرّسالة الواحِدة والخَمسون :

حبيبتي :

لولا ضحكتك العابرة للقارّات لخانني جسدي ، واستسلمتُ لضعفي . أراكِ في عتمة اللّيل مشكاةً من نور تستقرّ في جوف السّجن الّذي يضمّنا هنا كأنّ يد القدر امتدّتْ لتجعل من الجحيم الّذي يرشح به المكان جنّةً وارفةً تظلّلني فيها عرائش الياسمين ، وعرائس الرّياحين . . . رَضِيَ الحُبُّ عَلَيْنا ، وَانْتَهى ما كانَ مِنْ حُزْنٍ يَحُزُّ القَلْبَ فينا ، وَابْتَدَى عَهْدُ الفَرَحْ . . . إنَّ في قَلْبِي حَكايا رَسَمَتْ قَوْسَ قُزَحْ . . . فَوْقَ سِجْنٍ تَحْتَهُ صَبٌّ يُغَنِّي كُلَّمَا شُبَّاكُ قَلْبَيْنَا انْفَتَحْ . . .!!

المأْسور بك

١٥/ آب (الثّاني)

الرّسالة الثّانية والخمسون :

حبيبتي :

وصلتْ إليّ رسالتك الأولى اليوم ؛ فرحتُ بها فرحًا طاغِيًا ، قبّلتُها مئة مرّة ، وضممتُها إلى قلبي مئة مرّة ، وقرأتها ألف مرّة حتّى حفظتُ كلّ حُروفها ، تقولين فيها : «ألا تعرف أنّ المرأة حين تحبّ تتحوّل إلى

قدّيسة» ، وأقول لك : «ألا تعرفين أنّ الرّجل حين يحبّ يتحوّل إلى مَلاك»؟! لم أعد خائفًا من شيءٍ هنا ، أنا أكتمل بك ، وأحسّ أنّني أمتلك العالَم ، هناك قلبٌ يستعير دماءه لتكون مِداده فيخطّ بها رسائله ، كم أنا محظوظٌ بكِ أيّتها الرّائعة!!

المُرتشف كأسَك
٢٠/ آبَ (الثّاني)

الرّسالة الثّالثة والخمسون :

حبيبتي :

يقرؤون رسائلنا؟!! لا بأس ، بعض هؤلاء قلوبهم قُدّت من الصّخر ، فلتكنْ رسائلنا الماء العَذْب الّذي ينزل عليها لعلّها تُورق ولو بعد حين . . . دعيهم يفعلون ذلك ، ربّما علّمتهم هذه الرّسائل شيئًا عن الحبّ الّذي لم يعيشوه يومًا في حياتهم ، ربّما هذّبتْهم ، ربّما أضافت إلى حياتهم نكهةً لم يعهدوها من قبل!!

حبيبتي :

هناك الكثير مِمّا أريد البوح به ؛ (سليم) . . . ماذا أقول . . . أكاد أعجز عن وصف الحال الّتي وصل إليها . . . كانت السّاعة الثّانية فجرًا ، كلّ قاطني مهجعنا غارِقون في النّوم ، رأيتُه يمشي في العتمة وحده ، كان يبدو أنّه تناول بعض الحبوب ، مشى مُترنّحًا في البداية ، ثمّ صار يُهرول ، ثمّ وقف مكانه ، وصار يقفز قفزات متتابعة ، بدأ ببطء ، ثمّ ازدادت سرعته حتّى خُيّل إليّ أنّ الّذي أراه مخلوقٌ من الجنّ وليس من البشر ، كنتُ خائفًا من أن أتدخّل في الموضوع لِئلاّ ينهال عليّ بالضّرب ، ظلّ مواظِبًا على قفزاته حتّى أصابه الإعياء الشّديد ، فانهار على الأرض وهو يلهث ، دافِنًا رأسه في ركبتيه

الجاثِيتَين ، ثمّ راح جسده ينتفض ، رفع رأسه بحركةٍ سريعةٍ خلتُ أنّ رقبته حينها انفصلتْ عن جِسمه ، ثمّ وقف على قدميه ورفع يديه إلى أعلى وراح يصرخ ، ويصرخ . . . أيقظَ صُراخه بعض النّائمين ، في حينَ عاد آخرون إلى النّوم عندما عرفوا أنّه (سليم) . . . وصارتْ هذه النّوبات من الصّراخ تُعاوِده بين فترةٍ وأخرى . . .

في إحدى المرّات ، رفع بعضُ الحشّاشين رأسهم من تحت الأغطية ، وصاحوا به :

- بَسْ يا مَنْـ . . . . خَلِّينا نِعْرِف نّامْ .

في النّوبة الأخيرة من هذه النّوبات ، كان صُراخه عجيبًا ، ومُفزِعًا ومُحزِنًا في الوقت نفسه ، كان يصرخ كأنّما يستغيث أو يستنجد ، اقتربْتُ منه هذه المرّة لعلّني أُهدِّئ من رَوْعه ، ولكنّ صراخه علا أكثر وأكثر ، وأشار بيده ألاّ أقترب ، وبدتْ حركة يديه كمن يدفع شخصًا أمامه ، وهو يتراجع إلى الوراء كأنّه خائفٌ منّي أو من شيءٍ ما ، واستعر صُراخه في تلك اللحْظة ، استيقظ كلّ مَنْ في المهجع ، وهُرِعتْ أعدادٌ غفيرةٌ من العساكر إلينا تستطلع الأمر ، وفي النّهاية أخذوه معهم وهم ينهالون عليه بالضّرب . . . مسحتُ الدّموع عن عينَيّ وأنا أشدّ بأصابعي على خدّي ؛ (سليم) الّذي كان يتلقّى عنّي الضّربات أيّام الاعتِصامات لم يعد (سليمًا) ؛ لقد انفصل عن الواقع ، وسقط في حفرة الجنون . . .

مكث عند الشّرطة في الزّنازين الانفرادية ثمانية أيّام ، قالوا لنا بعدها : إنّه عُرِض على الطّبيب ، وتأكّد أنّه مجنون . بعد أسبوع من هذا الخبر أُفرِجَ عنه بتقريرٍ طبّي ، وأُرسِلَ إلى أهله الّذين أنكروه أكثر مِن ذي قبل!! قال التّقرير : يجب أن يُرحّل من السّجن فورًا إلى ذويه ؛

لأنّ وجوده يشكّل خَطَرًا على بقيّة النّزلاء!!

المُضَيَّع

١/ أيلول (الثّاني)

الرّسالة الرّابعة والخمسون :

حبيبتي :

ظلّتْ ذكرى (سليم) تمزّقني ، غير أنّني أتمنّى بخروجه أن يجد حياةً أفضل من الحياة الّتي عاشها معنا هنا في السّجن ، كان قلبه رقيقًا وصادفَ أزمات نفسيّة وعاطفيّة لم يحتمل قسوتها فانهار .

زارني أبي وأمّي مرّة ثانية قبل ثلاثة أيّام ، أغرقتْني أمّي في محيطات الحزن وهي تشيخ في شهور قرونًا وقرونًا . أمّي يا حبيبتي بدأتْ تفقد بصرها كلّيّة ، قالت لي على (الكابينة) وهي تحاول جاهدةً أن تتملاّني : (أُخْتَكْ سُميَّةْ طَفَتْ تَتْ أَرْباعِ عْيُوني . . . وإِنْتا بَدَّكْ تِطْفي الرُّبْع الطّايِلْ . . .!! متى رَحْ أَفْرَحْ فيكَ ، وَشُوفَكْ عَرِيْسْ . . . خَطِيْبْتَكْ بْتَسْتَنَّاكْ مِنْ يُوْمْ ما انْسَجَنْتْ) يا أمّي . . . يا وَجَعِي القاتِلَ يا أَمَلِي المَفْجُوْعْ . . . يَذْبَحُنِي أَنْ أُبْصِرَ فِي عَيْنَيْكِ الحُزْنَ وَأَنْ أَلْمسَ فِي صَوْتِكِ نَهْرَ دُمُوْعْ . . .!!

أمسكها أبي من يدها وأسند مِرفقها على راحةِ يده ، وهو يُساعدها على المشي ، خرجت وقد تركتْني خلفها قبسًا من ألمٍ وأمل!!

المُعَذّب

١٠/ أيلول (الثّاني)

الرّسالة الخامسة والخمسون :

حبيبتي :

في الزّيارة القادِمة أرجوك أن تأتيني بكلّ ما تستطيعين من كتبٍ ،

لقـد بدأتُ أخطّ بعض كـتـاباتي هنا ؛ نعم بدأت أكـتب روايةً عن الحرّيّة ، السّجن علّمني الكثير ، وغرس من شجر الصّفصاف في قلبي الكثير ، وعتّقني كما لو كنتُ كأسَ خمرةٍ تُركت لِتَروي التّجربة المُكثّفة منذ عـهـد آدم . . . أجد في الكتابة بعضَ السّلوى ، وأذهل فيـهـا عن التّفكير بالواقع المرير الّذي نعيشه هنا ، الرّواية تنتشلني وتنتشل أبطالَها من الموت ، لأنّني وأنا معهم نحبّ الحياةَ ، ونعشق أن نعيش كما نريد ، عندما أخرج من السّجن ، سأعلّم الكون كيف يكون العِشق ، وكيف تكون التّضحية . . . بنيتُ لك في قلبي معبدًا أفزع إليه كلّما داهمني الحنين ، فأصلّي فيه وأنا أستحضر صورتك الملائكيّة ؛ أناجيك فتُشرقين على ظلام المذبوح فيك ، وتمدّين إليه يدك الحانية حتّى يكون فيها الخلاص . . .

أَرانِي إِذا صَلّيْتُ يَمّمْتُ نَحْوَها
بِوَجْهِي ، وَإِنْ كانَ الْمُصَلَّى وَرائِيَا
وَمَا بِيَ إِشْرَاكٌ وَلَكِنَّ حُبَّهَا
كَعَظْمِ الشَّجَى أَعْيَا الطَّبِيْبَ الْمُداوِيَا

أعوّض عن فقدان الأَصدقاء ، وغربة المكان والزّمان بالقراءة وأحيانًا بالكتابة . . . الكتابة تُوصِلني إليك ، أكتب إليك كأنّني أحادثك وأنتِ بين يديّ . . . أهمس في أذنيك بعسل الكلام المُصفّى ، وألمس يديك بمخمل الحبّ المُورّد . . . أريد أن أسمع منك قَريبًا . . . اكتبي لي . . . إذا استطعتُ أن أرسل إليك ببعض فصول روايتي الجديدة فإنّه يهمّني أن تقولي رأيك فيها . . .

المَحظُوظ بكِ
٢٩/ أيلول (الثّاني)

الرّسالة السّادسة والخمسون :

حبيبتي :

شُجَيرات الورد هل تسقينها كالمعتاد؟! حينَ دخلتُ بيتكم في ذلك اليوم الصّيفيّ الملتهب ظلّلَتْني أوراق الكروم ، كانت حبّاتها تسّاقطُ من علٍ كأنّها قناديلُ تحت العرش!! هل ما زالت تلك القناديل تضيء عتمة الرّوح؟! لماذا نُدمِنُ أحزاننا أحيانًا؟! أكان الحُزنُ جميلاً حدَّ الإدمان ، عَذْبًا حدَّ الذّوبان؟! هل تعذُبُ العذابات في قلوب العاشقين؟! هل يفتقدونها حين يفقدونها؟! تخيّلي أنّني أردتُ أن تتركيني في صحراء الهجر وحيدًا يلفّني الضّياع من كلّ جهة ؛ من أجل أن أشتاقك أكثر . . . أموتُ فيك أكثر . . . أغرق في بحر عينيكِ أكثر . . .!!

المَرْسوف

٣/ تشرين الأوّل (الثّاني)

الرّسالة السّابِعة والخمسون :

حبيبتي :

كان حبّك الضّربة القاصِمة ، والطّعنة القاتلة . لم يُمهِلْني حتّى أتعوّده ، ولم يأتِني بالتّقسيط حتّى أتحمّله ؛ أتاني في اللّيلة الظّلماء مَجرّةً من الكواكب الدّرّيّة فأفقدني بصري ، وأتاني في الصّحراء اللاّهبة غيومًا من الظّلّ والطّلِّ والنّدى فأفقدني توازني ، وأتاني على عَطَش لاحِبٍ فلم يُمهِلني أن أتجرّعه رشفةً رشفةً ، فغلبتْ عليّ لُجُجُه فمِتُّ به ظمأً ، قبل أن أموت به رِيًّا ؟!!!!!

المَحموم

١٣/ تشرين الأوّل (الثّاني)

الرّسالة الثّامنة والخمسون :

حبيبتي :

ظننتُ أنّني حينَ سكرتُ بحبّك ، قد غِبْتُ عن آلام ما أجدُ في سبيل هذا الحبّ ، بلى رافَقَتْني اللّذّة على وجع في القلب لا يُطاق . . . غير أنّي لمّا صحوتُ من سَكْرته عدتُ أشقى ممًّا بدأت!!!

المُبتَلى

٢٣/ تشرين الأوّل (الثّاني)

***

اشترتْ طوق الحمامة ، وأوراق الورد ، ورسائل ابن عربي ، وميرامار ، والأبله ، والحرب والسّلام ، وآنا كارنينا ، والمُنبتّ ، وماكبث ، ورُدّ قلبي ، وحملتْها في حقيبةٍ واحدةٍ وسارتْ بها مُفعمةً إلى السّجن . . . قالتْ للّذين أخذوا منها هذه الكتب عن إحدى بوّابات الإدارة : أرجو ألاّ تتأخّروا في إيصالها إلى (واثق) ؛ سيموت عطشًا!!

لم تكنْ لهم القدرة على أن يفهموا فحوى أيّ كتابٍ منها ، لأنّ عقولهم لم تُركّب إلاّ على حمل السّوط والكرباج ، ومع ذلك انتظر (واثق) أكثر من شهر حتّى دخلَ إليه نصفُ هذه الكتب ، وأعيد نِصفُها الآخر!! وبعد ثلاثة أشهر أخرى دخل النّصف الموقوف!!

أمّا هي فسلكت الباب الّذي يُفضي إلى أماكن الزّيارة ، وقابلت الوالِهَ الأكبر ، ومن وراء الزّجاج كانت عينُ التّاريخ تصوّر عاشِقَين يكتبان عِشقهما في صفحةٍ خالدة من صفحاته .

– أهلي يضغطون عليّ . . . يقولون أنتِ طبيبة كيف تقترنين بفاشلٍ؟! فأقول لهم : لا يوجد مَن نجحَ في حياته مثله ، أكان ذنبه أنّه دفع من عمره ضريبةَ مبادئه وأفكاره؟!

– لا بأس . . . إذا كنتِ معي فلا توجد قوّة على الأرض يُمكن أن تحطّمني . . . المهمّ أن تبقَي إلى جانبي ، وليقلْ أهلُكِ ما يقولون . . .!!

– لن أتخلّى عنك إلاّ إذا تخلّتْ روحي عنّي!!

– إذاً فليؤجّلنا الموت قليلاً!!

– أحضرتُ لك عشرة كتب ، اخترتها من الّتي ظننت أنّك لم تقرأها .

– أكبر هديّة تصلني منذ عام ونصف!!

– وفي كلّ زيارة سآتيك بمثلِ هذه الهديّة إن امتدّ بنا العمر!!

– عيناك أكبر هديّة أضاءاني!!

– أَتَذْكُرُ صاحِبَك (سليم)!!

– سليم . . . نعم . . . كان صاحِبنا . . . ولكنّه فقد نفسه وفقدْناه!!

– قبل يومين فقد نفسه إلى الأبد . . .!!!

– كيفَ . . . ماذا تعنين . . .؟!!!!

– انتحر .

– انتحر!!!

– تناول مئة حبّة مُخدّر دفعة واحدة ، واستلقى على السّرير بانتظار مصيره المحتوم . . .

– واحسرتاااااااه . . . يااااااه . . .!!

– كتب رسالة قبل أن يُقدِم على الانتحار يطلب منك فيها أن تسامحه ، قال إنّه : خذلك . . . وتمنّى أن تعفو عنه ، وتدعو له . . .!!!

يا سكّيْنَ القَدَرِ الكامنِ في الأَوْجاعْ . . . عَفْوَكَ؟!! تَأْخُذُ منّي أَحْبابِي دُونَ وَداعْ . . . تَتْرُكُني فِي بَيْداءِ الخَوْفِ وَحيدًا دُونَ مَتاعْ . . . تَرْميْني في بَحْرِ الأَحْزانِ يَتيمًا دُونَ شِراعْ . . . اِمْنَحْنِي قَبْلَ الطَّعْنَةِ قَلْبًا صَخْرِيًّا كَيْ أَصْمُدَ فِي كُلِّ ضَياعْ . . .!!

***

الرّسالة التّاسعة والخمسون :

حبيبتي :

أريد كتبًا عن الموت ، أشعر أنّه صار رفيقًا لي ، أريد أن أتعرّف إليه بشكلٍ أوسع ، لا أريد أن يحتلّني قبل أن أفهمه ، حار فيه عقلي ، ولم يَحِرْ فيه قلبي ، أراه اختارني لأحاوره ، فليكنْ . . . لا أحاور مَنْ لا أعرف . . . كلّ الّذين أخذهم من أحبابي لم يزيدوني به إلاّ جهلاً . . . اليوم أنا محتاجٌ جِداً إلى أن أُصادِقه ، إلى أنْ أُقاسِمه لقمة الخبز الّتي آكُلُها . . . بعد اليوم لن آكل وحدي ؛ الرّغيف نصفان ، له نصفٌ قبلي ، ولي نصفٌ بعده . . . اليوم أُدرِك أنّ الموت يعيش فينا جميعًا ، يدخل معنا بيوتنا وغُرفَنا الآمنة ، يجلس معنا إلى موائد الطّعام ، يشرب من الكأس ذاتها الّتي نشرب منها ، يأكل من الصّحن إيّاه الّذي نأكل منه ، ينظر في وجوهنا كما ننظر في وجوه معارفنا ، يخرج معنا إذ نخرج ، ويصعد معنا السّيّارة إذ نصعد ، وحين نرتاح في أسرّتنا ونخلد إلى النّوم جميعًا يبقى هو وحده مستيقظًا . . . الموت يعرف كلّ شيء ، ولكنّه لا يعرف النّوم ولا الرّاحة . . . ننام نحن نومتنا الطّويلة ، ويبقى ساهرًا من بعدنا على مَنْ تبقّى مِنّا لكي يطمئنّ على أنّهم وصلوا إلى بقعةِ المحطّةِ الأخيرة!!!!

المَسْفُوح روحًا

١٠/ كانون الأوّل (الثّاني)

الرّسالة السّتّون :

حبيبتي :

علّمتْني الكُتُب ما لم يُعلّمْني سواها ؛ اكتشفْتُ : نحنُ نحمي أنفُسَنا من الموت بالقراءة ؛ كان الكتاب الّذي نحمله في اليد هو تعويذة

النّجاة من الموت . الّذين لا يُرافقهم الكتاب مَنسيّون ؛ مَنْ يريد أن يُرافق الموتى؟!! والموتى لا تتّسع قبورهم إلاّ لهم ، فلماذا يُصرّ الواحد منّا على أن يحشر نفسه معهم بإقصائه للرّفيق الأعذب : الكتاب!!

المُسَهَّد

١٦/ كانون الأوّل (الثّاني)

الرّسالة الواحِدة والسِّتُّون :

حبيبتي :

وصلتْني الكتب ، ها أنذا ألتهمها ، أنتظر منك المزيد من هذه الدّرر ، حتّى الكتب الّتي تظنّين أنّني قرأتُها أحضريها ، لقد مرّ زمنٌ طويلٌ عليها . . . أريد أن أُذهل عن الواقع بالقراءة والكتابة . . .!!

مرّةً قرّرت الإدارة أن تُخرجنا إلى الفورة معًا ، القضايا الثّلاث . لم يكنْ أحد الأيّام المُخصّصة لأيّ فريق ، إذ كان يوم الجمعة بعد العصر ، وأرادتْ الإدارة أن تُرفّه عنّا معًا ؛ فبعضُنا محكومٌ بالمؤبّد . . . خرجنا إلى السّاحة الخلفيّة الواسعة . . . السّاحة كبيرةٌ جِداً اقُتطع منها ملعبٌ متواضعٌ لنا ، وسُوِّرَ بجدارٍ عالٍ ، عرفتُ أنّ الملعب جزءٌ بسيط من ساحة واسعة ممتدّة ، وذلك من خلالٍ ثقب في الجدار الشّرقيّ من ملعبنا كنتُ قد حفرتُه لأكتشف العالَم الّذي يربض خلفه . . . هذا العالَم بدا منه بمقدار ما يبدو من السّاحة الفسيحة ، فقد كانت هي الأخرى تحجبُ جزءاً من الكون خلفها ، كان هذا الجزء مُحرَّمًا علينا أن نُشاهده . . .

رمى إلينا أحدُ العساكر العشرة المنتشرين على أطراف الملعب كرةَ قدم مُهترئة ، وتلقّفها زعيم الحشّاشين ، وقرّر أن يُقيم مباراة بين فريقَين ، شارك منّا نحن طلاّب الجامعة اثنان فقط ولم أكن أحدَهما ،

وتوزّع البقيّة على الحشّاشين والتّفجيريّين . . .

كان الجوّ باردًا ، والمطر هاطلاً ، ولم يمنع ذلك الفريقين من اغتنام هذه الفرصة الّتي لا تتكرّر كثيرًا ، أمّا الشّرطة فقد انزووا تحت المظلاّت الّتي على الجوانب هربًا من المطر ، وإن ظلّتْ عيونهم مفتوحةً لأيّ طارئ .

يومها ضحكتُ ضحكًا طويلاً . . . لم يكنْ أحدٌ يعرف اللّعب ، وضعوا دَلْوَيْن مملوءَيْنِ بالماء في كلّ جهةٍ من الملعب على أساس أنّ كلّ دلو يشكّل العارِضة (للجول) ، كان الدّلو يرتفع عن الأرض بحدود المتر ، وأمام (الجول) الأوّل وقف زعيم الحشّاشين ، وأمام (الجول) الثّاني وقف زعيم التّفجيريّين ، وكانت صرخاتهما على أعضاء فريقهما تشقّ فضاء الملعب الّذي تتساقط زخّات المطر من فوقه . كانت الكرة أحيانًا تُعاندُ أن تصل إلى صاحِبها بعد أن تكون قد سقطتْ في تجمّع صغيرٍ لماء المطر الّذي يُعيق حركتها . . . فيهجم عليها عشرةٌ من اللاّعبين من كلا الفريقين فترتطم الأجساد المُتدافعة ، وتتلاطم الأجسام المترامية ، وتتعالى الصّيحات . . . كثيرٌ من الحشّاشين كان يركل الأرض الإسفلتيّة بقدمه بدل أن يركل الكرة ، فتتعالى منه صيحة الألم ، ثمّ ما يلبث أن يخرج من الملعب وهو يعرج ، ويرفع رِجله مُتأوّهًا . . . ويبدو أنّ آثار المعركة الّتي حدثت قبل شهور لم تفارق ذهنيّة الفريقين ، فراح كلّ فريقٍ يركل الآخر ويعرقله ويدفعه ليسقط على وجهه ، وكم نهضَ أحد الّذين أُسقطوا وهجم على مُعرقله ، وكالَ له لكمة من الخلف ، وقد يتطوّر الأمر أحيانًا فيُساعده زميلٌ آخر له على الضّرب ، والعساكر يُراقِبون ويُقهقِهون ، وأنا أُقهقِه معهم ، فإذا أحسّت الشّرطة أنّ الأمر قد يخرج عن السّيطرة أطلقت صافرةً تحذيريّة ، فتراجع الجميع عن التّمادي

في الموضوع . . . وعادوا إلى مباراتهم الغريبة . يومها لم تكنْ مباراة بين فريقين ، كانت مُبارَزة بين خَصمين . . .!!

المَغْمُوم ببعدكِ

١٢/ كانون الثّاني (الثّاني)

الرّسالة الثّانِية والسّتّون :

حبيبتي :

أحسّ أنّ الشّتاء ينخر عِظامي بالحُزنِ ، ويأكل فؤادي بالأسى . . . وصلَتْني دفعةٌ ثانيةٌ من الكتب ، لو زُرتِني قريبًا فأتِني بكتب تتحدّث عن النّهـايات ، عن الفـواجع ، عن الرّحـيل الأبديّ ، عن الحبّ الّذي يقـتل صـاحِـبـه ، عن الطّعنات الّتي لا تأتيك إلاّ حينَ تظنّ أنّك في مـأمنٍ عنهـا ، عن الفـراق الّذي يظلّ غـصّـةً في قلب الشّـجيّ ، عن الرّحيلً الّذي يكون من بعده رحيلٌ :

وَإِنَّ رَحِـيــلاً واحِــدًا حــالَ بَيْنَنَا
وَفِي المَوْتِ مِنْ بَعْـدِ الرَّحِـيْلِ رَحِـيلُ

أرى العـمـر ينفلت من بين يديّ ، أرى روحي تنسـرب من بين أصابعي . . . أحسُّ أنّه لم يعد في العمر بقيّة لكي أراك دون أن تحول بيننا القـضبـان . . . أُحسُّ أنّني أذوبُ خليَّةً خليّة ، وأنتـهي جارِحَةً جـارِحـةً . . . مـا الّذي يحـدثُ مـعي . . .؟! مـا الّذي يأكلني من أعماقي . . .؟! ما الّذي يصنع بي كلّ ذلك . . .؟!

المَسْلُوب

٢٠/ كانون الثّاني (الثّاني)

الرّسالة الثّالثة والسّتّون :

حبيبتي :

روايتي الّتي أُخربِشُ بعض صفحاتها هذه الأيّام ، تتحدّث عن التّوق إلى الحرّيّة ، استعرتُ أبطالَها المتناقضين ممّا أراه هنا في السّجن ، لا أحدَ يعرف معنى الحرّيّة ، ويقدّر قيمتها إلاّ مَنْ فقدها ، الّذين قالوا : «الصّحّة تاجٌ على رؤوس الأصحّاء لا يراه إلا المرضى» ، وجب عليهم أن يقولوا أيضًا : «الحرّيّة تاجٌ على رؤوس الأحرار لا يراه إلاّ السّجناء» .

زعيم الحشّاشين في مهجعنا روايةٌ قائمةٌ بذاتها ، فيه من المادّة الرّوائيّة ما يكفي لمئات الصّفحات ؛ وجهه المحروق الخليط من اللّونين البنّيّ والأسود ، والنّدبة الغائرة أعلى العين اليُمنى بشكل مائل والّتي تُشكّل أحد معالم شخصيّته ، قال لي إنّه اكتسبها في أحد معاركه بالسّلاح الأبيض بين جماعته وجماعةٍ أخرى من المهرّبين ، بالطّبع هو أحد المهرّبين الكبار ، يحفظ الخارطة الجغرافيّة للدّولة أكثر ممّا تحفظه الدّولة وحرّاسها الأمنيّون المنتشرون على النّقاط الحدوديّة كافّة . تقرّبتُ منه في الفترة الأخيرة ، ومع أنّي أحمل تُجاهه هو وجماعته حقدًا كامنًا وغضبًا متّقدًا بسبب ما فعلوه بـ (سليم) إلاّ أنّني كنتُ أريد أن أفهمَ بعض ما غَمُضَ عنّي ؛ فرحتُ أستميله بين فترةٍ وأخرى بالحديث اللّيّن ، وببعض الطّعام والمال ، وظللتُ حَذِرًا منه طوال فترة العلاقة الطّارئة بيني وبينه ؛ فهو أسرع في الانقضاض على ضحيّته من الفهد على فريسته . أردتُ أن أعرف كيف يفكّر هؤلاء ، وكيفَ يحكمون على الأشياء ، وكيف تبدو علاقاتهم مع أنفسهم ومع العالَم الخارجيّ . . . هم عالَمٌ خاصٌّ فريدٌ قائمٌ بذاته . . . عالَم الحشّاشين أقرب إلى عالَم

الزّعماء والسّياسيّين . . . إذا واتَتْني الشّجاعة فسأفسّر لك المقولة الأخيرة في رسائلي القادِمة . . .

المَسْهوم

٢٨/ كانون الثّاني (الثّاني)

الرّسالة الرّابِعة والسّتّون :

حبيبتي :

إنّها أيّام الفَقْد المُوجِعة ، قضيّتنا نحن طلاّب الجامعة هي أخفّ القضايا الثلاث في مدد المحكوميّة . التّفجيريّون والحشّاشون كانت مددهم لا تقلّ عن سبع سنواتٍ ونصف السّنة ، وبعضها يصل إلى المؤبّد . أمّا نحن فحُكِمْنا جميعًا بسنةٍ ونصف السّنة ، إلاّ أنا ولؤيّ باعتبارنا الرّؤوس المُدَبِّرة فحُكِمنا بسنتين . . . قبل يومين أُفرِجَ عن صلاح وضياء وسعيد والآخرون ، وبقينا نحن الاثنان . . . كان وداعهم صعبًا ، احتضنْتهم جميعًا وبكيتُ طويلاً على أكتافهم ، وتمنّيتُ أن يعودوا إلى دراستهم ، ويُكمِلوا مسيرتهم في الحياة وفي العلم ، وأن يظلّوا على العهد صادِقين . . . لا أدري كم كان تأثير كلماتي فيهم ، أمّا لؤيّ فقد ودّعهم بجفاء ؛ لم أستطع التّكهّن بالشّعور الّذي انتابه ساعةَ خروجهم : هل كان يحسدهم لأنّهم خرجوا قبله؟! أم كان يحقدُ علينا جميعًا لأنّه أخذ المدّة الأطول؟! أم أنّه تابع دربه في التّخلّص من ماضيه كما كان يقول فَرَكَلنا بقدمه تمامًا مثلما ركل ذلك الماضي البغيض بالنّسبة له؟!

ليلةَ الخروج ، اقترحتُ عليهم جميعًا أن نُقيم حفلةً بهذه المناسبة ، اشتريتُ لهم الهَريسة وعلب الشّراب ، والقُضامة والبِزر ، ومعمول العَجوة . ثمّ أنزلتُ الفرشات من الأبراش ، وبسطْتُها في المساحة

المُخصّصة لقضيّتنا بعيدًا عن أبراش التّفجيريّين والحشّاشين ، ودعوتهم إلى مائدة العشاء الأخير ، وقبل أن تهوي أيديهم على طوائف الطّعام وقفتُ فيهم خطيبًا لدقيقة :

كنتم الإخوة والأصدقاء ، ورفقاء الدّرب . . . هكذا هي الحياة ؛ تُعطي وتأخذ ، إنْ كانت أعطتْني فلم تُعطِني أجمل من صداقتكم ، وإنْ كانت أخذت فلم تأخذ أقسى من فراقكم . . . غدًا ستغادرون هذه الجدران البغيضة ، لتفتح لكم الحرّيّة أبوابها ، كنتم أحرارًا وستبقون أحرارًا . . . أمّا أنا ولؤيّ فسنبقى نتذكّركم فلا تنسَونا . . .

قلتُ الكلمات الأخيرة ، ولم أكمل . . . كانت العبرات تمنعني من المتابعة . . .

في تلك اللّيلة فرحنا ، وضحكنا ، ولعبنا ، واسترجعنا الأيّام الخوالي ، وفعلنا كلّ ما يُدخل البهجة إلى القلوب . . . حتّى صلاح الّذي اكتفى في السّنة الفائتة بترتيل بعض الهمهمات ، وانعزل عنّا ، تحوّل في تلك اللّيلة إلى إنسانٍ آخر تضجّ فيه الحياة بكلّ زخرفها ومفاتنها ومباهجها . . .

وحده (لؤيّ) الّذي رسم عقدة الوجوم على جبينه ، ولم يتكلّم إلاّ بضع كلمات مبتورة!!!

المَلْهُوف

٤/ شباط (الثّاني)

الرّسالة الخامسة والسّتّون :

حبيبتي :

«أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ» . . . أشعر هذه الأيّام أنّني خُواء ، وحدي بين حَجَرَي الرّحى ، لؤيّ صار أشبه بتمثال يتحرّك أمامي دون أيّة

مشاعر ، أردتُ أن أقف معه على ما يريده ، فسألْتُه :

– لماذا تتعامل معي بهذه الطّريقة . . . ألسْنا أصدقاء؟!

– كلاّ!! كنّا كذلك . . . اليوم لم نَعُد أبدًا!!

– ولماذا . . . ألم نَمْشِ الدّرب ذاتها معًا!!

– وهذا هو سبب ضياعنا .

– ماذا تقصد؟!

– قصدي واضح ، كلّ ما حدث كان بسبب علاقتي بك . . . أنتَ دمّرْتَني . . .

– أنا دَمّرْتُك؟!!

– وتكاد تُدمّر دراستي . . .

– السّجن بدل أن يقوّيك أراه يهزمك . . .

– مَنْ هَزمَني أنتَ ؛ كان عليّ ألاّ أكون صديقَكَ يومًا . . . لم يَفُتِ الكثير ؛ لننسَ بعضنا منذ الآن ؛ أنا أريد أن أعيش حياتي بعيدًا عنك ، وأرجو أن تعيش حياتك بعيدًا عنّي . . .!!

– . . . .!!!

انقطع الحبل الرّفيع الّذي كان يربط علاقتنا ، وانتهى كلّ شيءٍ بالفِعل . يومها لم أغادر برشي أبدًا ، ظللتُ واجِمًا كأنّ كرة الحزن الحامِضة قد وقفت في حَلْقي . . .!! وبكيتُ في صمتٍ مَهيب طوال ليلةٍ رهيبة!!

المَطْعُون

١٠/ شباط (الثّاني)

***

أُفرِجَ عن (لؤيّ) بمرسومٍ خاصّ يوم ١١/ شباط (الثّاني) قبل أن يُنهي مدّة محكوميّته!!!

***

الرّسالة السّادسة والسّتّون :

حبيبتي :

ها أنا وحدي ؛ فكيف أحميني؟! تغيّر كلّ شيء . . . وجدْتني أرتطم بالجدار فجأةً ؛ جدار الوَحدة ، جدار اللّيل ، جدار الفجيعة . . . ذهبوا وتركوني وحيدًا كأنّهم ما كانوا معي تضجّ بهم جنبات هذا المهجع . . . أتذكّرهم فلا أستطيع مغالبة الدّموع . . . هيئاتهم ما زالتْ ماثلةً في ذهني ؛ (سليم) خرج من القبر الّذي كان يسكنه من فوق الأرض ليُوارَى في قبرٍ يسكنه تحت الأرض ، و(ضِياء) أعطَى طاقيّته السّوداء ودِشداشته النّصفيّة للتّفجيريّين بعد العشاء الأخير ، و(سعيد) سلّم مِسبحته إلى الحشّاشين قبل أن يُغادر ، و(صلاح) رسم ابتسامةً هادِئةً على شفتيه ، وبدا يتهادَى حاجِزًا مساحة جِسمه من الضّوء وهو يخرج من طاقة الفرج ، و(لؤيّ) لم أشاهده حينَ خرج من هنا!!!

المَوْجُوع

١٣/ شباط (الثّاني)

الرّسالة السّابِعة والسّتّون :

حبيبتي :

أحاول أن أنسى ، ألاّ أنبش الذّكريات ، فالذّكريات سكاكين في العين قبل أن تكون سكاكين في الفؤاد . . . أهرب من نفسي إلى الكتابة . . . صحيح أنّني بقيتُ وحدي من كلّ أفراد قضيّتنا ، ولكنّني مَمْلوءٌ بك ، مُكتفٍ بوجودك فِيّ ، مُستغنٍ باستحواذِكِ عليّ ، كثيرٌ

بعينيك اللّتين تُسيّجان حديقة أملي ، وتُنبِتان ورود طُمأنينتي .

الكتابة مثل الغِناء شِفاءُ الهموم . . . نكتشف في النّهاية أنّنا تكتب أنفسنا ، نعيد صِياغة ذاتنا من خلال ما عِشناه ؛ نحن جداول تجربة لا تكفّ منابعها عن التّدفّق ؛ حينَ يبدؤها الشّتاء تتفجّر بكلّ ما هو ثَرّ ، وحينَ يُهاجِمها الصّيف تبدأ بالسّكون ، وقد تكتفي بالحركة البسيطة والرّكون إلى الانبعاث المُنطفِئ!!

المُختَلَس

٢٧/ شباط (الثّاني)

الرّسالة الثّامنة والستّون :

حبيبتي :

زيارتان يتيمتان هلاّ جُدتِ بالثّالثة ، أعرف كم هو صعبٌ عليك أن تفعلي لأسبابٍ كثيرة ، ولكنّه أصعب عليّ أن أحتمل كلّ هذا البُعد . . . قالوا لي : لقد بقيت فرصة أخيرةٌ لي كي أحافظَ على مقعد دراستي ، لا أدري ؛ في هذا الخضمّ الّذي أعيشه هنا أفكّر أحيانًا بجدوى هذه الشّهادة الزّائفة ، السّجن كذلك يعلّم أعرقَ وأعتقَ ممّا تُعلّمه الجامعة ، ما قرأته هنا من كتبٍ أو من وجوه لا يُمكن أن يقرأه طالبٌ ولو قضى عشرة أعوام وهو يُحاوِل أن يحوز ما حزتُهُ من ثقافةٍ فريدةٍ هنا . . . أعلم أنّه لا بدّ من أن أحمل هذه (الكرتونة) ، ولكنّها لن تكونَ سببًا لابتزازي أو تخويفي بالتّلويح لي بالفَصْل من الجامعة ، إذا خرجت من هنا ؛ من المعتقل ذي الرّقم (٧) فسيعلمون أنّ الجامعة ما هي إلا الصّفحة الأولى في الحياة ، أمّا الفصول والأبواب والمضامين فقد أتممتُ متطلّباتها في هذه الحياة الّتي أحياها هنا!!

الغياب موتٌ كذلك . . . غاب أصدقائي فلفّني الموتُ من كلّ

جهة . . . أحاول أن أُقاوِمَ الموت باستمالة أحد التّفجيريّين إلى جانبي ، ولكنّهم لا يستمزجونني ، تاريخي السّابق معهم فاقمَ المسافة الفاصلة بيننا ، مُحاولاتهم المتواترة لإقناعي بأفكارهم لم تُجدِ معي نفعًا ، فشطبوني من قائمتهم . . . على بعض موائد الطّعام أجسّ النّبض أحيانًا مع (ياسين) ، أراه أكثرهم شبهًا بي ؛ مساحات التّلاقي بيننا قد تتّسع في المستقبل ، لا أدري . . . ولكّن المعروف أنّ ولاءهم لأميرهم مُطلَق ومقدّم على أيّ ولاءٍ أو شعورٍ آخر ، فإذا قرّر الأمير على أحد أتباعه أن يقطع علاقته بأحدٍ ما فعلى المُبلّغ أن يمتثل فورًا ودون نِقاش!!

دفعتُ لبعض العساكر الّذين صادقتُهم هنا بعض النّقود لكي يشتروا لي بعض الكتب ، على أن أدفع لهم مقابل خدماتهم ، لم تكن النّقود كثيرة ، أبي وبعض أقاربي بعثوا لي شيئًا منها ، صرفتُها جميعًا على شراء الكتب ، كلّفتْني بعض الكتب ثلاثة أضعاف سعرها الطّبيعيّ ، لا غرابة في ذلك ؛ فأنا أشتريها من السّوق السّوداء!!!

المُعَلَّق

٣/ آذار (الثّاني)

الرّسالة التّاسِعة والسّتّون :

ماتت أمّي . . . . !!!!!!!

قالوا لي بكلّ بساطة : أمّكَ ماتتْ ، وأبوك بعث إليك يعزّيك ، وأرسلَ لك صورتَها مع بطاقة العزاء!!!

الكلاب يقولونها هكذا كأنّها جملةٌ في جريدة : أمّكَ ماتتْ . . . مالتْ بي الدّنيا لحظة سماعي الخبر ، تهاويت على أقرب كرسيّ لأتفادى الغيبوبة ، ورحتُ أهذي ، بعد دقائق لم أستطع المقاومة ففقدتُ الوعي . . .

صحوتُ وأنا مُمدّد على البرش ، تطلّعتُ في سقف المهجع ، نهضتُ من برشي ، نظرتُ في الفراغ فرأيتُها ، هتفتُ في نفسي : الكلاب كانوا كاذبين . . . ها هي أمّي أمامي بكامل روعتها . . . تقدّمتُ نحوها ، ففاحت رائحة الياسمين من حولها ، هتفتُ : أمّاااه!! فابتسمتْ . قلتُ لها : هل أنتِ ميّتة؟! قالت لي : وكيف إذًا تراني؟! ابني تعالَ لأضمّك إلى صدري . . . خطوت باتّجاهها : مددتُ ذراعيّ وطوقتُها فاخضرّت يداي ، هويتُ على قدميها أقبلّهما فنبتت شتلة نعناع من بين أصابعهما . . . أنهضتْني وقالت : أترى كلّ هذه الطّيور والجداول والفراشات . . . أنا أنتظرك . . . أنتظرك بشوقٍ فلا تتأخّر عليّ!!!

هزّني عسكريّان من كتفيّ ، وصاحا في وجهي : قم . . . الطّبيب يريد أن يفحصك . . . فحصني ذو المريول الأبيض الأبله ، شدّ ساعة الضّغط على يديّ فعرفتُ أنّني كنتُ أحلم . . . قال لي : لا بدّ أن تأكل ، قدّموا بعض الطّعام ، تلمّستُه بيدي وبدأت أُدرك الحقيقة . . . أزحتُ الطّعام عن طريقي ، وهُرِعت إلى الباب ، رحتُ أطرق عليه بشدّة وأنادي على الشّرطيّ ، فتح الباب متجهّمًا ، وسألني :

– شو فيه؟!

– أريد أن أقابل مدير السّجن!!

– ليش؟!

– أريد أن أقابله فورًا .

– المدير مُجاز .

– أيّ حدا ينوب عنه؟!

– أنا بنوب عنّو . . . شو بدّك .

- بدّي أحضر جنازة أمّي!!!

- وليش يا خوي بِتفكّر حالك بمنتزه؟!!

- هاي أمّي يا محترم . . . هاي أمّي . . .!!

- ممنوع . . . ارجع لبرشك مش فاضيلك . . .

حينَها لم يبقَ فيّ أدنى ذرّة عقل ، تملّكني الهياج ، واجتاحني طوفان الغضب ، هجمتُ على الشّرطيّ ، أمسكتُ رقبته بين يديّ ، وأحكمْتُ القبضَ عليها ، وغرزتُ أنيابي في منتصفها ، فغاصت الأنياب في الرّقبة الغليظة ، وشددت على ما غاص منها ، وانتزعتُه بأسناني فخرج بعضُ اللحم في فمي ، بصقتُه . . . وانفجر الشّرطي بالصّراخ ، وأنا ما زلتُ مُمسكًا برقبته أهمّ أن أغرز أنيابي مرّة أخرى ، هُرِعَ كثيرٌ من العساكر على صوت الشّرطيّ ، وبالكاد استطاعوا أن يخلّصوه من بين فكّيّ ، كنتُ حينها أحد الذّئاب الّتي استعصتْ على أبي في تلك اللّيلة المشهودة . . .

حُمِلَ الشّرطيّ إلى المستشفى ، أمّا أنا (فكلْبَشوني) بسرعة ، وساقوني إلى المدير ، وقفتُ أمامه ويداي مُقيّدتان إلى الخلف وأثر الدّماء ما زال يقطر من فمي ، صرختُ فيه قبل أن يقول هو أيّة كلمة :

- أخرجوني يا سَفَلَة . . . يا كلاب . . . أريدُ أن أشهد جنازَتها ، ابعثوا معي كلابكم لتحرسني إذا كنتم تخافون أن أهرب . . . المهمّ أن أقف على قبرها . . . أن أودّعها . . . أن أقول كلمة عند رأسها . . . ألا يُوجَد في قلوبكم رحمة . . . نصف ساعة فقط أمام قبرها ، واحبسوني بعدها نصف قرنٍ إذا أردتم . . .!!!

ثمّ انفجرتُ بالبكاء ، وأجهشتُ مُنتحبًا . . . لم يقل المدير شيئًا ، وقّع على ورقة أمامه ، وأشار بيده إلى الحُرّاس ، فأخذوني إلى زنزانةٍ

انفراديّة . . . في اليوم الثّالث من الوحشة والحزن والشّكّ واليقين . . . عُرِضتُ على محكمة داخليّة ، أبلغني القاضي أنّه أضيفت أربعة شهور على مدّة السّنتين . . . بصقتُ في وجهه وخرجت . . .

أعادوني إلى المهجع . . . اصطفّ التّفجيريّون والحشّاشون أمام بَرْشي ، وراحوا يصافحونني مُعزّين ، وجدتُ بعض الدّفء والعزاء فيما فعلوا . . . ما لم يكنْ في الحسبان موقف زعيم الحشّاشين ، عندما جاء دوره شدّ على يدي ، وحضنني قائلاً : أنا أخوك مِن اليُومْ ، وأنا صاحبك . سحّت عيناه بالدّموع ، لم أكنْ أعرف أنّ في قلب هذا الحشّاش مثل هذه الرّحمة!! وضع في يدي نقودًا وقال إنّها من الزّملاء جميعًا تعبيرًا عن المساندة . عضّ على شفتيه مرّة أخرى وهو يُغالِبُ دموعه كأنّها أمّه الّتي ماتت!! بقيتُ – مع كلّ ذلك – على توجّسي منه ؛ ما فعلوه مع (سليم) لا يُمكن أن يُنسَى!!

رحلتْ أمّي ؛ قتلها الشّوق والعذاب ، رحلتْ وهي لا ترى من الدّنيا إلاّ ما تراه بقلبها ، كانت عيناها قد انطفأتا ، هي قالت إنّ ثلاثة أرباع النّور أطفأتْه سميّة أختي الأحلى والأكثر إدهاشًا ، والرّبع المتبقّي أطفأتُه أنا ؛ أنا الأبشع والأكثر إيلامًا في هذه المسيرة . . . أنا الّذي عذّبْتُ أمّي بالبعد وبالحرمان ، بقيت لسنتين بعيدًا عنها في هذه المقبرة الّتي تُدعَى سجنًا ، وحرمْتُها مِمّا ظلّتْ تتمنّاه بالزّواج منكِ والعيش معكِ . . . ولكن ماذا ينفع الحزن الآن على ما مضى إنْ كان الموت لا يعبأ بما يخلّفه في القلوب من الفجائع؟! رحلتْ أمّي وهي تترقّب فجر حرّيّتي ، لم يُمهلها الموت لكي تحظى بهذه اللّحظة الهانِئة ، قال لها : اللّحظات الهانئة ليس شرطًا أن تتحقّق في الدّنيا ، هناك حياة أخرى يُمكن أن تتحقّق فيها؟! يبيعنا الآجل بالعاجل ، ويقتلنا به كمدًا!!!

رحلتْ هذه العظيمة الّتي ولدتْني في الرّبيع وغادرتني في الرّبيع . جاءت بي إلى الحياة في الرّبيع ، وبعثَ بها هذا الرّبيعُ ذاته إلى الموت ، أفكان الموت والرّبيع متواطِئين على فجيعتي بأمّي؟!

هويتُ على رأسها عند حافّة الكفن ، لثمْتُه بكلّ ما فيّ من حبّ ومن حنان ، وغطّيتُه مرّة أخرى ، ثمّ استأذنتُ أبي في أن أصلّي عليها فأَذنَ لي ، كانت روحي تخرج مع كلّ كلمةٍ أردّدها في الصّلاة ، عندما سلّمتُ على يميني رأيتُ طيفها يبتسم في وجهي . حملتُها داخل التّابوت على ظهري ؛ كانت خفيفةً كأنّني أحمل روحها لا جسدها ، سرتُ بهذا النّعش حتّى وصلتُ المقبرة ، كان تراب حُفرتها أخضر ، وكان قبر أختي سميّة يهتزّ قليلاً ، خُيّل إليّ أنّها تهتزّ شوقًا إلى لقاء أمّي ، ظلّلتْهما شجرة الزّيتونة القديمة نفسها ، دفنْتُها إلى جانبها ، خلطتُ دموعي بتراب قبريهما ، وضمّختُ بِمِسْكِهِ يديّ . . . وعدتُ إلى المهجع كأنّني ما ذهبت!!

اليَتيم

٢١/ آذار (الثّاني)

***

حملتْ حقيبة الكتب كعادتها ، وعانتْ وهي تُقنع المسؤولين في إدارة السّجن أنّها كتبٌ أدبيّة وليس فيها أيّ كتابٍ فكريّ أو سياسيّ ، وأنّها مجموعة روايات ودواوين ومسرحيّات!! ظلّتْ تنتظر نصفَ نهارٍ حتّى سمحوا لها بزيارته ، بدَتْ من خلف زجاج (الكابينة) شاحبةً الوجه ، ومسحة حزنٍ شفيفة تغلّف وجهها ، أوّل ما رآها أجهشَا بالبكاء :

– ماتتْ أمّي يا مُنى!!

- رحمها الله . . . لقد كانت أمّي أيضًا . . .!!
- أشعر بالذّنب وبالعجز!!
- رحمها الله . . . كانت لا تفتأ تتحدّث عنك كلّما التقيتُها!!
- أخاف ألاّ تسامحني على ما فعلتُه بها!!
- لا تخف ؛ ماتت وهي تدعو لك!!
- هل يُمكن بالفعل أن تغفر لي؟!
- يكفي أنّها ماتت راضيةً عنك . . . كانت دائمًا تُمسِك بصورة لك وأنتَ طفل ، تحتفظ بها في ثنايا شعرها ، تُخرجها بين فترةٍ وأخرى وتمرّر يدها عليها كأنّها تتحسّس وجهك ، ثمّ تقرّبها من وجهها فتشمّها طويلاً وتطبع قبلةً حانيةً عليها!!
- ليتني مِتُّ قبلها!!
- لا تقل ذلك . . . (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) . المهمّ أن تُواظِب على الدُّعاء لها .

***

الرّسالة السَّبعون :

حبيبتي :

كان وجهكِ شاحِبًا في الزّيارة الأخيرة ، قلتِ إنّه من حزنكِ على موتِ أمّي ، أصدّقكِ ولا أصدّقكِ ، ولكنّني في الحالَتَين أزداد بك التِصاقًا ، وتكبرين في عيني . . . صرتِ اليوم حبيبتي وأمّي ووطني معًا ، لقد فقدتُ أمّي ووطني ، وأخشى أن أفقدكِ أنتِ . . . كوني إلى جانبي دائمًا ، ولا تتركيني لرياح العذاب تلهو بي . . . أتفهّم مشاعر والدَيكِ ، وأتمنّى أن يكون في الغد فسحةٌ من أمل!!

صورةُ أمّي الّتي وصلتْ إليّ من أبي علّقتها على سقف برشي ،

كلّما تمدّدت على البرش أمتّع عينيّ بالنّظر إلى وجهها الكريم ، وأغوص في الذّكريات ، وأحاول أن أستحضر رحمتَها ، لم أنم ليلةً واحدةً قبل أن تغنّي أمّي لي أغنيةَ الوداع ، قبيل أن أطبق جفنيّ تسيل دمعتان حارّتان على خدّيّ ، تمسحهما الغالِية ، وأستسلم للنّوم على لمسة كفّيها الحانِيَتَين!!

الكَظِيم

٣١/ آذار (الثّاني)

الرّسالة الواحِدة والسّبعون :

حبيبتي :

خرجَ الأمواتُ من قبورهم ليلةَ أمس ، عاودتْني هلاوس وادي الموتى ؛ أنشبوا عِظامَ أصابعهم فِيّ والتهموا دماغي وصرتُ واحدًا منهم . الحياة فارغة ، الحياة مَلعونة ، الحياة الّتي نحياها ليست حياةً ، توهِمنا بذلك ، وتُفاجِئنا بعكس ما نتوهّم ؛ إنّها الذُّبال المنطفئ في نهاية الفتيل حينَ يومِض إيماضته الأخيرة قبل أن يستسلم للعدم ، كلّ من يرى الإيماضة يظنّ أنّها اشتعال وهي في الحقيقة انطفِاء!!

أتعرفين بِمَ أفكّر الآن : أن تكوني اشتعالي وأن أكون انطفاءَكِ ، أن أغفوَ بين يديكِ ، أن أنام تحت شجرةِ حُبّكِ ؛ أليسَ من حقّي أن أرتاح قليلاً بعد كلّ هذا العذاب؟!!

المُرَوّع

٢/ نيسان (الثّاني)

الرّسالة الثّانِية والسّبعون :

حبيبتي :

بالحبّ تدور الشّمس في الأفلاك ، وتسير النّجوم والكواكب في

المسـارات ، لولا الحبّ لغـيّـرت الشّـمس دورتهـا ، ولضلّت النجـوم والكواكب دروبها ، ظلّ الحبّ الهادي لكلّ المخلوقات ، وغَرَسه الله فيها جميعًا ليملأنا بالحياة . . .

تُقاسُ حرارة الحبّ بفداحة الغِياب ، كلّما أمعن الرّاحلون في البُعد ، اشتدّ لهيب الحبّ في الصّدور ، فأحرق كلّ مكنون!!

أوقِنُ أنّه لولا الحبّ لابْتلعت الأنهارُ مياهَها ، ولَنَسِيت البلابلُ أصواتَها ، ولكَتمت الأزهارُ أطيابَها ، ولغيّرت الورودُ عاداتِها . لا يهزم الموتَ مثلُ الحبّ ، ولا يرقى بالنّفس مثله!!

المَقتول

٣/ نيسان (الثّاني)

الرّسالة الثّالثة والسّبعون :

حبيبتي :

أكـتب في الحبّ لأنسى الموت ، وأكـتب لك لأنّك تملئين به عالَمي ، وترفعينني به من هوّة الاكتئاب ، وتُسافرين بي من خلاله إلى فضاءات الانعِتاق . . .!! الّذين حاولوا أن يتوبوا عن الحبّ سقطوا في شَرَكه فأهلكهم ، لا ينجو من الحبّ إلاّ أعمى ؛ أعمى القلب ، أعمى الجوارح ، أعمى الشّعور . أردّدُ مع المَجنون :

وَكُنْتَ وَعَدْتَني يا قَلْبُ أَنِّي
إِذا ما تُبْتُ عَنْ لَيْلَى تَتُوبُ
فَها أَنا تائِبٌ عَنْ حُبِّ لَيْلَى
فَمَا لكَ كُلّما ذُكِرَتْ تَذوبُ؟!!

المُخَضَّب بدم الحبّ

٤/ نيسان (الثّاني)

الرّسالة الرّابِعة والسّبعون :

حبيبتي :

أريدُ أن أكتبَ لك كلّ يوم ؛ رسائل قصيرة ، ولكنّها تُريح الفؤاد ، وتُزِيح عنه غشاوة الحزن الّتي لفّتْني بموت أمّي .

(سميّة) كانت تفعل ما يفعله الكِبار ؛ لأنّها كانت تريد أن تختصر الحياة ، تريد أن تعيش في ثماني سنوات ما نعيشه نحن في ثمانين سنةً ؛ (سميّة) احتالت على الموت ؛ ما أعظمها!!

المُفرَد

٥/ نيسان (الثّاني)

الرّسالة الخامسة والسّبعون :

حبيبتي :

هذا هو العيد الماسيّ لرسائلي إليك ؛ يرى الآخرون فينا ما لم نره نحن في أنفسنا ، فهل كانوا يُحاوِلون اكتِشافنا ، أم كانوا يقتحمون مساحات ظلّتْ مُغلَقةً على كلّ أَحد ، حتّى علينا نحن الّذين نضلّ عن أنفسنا في غَمْرة الزّحام ؛ الزِّحام بالبشر ، بالكائنات ، بالمُهلِكات . . . بالتّفاصيل الّتي تُرهِقنا ، بالمُنَمنَمات الّتي تضجّ بها الحياة الصّاخِبة!!

حبيبتي :

مَنْ يحوي مَنْ؟! السّجن يحوي الموت ، أم الموت يحوي السّجن ؛ السّجن والموت فَلْسَفانِي!!

المَكْبُود

٦/ نيسان (الثّاني)

الرّسالة السّادسة والسّبعون :

حبيبتي :

يغيّر السّجن في الإنسان الكثير ، بل يصنع منه خلقًا جديدًا ، يهدم كلّ ما سبق ويبني من جديد . عاودني حلم الطّواف بالرّاحلين هروبًا من الواقع ، ومحاولةً لإيجاد بعض الإجابات لعدد لا نهائيّ من الأسئلة :

مَنْ نحنُ؟! أو ما نحن؟! فإنّ (مَنْ) تحمل قناعةً بأنّنا (مَنْ) ولكنّنا قد نكون في الحقيقة (ما) : «وَما مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ» .

المُريد

٧/ نيسان (الثّاني)

***

ازداد عدد الغرباء في الأرض واحِدًا ، الحياة تطمس الحقيقة في وجوه الّذين انغمسوا فيها وتحجب عن أعينهم تَبِعات هذه الحقيقة ، يستيقظ النّاس في الموت على الحقيقة الّتي كانوا عنها غافلين . . . خُلِق الإنسان ليفكّر لا ليقبل بالأمور كما هي ، غير أنّ التّفكير ذاته مُهلِك إذا تجاوز حدود العقل ، العقل ذاته حجاب فكيف يمكن للإنسان أن يهتك هذا الحجاب؟! مَنْ استطاع أن يهتكه ويرى ما خلفه انضمّ إلى قافلة الغرباء ؛ والغرباء يقلّون بالموت ولا يكثرون ، يستطيع الموت في بعض دورات الحياة أن يقضي على ما تبقّى من هؤلاء الغرباء الّذين تمرّدوا على القبول به دون الدّخول في كيفيّته ، ولا يبقى في دوّامته الطّاحِنة غير الذّاهلين عن أنفسهم ، اللاّهثين خلف سراب الحياة ، الواقعين في النّهاية في وادي العدم!!

المهجع الكبير الّذي يحمل الرّقم (٧) خلا من كلّ أصحاب قضيّة طلاّب الجامعة سوى (واثق) ، ظلّت أبراشهم تحمل طيوفهم ، كم جلس في الهزيع الأخير من اللّيل مُغمِضًا عينيه ، مُغلِقًا حواسّه كلّها عمّن حوله ، وفاتحًا إيّاها جميعًا على أصدقائه الرّاحلين . . . مرّ شريط الذّكريات أمام عينيه المُغمَضَتين ، تذكّر أوّل لقاء له بلؤيّ حينَ ساقه القدر إليه ، فضحك ثمّ بكى . تذكّر (مُنى) تحت المظلّة في الصّباح الشّتويّ الاستثنائيّ ، استرجع الشّتاء ، وبكتْ عيناه أكثر ممّا بكت السّماء في ذلك الصّباح ، سيطر عليه طيفُ (مُنى) ؛ سنةٌ من الحلم وسنتان من الوجع ؛ ثلاث سنين أو تزيد قليلاً مرّت على علاقته بها ، قضى ثلاثة أرباعها في العذاب بعيدًا عنها في هذا السّجن الصّحراويّ القاتل . . . شكر الله لأنّها تمسّكتْ به ، أيقن أنّ وفاءها نادرٌ ، غيّرتْ فكرته الّتي أخذها من الرّوايات الّتي قرأها من أنّ المرأة غادرة ، وتتلّون بسرعة ، ومليئة بالحِيَل والألاعيب ، وتنسى أسرع من السّمكة . . . فكّر : لو كلّ نساء الأرض كُنّ كذلك ، لكانت حالة (منى) كافيةً أن تقلب الصّورة النّمطيّة عنهنّ ؛ وفاؤها يغطّي كلّ نساء الأرض ؛ هي قِدّيسة ، نبيّة ، ملاك ، . . . هي كلّ نساء الأرض في امرأة ، هتف ببيت نزار من بين الأحلام والدّموع :

أَنْتِ النِّساءُ جَميعًا ما مِن امْرَأَةٍ
أَحْبَبْتُ بَعْدَكِ إِلاّ خِلْتُها كَذِبَا

أكمل طوافه بالرّاحلين ، غصّ بذكراهم حتّى صار يشهق ، نهضتْ أمّه من بين رماد القبور ، شدّت عُصابة رأسها ، ودعتْه أن يلحق بها . استوقفه (جمال) كثيرًا ، ظلّ لؤلؤة البحر السّوداء في عينيه ، ابتلعه البحر وهو له عاشق .

كانت صورة (منى) تسرقه منه لها كلّما خرج عنها إلى سِواها ، تماثلتْ أمامه تمثالاً من نور ، عاوده وجهُها الشّاحب ، لم يره في الزّيارة الأولى كذلك ، ثمّ لم يكنْ يومًا كذلك ، كان وجهها يفيض بالنّور عن جوانبه ، يمتلئ بالرّوحانيّة ، والعطاء ، والمِسْك . . . ما باله صار غامِضًا إلى هذا الحدّ ، والعينان ؛ لقد هجم عليهما ذبولٌ رماديّ؟!!

و(سُـمـيّـة) هي أصل الحِكاية ، هي كلّ الحكاية ، لم يستطع أن يقاوم ذكراها ففاضت عن حدود تخيّلاته ، فتح عينيه وحدّق في الفراغ فلم يرَ غير الفراغ ، أدرك أنّه من الفراغ وإلى الفراغ ، ثمّ غرق في النّوم . . .!!

- لا يدري الإنسان متى يستيقظ؟!
- حينَ يحلم؟!!
- ولا يدري متى يحلم؟!
- حينَ يستيقظ؟!!

ما الحلم وما اليقظة؟! حالان أم حالٌ واحدة متقلّبة؟! هل الحياة حلم والموت يقظة؟! أم الموت هو الحلم والحياة يقظة؟! وهل الحياة هي هذه الّتي نحيا ، أم تلك الّتي يحياها الأموات هناك .

يبدأ الإنسان حياته بالموت ، أم بالموت يُنهيها؟!!!!!

***

الرّسالة السّابِعة والسّبعون :

حبيبتي :

ماذا تريدين أن أفعل حتّى أثبِتَ لكِ أنّني أحبّك أكثر من نفسي ، وأنّه لم يبقَ لي غيرُكِ في الدّنيا . . . أتريدين أن أفعل كما فعل المجنون حينَ جاء ليلى يطلب من أهلها نارًا ، فأعطته وَقْدةً ، فذُهِلَ بجمالها ،

فأمسك الوَقدة بيمينه وراح يُحدّثها وهو بها عنها مشغولٌ ، فأكلت النّارُ طرف ثوبه من جسمه مِمّا يلي يمينه فما أحسّ بها ؛ ذلك أنّ نار الهوى كانت أشدّ اشتعالاً من نار الغضى ، واخترقت ما يلي تلك البقعة من جسمه فما أحسَّ بها أيضًا ، (قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا) ، وظلّت عيناه وفؤاده وأحاسيسه معلّقاتٍ بليلى ، حتّى نبّهتْه هي فَزعةً بعد أن رأتِ النّار تتعاظم في جنبه!! لقد كانت النّار الّتي اشتعلتُ بها أنا في ذلك الصّباح الشّتويّ أشدّ إحراقًا وإمعانًا من نار المجنون ، لقد أتت نارُ المجنون على جنبه ، أمّا نار حبّك فقد أحرقتْ فِيَّ كلّ شيء :

جَـرَّبْتُ مِنْ نارِ الهَـوَى مـا تَنْطَفِي
نارُ الغَـضَى وَتَكِلُّ عَـمَّـا تُحْـرِقُ
وَعَـذَلْتُ أَهْلَ العِـشْقِ حَـتَّى ذُقْـتُـهُ
فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

أريد أن أنعتق من جسدي لأعتّق روحي ؛ عندي قناعةٌ تامّة بأنّ الرّوح تعيش أطول من الجسد ، فلماذا يتهالك البشر على تقديس الجسد والانهماك في تأمين متطلّباته ، ويتركون الرّوح مهملةً في قعر جبٍّ سحيق . . . مُخطِئ من يبذل طاقته في تعظيم الفاني على الباقي ، ما الجسد إلاّ ورقةٌ في ربيع يمضي مُخلّفًا وراءه خريفًا مُفنِّدًا!!

أحيانًا أحسّ أنّني يُمكن أن أَفعل ما فعله فان كوخ ليثبت لأهل حبيبته أنّه يحبّها حدّ الجنون ، حينَ دخل على بيت أهلها ، فلم يقبلوا بأن يراها ، فمدّ يده إلى شمعة قريبة منه ، وقال : «دعوني أراها طيلة المدّة الّتي أستطيع خلالها أن أحتملَ هذا الألم وهذه النّار» ، وجُنّ بعدها فنسنت فان كوخ ، وتخلّى عنه أصدقاؤه بسبب جنونه ، وانهمك

في الرّسم لأنّه وجد فيه تفريغًا لتوتّراته الّتي لم يَعِشْها مبدعٌ مثله!! وانسحب من الحياة ، لأنّه لم يجدها مع مَنْ يحبّ!!!

المَنْكُوب

٢٨/ نيسان (الثّاني)

الرّسالة الثّامنة والسّبعون :

حبيبتي :

يتعب الإنسان وهو يواجه أعداءه ، ويفكّر كيف يتخلّص من شرورهم ، ويمشي في غير الطّريق الّتي يمشونها ، وفي النّهاية يكتشف أنّه لا عدوّ له إلاّ نفسه!! ويقع في متاهة التّخلّص من رغبات هذا العدوّ الكامن فيه فيفشل ؛ ويدرك في النّهاية أنّه أعجز من أن يواجه نفسه؟!!!!

هل المرض عدوّ أم صديق؟! إذا كان سيقضي عليّ فهو صديق ، لأنّه حينئذٍ سيجمعني بمن أحبّ ، وإذا كان سينهش قطعةً منّي في كلّ مرّة ويُبقيني حيًّا فهو بلا شكٍّ عدوّ .

نادَيْتُ بِاسْمِ اللهِ يا مَرَضُ انْتَصِرْ وَاثْقُبْ دُمُوعِي ، قِفْ فِي فَمِي وَاسْلُلْ جَمِيْعِي مِنْ جَمِيْعِي ، وَاشْرَبْ دِمائِي حُلْوَةً حَرَّى لِتُرْوَى مِنْ نَجِيْعِي ، لا تَتْرُكَنِّي فِي الحَيَاةِ مُؤَرْجَحًا بَيْنَ القَطِيعِ ، وَاحْفِرْ نُيوبَكَ فِي الفُؤادِ عَلَى تَوَجُّعِه الفَظِيْعِ ، إِنِّي سَأَفْتَحُ قَبْرِيَ المَقْدُورَ فِي غَسَقِ الهَزِيْعِ!!!

عاوَدني المَغص ، والدّم المُنفثِئ من الأنف ، وظَلّتْ – كالعادَة – إبرةُ ذي المريول الأبيض تُلقي بي بعيدًا عن الأوجاع في وادي الذّهول!!

أحيانًا أفكّر فيك : هل حرّكني إليك التصاقُ الجسدَين ؛ دخولي فيكِ ودخولك فِيّ؟! أم هوّمني بك انبثاقُ الرّوحَين ؛ ارتقاؤنا إلى العالَم العُلويّ في المَلَكوت الأعلى؟!! هل أنتِ رغبة جسدي حينَ أراد

امتـلاكك؟! ثمّ لم يستطع أن يُقلع عن هذه الرّغبـة؟!! إنْ كنتِ كـذلك فـقـد اصطفـفتِ – دون أن تدري ولا أدري – إلى جـانب الأعـداء . . . واحسرتااااااه . . . . هل تكون النّفس العاشقة عدوّةَ صاحِبها؟!!!!!

المَكروب

١/ أيّار (الثّاني)

الرّسالة التّاسِعة والسّبعون :

حبيبتي :

أحدّثك عن سميّة ؛ عمّا لا تعرفينه عنها ؛ سميّة لم تكنْ طفلةً يومًا ، وإنْ ماتت قبل أن تتمّ الثّامنة!! كانت (تصوّل) القمح ، تغسله ، وتنشره في الجهة المفتوحة للشّمس من الحُوش ، كانت تفعل ذلك في أوائل شهر تمّوز ، جدّي كان يضع لها في تلك الجهة على الأقلّ خمسة (شوالات) ، يتّسع كلّ (شوال) لمئة كغم من القمح ، يوقفها جدّي لها على الحائط الإسمنتيّ ، ويتركها وحيدةً بلا مُعين . تفكّ هي الخيط العلويّ (للشّوال) بمهارة فائقة ، ثمّ تدفعه على الأرض مستعينةً بيديها ودافعـةً بجسمها الّذي تركزه على الحائط ، وبعد ثلاث أو أربع محاولاتٍ جاهدة ينهار (الشّوال) على الأرض ، ثمّ تُسارع إلى نثره على الأرضيّةً الفارغة المُهيّأة لهذا الغرض ، وتفعل الشّيء ذاته مع (الشّوالات) الأربعة المتبقّية ، وعندما تنتهي من فَرْد ما يقرب من خمسمئة كغم من القمح على مساحة (السُّطراق) وهو أرض إسمنتيّة ممتدّة لأكثر من ثمانية أمتار في أربعة ، تذهب إلى زاوية (السّطراق) هذا ، حيثُ (براميل) الماء ، تنشل من هذه البراميل في (لقن) نُحاسيّ ، وتملؤه بالماء ثمّ تقوم بِدَلْقِ الماء على القمح ، تفعل ذلك تِباعًا حتّى يصل الماء إلى مجموع القمح كاملاً ، إنّها تغسله بهذه العمليّة ،

ثمّ تتركه ما يقرب من ثلاث ساعات ، وتذهب لترتاح قليلاً ، ثمّ تعود إلى القمح من جديد ويكون القمح قد نشف بفعل حرارة الصّيف اللاّهبة ، وتبدأ عمليّة الغَرْبلة ، تقوم بغربلة القمح لتنقّيه من الحجارة أما الأتربة فقد سالت مع الماء . وبعد الغربلة يُنقّى حبّةً حبّة لتصفيته من الشّوائب الّتي لم تكنْ قد نزلت من فتحات الغربال . ثمّ يُذهب القمح بعد أن يُعاد تجميعه في (شوالات) الخيش إلى (البابور) ، وهي المطحنة الّتي تتولّى طحن القمح ، كان جدّي ينقل تلك (الشّوالات) على الحمير ، ويُعطي لصاحب المطحنة نسبةً من الطّحين أجرةً له ، لم تكن النّقود متوافرة في أيدي النّاس في تلك الأيّام!!

ماذا كانت تأخذ أختي (سميّة) مقابل هذا الشّقاء؟! لا شيء . كذب مَنْ قال : قليلاً من الحنان ، وكثيرًا من الرّضى . ماذا تفعل طفلةٌ بالرّضى وهي لا تفقه من الحياة إلاّ ما وُلِدَتْ من أجله!!! وفي النّهاية ماذا فعل الموتُ بها؟! أخذها . لماذا أخذها؟! هل ليخلّصها من الشّقاء الّذي كانت فيه!! أم ليقدّمها إلى حياة أفضل خالية من العناء والشّقاء . وأنا؟! لماذا نشأت لا أعرف شيئًا ولا أفعل شيئًا من أعمال الفلاّحين ، ولماذا صبر الموت عليّ إلى اليوم؟! ألِكَي يريني الشّقاء الّذي نَسِيَني عندما كنتُ طفلاً؟! أم ليؤجّلني إلى شقاء أكبر بفقدان مَنْ أحبّ؟!!

المُهَشَّم

٦/ أيّار (الثّاني)

الرّسالة الثّمانون :

حبيبتي :

ماذا فعل أصدقاؤنا الّذين خرجوا من هنا؟! أغلب الظّنّ أنّهم تابَعوا

حياتهم في الجامعة ، ولعلّ بعضهم اقترب من فصل التّخرّج . قيل لي إنّه إذا لم أخرج من السّجن وأسجّل الفصل القادم فسأفقد مقعدي في الجامعة؟! هل يريدون أن يُعاقِبوني مرّتين؟! أم بيّتوا النّيّة على هذا القرار؟! إذا كانوا كذلك : فليذهبوا هم والجامعة إلى الجحيم . ليس من فضلٍ للجامعة عليّ إلاّ في الجزء الّذي جعلتْني فيه ألتقي بك داخل أسوارها . فيما عدا ذلك – باستثناء ما فعلْناه من أجل أمّتنا – فالجامعة هُراء!! نعم الجامعة هُراء ، وأنا لا آسف على الهُراء إذا ذهب .

أريد أن أتمرّد على جسدي ، لن يهزمني بعد اليوم ، ولن يكون في صفّ أعدائي ، صار من السّهل عليّ بعد كلّ هذه الأوقات العصيبة أن أهمله ؛ أن أجعل منه خادمًا لإرادتي ، كاد يقضي عليّ في أيّام الاعتقال الأولى ، ولكنّي تجاوزت ذلك اليوم . لا يملك جسدي أحدٌ بمن فيهم أنا!!

ماذا ظلّ لي من عمر؟! عمري مرّ مثل ومضة خاطفة في ليلة شتويّة باردة ، انطفأ العمر في لحظة ، وظلّ من بعده الصّقيع يغلّف ما انطفأ!! لولا أنّك ظهرتِ في حياتي ما كنتُ عرفتُ من قِيَم الحياة شيئًا . أمّي ماتت بحسرتها وأنا أمضغ هنا قضبان الزّنازين والمنافي!! وسميّة رحلتْ بشقائها وأنا ألهو من خلفها تحت أشجار البلّوط واللّزّاب والصّنوبر . الشّجرة الّتي تسلّقتْها من أجل ألاّ تعود منها لم أستطع أن أحظى أنا حتّى بمجرّد النّظر إلى أَجَمتها الشّاهقة وهي تشقّ طبقات الجوّ إلى السّماء ؛ فهمتُ بعد رحيل أختي لماذا خُلقت الطّيور للسّماء ، ولماذا لا تهبط إلاّ على الأشجار العالية!!

قرأت كلّ ما بعثْتِه لي من كتب ، بعض الكتب قرأتُها عشر مرّات ، وبعضها حفظتُ منها صفحات كاملة ، وبعضُها ألهمتْني من أجل أن

أكـتب روايتي ؛ روايتي عن الحـرّيّة فـهل يُمكـن أن تحظى بهـذه الحـرّيّة فتخرج معي من هذه السّجون تاركةً خلفها الموت والرّعب والجنون؟!!!

نحن نفقد ما امتلكْناه ، لم أمتلك هنا في هذه الحياة الباردة وبين هذه الأبراش الخَرْقاء إلاّ الهـذيان والتّـرقّب والحـرمـان والجـوع والبـرد والشّجى والانهيارات المُتتابعة . . . بكامل رغبتي ، وبإرادتي الحرّة أنا مستعدّ لأن أفقدها جميعها!!

المُروَّع

١٧/ أيّار (الثّاني)

الرّسالة الواحدة والثّمانون :

حبيبتي :

العشق الّذي يحطّم قيود الجسد لا يُتقنه إلاّ الّذين تعتّقت فيهم معاني الإنسانيّة ، أمّا العشق الّذي يحبسه جسدٌ ، وتستعر فيه الشّهوة فـهـو من طبـائع الحـيـوان ، أو من طبـائع الإنسـان الّذي تتـعـاظم فـيـه الحيوانيّة . . . أين أنا من الاثنين؟! أحيـانًا تميل بي الدّفّة إلى أحدهما فأسمو ، ثمّ تميل بي إلى الآخر فأنحطّ إلى الأرض ؛ متى أستطيع أن أحلّق بي عاليًا لأترك خلفي كلّ حظوظ الجسد ، مَنْ قال إنّني صافٍ بأحدهما خِلوٌ من الآخر فقد كذب ؛ أنا خليطٌ من الاثنين ممزوجٌ بهما ، لا أحد يملك أن يجعلني صافِيًا سواكِ . أقسى ما أعانيه أنّني أنزع إلى السّماء ، والحياة تشدّني إلى التّراب ، تعالَي لتكوني لي خلاصًا من هذا العذاب!!

المُتفاني في حبّك

١٨/ أيّار (الثّاني)

***

الطّريق طويلة ، ومكتظّة بالهـموم ، وهي تحـارب من أجل أن تظلّ حبيبته ، ألقت بشحنة الأسى خلفها ، إنّها تُغادِر بيتها وحدها ، لم يعد أحدٌ يخرج معها لزيارته ، أهلُها قالوا لها : عليك أن تتحمّلي نتائج ما تفـعلين ، يئـسنا من أن تعـقلي ، في النّهـاية مـجنونةٌ تهـيم بمجنون ، والمجـانين يلتـقون ، بقي لك سنتـان للتخـرّج في كلّيـة الطّب ، وهو على أبواب أن يبعـثوا له بورقـة الفَصل من الجامعـة ، لو أنّه لـم يأكل رقبـةَ الشّـرطيّ لكان من المحتمل أن يعود إلى دراسـته ، لكنّه متـوحّش ، هل رأيتِ إنسانًا سويًا يأكل لحمًا بشريًا؟! ابنتكِ تحبّ واحِدًا من آكلي لحوم البشر ، تهيم بواحدٍ ظلّ يمشي بزاويةٍ حادّة وهو يعتقد أنّه مُناضِلٌ ، إذا كـان مُناضِلاً فلمـاذا لم يناضل من أجل دراسـته؟! لماذا لم يُناضل من أجل أن يتـخـرّج ويكون كـفـؤًا لطبيـبـةٍ مـتـفـوّقـةٍ مـثلك . يا ابنتي أنتِ تدمّرين نفسك بذلك وتدمّريننا!! ارحمي أباك في شيخوخته ، ارحمي مَنْ ظـلّ يحلـم منـذُ أنْ كنتِ طفلةً أن يراك عـروسًا يحظى بقلبـهـا رجلٌ يحـمـيـهـا ويبني معـهـا غَدَهمـا ، (واثق) هذا مـاضيـه مُـحَطّم ، وحاضره ميؤوسٌ منه ، ولا غد له!! لماذا تصرّين على تعذيبي وتعذيب أمّـك؟!!

على شَـبَك الزّيارة بدتْ واهنة ، مخطوفة اللّون ، نحيلةَ الجسم ، وكثيرٌ من الحزن يملأ عينيها الغائرتَين :

– ما الّذي يحدث؟!

– لا شيء . . . أنا بخير .

– أكـاد أطيـر من الفـرح أنّني أراك . . . الأيّام تأكلنا ، كلّ يومٍ لا أراك فيه ينغرس خنجرًا في فؤادي!!

– أحببتُكَ كما لو كان الحبّ مخلوقًا من أجلكَ!!

- أخـــاف أن أخـــرج من السّـــجنِ حَـــيًّـــا . . . .!!! لا أريدُ أن أفقدكِ . . .!!

- تفقدُني . . .؟!!!

- بلى .

- كيفَ؟!

- قلتُ لكِ ؛ بخروجي من السّجنِ حيًّا!!

- واثق . . . لا تعذّبْني . . .!!!

- إذا خرجتُ حيًّا ستتغيّر الأمور ؛ لن أعود كما كنتُ من قبل ، ولن تعـودي أنتِ كـذلك ؛ أخـشى أن تتّـسع هوّة الموت الفـاصلة بيننا فيسقط فيها كلانا!!

- أنتَ ترعبني بهذا الكلام!!

- أنا أرتعب لمجرّد شعوري بأنّني أتغيّر في كلّ لحظة هنا . . .!!

- الخروج من السّجن حياة ، وأنا أنتظر هذه الحياة لنعيشها معًا ، مستعدّةٌ أن أنتظرك حتّى بعد الموت!!

- مُنى . . . دعي ذكر الموت جانِبًا . . . قولي الحقيقة ، لِمَ كلّ هذا الشّحوب والحزن؟!

- تريد أن تعرف؟!

- بلى . . . بكلّ ما فيّ من لهفة!!

- الطّبيب قال إنّه اشتِباه . . .!!!

- اشتِباه بماذا . . .؟!!!!

- بالسّرطان . . .!!

ارتجفَ كـعـصـفـورٍ ذبيح ، وفـرّ من نفـسـه فِـرار القطيع من السِّـبـاع ، وانفـردتْ به ذِئاب الوعي فافترستْ فيه ما تفرّق من المَجموع ، فذهلت

المُرضِعات ، واستسلمت للأمور المحتومات . سقط على الأرض مثل فخّارة عتيقة فتهشّمت إلى كِسَرٍ كثيرةٍ دقيقة ، ولم يكنْ سقوطه إلاّ انجِذابا . . .!!!

***

الرّسالة الثّانية والثّمانون :

حبيبتي :

نحن مُذْ تعارفْنا يا حبيبتي نُقاوِم . . . نُقاوِم كلّ من يريد هزيمتنا ، قاومي هذا الخبيث ، وسأقاومه معك ، لا يوجد مرضٌ يستمر إلى المالانهاية ، المرض يموت بمجرّد امتلاك الإرداة الحقيقيّة لمقاومته ، صمّمي على هزيمته فستجدين أنّه يُولّي هارِبًا كبعوضة . ما زالت فسحة الأمل حيّة ، الّذين يستسلمون ينتهون ، نحن لا نستسلم ، نحن نقاوم وسننتصر في النّهاية بإذن الله . . . ماذا أقول لك؟! حبيبتي الّتي تنتظرها البشريّة من أجل أن تُساعِدها على مواجهة المرض ، ها هي نفسها يُهاجِمها المرض!! نؤمن بقدر الله ، ونؤمن أكثر بأنّ الله يقف إلى جانبنا!!

المُقيم على هواكِ
٢٥/ أيّار (الثّاني)

الرّسالة الثّالثة والثّمانون :

حبيبتي :

الموت يتخفّى . الموت يريد أن يُرينا رحمته فيستتر في المرض ، المرض غلالة الموت ، خلفها يختبئ ، ومن هناك يمدّ يده إلى الأجساد ، ولا يطال مِنّا غيرَ الأجساد ، أمّا الأرواح فلا تأبه به أبدًا . إذا يئس الموت من اختبائه خلف الغلالة فقد يؤجّلكِ ، وحينها سيكون المرض

زائرًا عـابرًا . إذا حيـينا فأحبّ أن نحيـا معًـا ، وإذا متنا فـأحبّ أن نموت معًا!!!

المَكْلُوم

١/ حزيران (الثّاني)

الرّسالة الرّابِعة والثّمانون :

حبيبتي :

أختي لم تمتْ بالسّرطان لكنّها ماتت في النّهاية ، السّرطان لم يقتلْها ، وكذلك لن يقتلكِ إن شاء الله ، لم يكنْ أحدٌ من الأطبّاء يعرف مرضها ، أمّي بالذّات ربطتْ بين موتها وحَرْقِها للأفعى ، في البداية لم تُصدّق أنّ أفعى ساحرة يمكن أن تلتهم ابنتها بالمرض ، في النّهاية صدّقتْ ؛ صدّقت لأنّ الأطّباء فشلوا في أن يُعطوها تفسيرًا واحِدًا لحالة ابنتها ، فركنتْ إلى أقوالٍ أشبه بالسّحر والشّعوذة ، ومع أنّ أبي لم يصدّق أيضًا وأظنّه إلى اليوم لم يفعل ، لكنّه في النّهاية استسلم لتفسير أمّي وهواجسها وآلامها ؛ أمّي ماتت بحسرتها ؛ فقدتْ أعزّ ابنةٍ أنجبتْها ، وفقدتْ بصرها في النّهاية لطول ما بكتْ عليها ؛ السّحر قتل أختي ، وأختي قتلتْ أمّي!!! وأنتِ يا حبيبتي؟!! يبدو أنّك ستكونين قاتِلَتي . . .؟!!!

المَسفوك دمًا

٩/ حزيران (الثّاني)

الرّسالة الخامسة والثّمانون :

حبيبتي :

أخرج إلى السّاحة مع التّفجيريّين والحشّاشين أحيانًا في الأسبوع مرّة وأحيانًا في الأسبوعين مرّة ، الفَوْرة بالنّسبة لهم حرّيّة مؤقّتة ،

ينتظرون ساعة الفورة أو ساعة التّشميس كما لو كانت خروجًا من هذا المعتقل البغيض ، يخرجون إلى السّاحة الشّاهقة الأسوار المُسيّجة داخل ساحةٍ أكبر منها كما لو أنّه أشرعت أمامهم بوّابات السّجن السّوداء الكبيرة ، يتنسّمون رذاذ الهواء كأنّهم يتنفّسون عَبَقَ الحرّيّة ، إنّها حرّيّتهم الآنيّة بالفعل ، وأنا . . .؟! كلّما خرجتُ معهم ازددتُ غربةً عنهم وعنّي ، كانت المصائب تجمعنا أحيانًا ، ثمّ عاد روتين الحياة يفرّقنا ، وشعور ناقِرٌ صدري بالغضب والحزن والأسى المتراكم في أعماقي يسحقني من حينٍ لآخر . . .

التّفجيريّون يمشون في خطوط مستقيمة وفي الوسط ، والحشّاشون يمشون في خطوط معوجّة وعلى الأطراف . . . والسّاحة سوقٌ مفتوحةٌ لتجارة المُخدِّرات ، يأتي بها الشّرطة ذوو الرُّتَب العالية ، أصبح الضّابط الّذي يهرّب الممنوعات إلى داخل السّجن معروفًا ، له شريك من الشّرطة العساكر (شرطيّ حافّ) ، يعتمد الأوّل على الثّاني في التّرويج ، الأوّل يستطيع إدخال المُخدّرات إلى السّجن لأنّ الرّقابة عليه خفيفة ، وتفتيشه يتمّ عبر شريكه في العمليّة ، تدخل المخدِّرات يوم الخميس إلى السّجن ، حيثُ يكون المدير في إجازة ، والشّرطيّ الحاف يكون مناوِبًا على البوّابة الّتي يدخل منها حُرّاس السّجن وضُبّاطه ، يغمزه بعينه عند التّفتيش ليعرف أنّه يحمل الممنوعات ، ويُصفّق بيده حسب عدد الحبّات ، إذا صفّق بيده مرّتين فهذا يعني أنّه يحمل مئتي حبّة ، كلّ تصفيقة بمئة . البيع يتمّ في الفورة يومَي السّبت والأربعاء ، حيثُ تتوافر النّقود لدى السّجناء يوم الجمعة بعد الزّيارات . رئيس الحشّاشين هو المُخوّل بإتمام الصّفقات ، يمشي على الأطراف وعلى يساره أحد مُعاونِيه ، أمّا يمينه فيظلّ خاليًا حتّى يصل إلى الشّرطيّ الحافّ

فيُعطيه النّقود باليُمنى ولا يتسلّم منه شيئًا ، في اللّفّة الثّانية تنعكس الأدوار ، يسير رئيس الحشّاشين بعكس اتّجاه الدّورة الأولى وعلى يمينه مُعاوِنه ، أمّا يساره فيظلّ فارِغًا حتّى يصل إلى الشّرطيّ الحافّ وهناك يأخذ باليُسرى البضاعة ، يتمّ ذلك بسلاسة متناهية ، و كاميرات الأبراج الأربعة الّتي تعتلي زوايا السّاحة ترصد كلّ شيءٍ إلاّ هذه العمليّة ، لأنّها أدقّ من أن تُرصَد!!

عرفتُ ذلك بطول المراقبة ، ظللتُ طوال الأشهر الخمسة الفائتة أراقب الحركة وأتابعها بشغف حتّى خرجتُ بهذه النّتيجة . رئيس الحشّاشين فيما بعد يبيع الجميع ، يجد زبائنه من جماعته ومن جماعة التّفجيريّين ، وأحيانًا في أيّام الأعياد كان يجد زبائن آخرين مُحتَملين من ذوي القضايا الأخرى .

ربّما تتساءلين لماذا لا أبلّغ الإدارة عمّا يحدث . . . الجواب بسيط : بعض الضّبّاط الكِبار قد يكون مُتورِّطًا في ذلك ، فأكون كمن فتح عشّ دبابير في وجهه ، ثمّ إذا أدليتُ بشهادتي فلا أحد يسندني في هذه الشّهادة ، وفي النّهاية إمّا أن أُشبَح على القضبان مثل سخلةٍ معلّقة من عرقوبِها . . . وإمّا أنْ أُرمى في الزّنازين الانفراديّة وحيدًا مثل حيوانٍ أجرب ؛ والسّبب اتّهام الآخرين بالباطل!!

الأَشْوَق

٢٠/ حزيران (الثّاني)

الرّسالة السّادِسة والثّمانون :

حبيبتي :

صعدتُ الجبل وحدي ، لم أخفْ كما كنتُ أخاف من قبل ، كان اللّيل يخيّم على الجِبال الرّاسية والوديان الغائرة ، والقمر مُحاق لا يظهر

منه شيء ، وحدها النّجوم كانت تغطّي القبّة السّماويّة الكُحليّة . . . ظللتُ أصعد الجبل تاركًا خلفي وادي الموتى حتّى وصلتُ القمّة حيثُ البئر ؛ البئر الّتي شربتُ منها أنا وأختي ، بخفّة متناهية قفزتُ حتّى وصلتُ فوّهتها ، رحتُ أنظر في العمق لأرى المياه الرّاكدة في أسفله ، غير أنّي لم ألحظ وجود أيّ ماءٍ في أسفلها ، لمع ضوءٌ حارقٌ خاطف في الأسفل ، ثمّ ما لبثتُ حتّى تناهى إلى سمعي أصواتُ استغاثات تصعد من الأسفل ، تراجعتُ في البداية إلى الخلف وأنا أرتجف من الرّعب ، أسندتُ يديّ على البقعة الّتي تحيط بفوّهة البئر ، وراح قلبي يتفجّر في صدري ، أمسكتُه لأخفّف هيجانه ، ابتلعتُ ما جفّ من ريقي ، وبعد لحظات عادت الأصوات المُستغيثة لتتعالى من جديد ، ميّزتُ من بين لَغَطها المتداخل صوتَ أبي ، أمعقول أن يكون هذا بالفعل صوتُ أبي؟! تشجّعتُ لأنظر إن كان هو أم لا؟! قرّبتُ عنقي بحذرٍ من الفوّهة ، ورحتُ أُحِدّ النّظر ؛ صُعِقت ؛ نعم ، لقد كان أبي ؛ رأيتُه مُعلّقا من قدميه ، ويداه مُقيّدتين خلفه ، ورأسه يتدلّى إلى أسفل ، ومن تحت رأسه كان الذّئب الّذي ركز أبي رأسه على العصا في وسط المنطقة المحرّمة يقفز إلى أعلى قفزاتٍ شرهةٍ في حركةٍ نصف دائريّة ويمدّ يديه إلى رأس أبي في هذه القفزاتٍ مُحاوِلاً أن ينهشه . . . وشَعْر أبي يتدلّى إلى أسفل ، وتلمسه مخالب الذّئب في تلك القفزات المسعورة ، وكان أبي كلّما اقتربت تلك المخالب من رأسه صرخ صرخات رعب متتالية ، وطوّح برأسه في الفراغ لعله ينجو من هَيَجان الذّئب . . . قرّ الذّئب بعد عشرات القفزات السّريعة ، وأقعى على قفاه ، ولعق فكّيه بلسانه ، وعوى عُواءً عميقًا وطويلاً ، ثمّ ركض باتّجاه الغرب واختفى ، وغاب أبي في ومضةِ ضوءٍ حارقة ، ثمّ ظهر جدّي من بعده مشنوقًا

وحول عنقه تلتفّ أفعى سوداء كبيرة ذات قرون ، ثمّ اختفى في ومضةِ ضوءٍ حارقة ، ثمّ ظهرتْ من بعده أختي سميّة وأمّي وهما تلعبان وتلهُوان ، وحولهما سِياجٌ من نورٍ ، كانت الأفعى الّتي أحرقتْها أختي تحاول أن تدخل إليها ، غير أنّ سياج النّور كان يحرقها فترجع إلى الخلف ، ثمّ تعود مرّة أخرى تحاول أن تصل إلى جسد أختي لتنهشه ، في النّهاية ظفرتْ بطرفِ ثوبِ أختي ، تمزّق الطّرف ثمّ سارت أختي وأمّي ورأيتُكِ تتبعينهما . . . ثمّ غطّى فوّهة البئر من بعد ذلك نابا الأفعى وشِدْقا الذّئب . . .!!!

استيقظتُ من النّوم هَلوعًا ، ورحتُ أصرخ ، استيقظ المهجع كلّه على صُراخي ، بادرني أحدهم بكوبٍ من الماء ، ومسح أحد التّفجيريّين على رأسه وقرأ عليّ بعض الآيات حتّى هدأتُ قليلاً ، ثمّ غادروني وعدتُ لكي أنام ، لكنّه لم يغمض لي جفنٌ ليلتها .

إنّها الأحلام إذًا . . . لقد عادتْ إليّ من جديدٍ ، لا أحد يعلم يا حبيبتي غيرُكِ أنّها أقسى عليّ من السّجن نفسه ، وأنّني أتعذّب بها أكثر من السّياط الّتي عانقتْ جسدي أيّام التّحقيقات الأولى . . .!!

حبيبتي : لا تتركيني في البئر وحدي . . . سوف تلتهمني السّباع الّتي تخرج منه ، ولستُ أبي كي أقتلَها ، ولا أختي كي أحرقَها!!

الجَزِع

٣/ تمّوز (الثّالث)

الرّسالة السّابِعة والثّمانون

حبيبتي :

حُلُمٌ جديد في السلسلة الّتي لا تنتهي ؛ كنتُ جالِسًا على مِقعد خشبيٍّ عتيق أمام باب المقبرة ، واضِعًا يديّ على المسند الخلفيّ ، ومادًّا

بصريّ في الأفقُ الضّبابيّ ، خرجت كحوريّة من الغَبشِ الفِضّيّ وجلستِ إلى جانبي ، كان الحزنُ يغلّف قلبَينا ، ارتميتِ على صدري ورحتِ تشهقينَ بصوت عالٍ : (لماذا نعيشُ كلّ هذا الأسى ؛ لماذا تأسرني في عالَمك دون أن تدعَ لي حرّيّة الحرّيّة؟! من أينَ هبطتَ عليّ في ذلك الصّباح الشّتويّ الحزين؟! تُريدُني لروحي أم لجسدي؟! يقتلني هدوؤُكَ الغامض!! أخافُ منكَ وأُحبّكَ في الآنِ نفسه!! أيّ نوعٍ من الأمواتِ الأحياء أنتَ؟!) . صحوتُ بمزيدٍ من النّزيف في الرّوح . نحن لا بدّ نموت قبل أن نموت!!

المُولَع بكِ

٦/ تمّوز (الثالث)

الرّسالة الثّامنة والثّمانون :

حبيبتي :

لا دواء يَشفيني مِمّا حلّ بي ، تتقطّع معدتي إلى نتف صغيرة ، ولا أمسك عنها الألم ، وانفثاء الدّم هو هو ، ووحدي في برشي لا أنيس إلاّ خيالكِ وصورة أمّي المعلّقة على مدّ بصري في سقف هذا البرش . والحياة تبدو رخيصة ، والموت يبدو رحيمًا ، وذو المريول الأبيض لا يُتقن غير الإبرة ، غير أنّهم لمّا حملوني إليه هذه المرّة ، أشفق عليّ بعد كلّ هذه السّنين ، وقرّر أن يأخذ عينة من الدم المنفثئ ، ويبعث بها إلى أحد المختبرات خارج السّجن . بعد أسبوع جاءت النّتيجة ، عرفتُ ذلك من عينيّ ذي المريول الأبيض ، رأيتهما غائريتين وصغيرتَين ، وبؤبؤ الحيرة يتوسّطهما ، حكّ ذقنه طويلاً ، ثمّ أرسل رأسه على صدره ، ورأيتُ صدره يعلو ويهبط ، لم أكن متأكّدًا فيما إذا كان يبكي أم لا ، غير أنّي سمعتُ نَشْقةً واحدة ندّت عنه وهو يمسح أنفه ، وبعد لحظات

صمت رهيبة اقترب منّي دون أن يرفع رأسه ، أعطاني الإبرة وأشار إلى العساكر ليعيدوني إلى المهجع!!!!

النِّضْو

١٤/ تمّوز (الثالث)

الرّسالة التّاسعة والثّمانون :

حبيبتي :

إنها الذّكرى الثّانية ، مرّ (٧٣٠) يومًا على أوّل رسالةٍ بعثتُها لك!! أتمزّق الآن بعد كلّ هذه الأيّام ، وأنا أنتظرك على شبكٍ الزّيارة ، لِمَ لا تأتين؟! لِمَ تتركينني أواجه الموت وحدي ، ألم نتعاهَدْ على أن نحيا معًا أو نموت معًا ، فلم يصطحبني الموت في رحلته وحدي ، الموت سيكون أخفّ وطأة فيما لو زارَنا معًا ، سينقسم ألمه على اثنين ، فلا تتركيه ينفرد بأحدنا ، لا نريد أن نعاني أكثر مِمّا عانينا ، معًا نتحمّل الأوجاع ، وينشطر الموت بنا إلى نصفين ، تخيّلي حجم الألم لو زاركِ قبلي؟!!

كان من المُفتَرَض أن أخرج اليوم من السّجن ، لو كان ذلك قد حدث فإنّ فرحتي بلقائك لا توصَف ، كان يُمكننا أن نبدأ الحياةَ معًا ، كأنّ السّجن أوقف هذه الحياةَ فلم تعد تدور كما كانت في السّابق!! سأبقى أربعة أشهر أخرى ، أحيانًا أقول : لن تمرّ أيّام أثقل من هذه الأيّام في هذه الشّهور الأربعة ، وأحيانًا أقول : صبرتَ سنتين ، أفلا تصبر ثلث سنةٍ أخرى . . . الفرج بانتظاري ، وأنتِ في حياتي دائمة الاخضرار ، وتربةٌ قلبي مسقيّة بماء الحبّ ، وظلمات أعماقي مضيئةٌ بنور عينيك ، فلا تتركيني وحيدًا!!

الرّميم

١٨/ تمّوز (الثّالث)

الرّسالة التّسعون :

حبيبتي :

رئيس الحشّاشين ذو النّدبة الّتي تعلو جفنه الأيمن مات!! طعنه أحد التّفجيريّين في قلبه ورقبته خمس عشرة طعنةً وهو نائم ، انتظر حتّى تأكّد أنّه نام نومًا عميقًا ، كان يراقب تنفّسه ، حين انتظم تنفّسه عرف أنّه نائمٌ ولا يتصنّع النّوم ، فانهال عليه بالسّكين . كان خوار رئيس الحشّاشين وهو يصارع الموت فظيعًا جِداً ، لم يستطع أحدٌ أن يفعل له شيئًا ، ظلّ الدّم يشخب مثل نافورةٍ صغيرةٍ من قلبه ورقبته حتّى خارت قُواه وسقط من برشه مثل ثورٍ وهو يطوّح بيديه آخر حركاته ، لأوّل مرّة أرى الموت فظيعًا ورهيبًا إلى هذا الحدّ . لم يستسلم الرّئيس بسهولة ، ولم يتركه التّفجيريّ حتّى تأكّد انّه ارتاح منه إلى الأبد!!

انقلب المهجع رأسًا على عقب . المهجع انتهى ، وكلّ مَنْ فيه انتَهَوا!! دخلت الشّرطة بأكثر من مئة عنصر وهم يُطلِقون رصاصات صوتٍ تحذيريّة ، ساقوا الحشّاشين إلى الزّنازين الانفراديّة ، وفعلوا الشّيءَ ذاته بالتّفجيريّين ، أمّا القاتل فوضع بزنزانة تحت الأرض وفي حراسةٍ مُشدّدة ريثما يتمّ التّعامل مع مسألته!! وأنا؟! بقيتُ في المهجع الكبير وحدي ، أرادوا بذلك ألاّ يُهينوني لأنّهم يعلمون أنّه لا علاقة لي بما حدث من قريبٍ أو بعيد . ولكنّهم لم يعلموا أنّهم تركوني في ذلك المهجع مع الموت نفسه ، صورة رئيس الحشّاشين وهو يصارع الموت لن تمحوها كلّ سنين العمر ، كان ينظر إليّ نظراتٍ غريبةً كأنّه يستغيث بي ، وكانت روحه تخرج من فمه مُجزّأةً مُمزّقةً مُبعثرة ، وهو يحاول استردادها فتنفلت من بين شفتيه ، حينَ نزف كثيرًا من الدّم صار لونه

باهِتًا وشاحِبًا ومائلاً إلى الزّرقة المُخيفة . . .!!

حمى التّفجيريّون القاتل ، وأحاطوا به من كلّ جانب ، وكان فريقٌ كبيرٌ من الحشّاشين يُحاول أن يفعل شيئًا ، ولكنّ الموت كان هو الفاعل ، وكان أسرع منهم جميعًا . ظلّ أحد الحشّاشين يصرخ بالحارس الّذي يقبع عند باب المهجع من الخارج ، ولكنّه لم يجد استجابة ، يبدو أنّه كان نائِمًا أو لم يكنْ موجودًا ، أو أنّه عرف أنّ الأمر خطيرٌ من خلال الهياج والصّياح فلم يجرؤ على أن يفتح الباب ، وانتظر حتّى جاءت قوّات اللّواء . . .

ماذا حدث؟! ما الّذي حدا بالتّفجيريّ أن يقتل رئيس الحشّاشين؟! لماذا اختاره هو بالذّات؟! وكيف تجرّأ على أن يُقدِمَ على مثل ذلك معه ، وهو يعلم بطشه وجبروته؟! ومن أينَ له بهذه السّكين الكبيرة الّتي نَحَرَ بها ضحيّته؟! كيفَ وصلتْ إليه؟! من الّذي هرّبها؟! قد تكون الشّرطة متورّطة في ذلك؟! وإذا كانت فمن هو الشّرطيّ الفاسد؟! وكم قبض من المال لِقاء هذا التّهريب الخطير؟! وهل يُمكن أن يُغامِر شرطيّ بوظيفته ومستقبله لقاء بضعة دنانير؟! ولكنْ مَنْ قال إنّها بضعة دنانير؟! قد تكون الرّشوة كبيرة ، وربّما تتجاوز مئات الدّنانير أو الآلاف؟! وعلى فرض أنّها وصلتْه عن غير طريق الشّرطة فكيف حدث ذلك؟!

مئات الأسئلة حامت حول العمليّة بأكملها . رشح جوابٌ واحِدٌ من بين هذه المئات الّتي تنتظر الإجابة؟! قال ذلك لي أحد الشّرطة الّذين ربطتْني به علاقةٌ بسبب طول فترة إقامتي هنا ؛ قال : لقد قتله لأنّ رئيس الحشّاشين كان قد راوَدَ هذا التّفجيريّ عن نفسه في إحدى اللّيالي ، وأنّه مدّ يده إلى موضعٍ مُحرّمٍ من جسده ، فلم يُظهر التّفجيريّ

في تلك اللّيلة كبير انزعاج ، وإنّما صرفه بهدوءٍ وبابتسامة غامِضة ، حدث هذا الأمر قبل أكثر من عام ، وظلّ التّفجيريّ يحفظها له ، ويغلي بها صدره حتّى تمكّن منه في تلكَ اللّيلة المشهودة .

بعد أسبوعين من الحادثة أجيبَ عن كلّ الأسئلة!!

بعد عشرين يومًا عُرِض التّفجيريّ على مدّعي عامّ محكمة الجنايات الكبرى .

بعد شهر عُرِضَ التّفجيريّ على طبيبٍ نفسيّ ، فقرّر أنّه بكامل أهليّته العقليّة!!

وبعد شهرٍ عادَ التّفجيريّون إلى مهجعنا ؛ المهجع الّذي يحمل الرّقم (٧) ، أعيدوا إليه كاملين لكن من دون القاتل ، أمّا الحشّاشون فأُخلي لهم المهجع رقم (١١) وأُودِعوا فيه جميعًا ، طبعًا من دون القتيل .

رئيس الحشّاشين الّذي وصفه أفراد قضيّته بالشّهيد ، سُلِّم إلى أهله ، ودُفِنَ في مقبرة الضّاحية .

أُقيل مدير السّجن وأحيل على المَعاش ، وحلّ نائبه مكانه . وانتُزِعت الرّتبة العسكريّة من ضابِطَين آخرين وعسكريّ ثالث وطُرِدوا جميعًا من الخِدمة .

قيل لنا : إنّ أركان الجريمة كاملة ، وأنّ المحكمة استمعت إلى الشّهود من باب استكمال الإجراءات فحسب ، لأنّ الجاني اعترف بجريمته دون أيّ تردّد!!

وقيل لنا : إنّ المحكمة ستنطق بالحُكم بعد شهرين على أبعد تقدير!!

المُرَزّأ

١/ آب (الثالث)

الرّسالة الواحدة والتّسعون :

حبيبتي :

أشعر أحيانًا أنّ أمّي تكلّمني من العالَم الآخر ؛ عالَم الأموات!! أرى أنّها تريد أن تقول لي أشياء كثيرة . حاجز الموت لم يُلغِ كلّ شيءٍ بيننا!! على العكس تمامًا هو لم يُلغِ إلاّ وجود الجسد كوسيلةٍ للتّواصل ؛ ولكنّها تظهر لي طيفًا ؛ أعرف أنّني لستُ مجنونًا ، وأعرف أنّها ليست موجودة بطينيّتها ، ولكنّني متأكّد من أنّني أسمعها ، وحين أسمعها أُدرِكُ أنّ وسائل التّواصل بين الآدميّين كثيرة ، أكثرها سذاجةً تلك الّتي يعتقد البشر أنّها الوسيلة الوحيدة ؛ وهي وسيلة التّخاطب المُباشَر!!

لم أفقد عقلي بعد ، قد تهبط شحناته الكهربائيّة حينَ أفكّر بالموت أو بكِ فأفقد جزءاً منه ، ولكنّ بعضه ما زال معي ، وما زلتُ ببعضه هذا قادرًا على أن أكتب لكِ ، أن أتواصل مع أمي فأجالِسها وأصنع لها فنجانًا من القهوة كما كانت تحبّ ، أن أستحضر سميّة فأحاوِرها ، أن أشمّ رائحة سليم فأجهش بالبكاء ، أن أحسّ بمرور جمال من جانبي فأبتسم في وجهه ، ويبتسم هو بدوره في وجهي ويمضي!! ليس الموت سيّئًا إلى الحدّ الّذي يجعلني أكرهه!! الموت مثلنا ؛ كائنٌ حيٌّ يحتاج إلى كائنٍ حيٍّ آخر كي يتقاسم معه الوجود على هذه الأرض!!! وفي النّهاية البشر والموت سيموتان ، إذا كان الموت سيموت أليس من وجهة النّظر هذه كائنًا حيًّا؟!!

قلقتُ على تأخّرك هذه المرّة ، أليس في الموت فسحةٌ من أجل أن نلتقي؟!!

المُشَيَّع

٢/ أيلول (الثّالث)

***

ستُخبره بكلّ شيء ، وتسأله أن يُسامِحها ، فهي لم تحبّ في حياتها إنسانًا سواه ، وهي إلى اليوم لا تدري سِرّ هذا الانجذاب العميق تُجاهه ، ولم تستطع أن تفسّر لماذا استحوذ عاشقٌ مثل (واثق) على كلّ خلايا تفكيرها ، فصارت في الأيّام الأخيرة لا تستطيع أن تنفصل عن طيفه الّذي يمشي إلى جانبها مثل ظِلّها!!

لقد جاء وقت البوح ، لأنّه لا وقتَ بعده لأيّ بوحٍ من أيّ نوعٍ في أيّ مكان؟!

وافَتْه على شبك الزّيارة ، وهي تشعر أنّه اللّقاء الّذي لن يتكرّر ، ووافاها هو هناك وهو يشعر أنّ ما تبقّى من حياته لن يمهله حتّى للبكاء على مأساته .

نظرتْ في عينيه طويلاً ولم تَفُه بكلمةٍ واحدة ، وظلّ هو صامِتًا ينتظر أن تقول شيئًا ، لكنّها لم تفعل ، كانت تتملاّه كأنّها تملأ عينيها منه ، من حبّه الّذي تشرّبه قلبُها ، من وداعته الّتي صنعت منها طبيبةً قبل أن يوافيها القدر ، من إنسانيّته الّتي تمسح على آلام الثّكالى والمفؤودين ، من بسمته الحانية الّتي هي بلسمٌ لجراح العاشقين . . . وحين اغترفت من عينيه قَدْرها من النّور ليُعينها على ما ظلّ من العمر ، قالت :

- أتحبّني؟!

- بكلّ جوارحي . . .!! (ردّ وهو يتقطّع ، ويدرك أنّ روحًا عمّا قريبٍ لن تظلّ على الأرض) .

- هل تؤمن بالجنّة . . .؟!

- كما أؤمن بكِ!!

- لقاؤنا إذًا فيها إن شاء الله ؛ لقاء الجسد والرّوح . نحن هنا على

الأرض غرباء ، ليس لنا أدنى عزاء ، ألتقيك هناك إذا كتبَها الله لنا . . .!!

– لِمَ تقولين كلّ ذلك . . .؟! لِمَ تزيدين حسرتي مجرّات من الحسرات الجديدة . .؟!!

– أقول ذلك لأنّك تراني كما تراني . . . ألا ترى الموت يجلس فِيّ ما بين كلمةٍ وكلمة ، ألا تراه يقف حائلاً ما بين شهقةٍ وأخرى!!

– أراه . . . أراه . . . ولكنْ لن يكون الموت عادِلاً إذا أخذكِ وتركني . . .!!

كان الموت في جسد (منى) يلبس غلالة السّرطان ، يتّخذ سببًا لِيُقنعَ البشر أنّ الموت قدرٌ من الله ولكنّه مع ذلك لا يأتي بلا إشارة ، فالموتى قبل أن تنسلّ أرواحهم من أبدانهم يسمعون صوتًا قادمًا من السّماء : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيْهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيْرُ﴾ ، أليس السّرطان (نذيرًا)؟!

عادت تجرّ خلفها جِبالاً من الهموم ، وتركتْه من ورائها يُصارع وحوشًا من الأحزان المُفترِسة . في مهجعه ، دخل كأنّه غريبٌ عن المكان الّذي قضى فيه ما يزيد عن السّنتين ، بدا أنّ العالَم يتّخذ شكلاً مُغايِرًا ، وهتف : الأشياء لا تُحافِظ على طبيعتها بمجرّد أنّنا اعتدْناها . الطّريق من شبك الزّيارة إلى المِهجع ذي الرّقم (٧) بدا طويلاً جدًّا ، وموحِشًا جدًّا ، وكاد يضلّ طريقه كأعمى لولا أنّه كان يُمسك بعصا اليقين الّتي تُرشِده في الدّرب . ضاق المهجع على اتّساعه ، وأظلم على سطوعه ، وجاء البرشَ فوجده بارِدًا كأنّ صقيعًا من الأسى قد حلّ على فِراشه . لم يرَ أحدًا من ساكنيه ، كأنّما عَمِيَ عن كلّ شيءٍ ، إلاّ عن طيفها الّذي ظلّ محفورًا في مخيّلته ؛ لم تكن (منى) الّتي يعرفها ،

صارتْ أخرى ، حينَ يقترب الموتُ إلينا يسرق مِنّا رُواءنا ، ويخطِف مِنّا ضِيـاءنا ، ويُعَـتِمُ في كلّ شيءٍ إلاّ في القلوب المؤمنة ، يخـرج من هذه القلوب نورٌ يرتسم على المُحـيّـا من خَلَلِ الشّـحـوب الّذي يلفّـه من جوانبه!!

كانت قَبَسًا من الله جذبه إلى الأعلى ، وظلّتْ ملهمته في غابات الضّياع حتّى ابتلعها الضّياع في دوّامته ، لم تكنْ مجرّد أنثى ، كانت حياةً ، حياةً أعطتْ معنىً للحياة ، إنّه الآن يفقدها لمجرّد أنّ السّرطان اختار جسدها دون سِواه من الأجساد!!

الرّسالة الثّانية والتّسعون :

حبيبتي :

مجيئنا إلى الحياة لم يكنْ بأيدينا ، وخروجنا منها ليس بأيدينا!! وعندما أحببنا لم يكنْ ذلك بأيدينا!! ونحن موعودون بالنّعيم أو بالجحيم ، وفي النّهاية سنؤول إلى أحدهما دون أن يكون ذلك بأيدينا!! أتساءل : هل كان بيدي أن أتلافَى السّجن؟! أم أنّه قدرٌ هو الآخر خرج عن إرادتي . . . أحيانًا أكفر بكلّ شيء ، وألعن كلّ شيء ، لم يعدْ أحدٌ من زملائي معي في هذه الغرفة لأسأله بقلبٍ مثقوب : هل كان الأمر يستحقّ كلّ هذا العناء؟!! هل كان الأمر يستحقّ أن نخرج في المظاهرات والاعتصامات وأن نبيت في المدرّجات وأن نرفع الشّعارات ونصرخ بالهتافات؟! ما جدوى كلّ ذلك إذا كنتُ سأفقدكِ وأنا قابعٌ هنا مثل كلب!! ليس كثيرًا أن أصف نفسي بذلك فقد ظلّ الكلب الّذي بحجم الحِمار رفيقي في زنزانة السّرداب المُعتِمة لأيّام طويلة ، وكان يأكل معي ، ويبول معي ، ويتغوّط معي في الغرفة نفسها؟! لقد

عيّشوني عيشة الكلاب ، أفلا أستحقّ أن أحظَى بك مرّةً بعد كلّ هذا الغِياب؟!!

الحائِم

١٦/ أيلول (الثّالث)

الرّسالة الثّالثة والتّسعون :

حبيبتي :

تغيّر طعم الأشياء ، الماء مالح ، والطّعام يابِس ، وقلبي مَقدودٌ من حجر ، وعيناي من زُجاج ، وأصابعي من ثلج ، ودموعي من نار ، ورجلاي من رُخام ، لا أعرف من طبائع البشر شيئًا سوى تذكّري في بعض الأحيان أنّني كنتُ بشرًا .

لم أعد أخرج إلى الفورة أبدًا ، أفضّل أن يتعفّن جسدي هنا في داخل المهجع ، صرتُ أشعر أنّهم يومًا ما سيدخلون إلى برشي ، ويكشفون الغِطاء عنّي فيكتشفون أنّني ميّتٌ منذ زمنٍ بعيدٍ ؛ الموت هو الآخر قد يُصبِحُ أمنيةً إذا جمعكَ بِمَنْ تحبّ!!!

الغَريق

٣٠/ أيلول (الثّالث)

الرّسالة الرّابعة والتّسعون :

حبيبتي :

قبل بضعة أيّام صدر حُكم الإعدام في حقّ قاتل رئيس الحشّاشين ، واليوم سيُنَفَّذ ، قال للجلاّدين : إنّ أمنيته الأخيرة أن يمرّ على التّفجيريّين ليودّعهم ، لم يُجيبوه إلى طلبه تمامًا ، ولكنْ سُمِحَ له أن يقف على باب مهجعنا ، ويودّعهم من نافذة الباب الزّجاجيّة من خلال النّظر في وجوههم .

كان منظرًا تقشعرّ له الأبدان ، رأيتُهُ يُجرّ جرًا ، كانت يداه مُقيّدَتين خلف ظهره ، ورجلاه مربوطتَين بسلاسل من حديد ، ووجهه مُغَطّى بقطعة قماشٍ سوداء ، وعند عينيه ثقبان يُمكّنانه من مشاهدة زملائه ، وقف عند النّافذة ، وتجمهر التّفجيريّون هناك ، وراحتْ عيناه الصّامتتان الباديتان من خلال الثّقبَين تقولان كلّ شيء!! كانتا تلمعان كأنّ بكاءً مؤجّلاً مرّ بهما على عجل ، وانتحبَ عددٌ غيرُ قليلٍ من زملائه ، بيدَ أنّ بعضهم راح يهتف ، وآخرون راحوا يصبّرونه ويبشّرونه بالجنّة ، وهو يتكلّم بكلمات الوداع على ما يبدو فينسحب القماش إلى داخل فمه مع الشّهيق ، وينتفخ مع الزّفير ، ولم يكنْ أيٌّ من كلامه أو كلامهم مسموعًا للطّرف الآخر . أمهله العساكر دقائق ، ثمّ جرّوه إلى غرفة الإعدام ، وتخيّلتُ كيفَ استقبله القَدَرُ هناك ، ورُفعَ على عُودِ المشنقة ، وتُليَ عليه الاستغفار والتّشهد ، ثمّ هوى الكرسيّ من تحت رجليه ، فتأرجح في الهواء ,وتعلّق في الفراغ ، وانسحب الموت من تحت رجليه مطمئنًا!!

لم يعد لي قلبٌ يَقوى على أن يروي لكِ المزيد ، إنّه مُترَعٌ بالمآسي ، طافحٌ بالفواجع ، ألا يوجَد في الحياة مساحةٌ للفرح؟! بلى ؛ حينَ يأتيني خبرُ أنّ السّرطان غادرَكِ إلى غيرِ رجعةٍ ، وأنّكِ شُفيتِ منه تمامًا!!

الرّائم

١١/ تشرين الأوّل (الثّالث)

الرّسالة الخامسة والتّسعون :

حبيبتي :

اقترب يومُ الإفراج عنّي ، أقلّ من شهرٍ وأخرج من هذا القبر إليكِ ، أنتظر هذا اليوم كأنّه الّذي سينقذني من براثن الموت ، إنّه يومٌ

للخلود ، لي رجاءٌ واحِدٌ فقط : أرجوكِ ألاّ تموتي قبل أن أخرج :

فَـمَـا فِي حَـيـاةٍ بَعْـدَ مَـوْتِك رَغْـبَـةٌ
وَلا فِي وِصـالٍ بَعْـدَ هَجْـرِكِ مَطْمَعُ

الضّنينُ بحبّكِ

٢٤/ تشرين الأوّل (الثّالث)

***

ماتت (مُنى) ؛ نَهَشَها السّرطان في ٢٧/ تشرين الأوّل . ودّعتِ الدّنيا وقد أوصتْ أباها أن يزور (واثق) ويُخبره أنّها ماتت على العهد ، وأنّها وفيّة للقائهما في العالَم الآخر ، وأنّها لم تعش مثل حبّه في حياتها ، وأنّها تغادر كلّيّة الطّبّ ، وهي مطمئنّة أنّ طِبّها لم يكنْ إلاّ في حبّ (واثق) لها ، وأنّ هذا الانفصال الجسديّ لن يدوم طويلاً ، إنّما هي فترة القبور القصيرة ، وبعدها يعود الاتّصال الّذي حَلُما به في حياتهما الضّائعة!!

***

الرّسالة السّادسة والتّسعون :

حبيبتي :

لم تموتي ، لا أصدّق أباكِ ، ولذلك سأظلّ أكتبُ إليكِ حتّى أخرج من هنا وأراك ، أتعرفين : بعضُ الأشياء لا يُمكن تصديقُها ، على صعيدي الشّخصيّ أنا – مثلاً – لا أصدّق أنّه لم يبقَ على يوم إفراجي سوى عشرين يومًا ، ستمرّ ، أقسم لك أنّها ستمرّ ، ويومَ أخرج لا أريد من الدّنيا غير أن أراكِ ، أن أغوصَ في عينيك طويلاً ، أن أبوح لك بكلّ ما في قلبي من وَجَع وحبّ وألم وشوق وحنين وتوق وهُيام ودموع . . . كيفَ تموتين وأنا عمّا قَريبٍ سأخرج؟!! انتظري ، ألا تستطيعين الانتظار

قليـلاً؟! أتنتظرين ألف يوم ولا تنتظرين يومًـا واحـدًا؟!! لا . . . لا . . . أنتِ أرقّ من أن تتركيني يتيمًا ووحيدًا وشريدًا!!

المَبْهور بكِ

٣/ تشرين الثّاني (الثّالث)

***

دخل عليه مدير السّجن في ٤/ تشرين الثّاني على غير عادته ، خاطبه بودٍّ كبير ، وصافحه بمحبّة بالِغة ، وأعطاه رِسالَتين ، ثمّ خرج . توجّس في البداية ، ثمّ قرأهما على عجلٍ .

كانت الأولى من والد (منى) يقول له فيها : لقد أحببتُكَ مع الزّمن كابني ، أحببتُكَ لأنّ ابنتي جعلتْني أحبّك ؛ لقد كانت تؤمن بك بطريقةٍ أسطوريّة ، منى ماتت وهي تدعو لك!!

الثّانيةً من أبيه : ولدي الحبيب : أقدار الله ماضِية ، لا نقول إلاّ ما يُرضِي ربّنا ، لا أريد أن أفقدك كما فقدتُ والدتك ، عُدْ إلينا من السّجن قويًا مثلما دخلْتَه . . . تردَّدْتُ كثيرًا قبل أن أخبرك ، ولكنّني قرّرتُ في النّهاية أن أفعل ؛ لقد بعثتِ الجامعة إليّ منذ ما يزيد على شهرين تُخبرني بأنّك فقدتَ مقعدكَ في الجامعة . أعرف مدى قسوة هذا الخبر عليك ، ولكنْ لا تهتمّ ، هناك مئة جامعة تقبلك ، ولها الفخر أن تكون أحد أبنائها . أحبّك وأنتظرك . (والدك)

رماهما ، واستلقى على البرش ، وفي لحظاتٍ معدودات كان يغطّ في نومٍ عميق!!

***

الرّسالة السّابِعة والتّسعون :

حبيبتي :

الموتى يتزاورون ، لو كنتِ ميّتةً لرأيتك في المنام ، منذ خبر أبيك وأنا خالٍ من الأحلام تمامًا ، حتّى أصدّق أنّك حيّة زوريني في السّجن ، أو انتظري حتّى أخرج ؛ إنّما هي أيّامٌ قلائل!!

عذابات السّجن الطّويل مرّت . كبرتُ في عامين ونيّف عشرين عامًا ، صدّقيني : لم يهرمني السّجن ، ما أهرمني بُعدُكِ القاتِل . صنوف التّعذيب صارت ذكرى ، وألوان التّرهيب صارت من الماضي ، وكلاهما لم يؤثّرا فِيّ إلاّ بمقدار ما يؤثّر الجرح قبل أن يلتئم ؛ نعم لقد التأمت جراحاتي كلّها ، وجرحي بك ما زال ينزف ، أفلا تعرفين - وأنتِ الطّبيبة - وسيلةً لإيقاف هذا النّزيف؟!

المَسحور بكِ

٧/ تشرين الثّاني (الثّالث)

الرّسالة الثّامنة والتّسعون :

حبيبتي :

سكن اللّيل فلا تسمع فيه نَأمةً واحدة ، حينَ هويتُ في واديه أتتني الأحلام من كلّ ناحية ، حلمتُ بأنّ جدران السّجن انهدمتْ ودفنتْ تحتها بعضَ التّفجيريّين ، ورأيت بعض الحشّاشين يتشَفَّون بموتهم ، ورأيتُ الكلب الّذي زارني في بدايات رحلة سجني في أقبية الزّنازين الأرضيّة قد انقضّ على الشّرطيّ الّذي كان يعذّبني فنهشَ وجهه وهشّمه وخرّ الشّرطيّ من بعده صريعًا يتخبّطُ في دمائه ، ورأيتُ بوّابة السّجن السّوداء قد انفتحتْ لي وحدي ، وقد سِرتُ في الطّريق كأنّني أعرفها ، ولا أدري كيفَ وصلتُ بيتكم ، عرفتُه من الشّجرة

العـالِيـة الّتي رحّـبتْ بي أوّل مـا رأتْني ، غـيـر أنّ أباكِ اسـتـقـبلني وهو يبكـي ، سألتُـه عنك ، فقـال : لقـد رحلت من هنا وهي تنتظرك هناك ، وأشار بيده إلى السّماء .

في الصّـبـاح عندمـا صـحـوتُ ، كنتُ نشـيطًا ، وفَـرِحًـا ، وأشـعـر أنّ رؤيتك قد أصبحتْ قريبةً جدًّا!!

الصّادي إليك

١٥/ تشرين الثّاني (الثّالث)

الرّسالة التّاسعة والتّسعون :

حبيبتي :

رأيتُكِ هذه المرّة في المنام ، فـأدركـتُ حـينَهـا أنّك غـادرتِ هذه الأرض ، وتركتِ دُنيانا الفانِية ، لن أقيم لكِ جنازةً ولو في خيالي ، لأنّ شعوري بلقائك قريبٌ ولو في غير هذه الحياة .

كان حبّكِ مُعادِلاً موضوعيًّا للموت ؛ بالحبّ هربْتُ من الموت ، وبه واجهتُهُ ، وفيه ستنتهي حياتي!!

التّائق لروحكِ

٢٠/ تشرين الثّاني (الثالث)

(٢٥)
(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهُ)

لملمَ بقاياه ، وجمع روحه المتناثرة على الممرّات ، ووزّع أحزانه على الجدران ، وتخلّصَ من همومه بإلقائها على جناحِ ذبابةٍ داعبتْ أنفه في تلك اللّحظة ، حَمَل معه ما تبقّى من أوراقه ومن مسوّدات رسائله . وروايته؟! أخذ كلّ صفحةٍ منها على حدة ، وعند بوّابة السّجن مزّقها إلى نُتفٍ صغيرها ونثرها في الهواء ، لقد كانت عن الحرّيّة وحُقّ لها أن تنال الحرّيّة بعد أن عانت معه طوال هذه الفترة القاسية في السّجن . نظر خلفه وهو يخرج من البوّابة السّوداء فرأى طيفه يبتسم له يودّعه ويصعد إلى الأعالي ، خرج إنسانًا آخر ، صنع منه السّجن كائنًا بشريًا آخر ، ليس شرطًا أن يكون مُخالِفًا لذلك الّذي كانه عندما دخل ، ولكنّه بالضّرورة مُختلفٌ تمامًا .

استقبله أبوه في الطّريق الخرساء ، عانقه بحرارةِ طفلٍ يعود إلى أمّه ، وأمسك يده وهوى عليها يقبّلها ، انساحت بعض الدّموع الحارّة من عينيه على كفّ أبيه ، فبعثت فيه حرارة الأبوّة . . .!!

دخل بيته فرآه مُوحِشًا ، وأسودَ ، وداكنًا . . . لثم الطّريق الّتي كانت تمشي أمّه عبرها ، وشمّ غِطاءَ رأسِها وغَطّى به وجهه ، وتحسّس الكرسيّ الّذي كانت تجلس فوقه ، ثمّ أهوى عليه يحضنه كما لو كان يحضن أمّه فيه ، ثمّ رَكَنَ خدّه على مسند الكرسيّ كما لو كان يسنده

في حجر أمّه ، وراح ينحب بصوت عالٍ!!!

أيقنَ أنّه لا يُمكن أن يجد فتاةً أخرى مثل (مُنى) في كلّ نساء الأرض ، وشعر أنّه لا يُمكن أن ينظر في عينيّ امرأة أخرى ، وأنّه فقد قيمة الإحساس بالأشياء . هانت الدّنيا في عينيه حتى عادت كأنّها لمعُ برق خاطف في ليلة شتويّة سرعان ما انطفأ ، وكذبت كأنّها حلم ذاب في الصّحو ، وامّحتْ كأنّها سرابٌ جاءه ظَمِئًا ، وعاد منه أشدَّ ظمأً . . .

قالت له (حياة) وهي لا تكفّ عن البكاء كلّما خاطبتْهُ : إنّها الأقدار ؛ حظّ النّاس من العيش لم يكنْ يومًا بأيديهم ، نحن لا نرسُمُ حياتنا كما نهوى ، نحن نمضي في الدّروب الّتي رُسِمتْ ؛ فحاوِلْ أن تحيا ما كان قد أُعِدّ لنا مُسبَقًا . واجِهْ كلّ الفجائع بالرّضى ؛ هل نحن إلاّ ما نرضى!! السُّخط لن يُغيّر في القدَر ؛ والرّاحِلون قَدَرهم ألاّ يؤوبوا من رحلتهم . كان لا يردّ ؛ يُطرِق كقبر ، ويصمت كساعة أخيرة في ليلٍ مَهجور على ساحةٍ مُوحشة . لم يعدْ في فمه من كلمات ليَقولَها ، ولا من حروفٍ ليصوغَها ؛ كلّ الّذين كان من المُمكِن أن يستمعوا إليه رحلوا قبل أن يَفُوهَ بما يُريد . من أين له أن يستعيدهم لكي يستعيد الكلام!!!

كان لا يُغادِر بيته إلاّ إلى المقابر كي يزور الرّاحلين كلّما ثقب الحنين قلبه ، أو إلى المشافِي ليرى الّذين سيرحلون علّهم يلتقون حبيبته في بعض الطّرقات المنسيّة فيبلّغونها رِسالةً منه!! ظلّ ستّة أشهر على هذه الحال استلّ فيها المرضُ صحّته منه وتربّع مكانها . أقنعَ أباه في النّهاية أن يذهب إلى الجبال ليتخلّص من وجع الذّكرى لبضعة أيّام ثمّ يعود إلى الحياة ، كان أبوه يعرف معنى أن يفعل ذلك ، فتركه على سجيّته . . .!!!

ولكنْ إلى أين؟!! أإلى قمّة ابن جُبير ، أم إلى بيدر القمح؟! أإلى الكهف حيثُ النّار . . . أم إلى الوادي حيثُ الموت؟!!

قبل أن يصعد القمّة المَشهودة دخل المقبرةَ على رؤوس صباباته ، وعند قبرها صلّى صلاة الحبّ ، ودعا دُعاءَ الشّوق ، ونزفَ حتّى بلّ بالدّم جوفَ الثرى ، وارتجف حتى سقط عن كاهلَيه رداءُ الحياة ، واحتضنَ شاهِدَ القبر بلوعةٍ حرّى . وقبل أن يُغادِر وضعَ عند رأسها الرّسالة المئة ، ورجاها أن تقرأها على مهل!!

يمّمَ باتّجاه الجِبال في ليلة ظلماء داجِية ، تجاوز السّاحة المُحرّمة ، وأوى إلى الكهف ، تمنّى لو أنّ أباه مات قبل اليوم ؛ حدّث نفسه : أخَذَنا الموتُ جميعًا وتركه ؛ أينَ العدالةُ في ذلك؟! على باب الكهفِ أوقد النّار وراح يتأمّلها طوال اللّيل ، وحينَ غلبه النّعاس نامَ في جوفه . كان الكهف يحوي في طَرَفه الأعمق سِردابًا ضيّقًا ، ولم يكنْ يدري إلى أينَ يُفضي . في اللّيلة الثّالثة أضاءَ في السّرداب مئةَ شمعة ، وقرأ رسائله المئة رسالةً رِسالة ، كلّما أنهى واحدةً منها ألقمها النّارَ المتّقدة ، وراح يراقب انذواءها وهي تتلوّى تحت وطأةِ الهُيام فتهرع إلى الحريق لتذوب فيه . شعر بعد الرّسالة المئة أنّه تخفّف من كلّ وجع سابق ، ونام . في النّوم حلم بأنّه يقفُ أمام باب الكهف ، لم يعد مهمًّا أن يكون ذلك حُلُمًا أم حقيقةً : وضعَ يده في حقيبةٍ صغيرةٍ استقرّتْ على جانبه وأخرج منها قِطعةَ خُبزٍ طريّة ، مدّ بها يديه ورفَعهما إلى الأعلى قليلاً وخفضَ هامته ، أغلقَ عينيه وراح يُتمتِمُ ببعض العِبارات ، لم يكدْ يبدأ بتَمتماته حتّى توافدتْ إليه طيورٌ ذات ريشٍ فُستقيّ ، وراحتْ تنقُر من الخبز الّذي بين يديه ، رفعهما إلى الأعلى من جديد فهوتْ أسرابٌ كثيرةٌ من الطّيور إليهما ، قرّبهما من رأسه ثانِيةً ؛ فأخذت الطيّور

تأكل من رأسه ، تركها تفعل ذلك وهو يشعر بالنّشوة ، وحينَ شبعت الطّيور حلّقتْ عالِيًا وهي تشدو . أمّا هو فمشى طويلاً في دربٍ خُيّل إليه أنّه مشاها من قبلُ . نعم ؛ بدتْ له المقبرةُ من بعيد تلوح بكامل موتِها ، حينَ وصل إليها صعدَ على سورها وراح يمشي فوقه . كان يمشي مُغمَضَ العينين ، وحافِيَ القدمين ، ظلّ يمشي على ذلك السّور حتّى دار دورةً كاملةً حولها ، وقبل أن يُتمّ ذلك بقليل فتح عينيه فشاهد الموتى يخرجون من قبورهم ، ويهتفون مُرحِّبين ، أرعبه المشهد فتأرجح في مكانه ، لم يستطع أن يحمي نفسه من السّقوط إلى داخل المقبرة ، فسقط!!

جاءت الملائكة ؛ أنامتْهُ على جانبه الأيمن ، ثمّ اصطفّتْ في أعدادٍ مَهولة ملأتْ ما بين المشرقَين ، وقفت الصّفوف في خشوعٍ تامّ وصمتٍ رهيب ، تقدّم النّورانيّ الأعظم أمام الجمع المُحتشد ، وقفً عند رأسه ، أطرق مَلِيًّا ، سكنَ الكون كلّه لإطراقه ، وتخلّت الأرض عن الدّوران للحظات ، رفع جناحَيه فعادت الأرض إلى دورانها . ثمّ بدأ الصّلاة فأنارتْ تلك الصّلاةُ ما بين السّماء والأرض!!

عندما وجدوه في السّرداب صبيحةَ اليوم الرّابع . . . كان هو هو . . . ما يزال مُمدّدا على جانبه الأيمن ، طريّ الجسم ، نديّ الرّائحة ، وحوله تحوم بعض الفراشات البيضاء ، وعلى جبينه شعّت هالةٌ من النّور ، وعلى شفتيه ارتسمتْ ابتسامةٌ واثقة . . .!!!

د . أيمن العتوم

عمّان ٢٠١٣/٩/١

صدرَ للمؤلف:

عن المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر :

١- يا صاحبَي السّجن (رواية) :

الطبعة الأولى آذار ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية حزيران ٢٠١٢ .

الطبعة الثالثة آذار ٢٠١٣ .

٢- نُبوءات الجائعين (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية ٢٠١٣ .

٣- يَسمعون حسيسها (رواية) :

الطبعة الأولى تشرين أوّل ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية كانون ثان ٢٠١٣ .

الطبعة الثالثة أيّار ٢٠١٣ .

٤- قلبي عليك حبيبتي (ديوان شعر)

الطبعة الأولى آذار ٢٠١٣ .

٥- خُذني إلى المسجد الأقصى (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ٢٠١٣ .